ثقافة الهند

يصـــدرها مجلس الهنـــد للروابط الثقـافيـــة

مارس ويونيو ١٩٥٦

ثقافة الهند

تصدر أربع مرات فى السنة : مارس، ويونيو، وسبتمبر، وديسمبر

الاشتراك للسنة: فى الهند : ثمانى روبيات فى الخارج : ثمانى شلنات

ثمن العدد الواحد : روبيتان

تطلب من

مجلس الهند للروابط الثقافية، پتودى هاوس، دلهى الجديدة نمرة ١

مطبعة «ق» بالهند

لصاحبها حسن شرف الدين، ٢٩ شارع محمد على، بمباى ٢

طبعت بأمر مجلس الهند للروابط الثقافية

يصدرها مجلس الهنــد للروابط الثقافية

المجلد السابع — مارس ويونيو سنة ١٩٥٦ — العدد الأول والثانى

محتويات هذا العدد

صفحة

			صفحة
١	مشاكل فى التاريخ الهنـدى	للدكتور چكرورتى	٢
٢	مليبار (كيرله)	للاستاذ محى الدين الألوائى	٣٠
٣	خطأ فى الجنة ؟ — رابندرنات طاغور	تعريب الأستاذ اورشنا	٦٥
٤	كيف نشأت پاتلى پترا (قصة ميثولوجية)	للاستاذ محمود على خان	٧١
٥	الهند فى فترة ما قبل التاريخ (المدنية الهندوسية)		٧٨
٦	الأسس الجغرافية والاجتماعيـة (المدنية الهندوسية)		١٢٣
٧	مجلس الهند للروابط الثقافية (تقرير السنوات الخمس)		١٤٨
٨	من أخبار الهند الثقافية		١٦٠

مشاكل فى التـاريخ الهنـدى

خطبة للدكتور چكرورتى

لقد قطعت دراسات التاريخ الهندى وخاصة تاريخ الهند القديم شوطا بعيدا خلال ربع القرن المـاضى. وباكتشاف آثار مـدينتى «موهنجو دارو» و «هارابا» احتل تاريخ الهند وحضارتها مكانة سامية بين حضارات العالم القديمة. فى الوقت الذى زادت معرفتنا إلى حد كبير من ناحية بسبب هذه الاكتشافات وغيرهـا، نشأت من ناحيـــة أخرى مشاكل جديدة تحتاج إلى إيضاح. وهذا لا يصدق على فترة التاريخ الأولى فحسب، بل يصح كذلك عن الفترة التاريخيـــة التى نملك عنها مصادر مكتوبة زودتنا بها دار الآثار التاريخية. وقد حلت بعض المشاكل، ولكن هناك الكثير غيرها — بعضها كبير والبعض الآخر صغير — ما زال يحيرنا. وأقترح أن أبسط أمامكم بعضها ولست أقصد بذلك تقديم حلول لها، ليس لأنى لا أرغب فى ذلك بل لأن الحلول المرضيـــة فى معرفتنا بوضعها الحالى ليست متيسرة

ولهذا ستكون ملاحظاتى فقط على شكل عرض للدليل الناقص الذى نملكه اليوم. ولكن قبل أن أفعل ذلك أود أن أذكر حضراتكم أنى لست إلا عالم الآثار والمنقوشات بالمهنة والممارسة.

والتمس العفو إذا نظرت إلى الأمور من هـذه الزاوية. إن هـذا لا يعنى أنى لا أقدر آراء الآخرين. نحن ربما نختلف فى آرائنا ولكن علينا ألا ننسى أننـا جميعا نعمل فى سبيل غاية واحدة وهى الوصول إلى الحقيقة. إن هـدفنا واحـد مع أن السبيل ربما يكون مختلفـا. إن مواد تاريخ الهنـد القديمة لدينا

ضئيلة وحتى ما لدينا منها يتطلب دراسة وافية قبل أن نصل إلى استنتاجات ثابتة .

لن أذكر شيئا هنا عن فترة ما قبل التاريخ التى تبدأ بظهور الانسان على الأرض، ولكن له فى الوقت ذاته صلة. ففى حالات معينة ربما يعود إلى آلاف من السنين، وفى حالات أخرى غيرها يرجع إلى ألف سنة خلت أو ما شابه، كما وجدنا من تجربتنا فى الهند، وحتى فى حالات أخرى ربما تعود إلى بضع قرون فقط .

وإذ ننتقل الآن إلى حضارة « هارابا » نجد أن علماء الآثار عرفوا تاريخها من اتصالها بمدن بلاد ما بين النهرين فى حقبة التاريخ الأولى. والتى دلت الآثار والاعتبارات الأخرى على أنها ازدهرت فى النصف الأخير من القرن الثالث وما قبلها من العصر الأولى الثانى قبل الميلاد. وأكبر برهان على ذلك هو عدد الأختام المصنوعة على نمط « هارابا » وكذلك بعض المسابح والفخار الذى اكتشف فى أماكن مختلفة فى المنطقة. و « السير مورتيمر ويلر» حدد الفترة بين ٢٣٠٠ و ١٥٠٠ ق.م. على وجه التقريب فى كتيبه الذى نشره مؤخرا حول «حضارة الاندس» (إندس هو نهر السند) — وكان هذا المنشور ملحقا لمؤلف كمبريج فى تاريخ الهند. وهو يورد أن الآريين مسئولون عن تخريب هاتين المدينتين. ومع ذلك فان هذا الموضوع وثيق الصلة بعصر «رگويدا» وبظهور الآريين فى الهند. ولقد كان تاريخ عصر « رگويدا » موضع جدل خلال ثلاثة أرباع قرن.

إن الآراء تختلف ليس بمدى القرون بل بفترة آلاف سنة. هذه التواريخ تمتد عادة بين ٣٠٠٠ و ١٠٠٠ سنة ق. م. باستثناء أبطال النظريات الملكية التى تمسك بها أمثال تيلك وجاكوبى اللذين ذهبا إلى فترة أبعد بكثير.

والنقطة الوحيدة الأكيدة هى أن الأدب الويدى اكتمل قبل نشوء الحينية

والبوذية فى الهند. وفى الوقت ذاته لا يساعدنا ذلك كثيرا إذ أنه ينقلنا فقط إلى ٦٠٠ و ٥٠٠ ق. م. ولا بد أنه استغرق عدة قرون للوصول إلى المرحلة التى نجد الأدب الويدى فى عهد مهاويرا وگوتاما بودا.

وحوالى نهاية الشطر الأول من القرن الحالى فكر كثيرون بأن الجدل حول هذا الموضوع قد انتهى بشكل مرضى بالاكتشاف الذى قام به هوجو ونكلر Hugo Winkler فى «بوغازكى» بآسيا الصغرى فى مخطوطات الحيثيين من لوحات الطين التى وجد بها سجل من المعاهدات التى أبرمت بين ملوك الحيثيين وحكام ميتانى حوالى ١٤٠٠ ق م وفى هذا السجل وجدت من بين آلهة ميتانى أسماء أربعة منهم ميترا، وواروبا، وإندرا، والالهين التوأمين ناستياس وقد وجدت فى المخطوطات ذاتها أربعة ألواح تحتوى على ندة حول تدريب الخيول وتدليدها، وضعها كِكولى (Kikkuli) مؤلف من ميتانى. واستعمل اصطلاحات تتصل بسباق العربات لها صلة بالسنسكريتية مثل ايكاورتانا وترى ورتنا وغيرهما. ولسوء الحظ لم تكتشف نصوص مكتوبة فى هذه اللغة حتى الآن ولكن هذه الأمثلة القليلة فيها البرهان الكافى على أن لغة الطبقة الحاكمة فى ميتانى كانت على الأقل هندية آرية. وربما كان الحل سهلا لو أمكننا قبول نظرية أساتذة مثل أدوارد ماير، وبيتر جيلر، واولدنبرج، بأن هؤلاء الآلهة كانوا ينتمون إلى قبيلة غربية وإنهم ورثوها والهنود الآريون من مصدر مشترك ولكن يشير جاكوبى، وكونو، وهلبراندت أن هذه الآلهة ويدية آرية، فلا يمكن تكوين رأى آخر. وفى تلك الحالة إن نفرض أنه كانت هناك هجرة آرية منعزلة بالعودة إلى الغرب، فعلينا قبول الامكانية أن الآريين قد استوطنوا على أراض هندية قبل هجرة كهذه بزمن طويل. ولهذا فان تقديم برهان أكيد تأييدا لهذه النظرية محفوف بالصعاب. وعلماء الآثار من ناحية أخرى يجمعون على أن حضارة هاراپا لا بد أن تكون قبل الحضارة الآرية، وإذا صح تحديدهم للحد الادنى من هذه الثقافة فلا بد من الاعتراف بأن ميتانى كانت

نقطة الاتصال أبان هجرة الآريين الذين أصحوا فى النهاية أسياد إقليم الاندس بعد هزيمة السكان الأصليين.

ولكن من كان هؤلاء الناس، ومن أين جاءوا فى الأصل؟ ليس مؤكدا أيضا. فيقول البعض أنهم أتوا كذلك قبل ذلك التاريخ من إقليم البحر الأبيض المتوسط، ويقول آخرون أنهم كانوا دراويديين قدموا من الغرب، ويقول غيرهم أنهم كانوا دراويديين ولكنهم فى الأصل من الهند.

والنظريه التى بسطها المؤرخ التشيكى «هروزنى» الذى لمع اسمه لأول مرة بقوله إن اللغة التى وجدت فى الألواح الحيثية هى من أصل هندى - أوربى، هى أكثر غرابة. فهو يقول بدليل الأختام وعلى ضوء تحليله لها إن شعب الأندس كان خليطا من الحيثيين والهوريين والسومريين البابليين والآريين الأصليين الذين بدأوا هجرتهم من شرق آسيا الصغرى وشمال سوريا والجزء الشمالى الغربى من بلاد ما بين النهرين، احتلوا وادى الاندس الخصيب وتملكوه فى النصف الأخير من العصر الألفى الثانى ق. م. وقد أحضرت بهذه الأمة معها أول عناصر الكتابة من شمال سوريا وأدخلوا كتابة مستقلة تقوم على أساسها. وهو يذهب حتى إلى أبعد من ذلك ويحاول تكوين صورة لما حدث بعد ذلك. فهو يقول: «إن المدن ومعها الثقافة الهندية الأصلية قد اندثرت أثناء الغزو الأجنبى الذى جاء من الجزء الشمالى الغربى من الهند حوالى ٢٠٠٠ ق. م. وقد دمرت المدن الهندية الأصلية، بما كان لها من غنى وعزة، وكذلك المراكز الاقتصادية على طرق القوافل القادمة من الغرب، وذبح سكانها بدون رحمة كما نثبت بقايا الهياكل. ولم يقطن أحد فى المدن لألوف من السنين. ولعل الغزاة المسئولين عن تدمير الثقافة الهندية القديمة هم الدراويديون الذين بقيت آثارهم القليلة فى السكان الذين عرفوا باسم براهوى (Brahui) والذين استوطنوا فى حال بلوجستان. ويصعب القول من

أين أتى هؤلاء الدراويديون إلى الهند. والمحتمل أنهم قدموا من الشمالى الغربى».

يقول المؤرخ أيضا إن هؤلاء الدراويديين امتزجوا ببقايا الهنود الأصليين القدماء بين ٢٠٠٠ و ١٥٠٠ ق م وسيطروا على الجزء الشمالى الغربى من الهند إلى أن نكب ذلك الجزء من البلاد بغزوة ثانية، فى هذه المرة من قبل الهنود الويديين والأقوام المتفرعة عنهم بما فى ذلك أهالى ما بين النهرين والميتانيين السوريين الفلسطينيين

لقد أشرت إلى نظرية هروزنى لسببين

(١) مع أن هروزنى كان موضع النقد الشديد من قبل عدة من المؤرخين الغربيين الباحثين فى الثقافة القديمة، لم أجد أى إشارة لنظرياته من قبل المؤرخين فى الهند.

(٢) عندما وضع نظريته عن الأصل الهندى - الأوربى للغة الحيثية انتقدت بشدة أيضا فى بادئ الأمر، ولكنها برهنت على صحتها فيما بعد. وهناك بالطبع عدة نقاط فى نظريته لا يمكن إثباتها بالحجة، أو لا بد من تعديلها على أساس برهان جديد يؤخذ من إكتشافاتنا الأخيرة وإذا أنصفنا المؤرخ فيجب علينا الاشارة إلى أنه هو نفسه يقول إن استنتاجاته موضوعة «بتحفظ بالغ».

ونأتى الآن إلى الدرايدويين فنقول إن موضوع نصيب ثقافتهم فى ثقافة الهند قد شغل اهتمام مؤرخين آخرين كثيرين أيضا لفترة خلت من الزمن. فليس ثمة اعتقاد بعد الآن أن لغات الدراويديين كانت دائما محصورة فى جنوب الهند ومنطقة صغيرة فى بلوخستان. فقد دلت آخر الأبحاث أن الدراويدية انتشرت كثيرا فى العصور القديمة فى أجزاء أخرى من الهند أيضا. ويعزز هذا البرهان أسماء كثير من الأماكن فى شمال الهند، ووجود العنصر الدراويدى القوى فى اللغة الآرية من الويديين ومن تبعهم، والأثر الدراويدى الأكيد على التاريخ الثقافى فى

الهند فى كل فرع تقريبا. وقد حاول بعض الباحثين إعادة هذا الأثر حتى إلى ما وراء حدود الهند. فى السنوات الأولى من القرن الحالى أشار « تورب » إلى أوجه شبه معينة بين الدراويدية والاتروسكية (Etruscan). وفى عام ١٩٢٧ حاول كلمنس شوبر فى مؤلفه (Altdravidisches, eine namenskundliche untersuchung) أن يبرهن على أن أسماء أماكن كثيرة، ليس فى إيران وحدها بل فى أوربا أيضا، يجب أن تقرن باللغات الدراويدية، ولكن نظريته لم تلق قبولا دوليا. و مؤخرا حاول هاينر مود فى مؤلفه « انديش وروكلترين » أن يثبت أن أشكال الفن التى وجدت فى الآثار الحرفية فى كريت والهند، هى متصلة مع مركز ثقافى فى سوريا وبلاد ما بين النهرين حوالى نهاية العصر الألفى الرابع ق. م. والذى فى اعتقاده لم يسق الثقافات الآرية الهندية فحسب، بل الثقافة السومرية أيضا. وقد عرف كذلك أن بعض الآلهة كالالهة الأم وشيوا من بين آخرين هم فى الأصل فى الثقافة ما قبل الآرية.

وقد أظهر مؤخرا البروفسور « كرفل » فى كتابه (Die dreikoepfice Gottheit) أن الاعتقاد بالاله ذى الرؤس الثلاثة كان سائدا كثيرا بين أجناس شعوب البحر الأبيض المتوسط.

وفى مؤتمر المستشرقين الدولى الذى عقد فى كمبريج هذا العام لفتت الأديبة هومبرجر فى رسالتها « العناصر الدراويدية فى مصر وافريقيا » الأنظار إلى عدد من الكلمات الموجودة فى اللغة المصرية القديمة لها شبه فى لغة جنوب الهند. ولكن هذا الأساس فى البحث لا يزال فى مرحلة بدائية ويبدو أنه من سبق القول الخروج باستنتاج معين ما.

وأود أن أوضح أننى لا أعنى باستعمال كلمة « دراويدية » اللغة التى يتحدث بها الناطقون الآن بلغة التاميل. ومع أن البعض يدعى بالعثور على أثر

قـديم يرجع إلى القرن الثانى ق. م لأدب سجم (التاميلية) فى مراحله الأولى،
قد ثبت أن اللغة التى وجدت به لا يمكن أن تعود إلى قبل ٥٠٠ سنة ميلادية.
ولدينا أيضا منقوشات تناقص الأثر القديم عن الأدب التاميلى ويبدو إنها لم يعتنى
بها حتى الآن. وقد عثر على عدد من السجلات القصيرة محفورة فى ملجأ صخرى
طبيعى فى منطقتى «مدورا» و«تنيلى». ومثل هذه السجلات كذلك وجدت
مكتوبة على الخزف اثناء التنقيب فى «اريكاميـدو». وهذه المخطوطات من ناحية
الكتابات القديمة يجب أن توضع فى القرن الثالث أو الثانى قبل الميلاد. اللغة
المستعملة فيها هى اللغة التاميلية الصحيحة، المختلفة كلية عن تلك الموجودة فى
الأدب القديم والمعاصر وواضح أن لغة التاميل فى هذه الفترة كانت لا تزال
فقط فى دور التكوين.

وهنالك عقبة تعترض سبيل حل مشكلة «هارابا» وهى عجزنا عن تحليل رموز
الكتابة التى وجدت على الأختام واللوحات والخزف. وقـــد بذلت محاولات
كثيرة حتى الآن ولكن لم تثبت صحة احداها إلى اليوم. وأراد لاجـدن وهنتر
أن يقربا هذه الكتابة بالبراهمية فى فترة حد متأخرة. و«جاد» من اصحاب المتحف
البريطانى الذى تعتبر رسالته على «الأختام فى اسلوب هارابا وجدت فى «اور»
وأماكن أخرى» ادبياً، وجد بعض الكلمات السنسكريتية فى تلك الأختام. وذكر
ميريجى العالم الايطالى أن معظم الرموز هى كتابة تصويرية تعبر عن كلمات بأكملها
من أصل براهوى - دراويدى قديم

وحاول هفسى العلامة الهنغارى أن يقرن هذه الكتابة بالهيروغليفية المكتوبة
على لوحة خشبية فى جزر الهند الشرقية بالمحيط الباسيفيكى. وفى الهنـد حاول
الأب «هيراس براناث» وسوامى شانكرناندا ايجاد حل، كل بطريقته الخاصة. ومن
المحاولات الأخيرة تلك التى بذلها هرورنى لاظهار تشابه عجيب بين الرموز الهندية

الأصلية والكتابة الهيروغليفية الحيثية».

وهذه المشكلة لسوء الحظ، وهى معادلة لعاملين مجهولين هما الكتابة واللغة، لا تبدو أنها أقرب إلى الحل إلى الآن. والعامل المحير فى كتابة هارابا هو أن شكلها بقى على حاله أكثر من سبعة قرون. ولم يجد أى أشكال راقية أو بسيطة تحمل صلة ما مع أى كتابة معروفة معاصرة أو غير ذلك.

ولم نكتشف كذلك حتى الآن أية كتابة بلغتين كتبت إحداها بلغة معروفة تكون مفتاحا. وليس لدينا حتى كتابة طويلة ذات نواح متشابهة تهدى إلى تعبير صحيح. وأطول كتابة عرفت حتى الآن هى ما تحتوى على ١٧ مقطعا، بينما العدد المعروف عادة هو حوالى ستة. ولذا فان كل تخمين ظهر حتى اليوم والحالة هذه يجب أن يعتبر فرضيا. ومع ذلك لا يجدر بنا أن نقنط. ربما تعطينا البحوث والاكتشافات الواسعة الدليل المنشود. وهذا أكثر تشجيعا عندما يبدو أن أختام حضارة «منوان» فى «كريت» التى كتبت بخط سماه ايفانز بـ منوان لينر بـ (Minoan Linear B) قد حللت الآن، على أنها تتصل باليونان القديمة وبذلك يرجع تاريخ اللغة اليونانيـــة بدلا من سنة ٨٠٠ إلى ١٤٠٠ ق. م. عندما دمر قصر منوان فى نوسس.

ونعود الآن إلى بحث حضارة «هارابا» مرة أخرى بالنسبة لعلاقتها بالآريين. فبعد اكتشافات ١٩٤٦ عن هارابا خرج الدكتور (الآن الســـير) مورتيمر ويلر بنتيجة مؤداها أن قلعة هارابا الحصينة سقطت أمام غزو الآريين. ومن الاشارات المتكررة فى رگويدا إلى لقب إندرا على أنه «بوراندرا» استخلص تأييدا قويا لهذه النظرية. وعزز هذا العرض فيما بعد البروفسور ستيوارت بيجوت، ولكن الأساس الذى بنى عليه الدكتور ويلر هذا الكيان الجذاب من نظريته كان موضع النسيان دائما من قبل البـاحثين الذين تبعوه. ففى هارابا يوجد مقبرتان واحدة فوق

الأخرى. فالمقبرة السفلى المسماة «ر ٣٧» (R 37) معاصرة لمدينـــة هارابا الراقيـــة. أما العليا ويرمز إليها بحرف «هـ» (H) فتحتوى على أوعية جنائزية من نوع مختلف. فمال ويلر أن يعتبرها من صنعة طلائع القبائل الآرية المهاجمة.

وقـــد شاع هذا الحل فترة من الزمن. ولكن الدراسات والاكتشافات الأخرى فى الهند فضحت ضعف الأسس التى أقيمت عليها هذه النظرية المتقنة السهلة. إذا، عرف أصحـاب مقبرة «هـ» بأنهم من الآريين فكان علينا أن نتوقع وجود محتويات هـذه المقبرة فى أماكن أخرى فى البنجاب وفى الوديان الأخرى المقدسة لدى الآريين. ولكن تلك المحتويات لم توجد فى أى مكان من هذه المناطق.

لقـــد أثمر عمل الذهـاب من المعلوم إلى المجهول فى الصاعة وأتى الضياء مؤخرا من ناحية أخرى. فان الخزف الأسود وشديد اللمعان الذى عرفه العلماء باسم الآنية السوداء اللامعة الشمالية وجد فى تاكسيلا ويعود إلى سنة ٥٠٠ - ٣٠٠ ق. م. وقـــد دلت التنقيبات الأخيرة فى السحاب وغربى اتر برديش وفى هستناپور على وجود آنية رمادية اللون طليت برسوم سوداء مميزة تحت الآنيـة السوداء اللامعة الشماليـة. والأكثر من ذلك أن الآنية وجدت فى الاقليم الذى وصف بأنه مقر الآريين القـدماء. وهكـذا أيد هذا الدليل أن شخصية صانعى الآنية الرمادية متصلة بالآريين.

ومع أن كشـف الآنية الرمادية نقلنا خطوة أخرى، بقى علينا أن نجد موقفاً يمكن أن نقرن به الآنية مع آثار حضارة هارابا لسد الثغرة. ووصـف هذا بانه حلم قبل بضع سنوات، ولهـذا استعيض عن ذلك بوسائل أخرى لسد الثغرة. ولكن الاكتشافات الأخيرة فى «روپار» على شاطئ نهر «ستلج» على بعد ستين ميلا إلى الشمال من بلدة «امبالا» أظهرت سياقا كاملا متقطعا أحيانا من عهـد

هارابا حتى العصور الوسطى. وهنا كشف المنقبون على الرمال النهرية مستعمرة ازدهرت فى عهد هارابا تحتوى على معدات كأوان فخارية والمسابح، والأساور، وأمواس الصوان، والأوانى النحاسية. ووجد أيضا ختما منقوشا ثلاثة رموز مألوفة لنا من الكتابة الموجودة فى موهنجودارو وهارابا. وفوق هذه الطبقة من المعدات وجدت الأوانى الحرفية الرمادية، ثم تحتها الأوانى السوداء اللامعة الشمالية.

وتعود الآنيـــة الرمادية على وجه التقريب إلى سنة ١٠٠٠ - ٦٠٠ ق. م. وواضح أن فى روپار فترة بين احتماء آثار الهرابيين ووصول السكان صانعى الآنية الرمادية. وتركت مدة هذه الفترة للتحمين. إذا كانت الآنية الرمادية من الصناعـــة المميزة للآريين القدماء، فالمشكلة هى ما إدا كان هنالك أساس لتخمين زمها ابعد من الذى نخمنه الآن. وبعد أربعة قرون أو خمسة أخرى فى النهاية السفلى ستوضع الآنية الرمادية فى صف واحد مع الاثبات الأدنى عن وصول الآريين. الفترة المحددة للآنية الرمادية فى الحالة الموحودة هى بالطبع متباينة، لأنه لم يكشف تاريخ محدد حتى الآن من هده المواد. وستكون اختبارات الاشعاع الكربونى ذات عون فى هدا السبيل.

فنى بنجاب على الأقل لا يبدو أن الهرابيين وصانعى الآنية الرمادية كانوا على اتصال ببعضهم. وربما كان الهرابيون — لأسباب لا تزال خافية علينا — قد بدأوا بالانتقال من البنجاب متجهين صوب الشرق والجنوب أو كليهما قبل مجيء صانعى الآنية الرمادية.

وننتقل إلى الفترة التاريخية فنرى أن أكبر عقبة فى إعادة بناء تاريخ الهند الشمالية، هى قلة المعرفة عن بعض العهود الأولى. وسأدرس هنا واحدا منها فقط وأقصد به عهد كوشانا. وعلى تحديد نقطة بدايته يتوقف حل عدة مشاكل فى

تاريخ شمال الهند وكذلك فيها، وبخاصة تطور الفن في جندارا وماثورا. وكانت مسألة بدء تاريخ العهد موضع البحث لأكثر من ثمانين سنة، منذ بدأ به كننجهام وادوارد توماس في القرن الماضي ولكن دون أن يتوفر حل حتى اليوم. وتتراوح التواريخ المقترحة من القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الثالث بعد الميلاد. وآخر الأبحاث في هذا الموضوع تلك التي قام بها « ستن كوناو » وحرشمان ومدام فان لويزن دو ليو والدكتور ساها والدكتور سن گتا. وحدد حرشمان على ضوء إكتشافاته في أفغانستان نقطة البداية عام ١٤٤ ميلادية وحددها كوناو في الربع الثاني من القرن ذاته. ويرى آخرون أن ما يسمى بعهد كانيشكا كما ورد في كتابات كوشانا على نمط البراهمي ليس سوى استمرار لعهد ساكا القديم، وبدأه كانيشكا حوالي عام ٧٨ ميلادية. ولكن الصعوبة الناشئة حتى الآن هي أن سجلات البراهميين عن ملوك كوشانا تقف عند سنة ٩٨ في عهد فاسوديفا. ومع أنه أصبح مقبولاً الآن أن ملوكاً حكموا من سلالة أتت بعد فاسوديفا، إلا أنه لم توجد حتى اليوم سجلات القرن الثاني عن هذا العهد مؤرخة. واقترحت مدام دو ليو حل لذلك أن المئات حذفت في ماثورا وما حولها في عهد كانيشكا في القرن الثاني. وصرحت عدة أمثلة في كتابها « الفترة السيتية »، تعتقد بها تبعا للعادة الهندية القديمة أن التواريخ من ٥ إلى ٥٧ التي وجدت في عدة سجلات من إقليم ماثرا تمثل حقيقة السنوات ١٠٥ إلى ١٥٧. وقد وافقها أيضا « ساها ».

إن اهتمامنا يتجه بصفة خاصة إلى كتابتين: الأولى في سنة ٨٦ والثانية في سنة ١٥، ذكر في احداهما شخصاً باسم « آريافاسولا ». وقيل إنه لا يمكن إحتلال الشخص نفسه مكانة هامة في طائفة « جين » لمدة ٧١ سنة. وإزاء ذلك وشواذ الخط الملحوظة في الكتابتين تعتبر مدام دو ليو، السنة ١٥ على أنها حقيقة ١١٥ في عهد كانيشكا. وبهذا تضيق الشقة بين الكتابتين إلى ٢٩ سنة فقط. ولكن الاجتهاد كله يبدو أنه

يقوم على أساس سوء فهم الكلمات الحقيقية، وهى «فاسوليا نرفارتنام» و «فاسوليا نفاتن» المستعملة فى الكتابتين. وقد ترجم بولر هذه الكلمات فى الأصل على أنها «بناء على طلب فاسولا» التى درج عليها الكتاب المتعاقون، بينما الترجمة الصحيحة هى «لتحرير فاسولا». وليس من داع أن يعنى ذلك أنها كانت حية عند ما حفرت كلا الكتابتين. وحتى أنها كانت شخصية مهمة وربما كان أقاربها وأتباعها هم الذين قدموا التماثيل كما تروى الكتاباتين حتى بعد أن فارقت الحياة. والأكثر من ذلك أن كتابة سجل العام ٨٦ تدل على أشكال مؤخرة ما بعد عام ١٥. ويجب ألا ننسى أن كتابة ماثورا القديمة تمثل عددا من النواحى المحيرة. فنجد أشكالا سابقة وجدت فى كتابات كثيرة فيما بعد. ونستشهد بواحدة فقط هي كتابة ماثورا فى عهد چندرگپتا الثانى سنة ٦١، وهى تظهر أشكال كوشانا الثانية. وهناك أيضا أسباب أخرى للاعتقاد أنه لا يصح القول أن القرون حذفت فى كتابات كوشانا أو ما حوله. وفى ماثورا نفسه نجد كتابة أخرى التى تعود إلى سنة ٢٩٩. ونوع هذه الكتابة بالتأكيد هو كوشانا، وحتى لو قبلنا القراءة على أنها ١٩٩ كما تقترح مدام دو ليو بسبب الحركة على الجانب الأيمن من الرمز لكونها عرضية، فان الحل لا يبدو سهلا. ولتذليل الصعوبة اقترحت مدام دوليو أن العهد المقصود هنا هو نفسه الذى كان فى الجزء الشمالى الغربى. ولكن سبب هذا ليس واضحا تماما فهذه كتابة «جينية» بينما الكتابات التى فى الجزء الشمالى الغربى هى قطعا بوذية. لقد كانت ماثورا معقلا لمذهب الجينية، ولا يفهم مثلا لماذا يكون العصر فى الجزء الشمالى الغربى هو نفسه الذى فى «ماثورا» فقط فى مثال بمفرده. وسواء قرئ العام ٢٩٩ أو ١٩٩ فانه يدل على أن القرون لم تحذف حتى فى إقليم «ماثورا».

ومرة أخرى فان لوكاكالا التى وضعها البيرونى والتى استعملها الدكتور ساها مرجعا يبدو أنها تشير فقط إلى لوكيكا أو عصر سبتارشى الذى ساد فى كشمير والمناطق المجاورة والتى تحذف القرون فيها. وفضلا عن ذلك فى القرن الحادى

عشر حين أتى البيرونى إلى الهند، فان تقليد إسقاط القرون هذا، إذا كانت العادة المتبعة قديما فى حالة عصور أخرى، والتى ليس لدينا برهان عليها، لا بد وأنها كانت غير متبعة على الأقل فى الكتابات. وهنالك أيضا دليل آخر ضدها، فقد وجدنا عددا من الحكام فى كوسامبى لهم تاريخ معروف. وهم مهراجا جوتامى بوترا سيفاماجا (تاريخه مفقود)، ومهراجا بدراماجا (فى سنى ٨١ و ٨٣ و ٨٦ و ٨٧)، ومهراجا فيسرافانا (سنة ١٠٧) ومهراجا بهيمافارمن (١٣٠ و ١٣٩). وقبل بضع سنوات اكتشفت فى بندوجار فى ولاية ريوا سابقا حوالى ٢٠ مخطوطا براهميا تحتوى على أسماء الحكام وتواريخهم: مهراجا فاسيتيبوتا بهيماسينا (سنة ٥١)، وابنه المهراجا كوتشيبوتا بوتاسرى (سنة ٨٦ و ٨٧)، وابنه مهراجا كوسيكبوتا بدراديفا (سنة ٩٠) وقبل هذا الاكتشاف كان اسم مهراجا بهيما سينا فقط معروفا من كتابة سنة ٥٢ التى وجدها كسجهام فى تلة جينجا وهى أيضا فى أمارة ريوا، ولكن على بعد ١٠٠ ميل تقريبا من بندوجار. ومن بين هذه الكتابات يوجد سجل لراجان فيسارافانا ابن مهاسيناباتى بدرابالا. وعلى مخطوط مجزء كتب اسم سيفاماجا، ولكن فقدت لسوء الحظ التفاصيل الأخرى والتاريخ، ولا يمكننا التيقن إذا كان متجانسا مع حاكم كوسامبى. فيسرافانا، كما يظهر باسمه راجان واسم والده لا بد وأن يكون غير حاكم كوسامبى الذى كان له نفس الاسم.

ولا يوجد أى دليل فى هذه السجلات عن صلتها بحكام كوسامبى، ولكن التواريخ تدل على أن بوتاسيرى على الأقل، وربما أيضا ابنه بدراديفا، كانا معاصرين لبدراماجا. ويعتبر ميراشى أن بهيماسينا حسب الكتابة فى تل جينجا ينتمى إلى سلالة ماجها، ويقرن كذلك بدرابالا مع بدراماجا، وفيسرافانا من بندوجار مع حاكم ماجها سنة ١٠٧. ولكن هذه الدلائل كلها غير صحيحة. وأعتقد أن بدرابالا وفيسرافانا كانا الحاكمين السابقين لهذه الأسرة تدل عليها ألقابهما مهاسيناباتى للأول

وباجات للثانى .

وربما كان بدرا بالا هو مؤسس الأسرة، ولدينا عدد كاف من الأمثلة للدلالة على أن لقب مهاسيناباتى فى القرون الأولى قبل عهد المسيح وبعده لا داعى لأن يكون عسكريا بل كان من ألقاب النبلاء. وقد حمل كافة الحكام بعد فيسرافانا لقب مهراجا مثل حكام كوسامبى. وأظهر التنقيب فى بهيتا أختام سيفاماجها وبهيما سينا. وليس هناك شك فى وجود بعض الصلة بين الأسرتين. ويتضح أنهم حكموا منطقة واسعة، ولعلهم كانوا تابعين لحكام كوسامبى لأن نقودهم لم توجد فى مكان ما حتى الآن. وليس من ريب كذلك أن العهد المستعمل فى الكتابتين هو واحد. وربما تكون النقود التى وجدت فى بهيتا ونسبت إلى براشتا سرى اجتهادا خاطئا عن بسفا سرى وربما لا يكون لها صلة بوثاسيرى الواردة فى كتابات بدوحار.

والرسم فى هذه الكتابات هى أقدم من تلك التى وجدت فى سجلات گپتا، ولهذا يرى بعض المؤرخين أنها يجب أن تقرن بعهد كلاتشورى سنة ٢٤٨ ميلادية. ويختلف فى هذا الرأى ميراشى فيقول، كان الحكام الثلاثة على الأقل الذين نعلم تاريخهم معاصرين لأباطرة گپتا، وهم چندراگپتا الأول وسمودراگپتا وچندراگپتا الثانى وطالما أنهم حكموا فى كوسامبى فلا بد أنهم اعترفوا بسيادة أباطرة گپتا. ولكن لا تذكر أى من هذه الكتابات عن سيادة ملك ما من ملوك گپتا. وفوق هذا وجدت نقود الحكام الأربعة المذكورين وأيضا نقود الحاكمين الآخرين من نفس السلالة، وهما فيجاياماجا وساتاماجا اللذين لم تكتشف كتاباتهما حتى الآن وهذا يدل على مكانتهما المستقلة ولذا لا يمكن نسب تاريخها إلى عهد گپتا أو عهد كلاتشورى، وإنما لعصر ساكا سنة ٧٨ ميلادية.

ولكن ربما يشير المرء إلى أن أسس اعتراض ميراشى على تاريخها فى عصر كلاتشورى ينطبق فى الوقت ذاته على عصر كوشانا الذى يبدأ سنة ٧٨ ميلادية،

إذ أن بعض السنوات من عهد حكام ماجا تقع أبان حكم بعض ملوك كوشانا وعلى الأخص فى عهد هوفيشكا وفاسوديفا اللذين وجدت نقودهما فى كوسامبى ولم يرد فى الكتابات ما يدل على أن حكام ماجا كانوا بأى نوع تابعين لملوك كوشانا.

أما فيما يختص بالتنقيب فى بهيتا فيقول مارشال أن الآثار التى عثر عليها مع أختام سيفاماجا وغيره كانت فوق مستوى ماوريا، ولذا لا بد أنها تعود إلى عصر كوشانا وتعطينا أعمال التنقيب التى قامت بها مؤخرا جامعة إله آباد أقطع دليل. فيقول شرى شارما الذى تولى عمليات التنقيب منذ بدايتها إن الاكتشافات أظهرت تسع فترات متفرعة من المحار للسكان فى كوسامبى. ولم يظهر أثر لمخلفات كوشانا أو أختامها حتى الفترة الخامسة. وفى هذه الفترة ظهرت نقود كوشانا وأختامها لأول مرة. ويبدو أن حكام ميترا عاشوا فى هذه الحقبة. وآخر نقودهم هى باسم راجاى ميترا وجيتا ميترا ويتراءى أن حكام كوشانا احتلوا كوسامبى فى النصف الأخير من الفترة الخامسة، وأول دليل هو ختم كانيشكا الذى يروى أسطورة مهراجا راجاتيراجا ديفابوترا كانيشكاسيا رايوح.

وأمكن العثور على نقود كانيشكا وهوفيشكا وفاسوديفا فى الفترة السادسة والتى أخرجت أيضا نقود نيما وماجا بينما وجدت فى الفترة السابقة نقود ماجا فقط. وفى الفترة الثامنة نقود بسفاسرى. وكانت النقمة مهجورة قبل جانيدرا جاناپتاجا الذى قهر سامودراجوبتا فى الربع الثانى من القرن الرابع الميلادى. ولا يسعنا، والحالة تلك، تعيين تاريخ الملوك المستقلين جميعا أى حكام بسفاسرى وماجا ونيما وكوشانا ضمن هذه الفترة إلا بالافتراض أن عهد كانيشكا بدأ حوالى عام ٧٨ ميلادية.

ونرى مما تقدم أن نقود الملوك الثلاثة — كانيشكا وهوفيشكا وفاسوديفا — وجدت فى كوسامبى. ونجد أيضا نقودا أخرى لا تنسب إلى كوشانا، وجدت

فقط فى الفترة السادسة مع نقود كوشانا. وهـذا سوف يدلنا على الاستنتاج الطبيعى أن حكام ماجا حكموا كوسامبى بعد فاسوديفا فقط. ولهذا يتراءى لأول وهلة أن تاريخ حكام ماجا لا بد ويعود إلى عصر آخر يكون بعد حكام كوشانا وقبل ملوك گپتا. والعهد الوحيد الذى يناسب هنا هو عهد كلاتشورى سنة ٢٤٨ ميلادية. ويقدم هـذه النظرية سداركر وحوش على أساس إعتـبار الكتابة القديمة. وفضلا عن هذا تقرن المناطق التى وجدت فيها الكتابات بحكام كلاتشورى أو انها ملاصقة لأراضى الكلاتشوريين. ووجدت أقـدم سجل للكلاتشوريين فى تريبورى فى قلعة بندوجار. وهذه كتابات صغيرة تشير إلى تقديس تماثيل السمكة والسلحفاة والخنزير، وتمثيل تجسد حولاكا الشهير باسم جودا فى صورة الاله وشنو وكان حولاكا ابن بابو ووزير يوفراج ديفا الشهير.

والواجب نقرن هذا الحاكم بيوفراج الأول على ضوء الكتابة الأثرية. وهذه النظرة تبدو معقولة لأول وهلة ولكن إذا قبلناها فسيكون هنالك ثغرة كبيرة بحوالى ١٥٠ سنة بين كوشانا فاسوديفا — على افتراض أن عصر كانيشكا بدأ سنة ٧٨ ميلادية — وبدراماجا الذى تعود أقدم كتاباته إلى عام ٨١. وحتى لو قبلنا وجود ملك أو ملكين قبل بدراماجا، لا تزال تظل الشقة واسعة. ولا تساعد الاكتشافات فى كوسامبى على سد هذه الثغرة. وللسبب عينه ليس فى الامكان دفع تاريخ عصر كوشانا إلى الوراء بكثير لأن الشقة فى هذه الحالة بين حكام ميترا وكوشانا سوف تتسع دون مبرر. وعدا ذلك، كما أشرنا من قبل، سوف يتحد عهد حكومة ماجا مع عهد حكومة گپتا، ولا يمكن تصور وجود أسرة ملوك مستقلة داخل أراضى گپتا. واكتشاف ختم كانيشكا وكتاباته فى كوسامبى سوف يظهر بالتأكيد أن كوسامبى كان تحت حكم كوشانا فى عهد كانيشكا.

ولكن هنالك حقيقة بارزة، هى أن كتابة فاسوديفا لم توجد خارج منطقة

« ماثورا » ولذلك لن يكون من غير المعقول الافتراض بأنه فقـد سيطرته على كوسامبي عندما استولى حكام ماجا على الحكم. واكتشاف نقود فاسوديفا لا يدل باللزوم على أن كوسامبي كانت تحت حكمه. وأكثر ما يدل عليه هو أن نقود كوشانا كانت رائجة ولو أن حكمهم كان قد انطوى. وتوجد هنالك أمثال أخرى من هـذه الناحية وإذا قبلت هذه النظرية حدد تاريخ كتابات ماجا في عهد ساكا عام ٧٨ ميلادية، فلا يكون هنالك دخول عهد حكومـة كوشانا على عهد حكومة ماجا وأيضا لا تبقى هنالك شقة بينهما. ويمكن تذليل الصعوبة التي نجدها في كتابات ماجا القديمة. ومع أن الكتابة في سجلات ماجا تبدو للوهلة الأولى أنها في فترة تالية، فقد أظهر ميراشي أن كافة الأشكال التي وجدت بها ربما تعاد إلى كتابات كوشانا أيضا وطالمـا أن السجلات تحتفظ بالقرون فهي بالصدفـة تدل على أن التقليد لا يمكن أن يكون مختلفا عنه في ماثورا. ولا يمكن أن نتصور حذف القرون فقط من قبل حكام كوشـانا دون الآخرين في ذات العهد في منطقة مجـاورة. ويجدر بي على أي حال الاشارة إلى اختلاف طفيف وجد في تحديد تاريخ كتابات كوشانا وماجا الذي يتراءى أنه غاب عن ذهن الدكتور ساها. ففي الوقت الذي ذكر التاريخ في كتابات كوشانا بالسنين والموسم ويوم الشهر، استخدم ماجا النظام ذاته في التواريخ كما وجـد في جميع الكتابات السابقة — مثل كتابات ساتا فانا وغيرهم. باستعمال السنة والموسم ويوم الشهر بل يوم الأسبوعين من الشهر. والمثال الوحيد الذي استعمل فيـه نظام كوشانا في التواريخ خارج سجلات كوشانا هو كتابة « بودا ـ گيا » باسم مهراجا تريكامالا الذي يعود إلى سنة ٦٤ في عهد لم يحدد. ولا يعرف شيء عن هذا الحاكم. ويصعب أن نقول بما لدينا من المعلومات كيف استعمل هذا الحاكم نظام كوشانا في التواريخ.

وأنقل القارئ هنا إلى مشاكل أخرى تواجهها فى تاريخ الهند القديم. فهنالك مشاكل عديدة تتصل بتاريخ الأجزاء الشمالية والشرقية والغربية من الهند لا أجد المجال لبحثها الآن. وأذكر أن رأى المؤرخين ليس اجماعيا حول چندرگپتا بأنه أمضى أيامه الأخيرة فى سرفانا بلجولا المكان الذى فرض أنه هاجر إليه مع استاذه بادراباهو بصحبة أتباعه الآخرين. ولا يزال تاريخ امبراطورية موريا بعد حكم اشوكا غامضا. وقد عرف القليل عن تاريخ كاليجا بعد احتلال موريا. ولا بد أن مملكة كاليجا أعلنت استقلالها بعد اشوكا بقليل. ولكن ليس لدينا حتى الآن معلومات عن تاريخها المتصل باستثناء القليل الذى عرفناه عن كارافيلا.

ونأتى الآن إلى ستافانا (Sātavāhanas) ومسألة موطنهم الأصلى، وكذلك تاريخ تأسيس سلطانهم اللذين يحتاجان إلى إيضاح. فيما يرى بعض المؤرخين أنهم أتوا من غرب الهند يشركهم آخرون بمناطق التلجو (Telugu) وأيضا يعتقد غيرهم أن «بيرار» كانت موطنهم الأصلى. وهنالك أيضا خلاف ملحوظ فى الرأى فيما يتصل بمشكلة ستافانا وتسلسلهم وصلتهم بالحل الذى أورده «بورانا».

أما فيما يختص بجنوب الهند، فان المشكلة الأساسية التى تتطلب إيضاحا، هى أصل التاريخ الأولى لكافة السلالات المهمة كسلالة البلافا (Pallavas) والشولا (Cholas) والبنديا (Pandyas) والتشلوكيا (Chalukyas) وراشتراكوتا (Rashtrakutas) وجنجا (Gangas). حتى اليوم ليس لدينا سوى قصص الأساطير عن أصل هذه السلالات. وتمييز سلالة «كلابرا» (Kalabras) التى احتلت جنوب الهند ردحا من الزمن ليس ثابتا أيضا.

وليس هناك رابطة سلالة أكيدة حتى الآن بين البلافا من اللوائح السنسكريتية والبراكريتية والسجلات الحجرية. واكتشاف كتابة أولتشالا فى عهد «تشلوكيا فيجايا دتيا» يضطرنا إلى إعادة النظر فى تاريخ تسلسل ملوك بلافا من باراميسفارا فارمن

الثانى حتى انهيار السلالة نهائيا على يد التشولا. واكتشاف لوحات كاراندای أيضا عن راجندرا تشولا تظهر حقائق جديدة معينة ويخلق مشاكل جديدة فى تاريخ بلاها. ونقصد به زمن انهيار سلالة بلافا نهائيا على أيدى ملوك التشولا، مع أن الرأى السائد هو أن قيام اديتيا الأول بضم أراضى بلافا حدث قبل عام ٨٩٠ ميلادية. أضف إلى ذلك تعريف شخصية ملك بلاها الذى هزمه براانتاكا الأول لا بد من إثباته إذا كان قتال برانتاكا ضد بلاها مختلفا عن القتال الذى نشب بين والده وبين أباراجيتا.

وسيبقى كذلك مكان أباراجيتا فى تاريخ سلالة بلاها وفترة حكمه غير ثابت حتى الآن. ولم تعرف حتى اليوم مكانة بلاها بعد مجيء أديتيا الأول إلى العرش. ولا يزال الغموض يلف تاريخ تشولا من اورايور قرب «تيروتشيراباللى» من القرن الرابع حتى القرن التاسع.

ومن أصعب أوجه تاريخ التشولا تلك الفترة منذ موت بارانتاكا حتى إعتلاء راجاراجا الأول وهناك أسئلة كثيرة يجب الرد عليها. فمتى مات بارانتاكا؟ وما هو بالضبط تاريخ آديتيا الثانى وكاريكلا الثانى؟ ومن هو بارتيبيندرا فارمن؟ إن ألواح كارانداى عن راجندرا تشولا تعزو لراجاراجا الكبير الانتصار على رئيس بانا وضرب عنق بوجاديفا. ولقد استعبد بارانتاكا الأول جماعة بانا ولا يمكن إثبات الضرورة التى دعت راجاراجا إلى محاربة أهالى بانا مرة أخرى. وهنا تبرز ثانية مشكلة كولوتونجا الأول هى ماذا فعل بنفسه فى الفترة ما بين موت والده واعتلائه العرش. ولا بد كذلك من تحرى الأوضاع التى اعتلى فيها العرش. وما هو آخر زمن عاش فيه حلفه أدهيراجندرا؟ ولسنا متأكدين من الصلة السياسية بين كولوتونجا وعمه فيجايادتيا أى عما إذا كانا على علاقة ودية أم لا. إن انفصال عهد أدهيراجندرا هو مسألة لا تقبل ردا قاطعا. فلم يثبت نهائيا تعريف

شخصية راجندرا الثالث أو اعتلاؤه العرش أيضا.

ولم يثبت قطعا تسلسل تاريخ ملوك البانديا الذين عاشوا قبل عصر سنجام من القرن السابع حتى العاشر. ومعرفتنا عنهم مستنبطة على الأغلب من بضع لوحات نحاسية ومن نقوش حجرية. ولم يتأكد أيضا تاريخ الحكام بين ١١٥٠ و ١٣٥٠ ميلادية. ونجد أنفسنا أمام عدد من الأمراء من الأسرة التى تولت الحكم فى الوقت ذاته فى نواح مختلفة من البلاد. فكيف اتصل واحد منهم بالآخر؟ هذا ما لا نعلمه. ويسود عدم اليقين أيضا فيما يختص سيطرة الحكام فى كيرالا فى هذه الفترة. إن رؤساء كونجو بأسماء تشولا وبانديا، وباندنا من أتشانجى تعرض لنا مشاكل لها أهميتها ولكنها ليست أقل صعوبة. وهناك حاجة منذ أمد بعيد لمعرفة قصة متصلة للسلالات الصغرى المختلفة كسلالة موتوريار وأديجيمان.

وإذ يتجه اهتمامنا إلى السلالات التى كانت تقطن مناطق كنارى نجد أنفسنا أمام مهمة محيرة فى تتبع أصل تاريخ ملوك غربى الجنجا وتحديده. فان أصلهم طى الغموض. وقد حدد أصل ملوك اكشفاكو وبراهما كشاتريا ويداقا وكانفا من قبل مختلف المؤرخين بعد أن تعجلوا باستنتاجاتهم.

ولم يتفق الرأى على تعيين موطنهم الأصلى حتى الآن، فان بعض الروايات تحدده فى جنجا بيرورو قرب كودانا التى تضم آثارا تاريخية من عهد قديم جدا، منها كتابة براهمية تعود إلى حوالى القرن الرابع.

إن تسلسل تاريخ الجنجا هو أيضا مشكلة عويصة. ومع أن وجود حكام هذه الأسرة الأوائل معروف فقط من اللوائح النحاسية لم يعد موضع نزاع، فان تسلسل تاريخهم ونظام تعاقبهم على الحكم لم يتأيد حتى اليوم. ولم تحدد كذلك فترتا حكم افنيتا ودرفنيتا.

ويذكر «افانتى سندارى كاتا» المنسوب إلى داندين أن داموادارا الجد الأكبر لداندين كان يقيم مع الملك درفينتا من سلالة الجنجا وأنه زار أيضا قصور (تشالوكيا الشرقية) فشنوفاردانا و (بلافا) «سمهافشنو». وهذا يجعل هؤلاء الحكام الثلاثة معاصرين والحقائق المعروفة من الكتابات لا يمكن أن تطبق بعضها ببعض إلى الآن بالمعلومات التى تم الحصول عليها من هذا المصدر الأدبى.

وهنالك بعض المسائل التى تتطلب إيضاحا فى العلاقات بين الجنجا والكداما. بينما يعتقد بعض المؤرخين أن أم أفنيتا كانت شقيقة «كرشنا فارمن» الأول، ويرى آخرون أنها كانت شقيقة كرشنافارمن الثانى

إن الكوارث فى عهد سيمامارا الثانى وحروبه مع الراشتراكوتا يجب دراستها بالتفصيل ويبدو أن أواخر سنى حكم سيمامارا هى أيضا مظلمة. وتظهر الهبات التى قدمها ماراسمها لآلور وماى أنه بدأ حكمه حوالى ٧٩٧ ميلادية. وربما عندما كان والده سيمامارا فى السجن ولكن ما الذى حدث له بعد ٨٠٢ عندما عين راشتراكوتا كمبايا حاكما على بلاد الجنجا من قبل أخيه جوفيندا الثالث؟

ونحن هنا للمرة الثانية بحاجة إلى بحث آخر فى وصول كاداما وتشالوكيا باداسى إلى الحكم ولا بد من تقرير ما إذا كانت السلالة المتفرعة من ملوك كاداما تحكم كافة البلاد، أم أن البلاد قسمت لأغراض إدارية؟ ولم يتضح كذلك طبيعة الصلة التى كانت بين الأمير كارافارما وابنه مدداتا وأعضاء الأسرة الآخرين.

وورد فى كتابة ايهول أن ملوك تشالوكيا حاربوا أبايكا وجوفيندا. ولم تعرف هوية هذين الشخصين على وجه التأكيد. وذكرت لوحات التشلوكيا النحاسية فيما بعد أن ملوك تشلوكيا فى القرنين العاشر والحادى عشر هزموا أسرة راشتراكوتا قبل إستيلائهم على السلطة. وإذا صح هذا الادعاء فمن يكون ملوك راشتراكوتا؟

واين ازدهر حكمهم؟ وهذه مشاكل أخرى يجب حلها. والقليل أيضا يعرف عن موطن التشلوكيا الأصلى.

وإذا تناولنا تاريخ ملوك راشتراكوتا نجد أن هنالك مشكلة أساسية عن موطنهم الأصلى. وقد ظهرت نظريات كثيرة مثل راتور، وتلجو، وماراتا، وكنارى مع أن المؤرخين يتفقون عامة على أن الأسرة كانت من أصل كننادا.

وهناك مشاكل أخرى تتطلب إيضاحا فى تاريخ راشتراكوتا. ونذكر بعضها (١) قصة حياة الأعضاء الأوائل، وأين حكموا، وعما إذا كان لهم أية علاقة مع ملوك تشلوكيا العربيين قبل عهد دانتىدرجا؟ (٢) مسألة نهاية سلالة دانتىدرجا ومشكلة اعتلاء كرشنا الأول.

إن الأوضاع التى أدت إلى إعتلاء جوفيندا الرابع لا تزال غامضة. وكان جوفيندا الرابع هو الابن الأصغر للملك جوفيندا الثالث، واموجافارشا الثانى هو الابن الأكبر. ولم يتضح سبب اختيار جوفيندا الرابع وارثا للعرش فى حياة أخيه الأكبر. فبينما يعتقد البعض أن أموجافارشا الثانى حكم فترة قصيرة، يرى آخرون أنه لم يحكم مطلقا. ويبدو أن جوفيندا أقصاه بسهولة واغتصب العرش. ولكن لوحات كامى وساجلى من عهد جوفيندا الرابع تحرم أنه لم يسىء معاملة أخيه الأكبر. وهذا على أى حال يدل على إمكانية انتشار بعض الشائعات حول سوء معاملته لأخيه الأكبر مما استدعى دحض هذه الاتهامات. ولم يعرف كذلك ما إذا كان جوفيندا قد أقصى شقيقه الأكبر بصورة غير مباشرة لأن وجوده حال دون وصوله إلى العرش. وهل حارب كرشنا الثالث ضد ملوك تشيدا حين كان وليا للعهد وإذا كان قد احتل كالانجارا وتشتاركوتا فى أى وضع فعل ذلك؟

ولا بد من إزالة الغموض عن تاريخ يادافا ملوك ديفا جيرى منذ ظهورهم

حتى فترة يلاما الخامس. والمعلومات المعروفة عن الموضوع زهيدة، إذ أنها مقتصرة على قصص خرافية، وصعها هماداري ووردت فى سجلات قليلة. ولا بد من تحديد بدء عهد سمهانا تشكل مقنع. وهناك تواريخ مختلفة عن السنة الأولى من حكمه ورد دكرها فى الكتابات

ولا تزال قصة السلالات الصغرى الأولى كسلالة ساد راجا وسندا وسيافارا بحاجة إلى الدليل الكافى

ومن بين سلالات تيلحو فى الفترة الأولى لا يزال أصل سلانكايانا وفشنو كندين موضع الجدل فهل كان هناك مادافافارمن الذى قام بتضحيات كثيرة؟ ومن الذى أسقط كبحا فشنوفاردانا أو جاياسمها آخر حكام فشنوكندين؟ إن تاريخ ملوك تشالوكيا الشرقيين يخلق مشاكل عديدة لم تحل سياسية وتاريخية على السواء. والصعوبة التاريخية ليست نتيجة لأى نقص فى المادة إذ أن لوحات ملوك تشالوكيا الشرقيين تزودنا بقوائم طويلة عن تعاقبهم ومع أن فترة حكم كل ملك معروفة بالضبط، فلم يتيسر حتى الآن وضع سجل ثابت يروى تسلسل وقائعهم التاريخيـــة. فلم يعرف مثلا بالدقـة تاريخ احتلال التشلوكيين لفينجى وتأسيسهم حكومة تشلوكيا الشرقية التى يعتمد عليها تاريخهم بأكمله. وقد ظن «فليت» أن نقطـة البداية فى تاريخ ملوك تشالوكيا الشرقيين كانت سنـة ٦١٥ ميلادية. وبهذا وضع بالسنة الأولى من حكم كبحا فشنوداردانا مؤسس السلالة تاريخا متسلسلا. وبالتالى وجدت كتابات على لوحات نحاسية بددت الشك حول صحة التاريخ الأولى الذى أقام عليه نظريته. ونظرية بعض المؤرخين تعين ٦٣١ للسنة الأولى. واعتقـد آخرون أنها كانت ٦٢٤. وقـد اكتشفت مؤخرا لوحة نحاسية تدل الكتابة عليها أن ٦٢٤ ربما تكون السنة الأولى فى عهد فشنوفاردانا.

ومع أن الباحث يجد مشاكل معقدة فى جميع مراحل تاريخ ملوك تشالوكيا

الشرقيين ، فهى أدق وأعم فى المراحل الأولى منها فى الأخيرة. فان أحداث السنوات الأخيرة فى حكم « أما » الثانى بعد عودته من كالينجا والفترة ما بين إعتلاء راجاراجا الأول وتتويجه ، قد أثارت مختلف النظريات عن التسلسل التاريخى.

وإذا نظرنا إلى سلالة فيجايانجارا نجد أن هذه الفترة ليست كذلك خلوا من الصعاب بالنسبة للمؤرخ. ولا يزال أصل سلالة فيجايانجارا الأولى غامضا. وقد كتب الشىء الكثير فى هذا الصدد عن كهنة سرينجيرى مع أصل هذه السلالة. ويمكن العثور على الكتابات الأولى المتصلة بهذا فى شمال ولاية ميسور وغربها، ولكن تفاصيل القتال الذى نشب بعد موت هارى‌هارا الثانى بين بوكا الثانى وفيروبكشا الثانى وديفارايا الأول ليست متوفرة. إن تاريخ موت « مليكارجونا » والثورة المزدوجة التى حدثت أبان حكمه هى مواضيع تتطلب التحقيق. وعدا ذلك الأحداث المتصلة بالشقاق الداخلى، والحرب الثلاثية حول العرش فى بداية حكم اشيوتا تتطلب الايضاح. وبكلمة أخرى لا بد من الحصول على تاريخ شامل للملوك فيجانانجارا بعد سنة ١٥٦٥ ميلادية.

ويوجد مشاكل أخرى ذات طبيعة عامة بحاجة إلى حل. ولا تزال نقطة بداية عهد جنجا (الشرقى) موضع نزاع. إن تاريخ مؤسسى نظامى الفلسفة العظيمين، وهما سنكاراتشاريا ومادفاتشاريا لم يثبت بعد. والتاريخ التقليدى الذى نسب إلى مادفا تشاريا (أى ١١١٨ — ١١٩٧ ميلادية) لا يمكن أن ينطبق مع تواريخ أتاعة التى وردت فى الكتابات. فان كتابات سريكورمام سوف تدلنا على الاستنتاج بأن فترة مادفا تشاريا كانت من سنة ١٢٣٨ حتى ١٣١٧ ميلادية.

وهذه ليست سوى مشاكل قليلة يشار إليها كيفما اتفق ويستطيع العلماء والمؤرخون الهنود التركيز عليها جنبا للفائدة.

إن مناطق الحدود لشبه القارة هذه تعرض لنا مشاكل شيقة. فقد كانت لأجيال ملتقى عناصر وثقافات وتجارات وفتوحات مختلفة، وهذه تركت آثاراً لا تمحى فى تاريخها. وينطبق هذا أيضا على البلدان التى كانت تربطنا بها صلات ثقافية فى الماضى. فهل يمكننا إعادة بناء التاريخ الهندى بحق دون دراسة تاريخ الحدود الشمالية الغربية وبلدان مثل التبت، وأفغانستان، ونيبال، وبورما، وسيلان وبقية جنوب شرق آسيا، وآسيا الوسطى وحتى الصين؟

وأورد مثالين لأظهر مدى أهمية الحدود لدراسة تاريخنا حتى فى فترة أخيرة نسبيا. الأول هو كتابة سنسكريتية على الصخور من إقليم جلجيت، وحصلت على صورة طبق الأصل قبل عدة سنوات من المعتمد السياسى البريطانى فى جلجيت عن طريق المرحوم السير اوريل استين. وقد كتبت بخط «سراد» الأصلى وترجع إلى اليوم الثالث عشر للنصف اللامع من شهر بوشا سنة ٤٧. وحلى أن التاريخ هو فى عهد لوكيكا الذى حذفت فيه القرون، ولكنها من ناحية الكتابات القديمة يجب أن توضع فى القرن السابع الميلادى ربما أقدم.

والسجل يخص «باتولاديـفا شاهى» الملقب باسم ناقا سوريندراديتيا ناندين ويدون بناء مدينة على يد وزيره «مكاراسمها» الذى أطلق عليه جلجيتا سراجا إضافة إلى الألقاب الهندية التى حملها. وسراجا هو لقب فارسى قديم تعنى «رئيسا» أو «حاكما عسكريا»، وجلجيتا بالطبع هى جلجيت الاسم الذى يعتبر حتى الآن حديثا مع أنه مجهول الأصل. وإلى جانب هذا الحاكم عرف اثنان آخران من نفس السلالة من المخطوطات البوذية المكتوبة بالسنسكريتية والتى اكتشفت فى معبد بجلجيت. وهما «سرديفا شاهى سوريندرا فكرامداتيا ناندين» و «باتولا ديفا شاهى لجراديتيا ناندين». ولم نعرف تفاصيل عن هذين الحاكمين الايرانيين اللذين اصبحا هنديين، واللذين كانت لهما صلة بملوك كوشانا. ومن المؤكد أنها

لم ينتميا إلى عائلة حكام شاهى الهندوس فى اودابندابورا أو اوهيند على اعتبار أن جلجيت كانت خارج سلطانهما، ولكنهما كانا ينتسبان إلى حكام الشاهيين فى بلاد دارادا. ولم يعرف شىء عن هؤلاء الحكام الشاهيين من قبل باستثناء اشارات وردت فى راجاتارانجينى فى كلهانا. ولكن الأطرف هو أن باتولاديفا يدعى أن أصله من باجاداتا، وهو النسب ذاته الذى كان يدعيه باسكارافارمن، حاكم براج جيوتيشا أو آسام، وهو معاصر لهارشا من «قنوج». ولم يتأيد بالبرهان مع أنه يمكن الحدس لاظهار صلة ما بين هاتين الأسرتين إحداهما حكمت فى أقصى الجنوب والأخرى فى الجزء الشرقى من الهند.

والكتابة الثانية أتت من مروهونج التى كانت مرة عاصمة «اراكان»، وهذه قرن اسمها بالاستعمار من الهند مدة طويلة. وقد ذهب إليها الهندوس والبوذيون برا وبحرا، مع أن تاريخ اراكان يقرن هذا الجزء غالبا بالبوذيين. ويوجد على عمود مثبت على قاعدة مرتفعة قرب معبد شتهونج فى مروهونج كتابة سنسكريتية طويلة بالخط الهندى الشرقى من القرن الثامن أو التاسع الميلادى. وهى لم تدرس حتى الآن دراسة وافية. ولم يظهر إلى اليوم سوى مذكرة قصيرة عن هذه الكتابة فى تقرير دار الآثار وإشارة إليها فى مؤلف جامعة دكا: «تاريخ بنغال». وقد بنى المعبد فى القرن السادس عشر الملك مسون، ولكن الكتابة تعود إلى فترة أبعد، ولا بد أنها أتت من «برانج» على بعد عشرين ميلا فى شرق مروهونج كما يظهر فيما يلى. وهذا السجل لسوء الحظ مشوه، والأسطر من ١٧ إلى ٢٩ تحتوى على أسماء ١٣ ملكا ينتمون إلى سلالة آيلا التى تنتهى بجندرا وأشير كذلك إلى السنوات المهمة فى كل حالة. وذكر أن ملوك السلالة وعددهم ١٦، حكموا حوالى ٢٣٠ سنة، ولكن الكتابة لم تذكر سوى ١٣ ملكا فقط، ومدة حكمهم كانت ٢١٢ عاما.

وكان أول حكام هذه السلالة دوينشاندرا الذى قيل أنه أسس مدينة لم

بذكر اسمها. وتعرف أسماء أربعة من حكام هذه السلالة وهم رتيشاندرا وديفاتشاندرا ، ونتيشاندرا ، وفيراتشاندرا من النقود . ولكن الكتابة لا تلقى ضوءاً على أصلهم .

أما النقوش فتذكر أسماء تسعة ملوك آخرين من سلالات مختلفة ، ولم يذكر الأول باسمه وإنما بلقب ملك مدينة نارن السامية ، وهو كما يتضح مشابه لاسم مدينة برانح الحديثة . أما الاسمين الآخرين فهما من أصل غير هندي، ولكن الأسماء الباقية هي هندية محضة وهي دارماسورا، وبجراساكتي، ودارمافيجايا وابنه ناريدرا فيجايا، ودرماتشندرا المقلب ناريدراتشاندرا بن بجرا ساكتي وابنه مهراجاديراجا اناداتشاندرا وعرف دارما تشاندرا أيضا من نقوده . وخصصت الكتابة الباقية لوصف عظمة أناداتشاندرا وازدهار حكمه . فقد بنى عدة معابد سمى أحدها باسمه وقدم لها هدايا مختلفة بما فى ذلك تماثيل بودا وبوديستافا من الذهب والفضة . ومع أنه هو نفسه كان بوديا فقد بنى ٤ معابد للبراهميين أحدها فى سوماترنا . واسمه أناندامادهافا ، وآخر فى بولاكا ويسمى آناداسيفارا — الأول كما يتضح يرمز إلى فشنو والثانى إلى شيفا . وقد فتح بيوتا لايواء الغرباء مجانا ، وأصلح القصور والطرق التى بناها حكام سابقون . وأرسل كذلك هدايا إلى أساتذة البودية فى بلاد الملك ميجا ودكر أن أناداتشاندرا ولد فى ديفاماداحا من أسرة درماداحا التى تذكرنا بحكام ناجا فى أوريسا الذين يروى أن مؤسس أسرتهم ولد من بيضة دجاجة ! ولكى يقيم الملك ميجا تحالفا وديا معه شيد هو الآخر معابد وغيرها فى مدينته المسماة تمراباتانا أو سرباتانا ، وزوج ابنته الجميلة دندا إلى اناداتشاندرا . ولا يسعنا معرفة هذه المدينة كما لا نعلم شيئا عن أسرة شيماندرا التى ولد فيها ميجا . ولا تساعدنا أسفار أراكان فى الوقوف على شخصية هؤلاء الحكام . ومع ذلك نجد فى بعض مخطوطات المهابهارتا ذكراً لشيفا وايندرا مع ملوك اندرا واندا واودرا على صلة مع تمارالبتاكا وآخرين

فى بنغال السفلى. ويبدو أن «هول» على حق فى الاعتقاد بان التسمية الصحيحة هى أندرا. وربما يكون لدينا هنا دليل على ملوك شيفاندرا الذين لم يكونوا حقيقة سلالتين مختلفتين كما افترض «هول». وليس ثمة صلة مباشرة بين تمرابتانا وتمراليبا، ولكن ألا يمكن أن يكون هؤلاء من أهالى أراكان وانحدروا فى الأصل من بنغال السفلى وأسسوا مدينة تعد موطنهم الأصلى؟ إن هذا الاقليم الذى تكثر فيه الآثار القديمة لم يكتشف تماما، ولو أن الحرب الأخيرة لم تدمر تلك الآثار فربما توفر لدينا مادة غزيرة لبناء التاريخ القديم للهند وأراكان.

وإنها الآن لحقيقة لا نزاع فيها أن نقطة محور أقدم الحضارات على سطح الأرض، هو حوض شرق البحر الأبيض المتوسط والاقليم المحاذى له مباشرة إلى الشرق وكذلك الهند والصين. والقلائل يدركون حتى اليوم الدور الحيوى الذى تلعبه أبحاث علم الآثار تعززها الفلسفة واللغات وعلم الأجناس لدراسة التاريخ وأهمية علم الآثار النسبية للمؤرخ لا يمكن المبالغة فى التأكيد عليها. ولقد حان الوقت عند دراسة تاريخ الهند وثقافتها ألا نعتمد كلية بعد الآن على المادة الموجودة فى الهند. وطبيعى أن دراسة المادة الموجودة فى الهند دراسة عميقة وشاملة هى ضرورية ولكنها بنفسها لا تكفى. فان معرفة ما قبل التاريخ للبلدان مجاورة شىء ضرورى لطالب ما قبل التاريخ. وكذلك فان معرفة التاريخ القديم فى بلدان البحر الأبيض المتوسط ضرورى لطالب التاريخ الأصلى. وحتى لطلبة الفترة التاريخية ربما لا تكون دراسة منعزلة للمصادر الأصلية وحدها كافية لايجاد حل لمشاكل كثيرة وعلينا أن نجد مفتاح حلها خارج البلاد. فواجبنا أن ندرس تاريخ البلدان المجاورة لنا والتى أثرت عليها الهند كما تركت هى أثرا فى الهند. ويجب أن تكون لدينا معرفة عميقة عن هجرة عناصر الثقافات وانتقالها، وهذه دراسات جذابة مع أنها مليئة بالصعاب.

« مليبـــار »

(كيرله)

للأستاد محى الدين الألوائى

(مواطن المهاجرين العرب الأولين فى الهند)

تقع بلاد مليبار على ساحل بحر العرب فى غرب جنوب الهند. وكانت لها علاقات تجـارية وثقافية مع البلاد النائية قبل أن يفد إليها اليهود والصوماليون والعرب. ويقول بعض المؤرخين: « إن الكلدانيين حاولوا توثيق الروابط التجارية مع مليبار قبل ألفى عام للميلاد » وتوجد وثائق تاريخية تدل على وصول تجـار الروم إليها قبل القرن الرابع للميلاد. وكانت تحكم جنوب الهند فى داك الوقت ثلاث حكومات معروفـة پانديا، وچولا، وچيرا. والـكتب القديمة فى التامليـة والدراودية اللغتين السائدتين فى جنوب الهند فى ذلك العصر تلقى ضوءا على تلك الحـكومات وسياستها وتقاليدها وطقوسها. واليونانيون والروميون الذين امتلكوا زمام التجارة العالمية فى داك الوقت كانوا استوردوا البضائع التجارية من مليبار وتبادلوا السلع معها.

وتوجد إشارات وتلميحات عن مليبار وعن علاقاتها بالخارج وثقافاتها الخاصة فى الملاحم الهندية الـكبيرة والأساطير القديمة، مثل مهابهارت، وراماياناتم، وايوپورانم وبهاگوتم وغيرها. ولـكن المؤرخين المحققين لم يعتمدوا على هذه الأساطير والملاحم الهنـدية كما اعتمدوا على المستندات الخارجيـة فى كتابة تاريخ مليبار وعلاقاتها الخارجية.

فلما أغار الجنود الحالون على الروم فى عام ٣٩٠ قبل الميلاد ، استولوا على أشياء ثمينة وبضائع قيمة ، ومن ضمنها الفلفل ، وكان يعتبر الفلفل والحديد من أهم البضائع المستوردة عند الروم .

ونجحت تجارتهم نجاحا باهرا بفضل التبادل التجارى مع البلاد الشرقيــة . وبدءوا التجارة البحرية منذ ألف ومائة عام قبل الميلاد . ولم يتسرب اليأس إلى أذهانهم بسبب العوائق والعقبات التى اعترضت لارسال سفنهم التجارية إلى البلاد النائيــة مثل الهند والصين وغيرهما . وتقـدموا فى هذا الميدان بأمل وتفاؤل بالغين فى المستقبل .

وفى عهـد استيلاء الملك اغسطسين على مصر وقع البحر الأحمر تحت إمرة البحرية الروميـة . فبدأت هذه البحرية ترسل قواتها الاستطلاعية إلى شتى بقاع العالم . وفى أيام كلاديوس (أو قلاديوس) وصلت جماعة من بحارة الروم إلى سواحل مليبار قادمين توا من موانئ البحر الأحمر . فاكتشفوا لأول مرة بأنه من الممكن الوصول إلى سواحل جنوب الهند بدون المرور بسواحل جزيرة العرب . وتبعـه قدوم الروميين والمصريين إلى سـواحل مليـبار جماعات وفرادى ! وكان يستغرق السفر من مصر إلى مليبار شهرين وعشرة أيام كاملة .

وهكذا علموا التغييرات الجوية والتقلبات الموسمية جيداً . فتيسرت لهم السبل للوصول إلى هذه البقعة الغنية المليئة بأنواع من المحصولات النادرة والمعادن الثمينة . وساعدت رحلات تجار الروم المتواصلة إلى مليبار على توطد علاقاتهـا مع الخارج بسرعة فائقة .

وبنى الروميون سفينة كبيرة للتجارة مع بلاد مليبار ، وسموها باسم « هيبالوموسرى » تخليداً لذكـرى بطل القوات البحرية الروميــة « هيبـاليوس » . وهو الذى اكتشف لأول مرة الاجواء الموسمية فى هذه الخطوط وعلمها لهم . وبنى معبـد

كبير فى عاصمة مليبار تذكاراً للفاتح العظيم « يسسر أغسطسين ». ويعرف الروم فى الآداب التاملية باسم « نونر ». فلما تجددت الانقلابات واشتدت الاضطرابات فى الروم نفسها اضمحلت التجارة التى كان يقوم بها الروم مع مليبار. وارتفعت أسهم التجار الأجانب الآخرين فى مراكز التجارة بسواحل مليبار. وكان الروميون هم الذين يتولون زمام التجارة بمليبار إلى عام ٢٣٠ للميلاد. ومع سقوط مدينة الاسكندرية انهارت زعامتهم فى التجارة العالمية. ومما هو جدير بالذكر أن الروميين كانوا همزة الوصل بين مليبار وبين العالم الخارجى فى بادئ الأمر.

وكان للفلفل الأسود أثر فعال فى جذب التجار الأجانب إلى جنوب الهند. ويحدثنا التاريخ بأن معارك دامية وقعت فى لجج بحر العرب بين القوات المختلفة كانت فى سبيل هذه الفلافل العزيزة. وسقط فيها مئات الأبطال متحاربين للذتها. بل وكان السبب الحقيقى وراء جميع الحروب التى نشبت فى الروم هو فلفل مليبار وحب السيطرة على أسواقه واستطاعت هذه الحبة الصغيرة أن تستجذب إليها أنظار العالم كله فى إبان العصور الأولى للميلاد. وكانت حبة الفلفل تعتبر شيئا عزيزاً غالياً فى عهود الامبراطور هرقل والملوك البطارسة فى الروم. وكان يستعمل بكثرة ملحوظة فى الأفراح والأعياد وكانوا يحتفظونه فى المطابخ والمستشفيات والمصحات. ويعين فى القصور الملكية حارس خاص لمخزن الفلافل بالنظر إلى ندرتها وأهميتها فى الأغراض العلاجية.

وجاء ذكر الفلفل فى كتب بقراط وفى رسائل الطب « لقلسسين ». وكان الفلفل يقدم هدية للفاتحين فى عهد قدماء الرومان. وله مكانة خاصة فى كل المعاهدات والأحلاف التى كانت تعقد فى تلك العهود. ولهذا كله غلا سعره وعلا قدره! وقيل إن الملك « جوغارت » قد أعطى كمية من الفلفل بمبلغ مائة ألف دينار إلى قائد القوات الرومية على سبيل الرشوة فى حرب وقعت بين

«جوغارت» وبين امبراطور الروم. وهذه الواقعة كانت فى عام ١١٨ قبل الميلاد.

وكان العلامة المشهور پلينى يستهزأ طمع الروم وجشعهم فى شأن الفلفل فى مقالاته التاريخيه ويقول: «إن الفلفل لا يحمل أية مزية حيث تجعله معدودا ضمن الحبوب الغذائيـة، ولا تحتوى على أية خصوصية تجعله من المحصولات الرئيسية ولكن له حراقة تساعد على فتح شهية الأكل الكاذبة. وعلى كل أصبح الرومان الآن مستميتين فى طعم الفلفل وحراقته ويضحون بكل رخيص وغال فى سبيل الحصول عليه بقدر المستطاع».

وأبدى كثير من المؤرخين الكبار دهشتهم البالغة عن تنافس الممالك العظمى وتقاتلها فى سبيل السيطرة على أسواق الفلفل ومراكزه وحازت مليبار كل شهرة وتقدير فى آفاق الدنيا بفضل فلفلها وحديدها وتوابلها العديدة. وفى الوقت نفسه كان توطد الروابط التجارية مع بلاد الصين وغيرها من الجزر الشرقية.

وأما مليبـار فكانت تعرف بأسماء عـديدة قبل أن تشتهر بهذا الاسم بفضل مؤرخى العرب. وكان «پلينى» من أشهر المؤرخين الروميين الذين كتبوا عن مليبار وعاداتها وطبائعها الجغرافية ومراكزها التجارية والزراعية بفحص دقيق وبحث عميق. ويليـه المؤرخ المعروف دولامى. وجاء ذكر مدينة مسريسى (كدنغلور) عاصمة مليبـار التجارية والسياسية فى ذاك الوقت بأكثر من عشرة أسماء مختلفة أو متقاربة. وفى الأساطير التاملية أسماء منسوبة إلى الأجانب الذين كان لهم ارتباط ما بتلك المدن أو القرى. وصرح پلينى بنفسه بأن مدينة مسرى كانت محط أنظار تجار الرومان.

وكذلك ذكر فى التواريخ القديمة بلد باسم «آفر». ومعناه البلد الذى يستخرج منه الذهب. ولم يبت المؤرخون الجدد فى موقع ذلك البلد القديم، ولكن قيل إن الذهب كان يستخرج من بلدة نلنبور وما حواليها. ويدل على هذا التكهن

ترابها الممزوج بمواد الذهب. وكذلك كانت تصدر من غابات نلنپور أخشاب من أشجار الساج المشهورة إلى الخارج. ولا تزال مركزاً رئيسيا لتجارة الخشب فى ربوع جنوب الهند. ولعل مدينة بيپور التى تقع على مقربة من نلنپور هى المراد بـ «آفر» التى أتى ذكرها فى كتب التاريخ القديمة. ثم تغيرت وتقلبت حسب تطورات الزمن حتى أصبحت الآن «بيپور».

وكانت تعرف پتلايى باسم هترنى. وكتب المؤرخ دولامى عن المراكز الصغيرة المجاورة لمدينة كدنغلور عاصمة «چيرمان پرمال» مثل كروزا، وكوريارا، وسمى وغيرها. ولا نستطيع أن نحدد مواقع هذه المدن تحديدا قاطعا فى الوقت الحاضر، اللهم إلا التكهن بدلالات الحروف ومدلولات الوقائع إلى حد ما. والسبيل الوحيد لحل هذه المشكلة العويصة هو الوقوف على جغرافية البلاد وحالتها اللغوية فى تلك العصور.

﴿ اليهود فى مليبار ﴾

وقد ارتبط تاريخ مليبار (كيرله) ارتباطا وثيقا بثلاثة زعماء من رجال الدين يمثلون الأديان الثلاثة السماويه المشهورة. وهم:

١ — جوزف ربان الزعيم اليهودى.
٢ — القديس توماس المبشر المسيحى المعروف.
٣ — مالك بن دينار الداعى الاسلامى الكبير.

وأصبح هؤلاء الزعماء الكبار جزءاً متمما لتاريخ كيرله. فحيثما نعبر بكلمة «كيرله» فنشمل على ولاية مليبار وإمارتى ترافنكور وكوشين. وأما وصول هؤلاء الزعماء الدينيين إلى مليبار فأحدث تغيراً شاملا فى عاداتها وتقاليدها وطقوسها ومراسمها المتبعة من عهود بالغة فى القدم. واستطاع هؤلاء المبشرون ومن تبعهم ما لم يستطع إليه التجار والسواح الأجانب فى تلك البقعة من تأثير وتغيير فى

شتى مرافق الحياة. أما مليبار فوسعت صدرها لكل ما يرد إليها من ثقافات عديدة وعادات غريبة عنها، وأفسحت رحبها للوافدين إليها من كل فج عميق بصرف النظر عن الاختلافات الدينية واللغوية واللونية والجنسية. فوجدت تلك الثقافات أرضاً خصبة فى ربوعها لتنمى ولترعرع، وتفتحت زهورها وأثمرت ثمارها اليانعة حتى أصبحت الآن مستقرة جذورها ومتشعبة فروعها.

ومن هنا أصبحت كيرله (مليبار) مطهراً عاما لأديان مختلفة، ومركزاً هاما لثقافات متعددة، ومنظرا رائعا لعادات وطقوس شتى. يقول بعض المؤرخين: إن اليهود بدؤا يهاجرون إلى سواحل مليبار، فى عهد سليمان عليه السلام، بعد انهيار مدينة يورشلم. وأول بقعة وصل إليها اليهود فى ربوع مليبار هى مدينة كدنغلور عاصمة مملكة چيرمان پرمال. ومع وجود اختلاف فى الرأى بين المؤرخين حول تفاصيل قدوم اليهود وتوطنهم فى مليبار اتفقوا على ما كان لهم نفوذ واسع فى البلاد فى شتى المرافق العامة والخاصة.

وعد المؤرخين التونسيين أن يهود مليبار هم من نسل اليهود المطرودين من تونس فى القرن الخامس، بينما يقول المؤرخون الاسبان إنهم من أولاد اليهود الذين أخذوا إلى بابل. وعلى كل كان اليهود يستوطنون فى أنحاء مليبار قبل وقوع الغارات على يورشلم فى عام ٧٠ للميلاد. وتحدث الشعراء اليهود مثل إبراهيم بن إسراء والشاعر هلوى عن قدوم اليهود إلى مليبار وتبشيرهم بالدين اليهودى هناك فى أشعارهم وقصائدهم. وكان جوزف ربان من أعظم زعماء يهود كيرله. وجاء ذكره فى الأغانى الشعبية اليهودية وفى أدعية اليهود الكثيرة. وكانت لهم مستعمرات خاصة فى عدة أمكنة مثل چينمنغلم وكدنغلور وكوتشين وشرى كنتاپرم.

وقد تسرب الوهن والضعف إلى كيان الأمة اليهودية فى مليبار حينما بدأ الشقاق والنزاع فيما بينهم حول الوراثة، وتبعه تدفق البرتغاليين إلى مليبار وتوسع

نفوذهم فى ميدانى التجارة والسياسة. وانهارت قوة اليهود فى كيرله، ولكنهم لا يزالون يحافظون على تراثهم القديم الذى شيده جوزف ربان ويتمسكون بالبقية الباقية من آثار نفوذهم العابر. ومما هو جدير بالذكر أن يهود كيرله لم يقوموا بالتبشير الدينى كما قام به المسيحيون والمسلمون. ولعله من الأسباب الرئيسية لضآلة عددهم فى البلاد المليبارية وتقلص نفوذهم فى مرافق الحياة الشعبية. وها هم الآن بدؤا يسافرون إلى إسرائيل بعد أن لازموا أرض الهند مئات السنين!

﴿ المسيحية فى مليبار ﴾

يوافق جمهور المؤرخين على أن المسيحية قد تطرقت إلى سواحل جنوب الهند سيما بلاد كيرله، ترافكور، كوشين وولاية مليبار فى القرن الأول للميلاد. والذى حمل مشعل الدعوة المسيحية إلى مليبار لأول مرة هو القديس توماس. وكان القديس توماس من حوارى السيد المسيح الاثنى عشر. وكان يعرف أيضا باسم توماس سليحا.

وصل القديس إلى أراضى مليبار فى عام ٥٢ بعد الميلاد، فواصل تبشيره للدين المسيحى فى طول البلاد وعرضها. وأول مدينة حل بها توماس هى مدينة كدنغلور عاصمة چيرمان پرمال. وأصبح «القديس» محل تكريم وتقدير من جانب الملك. واعتنقت عدة قبائل معروفة الدين المسيحى، ثم بنى القديس توماس كنائس وصوامع فى مختلف الأنحاء فى جنوب مليبار مثل كدنغلور، وكولم وپاليور، وپرور، وپلى پرم، وكوتمغلم، ونلاكل وغيرها من المدن التى لا تزال مكتظة بالأمة المسيحية ومظهراً لتراثها القديم.

وكان القديس توماس قد فوض إدارة شؤون هذه الكنائس إلى كل قبيلة مستقلة ليتخفف ضغط تصريف الأعمال القومية والدينية. وبعد أن فرغ من

مهمة التبشير فى كيرله واستقرت الأمور لأتباعــه فى ربوعها، توجه القديس إلى بلاد تامل فى مقاطعة مدراس بجنوب الهند.

وقيل إنه اغتيل بأيدى أعدائه الظالمين فى بلدة ميلاپور. وتوجد مقبرة عظيمة فى ميلاپور. واختلف المواطنون المحليون فى أمر هذه المقبرة: جماعة تقول إنها مقبرة القديس توماس المبشر المسيحى المشهور، بينما تدعى طائفة أخرى بأنها مقبرة لداعية إسلامى معروف باسم تمام. وكلا الفريقين، المسلمين والمسيحيين، يحترم ويزور هذه المقبرة بدون تفريق ولا تمييز إلى وقتنا هذا.

ومع وصول القديس توماس إلى مليبار توثقت الصلات بينها وبين الروم أكثر مما كانت فى شتى المرافق. وقيل إن ملك جزيرة ولياربالم زار السيد المسيح عليه السلام فى أيام حياته ولذا حصلت الدعوة المسيحية انتشاراً مرموقا فى تلك الجزيرة بسرعة فائقة. وكل من انتشار الدعوة المسيحية والاتصال بالروم منذ القدم ساعد مليبار على التعارف بتعاليم مختلفة والوقوف على ثقافات عديدة والاطلاع على شتى العلوم والفنون. وتأثرت الحياة القومية والعادات الوطنية بكثير من تلك الثقافات الوافدة إليها من بلاد نائية بحكم الصلات الموطدة فيما بينها على مر الدهور. وفى الوقت الحاضر تكون المسيحية فى كيرله مجموعة قوية متكاتفة متماسكة تشترك فى جميع مرافق الحياة فى البلاد، ومركزها الآن ولاية ترافنكور.

﴿ رسالة من الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ملك مليبار ﴾

توجد وثائق تاريخية تدل على أن الاسلام قد وصل إلى مليبار فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم. ويؤكد المؤرخ الباحث الحديث مستر بالاكيريشنا پلاى بأن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم قد بعث الرسائل يدعو فيها إلى الاسلام،

إلى ملوك أفريقيا وإلى ملك مليبار. ويقول إن أول خطاب من الرسول العربى قد وصل إلى ملك مليبار فى عام ستمائة وثمانية وعشرين للميلاد. ويقال أن چيرمان پرمال ملك كدنغلور قد زار النبى عليه الصلاة والسلام. هذا فى السابع والخمسين من عمره صلى الله عليه وسلم. وفى ذلك الزمن أيضا وصل مالك بن دينار وشرف بن مالك إلى بلاد مليبار، ونزلا فى مدينة كدنغلور ثم جابا جميع أنحاء كيرله داعيين إلى الاسلام وبانيين المساجد والمعاهد الدينية فى ربوعها، وبعد زمن قليل وصلت جماعة تبشيرية إسلامية إلى ميناء كدنغلور أيضا تحتوى على عشرة أشخاص منهم «أسود» و«مرجان». هذا فى سنة ٧٠١ م. (رحلة الملوك صفحة ٩).

وبنى مالك بن دينار أحد عشر مسجدا فى أنحاء كيرله. ودخل جم غفير من الأهالى فى دين الاسلام، سيما من طوائف المنبوذين والطبقات السفلى بعد أن عانوا كثيراً آلام التفرقة العنصرية وقاسوا عدة قرون أنواعاً من تكاليف اضطهاد الطبقات العليا، فوجدوا فى القوانين الاسلامية مساواة تامة وعدالة اجتماعية كاملة. وكانت العلاقات المستمرة بين البلاد العربية ومليبار منذ أقدم العصور لمن البواعث الفعالة لانتشار الاسلام فى أنحاء كيرله بسرعة فائقة، وترعرعه فى البلاد بخطى ثابتة. واستطاع مالك ابن دينار أن يرى بعينى رأسه فى أواخر حياته مراكز عديدة مكتظة بالمسلمين فى أرجاء مليبار.

وفى ضمن الوثائق التاريخية المحفوظة فى قصر العائلة المالكة المعروفة باسم أركل فى مدينة كنور بشمال مليبار آثار تاريخية تشهد بأن دعوة الاسلام قد ابتدأت فى بلاد مليبار فى أيام حياة النبى صلى الله عليه وسلم. ويستطيع كل من يزور مدينة كنور أن يطلع على هذه الوثائق فى قصر عبد الرحمن على راجا. ومن المؤسف أن هذه الوثائق التاريخية والآثار القديمة القيمة لم تر النور بعد. ومن

البشرى والأمل أن هناك من يحاول الآن لاخراج ما يمكن إخراجه من هذه المجموعة التاريخية الثمينة إلى دنيا النور من غياهب الظلام لتكون هدى ونوراً لعلماء البحث والتاريخ. كما أن السكرتير العام لجمعية علماء الهند قد صرح لى مرة بأنه اطلع على هذه الوثائق التاريخية المحفوظة فى قصر عبد الرحمن على راجا بكور خلال زيارته لمليبار، وأنه يريد أن يرتب ويؤلف كتابا عن بداية الدعوة الاسلامية فى مليبار، خلال أيام حياته عليه الصلاة والسلام استناداً على هذه الوثائق وغيرها من المخطوطات المحفوظة فى ايشاتك سوسايٹى ليبريرى بكلكته. ولحضرته كتاب فى اللغة الأردوية باسم «مليبار ميں إسلام» (الاسلام فى مليبار).

وبفضل هذه الثقافات الوافدة إليها استطاعت مليبار أن توسع آفاقها الثقافية والاجتماعية والدينية بحكم سعة صدرها وكرم وفادتها. فخرجت من حدودها الضيقة ودائرتها المحدودة إلى ميدان الثقافات العديدة والتقاليد المختلفه. وحازت مركزاً دوليا بالنسبة إلى الأديان والثقافات ولا تزال تحتفظ بهذا المركز الخطير إلى وقتنا هذا. ويعيش فى كنفها الآن كل الأديان الوافدة إليها وجميع الطوائف المتوطنة فى سلام ووئام تامين!

﴿ النقود التاريخية فى مليبار ﴾

النقود التاريخية لها قيمة عظمى، ومكانة كبرى فى البحث التاريخى والوصول إلى أنباء الماضى، وأخبار الأمم السالفة كما للتماثيل، والمنحوتات، والمخطوطات سواء بسواء. ونرى من خلالها أنباء الامبراطوريات المنهارة وآثارها الثقافية. وتنير الطريق إلى اكتشاف بقايا الآثار القديمة والعثور على تراث الأمم الماضية والمعالم التاريخية للحوادث الكبرى التى غيرت مجرى التاريخ البشرى. وأول من بدأ سك النقود واستعملها هم القدماء اليونانيون. وكان ملك بابل المعروف باسم

نابانيسيس يحتفظ فى مكتبته نقود الملوك القدماء. وكان من هواة جمع النقود الأثرية فوق أن كان مؤرخاً كبيراً. وهو الذى اكتشف تاريخ اعتلاء الملك اليونانى المشهور « سارغون » على عرشه بعد أن كان مثار مناقشات عديدة واختلافات شديدة بين المؤرخين والباحثين. وكان ذلك الاكتشاف بطريق النقود التاريخية التى كان يحفظها فى مكتبة قصره! ويتمكن علماء الآثار أن يعثروا على نقود تاريخيــة بطريق الحفر والتنقيب فى عواصم الأمم السالفة مثل أثينا، ومصر، وبابل، والهند وغيرها.

أما النقود التى عثر عليها فى « مصر » فى منتصف القرن الثامن عشر فأصبحت نقوشها وصورها وثائق تدل على كميات وأشكال حكومات قدماء المصريين. واستطاع المؤرخون الوقوف على مجريات العصور الوسطى للتاريخ البشرى والتطورات العالمية بفضل النقود الأثرية.

وأما النقود التى عثر عليها الباحثون فى « يورشليم » فهى التى ساعدت علماء الآثار على معرفة لهجات ولغات الفينيقيين وكذلك العادات والطقوس المنتشرة في عهد استيلاء الآريين على اليونان. وكما أن النقود الأثرية التى وجدت فى حفريات هارابا وموهنجو دارو، قد فتحت دورة جديدة فى تاريخ الهند الحديثة. ومنها النقود التى تدل على ثقافات « سيندوا » التى كانت لها أدوار هامة فى خلق تاريخ الهند. وأصبحت هذه التحف التاريخية نبراسا للباحثين عن الثقافة الآرية ودورها فى صفحات تاريخ العالم عامة وتاريخ الهند خاصة. والأستاذ « كيل هون » الذى بذل مجهودات جبارة فى سبيل اكتشاف تاريخ الهند بطريق النقود التاريخية والمنحوتات الأثرية والصفائح النحاسية يقول: إن النقود القديمة لمرآة الماضى. وتحتوى شعارها وتاريخها وأرقامها على أنباء الماضى. وإنها لسان حال الأمم القديمة وحكوماتها الغابرة. وتخاطب هذه النقود لبناة المستقبل عن

أجيال العهد البائد بلسان طلق لا غموض فيــه ولا خفاء. وتحمل هذه النقود الصغيرة الأحجام فى طياتها صوراً لثقافات عظيمة وحكومات جارة وأمم قوية التى طوتها الأزمان فى زواياها. وهذه النقود الأثرية لعمة كبرى للعصر الحديث لأنها تعطينا فكرة عامة عن الحروب والسلم والنزاع والنضال فى مختلف الأزمنة والأمكنة بين الأمم والشعوب. ولا يجد الباحث العلمى شيئا أقوى وأحسن من هــذه النقود لتحقيق أمنيته والوصول إلى مأربه الخاص. ويجب أن يجد علم النقود مكانته اللائقة فى علم التاريخ ولدى المؤرخين».

ويقول كرنل ثاڈ، العلامة فى تاريخ النقود: «إن النقود العشرية المصنوعة من النحاس كانت منتشرة فى الهـند قبل عهد الامبراطور أشوكا». وقـد عثر علماء الآثار على النقود التاريخية الجارية فى عهدى أشوكا وچـندرگنتا. وكذلك عثروا عـلى النقود المشهورة فى جنوب الهـند منذ القرن الثالث للميلاد. ونقشت عليها الحروف البرهمية. واستطاع المؤرخون بفضل هذه النقود أن يكتشفوا عدة أمور عن الثقافتين: الآرية والدراودية اللتين لهما صفحات مليئـة بالأحداث العظـام والتطورات الهامة فى تاريخ الهند القديمة. واكتشموا أيضاً كيفيات الحكم وأنواع الحكومات القائمة فى شتى أنحـاء الهند خلال الفترات الماضية بين القرن الرابع قبل الميلاد والثالث بعـده، هذا بواسطة حوالى ثلثمائة عملة تاريخيـة (Historical Coins) عثروا عليها فى مختلف أنحاء الهند.

وبدأ الهنود البحث عن النقود الأثريـة فى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى. وكان من ضمن الآثار التاريخية التى اكتشفت فى عاصمة كيرله مسريس أى مدينة كدنغلور قبل سبعة قرون عدد من النقود السائرة فى أنحاء البلاد فى العصور الغابرة. وأهدى ملك كدنغلور نقوداً أثرية نقشت عليها الحروف الرومية إلى الأجانب الكبار على سبيل التكريم. وساعدت المؤرخين مساعدة كبيرة على

التكهن عن عهود الملوك الهنود تلك النقود الأثرية المكتشفة فى راجپوتانا التى يبلغ عددها أكثر من ألفى قطعــة دهبية. وإنما عرفت العظمة المدفونة تحت التراب والهيبة المحمية تحت الأنقاص بعد نبش القبور لعظماء الملوك وفحص القلاع لجبابرة الحكام فى بنغال، وراجپوتانا، وپاتنا وغيرها من المدن التى كانت عواصم الأباطرة العظام. وتنبه كثير من الحكام الانجليز إلى أهمية هذه النقود التاريخية وبدؤا يدرسونها بدقة وتعمق للوصول إلى ما أخفته الأيام من عبر وعظات وسير وحكم تنير الطريق إلى بناء مستقبل موطد الأركان ومدعم الأساس. وأدرك المؤرخون الكبار مثل كننجهام وميكولاى بأن النقود الأثريـة هى مفتاح البحث التاريخى ونبراس علماء التاريخ!

واهتم آر. ڈی. بانرجى فى بحث النقود التاريخية. واكتشف عظمة الهند التى حكمها موهن جودارو وتكسيلا وقدم أمام العالم كله ثقافات الهند القديمة وحضاراتها العريقة وتقاليدها القيمة فى مختلف الميادين مستدلا بنقوش تلك النقود الأثريـة ومستنيراً بتلك التوقيعات والحروف المسجلة فى جبهاتها. وقال: « إن بلادنا الهنـد بلاد الساسة المهرة والعلماء المفكرين. ولها حضارة تفوق حضارات جاراتهـا وشقيقاتها من البلدان والأمم ».

وبذل القـائمون بالاشراف على الهيئة الأسيوية الملكية مجهودات جبارة فى النهوض بقسم النقود الأثرية الهندية. وقام « تيوبولڈ » بدراسة المعادن التى ضربت بها النقود ومزاياها وخاصيتها بينما اهتم « ولسن اسمت » فى دراسة طبيعة نقوشها وحروفها. وقضى العالم الأثرى سپونر عدة سنوات فى وضع قائمة خاصة منظمة للنقود التاريخية التى عثر عليها فى نواحى راجپوتانا وتكشيلا. والشيء الذى أتعب جميع المؤرخين الباحثين هو تحديد التواريخ بدقة ووضوح. وأما العثور على بضعة نقود مؤرخة فألقى النور على عدة قرون فى تاريخ الهند بعد أن كانت فى غياهب

الظلام. وقام دركا پرشاد ورڈی بمساعی جليلة فی سبيل اكتشاف تواريخ ملوك پلوا وحكوماتهم وعاداتهم وطقوسهم من هوامش النقود الأثرية. ولها صفحات مجيدة فی هــذا المضمار الخطير. ولا يزال العلماء الأثريون يحاولون ليكتشفوا مزيدا من المعلومات من تلك المجموعة القيمة من النقود التی عثرت عليها فی تيكشيلا، وليفهموا تلك الحروف والنقوش التی عليها. ومن ضمن تلك المجموعة نقود على شكل مربع وعلى جانب منها حروف رومية قديمة وعلى الآخر حروف اللغة الدراويدية السائدة فی جنوب الهند فی الزمن القديم. ومنها استنبط بعض المؤرخين بأنه كانت فی الهـند حضارة مزدوجة وثقافة مخلوطة فی تلك الأيام ثم تطورت وتقلبت حسب تقلبات الزمن. وقال المؤرخون الكبار: كوڈيليان، وأغسطين، وپاننی فی كتبهم: إن النقود الرسمية كانت شائعة فی الهند منذ عهود يجورويد (Yegurveda). وقد حاول الحكام نقش صور ثلاثة وثلاثين من الآلهة التی جاء ذكرها فی رجوويد على صفحاتها. وكذلك جاء ذكر علم النقود وفنها فی الملاحم الهنديـة القديمة مثل أرتهشاسترم، ورويشـدم، وراجترمگی، وأشٹادهايم وغيرها من الملاحم الهندية المشهورة. ويتضح من الكتب العلمية بأن ضرب النقود كان شائعا فی الهند منذ عهود بالغة فی القدم.

ويعرف فی اللغة الپالية نوع من النقود باسم كاشی پم. ويستعمل الباحثون الجدد النقود المعروفة باسم «پنچ ماركس» فی بحوثهم التاريخية. ويهتم الأثريون فی جميع بقاع الأرض بهذا الصنف من النقود. وكان الملوك فی جنوب الهند يهتمون جداً بضرب النقود الحكومية فی عدة أشكال. واستعملوا الفضة والنحاس لهذا الغرض بتوسع بالغ. وتحدث الدكتور ج. ن. سركار عن مساهمة نقود جنوب الهند فی فن النقود والبحث التاريخی حديثا مستوعباً فی محاضرات ألقاها فی دراسة النقود الهندية القديمة.

وأما النقود الحديدة فكانت تأتى إلى الأسواق العامة فى المناسبات الخاصة فى عهد ملوك «پلوا» خصوصاً بمناسبة الاعتلاء على العرش والتتويج لملك جديد. وكانت لقبيلة شاحى وقبيلة هوں يد طولى فى نشر النقود العديدة.

ومن أهم المراكز لصرب النقود، مدينتا مگدها وپٹالى پترا. وتسربت تطورات بسيطة إلى هيئات النقود وأشكالها بعد الفتح البوذى. وكذلك أدخل الامبراطور أشوكا عدة تعديلات فى النقود لتسهيل التبادل الخارجى مع البلاد التى كانت تتاجر مع الهند.

وانتشرت الدنانير فى جنوب الهند مند قدوم الفرس إليه والتجارة فيه، كما انتشرت النقود الرومية مع مجىء التجار الروميين إليه. ويختلف ختم الدولة على النقود باختلاف صور الحكم فيها وعقلية الحكام وتقاليدهم. ومعظم النقود فى ذلك الزمن كان ممزوجاً من عدة معادن. وكانت للوزن قيمة تذكر أكثر من جمال الشكل وحسن المظر. وأصبح كل هذا وذاك مصدراً للدخول إلى خفايا تلك الدول وخباياها، كما أنه معيار قيم للوقوف على مــدى حضاراتهـا، ومدنياتها، وعصورها، وبيئاتها. ويوافق المؤرخ الأثرى الكبير بهنارکر على رأى الدكتور سركار فى هذه المسألة موافقة كاملة

ويوجد نقش التاريخ فى ناحية، وشعار الدولة فى ناحية أخرى فى جميع النقود الشائعة فى عهد كنشك. وكانت لجـان خاصة فى عهود ملوك گپتا تقوم بمهمة ضرب النقود وتحديد أشكالها. وتحتوى تلك اللجان على أشخاص بارزين من الساسة والأدباء والصايين، لأنها أخطر اللجان فى تقرير مصير اقتصاديات البلاد.

وكانت النقود التى شاعت فى عصر فلگنامترن من المعادن التى لا تتكسر أبداً ولا يعلوها البلى والتلف بطول الأمد وقدم الأزمان. وتوجد صور الثور

والأشجار فى النقود المكتشفة فى مقاطعة بنجاب وشمال الولايات الحدودية. ويظهر من النقود الأثرية أن أيام حكم چندر گپتا كانت أيام الغنى والرخاء فى البلاد كلها. وضرب ستون نوعاً من النقود الذهبية فى ذلك العهد فى أشكال مختلفة ومقاييس متعددة. ونقشت فى إحدى نواحى تلك النقود علامات الثرى والهناء. وأشاع وشنو گپتا نقوداً تحمل صورة قرينته المحبوبة وإسمها. ودخلت تغيرات عديدة فى النقود الهندية أيام حروب جنكيز خان. وضربت النقود بقطع من الحديد الخفيفة. ونقشت مناظر الأنهار الجارية، وحرب الفرسان على النقود التى ضربت فى عهد فتح هوس مع أنها كانت خفيفة الأوزان.

﴿ النقود فى عهد المسلمين فى الهند ﴾

وفى عهد حكم المسلمين انتشرت فى الهند نقود ضربت على الأشكال المعروفة فى بلاد الشرق الأوسط. ثم بدأت الهند نفسها تضرب نقودها على ذلك الطراز. وتقدمت الهند تقدما ملحوظا فى هذا الميدان فى عهد السلطانة رضية. وعثر الأثريون على عدة أنواع من النقود الرضية، ومن ضمنها نقود ذهبية خالصة. وكانوا يستعملون النقود فى نشر دعوة التوحيد، وفى ناحية منها كتبت وصايا السلطانة. ووزع السلطان محمود غزنوى حوالى أربعة عشر نوعاً من النقود الرسمية، وكتبت فى ناحية منها ألفاظ ما معناها الله أحد، والذين لا يذكرون الله القوى المتين هم الخاسرون» — وأتبع الامبراطور همايون، والامبراطور شاهجهان النظم الفارسية فى ضرب النقود وتحديد أشكالها واختيار كمياتها. ونحت الامبراطور أكبر شعار مذهبه الجديد «دين إلاهى» أى الدين الالهى على نقود دولته. وكان الامبراطور جهانگير يهدى نقوده التى تحمل توقيعه الخاص إلى الأمراء وأعيان المملكة. وقام كل واحد من الحكام المغول بالنهوض بمصلحة النقود الحكومية، وأدخلوا تعديلات خاصة فى هيئاتها وطرازها. إن النقود التى ضربت فى عهد المغول

لمن أغلى النقود قيمة، وأحسنها شكلا، وأروعها منظراً فى تاريخ النقود الهنديه. واكتشفت عدة أنواع من النقود المغولية يبلغ تعدادها أكثر من ألف نوع.

ولمستر كننغهام بيان رائع فى كتابه (Account of Mugal India) عن ذاك العهد المغولى الذى له دور خطير فى تعيير مجرى التاريخ الهندى فيقول: «ابتدأ العصر الذهبى فى الهند بعد أشوكا فى أيام حكام المغول. ونرى قوة خيال المغول ومقدرتهم الفنية من خلال الأحجار الأثرية والمعادن المنقوشة والأبنية الفنية التى تبهر العقول، وتبهج القلوب. وإذا استثنينا بعض الأخطاء الشخصية من بعض السلاطين المغول فنجد أن عصرهم فى الهند لهو العصر الذهبى فى تاريخها المجيد. وحكمهم لمن أعدل الأحكام وأنصعها وأخلدها أثراً فى صفحات التاريخ الهندى. وتدل شعائر نقودهم والنقوش المنحوتة فيها على مظاهر الحب الخالص والمودة الصادقة والاخلاص المتين. كما أن المجلس العلمى لامبراطور أكبر، ومجلس الدولة لجهانگير كان يهتم اهتماماً بالغا فى مسألة نقود الدولة ورسومها وأشكالها وأحجامها وتتجلى من صفحات هذه النقود موهبة المغول الفنية وشغفهم بالفنون الجميلة وجمال الطبيعة. وكتبوا وصايا الحق والعدل والصدق فى النقود باللغة الفارسية والسنسكرتية، وأثبتوا شعار المحبة والمساواة فى جنباتها فى هاتين اللغتين ونرى الآن قلوب السلاطين المغول الصافية، وصدورهم الواسعة، وعقولهم المتنورة من خلال هذه النقود الأثرية».

أما النقود الأجنبية فلها انتشار واسع فى بلاد مليبار منذ القدم، لأن العملة الأجنبية كانت تستعمل للتبادل التجارى بين مليبار والبلاد الخارجية. فتطرقت النقود الرومية، والصينية، والتونسية، والفارسية إلى المراكز التجارية فى كيرله مليبار. ويتضح هذا جيداً من كتابات السواح الصينيين والمؤرخين البرتغاليين. ويحلل المؤرخ المشهور الايطالى پيترو ڈيلاولى» (١٦٢٧ — ١٦١٤) فى مذكرات رحلته

بأن النقود الرومية، والعربية، والصينية كانت شائعة ومستعملة بتوسع كبير فى سواحل الهند الغربية.

أما السلطان لارى الذى كان يحكم بلاد الشرق الأوسط ١٥٣٢م. أرسل النقود اللارية للأغراض التجارية إلى جنوب الهند وجزيرة سيلان وحاول نشرها فى تلك البقاع. والنقود اللارية هى التى كانت تقود الحركات التجارية فى ذلك الزمن. وفى أيام غارات البرتغاليين كانت النقود اللارية تستعمل بكثرة فى موانئ كاليكوت وكوتشين وفى الأسواق التجارية الكبيرة. واستعملها أيضا البرتغاليون فى التبادل التجارى

وأما النقود التى كانت شائعة فى ولاية ترافنكور بجنوب الهند إلى عهد قريب باسم چكرم فهى صورة مشوهة لنقود لارى. إذ هى لا تختلف منها إلا اختلافا بسيطا يتعلق بالرموز والحروف. وللعائلات المالكة فى جنوب الهند مثل چولا، وپانڈيا نقود خاصة. وفيها صور الفيل، والسمك، والنمر، والقوس، والترس وغيرها. ووصلت إلى مليبار نقود سهالية خفيفة الوزن خلال أعوام ما بين ٨٥٠ — ٩٦٠. وفى نفس الوقت كانت تجرى فى ترافنكور نقود خاصة مثل چندراكاش، وإيزوركاش وغيرها. وفى ولاية مليبار كانت تلكى پتن، وسلطان ولى، وروماشلى وغيرها من النقود الشائعة — (مليبار للدكتور شمس الله قادرى). وجاء ذكر هذه النقود فى الأغانى الشعبية والقصص المحلية.

وبدأت النقود الانجليزية تنتشر فى الهند شيئا فشيئاً منذ تأسيس « شركة الهند الشرقية ». وأرسل أمراء الولايات نقوداً خاصة خفيفة الأوزان لمبالغ صغيرة إلى جانب النقود الانجليزية. واستطاع الانجليز توحيد النقود نوعاً ما، ولكن لم يدخلوا تعديلات تذكر فى تلك النقود.

وبعد أن تحررت الهند من نير الاستعمار الأجنبى، تطرقت تعديلات خاصة

إلى النقود الحكومية . وها هي الآن تريد الهند تنفيذ النظام العشرى فى النقود الرسمية أسوة بالنقود السائرة فى البلدان الأخرى، وتسهيلا للعاملات الاقتصادية، وفوق هذا وذاك أن هذا النظام العشرى ليزيل عن عامة الشعب التكاليف التى يتحملها فى الحسابات وفى التبادل التجارى خصوصا مع البلاد الخارجية والعملة الأجنبية .

﴿ الديانة البوذية فى مليبار ﴾

إن لمليبار (كيرله) صفحات مجيدة فى تاريخ الأديان المختلفة والحضارات المتعددة . وكانت تجلس يوما من الأيام الماضية على عرش الزعامة الدينية فى القارة الهندية كلها . وانتشرت الديانة البوذية فى أنحائها فى عصورها الأولى، وثبتت أقدامها، وترعرعت غصونها، وأثمرت ثمارها فى عهد الامبراطور العظيم «أشوكا».

ويظهر من المنحوتات والأثريات التى يرجع عهدها إلى عصر الامبراطور «أشوكا» وكذلك من الوثائق التاريخيــة عن أيام حكم ملوك «چولا» أن الدين البوذى كان قد انتشر انتشاراً مرموقا فى سواحل الهند الغربية . وكان له نفوذ واسع فى تلك المناطق . ويقول المؤرخ ك أ . ن . شاسترى: (K A.N Shastari) كانت مدينة «ناگپتنم» شرقاً ومدينة «سرى مولولاسم» غربا مركزاً للثقافة البوذية فى عهود ملوك «چولا» فى جنوب الهند . وكانت الأصول البوذية متأصلة فى قلوب الناس .

واستطاع الباحثون أن يكتشفوا مدى انتشار البوذية فى الهند من الأضواء التى ألقتها تلك التماثيل والأثريات التى عثروا عليها فى أماكن مختلفة من بلاد «كوتلاويدى» و «بالى پاليم» و «ناگپتنم» وغيرها فى السنين الأخيرة . ومما هو خليق بالذكر بأن مليبار أقدم المناطق الهندية ارتباطاً بالبلاد الخارجية . وبذلك وغيره من الأسباب انتشرت البوذية فى مليبار قبل أن تشق طريقها إلى سائر أنحاء

بلاد تامل. ووجدت فيها أرضا خصبة لترعرع فى أكنافها. وشجعت موانئ مليبار التى وثقت علاقاتها مع الجزر الشرقية وغيرها من مواقعها الممتازة المبشرين البوذيين للحضور إلى مليبار جماعات وفرادى. وهكذا أصبحت البودية دين الأغلبية الساحقة فى ربوع مليبار، ووجدت فرصة مواتية للقيام بتشير واسع النطاق فى طول البلاد وعرضها.

وتجرى على ألسنة الناس أساطير عديدة وحكايات عجيبة عن انتشار البوذية فى كيرله. ومنها أسطورة يلعب بها خيال المؤرخ، وإن لم يكن لها ثبوت من الوقائع التاريخية، تقول الاسطورة: كانت سيدة جميلة تعرف بـ «مالى» اعتنقت البودية، فقابلت يوما ناسكا بوذيا جميل الوجه، حسن المظر، ذا خلق كريم. فأحبته وطلبت منه الزواج بها. فقبل الناسك ذلك الطلب. فولد منها ولد ذكى لطيف. وفى نفس اليوم ولد طفل جميل فى العائلة الملكية المشهورة بـ «كولاترى». واستطاعت «مالى» بذكائها الخارق وحيلتها البارعة أن تحصل على ذلك الطفل الأمير وتربى فى احضانها، وكذلك تمكنت من دس طفلها من الناسك فى العائلة الملكية. فبدأ ولدها الذى تربى فى القصور الملكية بالدعوة إلى الدين البوذى، وقام بتبشير واسع النطاق بحكم نفوذه وشهرة اسمه فى أنحاء البلاد، ليثق الناس بأنه الأمير الملكى. وكان هذا الحدث تحولا ميمونا فى تاريخ الدين البوذى. وبهذا فتحت طرق جديدة أمام الثقافة البودية فى أرجاء مليبار.

والذى تستهدف إليه هذه الاسطورة هو الاثبات بأن أميرا من الأمراء الحاكمين فى البلاد كان يقوم بالدعوة إلى البودية وكانت له يد طولى فى انتشار هذه الثقافة فى تلك البقاع.

وتقول الكتب التاريخية بأن كثيراً من عائلة «بيرمال» اعتنق الدين البوذى. وكان فى مقدمتهم «بالى بانا بيرمال». ولكن اختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ

حياته. وقال المؤرخ العالمى المعروف «ميكل سيمال» إن بداية حكم «پيرمال» كانت فى عام ٤٤٤ م. وقيل إن «پالى بانا پيرمال» هو الملك المشهور «ولاربان» الأول. وكان عهده فى ٦٥٧ م وعلى هذا الرأى فيكون آخر زعيم للديانة البوذية فى «كيرله». ولا شك أن البوذية انتشرت فى أنحاء مليبار فى عهد الامبراطور أشوكا بدليل المحوتات الأثرية والتماثيل التاريخية. وكذلك كان «پالى بانا پيرمال» يسدى خدمات جليلة ويقوم بمساعى جميلة فى نشر الثقافة البوذية فى كيرله.

وجاءت قصة لطيفة فى تاريخ كيرله حول تبشير «پالى بانا پيرمال» بالدعوة البوذية جاء پالى بانا پيرمال من الخارج بدعوة من براهمة كيرله، فكان أحد الضيوف عندهم. ومرة جرت مناظرة دينية بينه وبين النساك البوذيين فى قصر البراهمة فى بلدة اللور. فأحب دين البوذية وقام بالدعوة إليها بحماس بالغ. وحاول أيضا أن يدعو هؤلاء البراهمة إلى اعتناق البوذية، فغضبوا عليه، وتركوه، وأقاموا بمكان بعيد عنه، وتآمروا على قتله أو نفيه من البلاد. فتولى بعض البراهمة الأجانب هذه المهمة وجرت مناظرة علمية بينه وبين طائفة من هؤلاء البراهمة الأجانب، فهت فيها پالى بانا پيرمال فقطعوا لسانه ونفوه من البلاد.

وهناك أساطير أخرى عديدة تفوق هذه الأسطورة غرابة وطرافة، وملئت بها الكتب القديمة الخرافية مثل «كيرله البتى» و «كيرله پاژاما» و «كيرله مهاتميم» وغيرها. وكانت البوذية فى السنين الأخيرة لعهدها فى مليبار تعانى أنواعاً من الظلم والعدوان بأيدى زعماء البراهمة الغلاة، وكانت تقاسى الاضطهاد والكراهية من رجال الدين البراهمة فى شتى الميادين.

واختفت أنوار الثقافة البوذية فى كيرله فى غياهب الظلم والاضطهاد قام به «البراهمة» على أشعتها الكاشفة. فيضطر الباحث إلى أن يسبر أعماق هذه الثقافة النيرة من خلال صفحات التاريخ للوصول إلى الحقيقة الواقعة عن الحضارة

البوذية فى مليبار، مع أن معظم نواحيها الطيبة مطوية تحت أنقاض الأساطير والأقاصيص المختلفة. وانتقل پالى مانا پيرمال من مدينة ترووانجى كولم إلى تلنبور فى أيام فتوحات البراهمة وسيطرتهم على مليبار. وأقام بصفة موقتة على مرتفعات «أونترت» على مقربة من ويناناڈ. وبفضل المساعى التى قام بها پالى مانا پيرمال وبالنشاط المنقطع النظير الذى أبداه فى سبيل الدعوة إلى المذهب البودى، دخل مئات الألوف من الناس إلى هذا الدين، وبنيت عشرات المعابد البوذية، وفتحت عدة مدارس ومستشفيات وملاجئ الفقراء والمساكين فى طول البلاد وعرضها باسم پيرمال هذا.

وتعرف الآن المساجد للمسلمين والكنائس للنصارى باسم الملك پالى فى أنحاء مليبار. ويتكهن بعض المؤرخين بأن هذه التسمية قد جاءت بناء على فرض أن هذه المساجد والكنائس مبنية على أنقاض المعابد البودية التى تهدمت أو هدمت بأيدى البراهمه أو من لف لفهم من أعداء تلك الثقافة أو أصبحت خاوية مهجورة بانقراض أهلها وأتباعها بمرور الزمن. والدليل على هذا التكهن أن المعابد البوذية كانت تعرف باسم پالى ماناليم (بيت پالى مانا). وتوجد على جدران المعبد فى چترال وأعمدتها نقوش الديانة الجينية. ويتضح منها أن الجينية لعلها انتشرت فى كيرله قبل البودية.

وأيضا اختلف المؤرخون فى تعيين القبيلة الأولى التى اعتنقت البوذية فى كيرله. ويقول البعض إن أول من اعتنقها هو الحاكم ايشانان الأول. وعند الآخر هى قبيلة «إلاىكوودى». وتقول طائفة ثالثة إن أولى القبائل التى دخلت فيها هى «اتشكهايا پاترم» فى مدينة مهوديپرم. وكهوف جبل مرتوا ونقوش معبد چترال فى مدينة نيمت، تشهد على عظمة المعابد البوذية والمعاهد العلمية التى أسسها زعماؤها الكبار، وعلى دورها الذى لعبته فى الميادين الثقافية والعلمية والدينية

والاجتماعية فى البلاد. وفى هذه الجهات كلها نجد آثارا جينية إلى جانب الآثار البوذية. وتتحلى آثار الفن الودى ومظاهر الحضارة الوذية على جدران المساجد والكنائس القديمة وعلى قواعدها.

وحدثت اصطرابات حطيرة بين الهدوس والوديين فى عدة مناسبات فى تاريخ الهند القديم. وانقلبت أو تطورت عدة أصنام للودية والجينية إلى شكل الأصنام الهدوسية. وتحتوى المعابد الهدوسية فى كيرله على تماثيل لبوذا تمثل شتى مراحل حياته. وهناك تماثيل لبوذا «الأمير» ولبوذا «المتعبد» فى الغابات ولبوذا «المفكر» ويدعو الناس هـــده التماثيل بأسماء مختلفة، مثل «وشنو» و «شاستاو» و «مدن» ويتعبدونها بطرق مختلفة. ولشاستاو فقط تماثيل عديدة فى أشكال شتى فى المعابد الهدوسية وتوجد شجرة «آل» التى تدل على بدء الالهام لبوذا أمام المعابد الهدوسية فى بلاد مليبار وهده الشجرة تذكر الزائرين للمعابد تاريخ إلهام بوذا وحيـاته مفكراً ومتعبداً وناصحاً ومبشراً.

وكذلك توجد البقية الباقيـة من آثار الثقافـــة البودية وحضارتها فى التماثيل المحفورة فى صخرة كبيرة فى بلدة أيرملا بمليبار، وفى هيئة معبد تريكوڈى بمديـنة ترولا فى إمارة ترافنكور، وفى الأصنام الموجودة على ساحل «چيروا» على مقربة من المسجـــد المعروف بـ «صاحب بالى» وفى مواقع معـبد «كلرور» فى منطقة كوتايام، وفى التماثيل المهدمة على جبل «ديوگرى» بـ «ترافنكور» بجنوب الهند. وفوق هذا وذاك كانت الأصنام البودية منصوبة بكثرة فائقـة فى بلاد، شارى ملا، كولاتپوزا، مانيازاترا، أتشان كوول، ماويلى كر، كورتى، وانچى پڑا، كورچى، كڈمالور، چيرتلا، پلورتى وغيرها من البلاد التى كانت مراكز الحضارة البوذية فى العصور الأولى للميلاد. ويظهر من الوثائق التاريخية أن هـــذه المعابد والتماثيل قد صنعت فى عهد الامبراطور أشوكا. وكذلك كانت الديانة الجينية

منتشرة فى تلك العهود فى أنحاء مليبار. وأخذت هاتان الديانتان البودية والجينية تشقان طريقهما جنبا بجنب فى زمن واحد وفى بقعة واحدة.

وصارت تلك المعابد المشهورة محلا لأساطير متعددة تجرى على ألسنة عامة الناس. ويعتقد البعض أن «شاستاو» الموجود فى معبد شارى ملا هو البودا. وجاء فى ملحمة «أماراكوشام» بأن شاستاو مرادف لكلمة بوذا، وهذا الرأى يؤيد الاعتقاد المذكور. وكذلك جاء ذكر بودا فى تراتيل «هارى هارا سوتن». وكانت المؤسسات العلمية والمدارس والمستشفيات منتشرة فى أنحاء البلاد أيام أبهة البوذية فى كيرله. وكلها كانت تجرى مجاناً بدون مقابل. وأوقف الأمراء والأغنياء عدة أفدنة من الأراضى والعمارات والممتلكات فى سبيل مصاريف هذه المؤسسات. ومعظمها كانت بجوار المعابد أو تحت إشراف القائمين بشؤون المعابد. وكانت المستشفيات تعرف فى تلك العصور الأولى باسم شالا. وهذا شكل مشوه لكلمة «چالا» المنتشرة فى البلاد أيام البودية. وأما النساك البوذيون فهم الذين بدؤا تأسيس المستشفيات المجانية فى كيرله لأول مرة فى التاريخ.

وإلى جانب هذه المستشفيات أسست معاهد الطلبة مع جميع التسهيلات اللازمة للاقامة والتعلم وغيرهما من وسائل المعيشة، والراحة، والمطالعة، والرياضة البدنية. ولكن أصبحت هذه المؤسسات كلها عرضة لمظالم البراهمة الكهان وغاراتهم الغاشمة. فأتلموا المعابد البودية، والمؤسسات العلمية، والمستشفيات التى بناها البوذيون لسائر الناس بدون تمييز ولا تفريق. ويقول بعض السواح إن معابد البوذيين كانت مراكز للعلاج المجانى والكشف الطبى، وكان فى كيرله فى ذاك العهد أطباء مهرة. ولا تزال المعابد التى تعالج المرضى بكيرله فى وقتنا هذا تحتفظ بآثار الحضارة البوذية مثل معبد «گروايور» و «آدتى پرم» و «ترونعاڈى» و «تكاڑى» وغيرها.

وكان رجال من الوذيين القادمين من شمال الهند، تخصصوا فى فن النحت والأعمال اليدوية. وكانوا قــدوة للاعمال الهندسية، والنحت، والفن المعمارى لأهالى كيرله. أما قبيلة ليچها فى نيبال وقبيلة آسارا فى كانڈى كوٹ فكانتا مضرب الأمثال فى الفن المعمارى فى عهد الامبراطور أشوكا. وبنيت المعابد البوذيـة فى كيرله تحت إشراف هؤلاء المهرة ووفق تصميماتهم الفنية. وأما كيرله فمدينة لهؤلاء الفنانين الذين أضافوا صفحـة جديدة فى تاريخ كيرله القديم وفتحوا بابا جديدا فى عصورها الذهبية.

وكانت بداية انهيار الحضارة البوذية وقوتها الفعالة فى كدنغلور عاصمة كيرله فى ذلك العهد. فلـما بدأ كمارلا بهتاں وأتباعـه حركة إصلاحية بتأييد من القصر الملكى وتقدموا تقدما ملموسا فى نجاح الحركة، اضطر النساك البوذيون والكهنة للفرار من تلك البقاع ولم يقفوا عند هـذا الحد، بل وبدأ المناهضون للبوذية لشن دعايات واسعة النطاق ضد تعاليم بوذا وإرشاداته ونصائحه، وأنشدوا القصائد ونظموا المنظومات ضد هــذه التعاليم. ولا تزال هذه الأشعار ينشد بها بعض الطوائف الهندوسية فى مناسبات عديدة مثل احتفال «بهرنى» الذى يجرى أمام المعبــد المشهور بكدنغلور، واحتفال «پورم» بمدينة چيرتالا. وعقب هـذه الحوادث عاشت كيرله فى مفترق الطرق حقبة من الزمن.

وأثبت كثير من المؤرخين — الذين زاروا مليبار وقاموا بتحقيقات علمية عن أديانها وحضاراتها وعاداتها وطقوسها — بأن البوذية كانت دينهـا الشائع فى كل أنحائهـا. واعتنقت جماعة ناير وإيژاور الدين البوذى، فصارت الطائفة البرهمية التى كانت تمثل أقلية البلاد جماعة منبوذة وشاذة عن أغلبيـة الشعب. ولم يكن لها صوت مسموع ورأى مقبول بين أوساط الأهالى الكثيرين. وهناك رأى شائع بأن طائفتى «پيشارڈى» و«نامپيڈى» كانتا من أتباع الطائفـة البوذية القديمة

فى مليبار. وتوحد هاتان الطائفتان بكثرة فى الأماكن الهندوسية فى مليبار وإمارتى ترافكور وكوتشين.

واستنحد البراهمة بأمراء «باتثيا» وأغنيائها وأعيانها للقضاء على الوذية والبوذيين فى كيرله. وسعوا أيضا فى تحريد الكتب الأدبية المؤلفة فى داك العصر عن كتابة الحوادث والوقائع التى حرت فيها فى ذلك العهـــد، وعن تدوين آداب الوذية ومتحاتها العلمية والفكرية. ونحجوا فى تلك المساعى حتى طهرت المؤلفات الأدبية والكتب التاريخية والرسائل العلمية كلها أو حلها خالية عن دكر دلك العهد الماصى البودى. وفى الوقت نفسه حاولوا للاثبات بأن كيرله منحة إلهيـة منحها لهم «برشو رامان». وأثبتوا هده الأسطورة بطريق القصص والروايات. ولا يستطيع المؤرخ الحديث الوصول إلى حقائق التاريخ، والوقوف على المعلومات الصحيحة إلا إدا غربل تلك الأساطير والأقاصيص بغربال الوقائع التاريخية فى ضوء البحث العلمى والتاريخى المدعم بأسس علمية.

وبعد انهيار العهد البودى فى كيرله ولدت ثقافة مزدوجة متأثرة من الماصى البعيد والماصى القريب الدى لم يجف ماؤه من ينابيع الوذية. فبدأ القوم يعدون بودا نفسه بعد أن كان بودا ينكر عبادة الأشخاص وينصح ضد الوثنية. وبدؤا يدعون بوذا باسم «وشنو»، و«مهابير جينا» باسم «كروماذى كثن». وبالشروع فى عبادة بودا وباعتباره إلهاً انهار الأساس الذى بنى عليه الدين البودى وانقلبت تعاليم بوذا رأسا على عقب. وتسرب الوهن والضعف إلى كيانه. وكذلك ساعـدت الحركات التعصبية التى قامت بها الطائفة البرهمية على حدوث انشقاق وتشتت بين صفوف الناس. وتفرقوا إلى شيع وطوائف. وانتشرت الخرافات والخزعبلات فى عقائدهم وتقاليـدهم. وساد الهجرج والمرج بين أتباع الأديان المختلفة وأصحاب الآراء المتعددة.

وهكذا استطاع البراهمة بفضل المجهودات والدعايات التى قاموا بها قرابة ثلاثة قرون أن يصبحوا أصحاب الممتلكات الضخمة، وولاة الأمور فى شؤون البلاد والمشرفين على أوقاف المعابد والمؤسسات الخيرية. وبذروا بذور «عدم اللمس» (لامساس) والعنصرية فى البلاد. ولكن المبادئ الانسانية التى دعا إليها بوذا والعدالة الاجتماعية التى كان ينشر بها البوذيون فى أنحاء البلاد لا زالت متأصلة الجذور. ومهما حاول البراهمة بعدة طرق لنشر الفوارق اللونية والعنصرية بين الأهالى، لم ينجحوا فى اقتلاع جذور التعاليم الانسانية ومبادئ الاخوة والمساواة التى تمكنت فى قلوبهم منذ عهد انبثاق فجر البوذية فى تلك البقاع. بل أدهى وأمر من هذا كله أن البراهمة كانوا ينادون باسم «بودى» فى صدد الازدراء والاستهزاء. وبنوا حضارة جديدة على قواعد الحضارة البوذية. ولكن لا تزال تلك القواعد باقية بارزة، ولو تحت الأبنية الحديثة التى بناها البراهمة، قاصدين القضاء التام على تلك الآثار، وإسدال الستار الكثيف على الحضارة التى ربما تبعث أشعتها من خلال الظلام والأبواب المغلقة.

وبهذا اتضح لنا جليا بأن كيرله كانت تحتضن عصرا ذهبيا، وحضارة غنية، وثقافة مليئة بأنواع من التعاليم الحقة، والارشادات القيمة، والعدالة الاجتماعية، والمساواة الانسانية وتعيد الهند الحديثة الآن ذلك العهد المجيد وتحول المياه إلى مجاريها الطبيعية. وكانت سواحل الهند الغربية تستولى على زمام الرخاء والثراء والمدنيــة من القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الرابع بعد الميلاد. والذين تزعموا تلك المدنية، وتولوا مهمة ربطها بالبلاد الخارجية، وقاموا بعدة إصلاحات فى تلك البقعة العريقة بالقارة الهندية فى أول الأمر، هم الزعماء البوذيون.

وعاش الناس فى وداد ومحبة طبقا للتعاليم البوذية. ولم يكونوا يعرفون الفرقـــة والشقاق، والبغض والكراهيـة، وساد الأمن والطمأنينة فى طول البلاد

وعرضها. وكانت تعاليم بوذا رائدهم فى حياتهم اليوميــة، وإرشاداته قائدهم فى معاملاتهم وتصرفاتهم فى الشؤون كلها. وكانت تلك العصور مشاعل النور والعرفان للانسانية كلها.

وها هى الهند الآن تهب مرة أخرى لتقود الانسانية الطائشة إلى بر النجاح، ولتأخــذ بالعالم الزاخر فى أمواج الاضطرابات والحوادث المؤلمة التى لا يدرى عواقبها الوخيمة إلا الله إلى شاطئ الأمان والسلام. وتمهد لها الطرق الصحيحة وترشدها إلى الطريق السوى تلك الصفحات المجيدة فى تاريخ الهند القديمة.

﴿ الأسرة المالكة المسلمة الأولى فى مليبار ﴾

فى مدينة كنور بشمال مليبار أسرة مالكة مسلمة تعرف باسم « أركل راجاومشم » أى الأسرة المالكة بأركل. ويرجع تاريخ هذه الأسرة إلى زمن قدوم مالك بن دينار، وشرف بن مالك من جزيرة العرب إلى مليبار، حاملين لواء الدعوة الاسلامية. ولهذه الأسرة علاقــة وثيقة ببدء الدعوة الاسلامية فى ربوع مليبار. ويقال إن هذه الأسرة يرجع أصلها إلى چيرمان پيرمال. وكان مؤسس هذه الأسرة المالكة محمد على ابن السيدة « سرى ديوى » أخت چيرمان پيرمال. وكان اسمه الأصلى « مهابالى » قبل اعتناق الاسلام. ويظهر من المخطوطة فى قصر أركل أن ابن سرى ديوى إعتنق الدين الاسلامى فى سنــة ٦٤ هجرية، وأسس هذه الأسرة المـالكة وشيد بنيانها على أساس متين. وكانت عاصمتها الأولى فى مدينة دهرمڈم.

وتوجد فى قصر على راجا الحالى فى كنور وثائق تاريخية عديدة تنطق بقدم هذه الأسرة، ومدى النفوذ الواسع الذى كانت تتمتع به فى أنحاء مليبار كلها. ومن ضمن تلك الوثائق التاريخية الصحائف النحاسية، والنقود التاريخية، والوثائق المكتوبة عن المعاهدات والأحلاف، سواء فى اللغة العربية أو الخط العربى المليبارى.

ولهـــذه الأسرة يد طولى فى نشر الدعوة الاسلامية فى كيرله وتثبيت أقدامها وإسكان المسلمين القادمين إليها من البلاد العربية أو من سائر أنحاء القارة الهندية.

وثبت الحقائق التاريخية بأن الاسلام قد انتشر فى بلاد مليبار فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم. وأكبر دليل تاريخى على ذلك تلك النقود الفضية التى نشرتها الأسرة المالكة بأركل فى كرور فى القرن الثامن للميلاد. وهذه الواقعة تفند الرأى القائل بأن الاسلام جاء إلى مليبار بعد القرن الثانى لوفاة النبى عليه الصلاة والسلام. وعرضت النقود التى تحمل اسم ملك أركل فى المعرض الثقـافى الذى أقيم فى مدراس عام ١٩٤٣ م. وتحتفظ هـــذه الأسرة على تراثها القديم وتحافظ على مجدها العابر منذ القرون. وأصبحت هذه الوثائق التاريخية المكتشفة فى قصر أركل من نقود ومخطوطات ومنحوتات ورسائل وغيرها أقوى الحجج التاريخيـــة لتفنيد رأى صاحب «تحفة المجاهدين» بأن الدعوة الاسلامية قد ابتدأت فى مليبار فى القرن العاشر للميلاد. ومن المؤسف أن كثيرا من الكتب التاريخية التى ألفت بعده تنقل هذا الرأى بدون تمحيص وتحقيق. مع أن المؤرخ الفارسى المشهور ابن عرفشه ١٤٧٦، والمؤرخ العربى المعروف فخر الدين ١٢٧٢، قد صرحا بأن الاسلام بدأ ينتشر فى سواحل الهند العربية فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم. وجاءت وثائق أركل مؤيدة لرأى هذين المؤرخين. واستناداً على رأى صـاحب «تحفة المجاهدين» قال بعض المؤرخين مثل رولنسيان و«ذلو، إناس» و«ك. ب. بلينابر مينون» إن الاسلام جاء إلى مليبار بعد القرن الثانى من الهجرة.

وثبت أيضا بأن تاريخ بناء المساجد الموجودة حاليا فى مدن چاليم وكدنغلور وكويلانڈى وغيرها من عواصم مليبار القديمـــة يرجع إلى عام ١٢٠ هجرى أى ٧٠٠ ميلادى. وهذا الواقع التاريخى ليلفت أنظـارنا إلى ما قبل ألف سنة فى تاريخ كيرله القديمة.

وقال السائح المعروف «فراير أوذوريك» الذى زار كيرله وجاب فى أنحائها: «كانت للسلمين مستعمرات خاصـة فى كولم، وپنتالايني وغيرها منذ أوائل القرن العاشر للميلاد.

وكان يدعى كل واحـــد من ملوك الأسرة المالكة بلقب «آدى راجا» أى الملك الأول أو «آزى راجا» أى ملك البحار. ولقبوا بألقاب السلاطين مـنـذ القرن الثالث عشر للميلاد. ويقول بعض المؤرخين: كانت كنور تحت حكم ملك كولترى. وكان الملك الكولترى معاصراً لساموترى (سامرى)، وأقام بصفــة دائمة فى مدينة كور. واعتنق قواده ورجال حاشيته الدين الاسلامى. فهكذا جاءت أسرة مالكة مسلمة إلى حيز الوجود فى مليبار، وكان الناس يدعون «على راجا» العظيم بلقب «سلطان البحر».

وتقول أسطورة أخرى بأن فتاة من الأسرة المالكة فى كولترى، تزوجت من مسلم أنقذها مرة من حادثة خطيرة. فعزلوهما فى قصر خاص بعيد عن القصر الملكى. فتكونت أسرة مستقلة من هـذين الزوجين». ويقول المؤرخ القصصى شنكونى ناير «هذه الأسرة أصبحت تعرف فيما بعد بأسرة أركل، ثم صار إليها حكم البلاد حتى أصبحت أسرة مالكة فى طول البلاد وعرضها».

وهذه الأسطورة تناقضها الحقائق التاريخية الثابتة، لأن أسرة كولترى بدأت تحكم البلاد فى أواخر القرن التاسع الميلادى وكان القرن الحادى عشر عصراً ذهبيا فى تاريخ أسرة كولترى. وعلى هذا بدأت كولترى تبنى مجدها بعد چيرمان پيرمال بزمن غير قليل. وهـذا يدل على أن الأسرة المالكة فى أركل غير متفرعـة من أسرة كولترى، مع أنها أسبق زمناً من تاريخ قيام أسرة كولترى التى تدعى الأساطير أنها مرتبطة بأسرة أركل.

وبدأت الأسرة المالكة بأركل توثق علاقاتها مع البلدان الخارجية فى أوروبا

والبلاد الشرقية، ووصلت إلى الميدان العالمى، فاشتهرت فى معظم بلاد العالم. وبنى ملك أركل قصورا وقلاعا فى كنور بعد أن نقل عاصمته إليها من دهرمدم. وبعد مدة أصبحت كنور مركز التجارة الخارجية. وكان الملك يتولى بنفسه مهمة تصدير المنتجات الهامة إلى الخارج مثل الفلفل، والقرنفل وغيرهما. وذاع صيته فى الأسواق التجارية بمصر وأفريقيا ولبنان وجزيرة العرب، واشتهر باسم « الملك التاجر ».

وقام الملك ببناء العمارات، وتشييد المدن، وتدريب الجيوش على طراز البلاد الأجنبية، ودعم وسائل الدفاع عن الوطن، وعمل فى سبيل كرامة البلاد وشرف الأمة وعزتها. وقام باصلاحات حديثة فى الموانى والمدن الرئيسية حيث يفد إليها الأجانب والسواح للتجارة والسياحة من كل أرجاء الدنيا. وهكذا أصبح زمام التجارة البحرية والبرية فى يد الملك.

وكان يشرف أيضا على جزر « محلديب » و « لكنشهاديب » و « أندروت ديب ». ووصلت السفن التجارية التابعة لأسرة أركل إلى موانىء البلاد النائية. وكلما عقدت معاهدة تجارية جديدة، كانت صنعت سفن شراعية جديدة لتضاف إلى تلك المجموعة. وكانت ورشة كنور أكبر ورشات السفن فى موانىء العالم. وبعد أن تولى ملك أركل حكم جزر محلديب، أدخلت تعديلات هامة عديدة فى سياسة مليبار وكيفية الحكم فيها

وطالب أهالى محلديب بالحكم الذاتى، وكافحوا فى سبيل الانفصال عن مليبار لتأسيس حكومة مستقلة ذات سيادة كاملة واستطاع السلطان ٹيپو والأمير حيدر على لصد عدوان القوات الأجنبية بمساعدة من جيوش ملك أركل. وكانت جيوش كولترى تتربص بملك أركل فى تلك الأيام. ونشبت المعارك بين الطرفين مرتين. ولكن منى الجانبان بخسائر فادحة بدون نتيجة تذكر. وانتهز البرتغاليون هذه الفرصة، وشجعوا الخلافات والحروب بين ملوك مليبار بعضهم

بعضا، ونجحوا فى هذا الميدان نجاحاً مرموقا، ولم يتركوا فرصة سانحة إلا انتهزوها لتعزيز موقفهم فى البلاد، وبذر بذور الفتنة والبغضاء بين ملوكها وحكامها.

ففى عام ١٥٠٥ م. بنى البرتغاليون قلعة كبيرة فى مدينة كنور نشمال مليبار تحت ستار توسيع التبادل التجارى. وأصبحت تلك القلعة مصدر قلق وتهديد لحكام الوطن. فجرت ثلاث عشرة معركة عنيفة بين البرتغاليين وبين حكام البلاد فى سبيل الاحتلال على تلك القلعة المشؤومة، لأنها كانت فيما بعد مركز الجيوش الأجنبية ومصدر الخطر على استقلال البلاد ورفاهيتها ورخائها. وأبرمت عدة معاهدات ودية وتجارية بين ملك أركل وبين البلاد الخارجية. وكان يستقبل السفراء والمندوبين من مصر وتركيا، وإيران وأفغانستان وغيرها من البلاد الشقيقة والمجاورة.

ولما وصل الهولنديون إلى «مليبار» عرفوا قوة جيوش أركل وإخلاصها للوطن. وبعد أن استقرت أقدامهم فى أنحائها وصارت فى أيديهم الأسواق التجارية فكروا فى التعايش السلمى مع العائلة المالكة بأركل خوفاً من جيوشها المخلصة واستعدادها التام للتضحية فى سبيل الوطن.

وفى سنة ١٧٧٠ م. باع الهولنديون قلعة كنور إلى ملكة «أركل» المشهورة بلقب «أركل بى بى» مقابل مأتى ألف روبية، وعززوا قواتهم الدفاعية عن الاعتداء الخارجى. وألفوا جيوشا بحرية وبرية. وتعهد كل جندى بالتضحية فى سبيل الدفاع عن شرف الوطن، وحماية كرامته. ودخل الأمير حيدر على فى صلح مع «بى بى أركل» حينما علم قوة جيوش أسرة أركل وشوكتها وإخلاصها، وقدم بنفسه إلى مليبار. وبعد ذلك اقتفى ابنه، السلطان تيبو نفس النهج وأبرم معاهدات عديدة مع بى بى أركل. وأقام السلطان تيبو مدة من الزمن عند الأسرة المالكة بكنور مشرفاً على شؤون الدفاع. واستمرت هذه الصلات والصداقة بين تيبو وبين الأسرة المالكة بأركل إلى الحرب الأخيرة الناشبة بينه وبين شركة الهند الشرقية.

وكانت رحلة ثيبو عن كور بداية عهد الاضمحلال والتأخر لأسرة أركل.
وأضمر الانجليز حقداً دفيناً وكراهية شديدة نحو السلطان ثيبو، لأنه كان زعيم القوات الدفاعية وقائد حركة التحرير. وانضمت جيوش «چركل» وبلادها المجاورة إلى جانب شركة الهند الشرقية ضد سلطان ثيبو. وظهر الانجليز بلونهم الحقيقي وحاولوا السيطرة على قلعة كنور بعد أن عاشوا تحت ستار الصداقة والود زمنا قليلا، وبعده اغتصاب مراكز التجارة من ملوك كنور. وتحقيقاً لهذين الهدفين قامت «شركة الهند الشرقية» بالاستيلاء على ميدان القلعة للتدريب العسكرى عام ١٧٩٣ م. فى سنة ١٩٠٥ م شنوا حملات متواصلة للاستيلاء على الامارات فى طول البلاد وعرضها واحدة فواحدة. ولضم المهاراجات والأمراء إلى صفوفهم أولا فأولا. وعقد الانجليز معاهدة صلح مع أسرة أركل بشرط أن تدفع إليهم جزءاً من إيرادات الجزر التى تحكمها الأسرة. وكانت هذه المعاهدة فى عام ١٧٩٦ م.

ثم تدرج الانجليز بالمطالبة بالزيادة فى هذا الجزء. حتى جردوا الأسرة تماماً عن الحصول على شيء من إيراداتها. وعزم الانجليز على القضاء التام على هذه الأسرة المالكة لتأييدها السلطان ثيبو فى حروبه معهم. فأصدروا باسم حاكم مدراس حكماً قانونياً بمصادرة جميع ممتلكات الأسرة بأركل بدعوى أنها لم تف بالوعود الواردة فى المعاهدة المذكورة. ولكن «بى بى أركل» قدمت شكوى بعدم شرعية مصادرة ممتلكاتها الخاصة إلى اللجنة الادارية لشركة الهند الشرقية، فكان حكم اللجنة فى صالح بى بى. وفى عام ١٨٦١ م، أعادت الشركة ما صادرتها إلى «بى بى أركل» بناء على الحكم السابق.

وقرر حاكم مدراس الانجليزى الانتقام من الأسرة فى الوقت الملائم. واستطاع الانجليز الاستيلاء على قلعة كنور بعد معركة دامية. وقتل فيها ملك أركل زوج بى بى المذكورة وغيره من القواد والعظماء. وأخيراً انتصر الانجليز على جيوش

« مايلا » بعد أن فشلوا مرات فى الحروب التى جرت مع جيوش مايلا الباسلة . فأخذ البريطانيون من الأهالى حوالى مأتى ألف روبية على سبيل الغرامة لمناهضة الانجليز. وفرض البريطانيون ضرائب باهظة على البضائع المستوردة من الخارج، وكذلك فرضوا قيوداً كثيرة على الصادرات إلى الخارج. فاضطر التجار الأجانب للتخلى عن التجارة مع الأسرة المالكة بأركل. ونقضت البلاد الخارجية معاهداتها المعقودة مع ملك أركل بسبب تعـــذر الاستمرار فى التجـارة مع الأسرة تحت ضغط « شركة الهند الشرقية » والحكام الانجليز.

فهذا اكتملت سيطرة الانجليز على الأسواق التجارية فى داخل البلاد وخارجها. وقبضوا على زمام تجارة الفلفل وتصديره إلى البلاد الأجنبية . ومن ضمن الأشياء المصادرة فى عام ١٧٩٣ م أطباق ثمينة ، وسيوف مذهبة ، والتاج الذهبى والعرش الملكى . وألفت اللجنة الادارية لشركة الهنـد الشرقية لجنة خاصة لتقدير قيمة هذه الأشياء . فقدرت اللجنة قيمتها بمليونين وستمائة ألف روبية ، وتوفيت ملكة « أركل » المعروفة باسم « جون أما بى بى » فى عام ١٨١٩ م. بعد أن شهـدت التطورات الخطيرة والانقلابات العظيمة فى تاريخ الأسرة. وحافظت الأسرة على الوفاء بمعاهداتهـا وأحلافها ، ولـكن الأجانب المستعلين خدعوها وخانوها عـدة مرات . وأثنى المؤرخون البرتغاليون والهولنديون على أمانة هذه الأسرة وكرامتها فى الايفـاء بالوعود ورد الأمانات إلى أهلهـا. وحفظت تلك المواثيق والآثار التـاريخية فى قصر أركل إلى يومنا هذا. ويظهر منها جميع التقلبات والتطورات التى حدثت فى تاريخ هذه الأسرة بل فى تاريخ مليبار كلها .

وسجل التاريخ خدمات هذه الأسرة بمـداد من النور. ولم يكن ملوك هذه الأسرة مستبدين أو « ارستقراطيين » بل كانوا جميعا ديموقراطيين وحكاما عادلين. وكانت لخزانة الدولة أربعة مفاتيح، واحد منها عند الملك، والثانى يأخذه مدير

مصلحة التجارة، والثالث يقبضه رئيس القضاة، والأخير عنـــد صاحب الخزانة. ويحضر الأربعة عند فتح الخزانة. وهذا نظام يدل على العدالة الاجتماعية التى كانت تسود فى أنظمتهم وقوانينهم.

ويقول المؤرخ اف. اس. داويد « إن الأسرة المالكة ماركل كانت مثلا أعلى لمحاربة الظلم والكذب والفساد. وكان شعارها العدل، والصدق، والمحبة.

خطأ فى الجنـــة ...؟

للكاتب الهندى رابندرنات طاغور

تعريب الأستاذ انور شتا

إن صاحبنا لم يؤمن أبدا بالمنفعة الذاتية، ولما كان لا يقوم بأى عمل ذى قيمة ومنفعة فقد انغمس فى زاوته الجحوية، فعمد إلى نحت بعض التماثيل الصغيرة ... الرمال ... ونساء ... وحصون وقلاع ... مستخدما فى ذلك رمال البحر وما تحتويه من القواقع. وعمد أيضا إلى الرسم والتصوير. وهكذا أخذ يمضى وقته فى أشياء لا نفع فيها ولا ضرورة إليها. وضحك الناس منه وسخروا، مما كان يدعوه فى بعض الأحيان إلى الاقلاع عن هذه النزوات ولكن سرعان ما تعود إليه، فتسكن حسه وعقله ... إن بعض التلاميذ ينجحون فى امتحاناتهم دون أن يستذكروا دروسهم. ونفس الشيء حدث لهذا الرجل. فقد أمضى كل حياته فى عمل لا طائل تحته ولانفع منه. ومع ذلك. . فبعد وفاته ... فتحت له أبواب الفردوس ... على مصراعيها.

ولكن الأصبع المتحركة تكتب وتسجل كل شيء حتى فى الفردوس.

فقد حدث أن أخطأ الملاك المكلف بأمور صاحبنا، ووضعه خطأ فى فردوس العاملين.

وفى هذا الفردوس تستطيع أن تجد كل شيء ... ما عدا الفراغ.

وهناك يقول الرجال... رباه. ليست أمامنا لحظة فراغ واحدة... نضيعها. وتهمس النساء... فلنسرع ... فالوقت يطير... والجميع يهتفون فى عجب ...

إن الوقت ثمين للغاية... أيدينا ممتلئة بالعمل... ونحن نستغل كل دقيقة من وقتنا.

وقد يتنهدون فيما يشبه الشكوى... ولكن هذه الكلمات تقع على قلوبهم برداً وسلاما

وهذا الدخيل الجديد. الذى أمضى كل حياته على الأرض دون أن يؤدى عملا مجديا . هذا الدخيل لا يتلائم مع طبيعة الأشياء فى فردوس العاملين . فقد أحد يتسكع فى الطرقات فى كسل وخمول... ويعترض سبيل الرحال المسرعين. . وأحد يجلس فى الحقول الخضراء، ويعطل من أعمال الفلاحين المتعجلين... بل كان دائما فى طريق الآخرين.

وكانت هناك فتاة جميلة . كانت تذهب دائما فى عجلة إلى «غدير صامت» لتملأ جلاصها بالماء.

وظل هذا الغدير صامتا . صامتا مدى الأحقاب . حتى لا يستنفد طاقة... فى أصوات أو أنغام... لا جدوى منها.

وكانت خطوات الفتاة على أرض الطريق... كالحركات السريعة ليد فنان ماهر تعزف على أوتار الجيتار .. وكان شعرها مرسلا على كتفيها دون عناية أو تمشيط.

وكان الكسول فى يوم ما واقفا على بعد خطوات منها .. على مقربة من نافورة جميلة... فوقع بصر الفتاة عليه كما يقع بصر الأميرة الجميلة على شحاذ بائس... فامتلأ قلب فتاة الفردوس بالشفقة عليه.

وبادرته قائلة :

«اوه... ها. يبدو أنك لا تقوم بأى عمل... أ ليس كذلك؟»

فتنهد صاحبنا مجيبا:

«عمل! ليس لدى لحظة فراغ أشغلها بالعمل».

فلم: تفهم الفتاة لكلماته معنى... ولهذا قالت له:

« إنى على استعداد لاعطائك بعض العمل... إذا شئت ذلك».

فأجابهـا الرجل:

« يا فتاة الغدير الصامت! لقد انتظرت طول المدة... لـكى أقوم بعمل على يديك».

فسألته:

« أى نوع من العمل تريد؟»

فأجابها:

« يا فتاة الغدير الصامت! هل تستطيعين اعطائى واحدا من هذه البلاليص؟ ... واحدا فقط يمكنك الاستغناء عنه؟»

فتساءلت:

« بلاص؟ ربما تود أن تجلب فيه المياه من العدير».

فقال فى بساطة:

« لا... إنى أود فقط أن أرسم بعض اللوحات فوق بلاصك».

فثارت الفتـاة وصاحت غاضبة:

« اسمع... ليس لدى وقت أضيعه فى مثل هذه التفاهات... إنى ذاهبة».

واختفت الفتاة على الفور...

* * * *

ولـكن... كيف يتفق شخص مشغول مع آخر لا عمل له؟

كانا يلتقيان كل يوم. وكان فى كل مرة يقول لها :

« يا فتاة الغدير الصامت! اعطيني واحدا من هـــذه اللاليص... فسوف أرسم فوقها لوحة جميلة ».

وفى النهاية استسلمت لبرونه العجيبة وأعطته واحدا من ىلاليصها.

وبدأ صاحبنا يرسم فوقــه.. أخذ يرسم خطا فوق خط... ويضع لونا فوق لون

وعـندما انتهى تناولت الفتاة اللالاص ونظرت إليه من كلا الجانبين... وامتلأت عيناها بالدهشة والعجب... وتساءلت

« ما معنى هذا؟ ما معنى كل هذه الخطوط والألوان؟ وما الغرض منها؟ »

فضحك الرجل وأجاب

« لا شىء. إن اللوحة قد تكون لا معنى لها... ولا تحقق أى غرض ».

فعقدت الدهشة والذهول لسان الفتاة وذهبت حاملة اللالاص بتلك اللوحة العجيبة على كتفها.

وعـندما وصلت إلى بيتها وأمنت عيون المتطفلين أخذت تقلب على جوانبها الأربعة وتدقق فيها النظر بأمعان شديد. واستيقظت من نومها فى منتصف الليل لتضىء المصباح وتنظر إلى اللوحـة فى صمت وعجب وذهول... فللمرة الأولى فى حياتها تشاهد شيئا لا معنى له ولا غرض منه.

وعندما أخذت طريقها إلى الغدير فى اليوم الثانى كانت قدماها أقل سرعة... وعجلة... فقـد استيقظ فى ذهنها إحساس جـديد... إحساس لا معنى له... ولا غرض منه.

وشاهدت صاحبنا (المصور) واقفا بجانب الغدير، فسألته فى ارتباك :

«ولكن ... ولكن ما هى نعيتك ... ماذا تريد مى؟»

فأجابها :

« أريد فقط المزيد من العمل ... على يديك » .

— «وما نوع العمل الذى تريده ؟»

— « دعيى أصنع لشعرك ... شريطا ملونا تعقدينه حوله » .

— « ولماذا ؟ »

— « لا لشىء » .

وصنع لها الشريط ... فى ألوان جميلة زاهية . وأصبحت فتاة فردوس العاملين المزدحمة بالعمل تقضى الساعات الطوال كل يوم تعقد ذلك الشريط الملون حول شعرها. وكان الوقت يفلت من بين أصابعها دون أن تشعر بذلك ... وبقى كثير من العمل دون إنجاز.

☆ ☆ ☆ ☆

وبدأ دولاب العمل فى فردوس العاملين يتأثر. وأخذ الانتاج يقل ويضمحل. وانقلب كثير من الأشخاص الذين كانوا حم النشاط ... إلى كسالى خاملين ... يصرفون الوقت الثمين فى أشياء عديمة الجدوى ... كالنحت والتصوير.

وبدأ القلق يساور الملائكة المسؤلين عن الفردوس ... ثم دعوا لاجتماع عاجل. واتفق الجميع أن هذه الحالة العجيبة التى أصبحت تسود فردوس العاملين ... شاذة لم يعرفها تاريخ الفردوس أبدا. ووقف الرسول الملاك ... الذى كان مكلفا بالاشراف مع صاحبنا ... وقف ليدلى بالاعتراف الخطير:

«لقد وضعت فى الفردوس... رحلا بطريق الخطأ... إنه السبب فى كل ما حدث».

واستدعى صاحبنا للتحقيق معه... فلاحظ الملائكة هيئته العجيبة... تلك الثياب المضحكة... والفرش التى تتدلى من جيوبه... ولوحة ألوانه. فأدركوا على الفور بأنه ليس بالرجل اللائق فى فردوس العاملين.

وفى شدة وصراحة قال الزعيم:

«ليس هذا بالمكان الذى يليق بك .. وعليك أن تغادره فى الحال»

وتمسس الرجل الصعداء، وجمع فرشه، وألوانه، واستعد للرحيل.

ولكن .. قبل أن يغادر الفردوس هرعت إليه فتاة الغدير الصامت. صارخة:

«انتظر لحظة إنى آتية معك».

وعقدت الدهشة ألسنة الملائكة .. فلم يحدث أبدا أن وقع مثل هذا الشيء فى الفردوس... شيء لا معنى له. ولا غرض منه... على الاطلاق.

كيف نشأت پاتلى پترا

(قصـــة ميثيولوجيـــة)
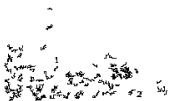
للأستاذ محمود على خان

« پاتلى پترا » كانت عاصمة لامبراطورية موريا الهندية فى عهدها الذهبى ، وذلك فى القرن الرابع قبل الميلاد . وكانت تلك المدينة من أكبر عواصم الدنيا وأجملها فى الزمن الغابر من تاريخ الهند القديم . وقد أتى الرحالون من المشرق والمغرب بذكر شيء كثير من جمال معابدها العظيمة ، وقصورها الجميلة الرائعة ، وشوارعها المظللة بالأشجار الباسقة .

كانت پاتلى پترا بنيت عند ملتقى نهر گنگا وسون قريباً من البلدة التى تسمى اليوم پتنه ، فى طول تسعة أميال وعرض ميلين ونصف . وكان حولها سور من خشب فى غاية الجمال والمتانة ، وكان فى السور أربعة وستون بابا ، وعليه خمسمائة وستون برجا . وكان حول المدينة خندق عريض وعميق يملأ بماء نهر سون . وكان فى المدينة قصر ملكى مبنى من الخشب فى أحسن ما يتصور من البهاء والجمال .

لا يوجـــد من المصادر التاريخية الموثوق بها فيما يتعلق بتأسيس پاتلى پترا وتفاصيلها إلا قليل جدا . لأننا لا نجد فى الكتب القديمة ولا فى الأسمار الدينية إلا ذكر اسمها . وكل ما وصل إلينا بشأن هذه البلدة فهو ينحصر فيما ذكره الرحالون القدماء من الروم واليونان وغيرهم .

أما الأساطير الميثيولوجية التى تناقلها الأبناء عن الآباء فى هذا الموضوع فهى كثيرة . ومن أعجبها قصة تتعلق بتأسيس هذه البلدة . وإن كانت هى أسطورة لا أساس لها من الناحية التاريخية ، ولكن لكونها قصة لعب فيها إله الحب والجمال

دورا مهما، فلا بأس بذكرها. وهى:

إن الملك بترا كان يطلع جبال «ويديا» ويقتحم العقبات ويجول فى النجاد والوهاد بقلب أقلقه اليأس وهده انقطاع الأمل وذلك لأن عميه العاصيين حرماه من ملكه الذى كان له وارثاً مشروعاً، ونفاه عن وطنه المحبوب.

فبينما هو يتخبط فى الحال خبط عشواء سمع لغطاً هائلا من مشاجرة عفريتين يختصمان ومن العجب أن الخصام كان على ثلاثة أشياء تافهة، (١) أحذية مالية، و (٢) كأس يحملها الشحاذون و (٣) عصا يتوكأ عليها الضعفاء من الناس

فدنى الملك منهما وسألهما قائلا:

«ما لكما تقتتلان لأجل هذه الأشياء؟ فإنها ليست عزيزة الوجود ولا غالية الثمن» أراد الملك بذلك أن يصلح بينهما لأنه كان يحب الصلح، ولا يحب القتال والفساد

فقال أحدهما:

«إن لهذه الأحذية والكأس والعصا أثرا سرياً هائلا يتمكن بها حاملها أن يأتى بسحر عظيم فمن يحتذ بهذه الأحذية يمكن له أن يطير فى الفضاء ويصل إلى أى جهة شاء. والكأس تهيىء أى نوع من الرزق إذا جاع حاملها ولم يجد ما يسد به جوعه وأما العصا فهى قلم القضاء، فمن كان له مقصد من المقاصد أو أمل من الآمال مهما كان عظيما، يكتبه بهذه العصا على وجه الأرض فيفوز بمجرد ما يفرغ من الكتابة»

فسمع الملك ما قاله العفريت برغبة وإلتفات. وقال فى نفسه: لو نجحت بالحصول على هذه الأشياء يهون على أن استرد ملكى وكرامتى وشرفى. ثم سأله:

«من يملك فى الأصل هذه الأشياء الثلاثة؟»

فقال «نحن اخوان، وكلانا ورثناها من أبينا».

فقال: عليكما أن تصالحا، ويأخذ هذه الأشياء من هو أحق بها منكما. والخصام لايجدى نفعا ولا يتميز به الفاضل عن المفضول. فلو رضيتما، أيها المتخاصمان، فأنا أفصل بينكما وأريحكما من الخصام.

فقالا: نفوض أمرنا إليك. فاحكم بيننا بما أوتيت من الحكمة وفصل الخطاب.

فقال الملك: عليكما بالمسابقة إلى ذلك التل الذى تريان منفردا وبعيدا من الاتلال. فمن وصل منكما إلى التل وسبق فى الرجوع إلى، يكون هو الفائز بالجوائز.

فبينما كان العفريتان يتسابقان احتذى الملك الحذاء، وأخذ الكأس، والعصا، وطار فى الجو وتعلق فى الفضاء، حتى غاب عن الأبصار. وصار يتقدم فى طيرانه حتى وصل إلى أرض خضراء عامرة تلمع فى خضرتها أبنية بيض عالية، وقصور شامخة ذات أبراج عظيمة، وقباب جميلة رائعة، يتخلل بينها نهر عظيم يجرى بهدوء وفخامة، ويظهر للناظر من الجو كأنه خيط فضى على فرش من سندس خضراء.

فنزل الملك بترا على تل. فاذا هو بدار منفردة بنيت على هضبة عاليـــة. فوصل إليها وقرع الباب. فخرجت إمرأة عجوز، واستقبلته بحفاوة واحترام يليق بشأن الضيف العظيم. فوضع الملك دينارا فى يدها وسألها عن القيام فى دارها لمدة من الزمن، فلعل الله يحدث بعد ذلك أمرا. فمكث عندها حتى جاء الصيف وقوى سلطان الحر، حر يلفح الوجوه ويذيب الصخور. فاحترق به آخر وردة فى الحدائق وآخر ورقة على الأشجار. ثم جاء الخريف وجرد الشجر من الورق، والقلب من المرح. ثم مد الشتاء يده الباردة على الأرض، فقبض على ما فيها من الحيوان والنبات، وشابت لهوله رؤس الجبال بتراكم الثلوج. واشتد البرد القارص، برد يجمد الريق فى الاشداق، والدمع فى الآماق. ثم تبسم

الربيع وألبس الأرض حللا جديدة من سندس خضر. فأورقت الأشجار وتفتحت الأزهار.

ورد الربيع فرحا بوروده ۞ وبنور بهجته ونور وروده
وبحسن منظره وطيب نسيمه ۞ وانيق ملبسه ووشى بروده
والغصن قد كسى الغلائل بعد ما ۞ أخذت يدا كانون فى تجريده
نال الصبا بعد المشيب وقد جرى ۞ ماء الشبيبة فى منابت عوده

فارتاح الملك الشاب بشرا بقدوم الربيع، ولكن قلبه لم يزل حزيناً كئيبا، ولم يدخل إليه الربيع بمناظره الرائعة الجميلة وروائحه الطيبة الزكية. لأنه كان يشتاق إلى من يسليه فى خلوته ويرافقه فى عزلته. فتفرست العجوز بما كان يدور فى قلبه، فقالت:

« يا بنى. أظن إنك تحتاج إلى قرينة فائقة الجمال لتسكن إليها وتبث لها ما فى قلبك من عواطف الحب. فإن ملكنا له بنت وهى بين أترابها كالقمر بين النجوم. واسمها « پاتلى »

فبينما كانت العجوز تصف للملك جمال بنت الملك الفتان إذا بسهم من إله الحب احترق قلبه. فهام بالأميرة قبل أن يراها، وقضى ليلته نازع الصبر ينتظر طلوع الفجر. فلما تبين بياض الفجر على الأفق، وضع الملك قدميه فى الحذاء السحرى وطار فى الجو إلى جهة قصر الأميرة. ثم نزل أمام بابها ونظر من هناك إلى جمالها الرائع. وكان بياض خديها حينذاك يشبه بياض الثلج الطاهر النقى على جبال همالايا. وازداد وجهها رونقا وبهاء حين انعكست عليه حمرة شفق الصبح. فكانت فى حسن منظرها كما قال الشاعر:

خطرت، فقلت قضيب بان حركت ۞ اعطافه بعد الجنوب صباء

ودنت، فقلت غزالة مذعورة * قــد راعها وسط الفلاة بلاء
وبدت، فقلت البدر ليلة تمه * قد قلدته نجومهـا الجوزاء
بسمت، فلاح ضياء لولوء ثغرهـا * فيه لداء العاشقين شفاء
سجـــدت تعظم ربها، فتمايلت * لجلالهـا أربابنا العظماء

فناداها الملك پترا، فنهضت من نومهـا مذعورة. ورأت أمامها شاباً تمثل فى شخصه إله الحب بجماله الساحر فلم تزل تنظر إليـــه حتى أصيبت بسهم من حب الفتى ثم سألته من هو، وكيف وصل إلى قصرها الذى لا يمكن لأحـد أن يجترئ على دخوله ؟

فقص عليها الفتى قصته بأنه ابن ملك نفى من مملـكته، وأنه تجول مدة من الزمن فى البوادى والقفار. ثم بحسن الحظ حصل على الأشياء الثلاثـة التى لها أثر سحرى هائل. وأنه وصل إليها باحتذاءه الحذاء السحرى الذى هو من جملة تلك الأشياء

فتعطفت عليـــه الأميرة، وأخذا يلتقيان فى شرفة القصر الملـكى كل مساء. ويتحادثان ويتفكران فى أحسن طريق لاظهار حبهما على أبيها، وإن نجحا فى مرامهما كيف يقضيان حياتهما، لأنه لم يبق للملك پترا مملكة يحكم فيهـا، ولا قصر ملـكى يأوى إليه، ويجعل الأميرة پاتلى ملكة يسكن إليها ويعيش معها عيشة راضية مطمئنة.

إن طريق الحب هو أشد وعورة وأعظم خطورة. ففى يوم من الأيام بينما كان المحبان يتحادثان ويتبادلان أسرار الحب، رأتهما خادمـــة الأميرة، فأخبرت الملك بما رأت. فأمرها الملك أن تدبر حيلة للقبض على الفتى. فاختفت الخادمة فى زاوية من زوايا الشرفـة. فلما قام پـترا وودعها لليلتها، قامت الخادمة خلفه ورسمت على عباءه علامة حمراء من غير أن يشعر بما فعلت.

وفى اليوم التالى دخل رجال البوليس كل بيت فى البلد للقبض على پترا حتى وصلوا إلى بيت العجوز وقبضوا عليه بالعلامة الحمراء على عباءه، وساقوه إلى القصر الملكى. وأحضروه فى المحكمة أمام الوزير. فحكم عليه بالاعدام قائلا:

«لا يكون عقاب من يجترأ على أن يمس ست الملك إلا الموت».

فقال پترا للوزير

«بفضلك أمهلى ساعة حتى أذهب إلى البيت وأودع أمى العجوز وداعاً لا لقاء بعده».

فأجاب الوزير هـذا الطلب، وأرسله إلى بيته فى صحبة رجال من الجند. فقام الجند على الباب ودخل پترا البيت. واحتـذى الحذاء السحرى، وأخـذ الكأس والعصا وطار فى الجو إلى جهة قصر الأميرة.

ودخل غرفتها فرآها تبكى بكاء مراً بعد أن سمعت من حكم اعدام محبها. فلما رأته قائما بين يديها حسبته خيالا تجسم أمامها. فقال لها پترا.

«على أيتها الحبيبة ولا تضيعى الوقت. فعلينا أن نخرج من هنا بالفور، ونطير حيث نشاء».

ثم أخذ يدها واحتـذى الحذاء السحرى وطار بها على الأودية والجبال والسهول، حتى نزلا فى سهل فسيح والجوع قد أخذ منهما كل مأخذ. فأخرج الكأس فاذا فيها ما يحتاجان إليه من الأطعمة الشهية. فأكلا منها حتى شبعا. ثم لما علمت پاتلى ما كان للعصا من الأثر السحرى، قالت لپترا:

«كيف يمكن لنا أن نعيش هكذا وليست لنا مملكة نحكمها ولا عاصمة نسكن فيها؟»

وأمرته بتخطيط بلدة عظيمة بتلك العصا، بشوارعها، وبيوتها، وأسواقها، وأنهارها، ومعابدها، وقصورها، وجندها، وأفراسها، وأفيالها. فلما فرغ من تخطيط

البلدة انقلبت الأرض وارتفعت الرمال وانخفضت، وبعد هنيئة انقشعت سحب الغبار وظهرت بلدة عظيمة آهلة بالناس بكل ما يلزم للعاصمة من الأبنية العالية، والقصور الشامخة، والشوارع الواسعة، والأسواق الجميلة وغيرها. وسميا البلدة باسميهما « پاتلی پترا ».

هكذا نشئت بلدة پاتلی پترا، بلدة الجمال، والثروة، والعلم فی تاريخ الهند الدهی القديم.

الهند فى فترة ما قبل التاريخ

تكوين طبقات الأرض

يجب أن ينظر إلى الهند فى فترة ما قبل التاريخ من الناحيتين . الطبيعية والانسانية . فشكل الهند الجغرافى كما نشاهده اليوم على الخريطة الجغرافية لم يتم تكوينه فى يوم واحد، بل إنه جاء نتيجة لحقبة طويلة من التطور الجيولوجى أو التكوين الأرضى . كانت الأرض مثل الشمس، كومة متحركة محترقة، لم تبدو عليها أى بلد من البلدان كالهند مثلا، كما أنها لم تكن تضم على أية حياة أو أشكال مجسمة وقد اصطلح علماء طبقات الأرض على تقسيم أدوار تكوين الأرض إلى أربعة عصور، كل منها قسم بدوره إلى عصور متفرعة بخصوص الحياة .

والعصور هى :

١ - أزوئى (Azoic) العصر الذى لم تكن فيه الحياة على الأرض ؛

٢ - پالوزوئى (Paloeozoic) العصر الذى شاهد ظهور أنواع من الحياة أولا فى شكل حيوانات عديمة الفقرات كحامول البحر، ثم بعد ذلك كالسمك والأفاعى والطيور، وظهور أشجار وغابات هائلة التى أصبحت معادن الفحم فى الأرض ؛

٣ - ميسوزوئى (Mesozoic). العصر الذى شاهد بعث الحياة فى أطوارها المتوسطة ؛

٤ - كينوزوئى (Cainozoic). العصر الذى شاهد الحياة فى أطوارها الحديثة والذى تطورت فيه الحيوانات اللبنية التى انبعث منها الأنسان .

والثابت أن الحياة بدأت تظهر على الأرض عندما أخذت الأخيرة تبرد وتتجمد وتتصلب. وقد تسنى للارض أن تبلغ شكلها الحالى بفضل الزلازل وثوران البراكين، وتقلبات الجو والطقس. وبهذه الصورة أخذت الهند شكلها. فقد تم نباتها تدريجيا. وبعض أجزائها قديم العهد — الأجزاء التى تجمدت فى بداية الأمر. فلها أساس صخرية قديمة كقدامة الوجود. والسلسلة الصخرية تمتد عبرها من الشمال إلى الجنوب. وجزء الهند الذى على شبه الجزيرة، والدكن وجنوبى الهند هى من أجزائها القديمة. وإن السهول التى تؤلف شمالى الهند هى حديثة العهد بالمقارنة، والجزء الذى على شبه الجزيرة كان فى البداية جزءا من قارة أخرى يسميها علماء طبقات الأرض بـ «گوندوانا» (Gondwana) وكانت تمتد هذه القارة من أفريقيا الجنوبية، مارة عبر استراليا، حتى تبلغ أمريكا الجنوبية. ويستدل على ذلك من مماثلة البقايا المستخرجة من حفريات الأرض فى جميع هذه المنطقة. وكانت سلسلة الجبال الغربية (Western Ghats)، بمثابة سور بين الجزئين: الشرقى والغربى لقارة گوندوانا. ولهذا نجد أن مياه الأنهر فى شبه الجزيرة الهندية تجرى من منابع لها قريبة من بحر العرب فى اتجاه معاكس حتى تصب فى خليج بنغال. وفى الشمال كان بحر المحيط الأوربى - الاسيوى المعروف بمحيط تاتيس (Tethys). قد اكتسح هذه المنطقة بأسرها بادءاً من أوربا الوسطى على طول آسيا الصغرى إلى الهند الشمالية وبرما. أما فى الهند فكان «أراوليس» (Aravalıs) الوحيد الذى أطل على هذا الأوقيانوس. والمشابهة التى توجد فى البقايا الأثرية من حفريات الأرض فى أماكن منفصلة متباعدة كالصين، وأواسط همالايا، وبرما، تشير إلى عدم وجود أى حاجز فى التنقلات فى الأوقيانوس.

وبعد فترة طويلة من الزمن وقعت الهزات الأرضية الابتدائية لرسم الجبال وتشكيلها. فتقهقر وتراجع أوقيانوس تاتيس باتجاه غربى، وأخذت أرضه ترتفع، والأراضى على جانبي الأوقيانوس أخذت تتقرب بعضها إلى بعض.

أما الوديعات الناعمة فى البحر التى حالت دونها، انطوت وتحطمت وتقلبت فى صورة جبال الهند «هماليا»، وجبال فارس، وجبال كارپتيا (Carpathia)، وجبال آلپ (Alps). وكانت الحركة الرئيسية إرتجاع آسيا إلى الجنوب واندفاع رواسب البحر ضد كتلة الهند الراسخة، أى النواحى الشمالية فى شبه الجزيرة الهندية التى تحملت شدة صدمة الهزة، وتكسرت شيئا ما، وتشاركت فى الانكماش والانطواء. ويرى علماء طبقات الأرض آثار هذا الانكماش والانطواء فى أواسط جبال هماليا حتى فى أعالى قممها وفى منخفضاتها حول شملا (Simla). وذلك على نفس النحو الذى يشاهد فى الرواسب البحرية المطوية فى الجزء الشمالى من قطاع دهره دون ـ شملا ـ اسپيتى (Dehradun-Simla-Spti)

وقد نشأت فى نفس الوقت، الأراضى الواقعة بين جبال هماليا والمرتفعات الدكنية فسطحات الأراضى فى النواحى الشمالية من الهند نشأت وتكونت بعد فترة طويلة من العصور، وذلك من تعبئة الانخفاض أو البحر تدريجيا بالمواد التى جرفت من أعالى التلال الشمالية فكان هنالك فترة طويلة بعد أن أخذت الهند شكلها الجغرافى الحاضر إلى أن ظهر آدم فى الهند ليرتب تاريخها. فبدأ التاريخ البشرى بمدة طويلة بعد أن اكتمل تاريخ البلاد الطبيعى وتمهدت الظروف الداعية لظهور آدم

الثقافة فى ما قبل التاريخ

العصور الحجرية

إن المواد المختلفة التى كان يستخدمها الانسان لسد حاجاته الأولية تدل على المراحل المختلفة التى اجتازها فى تاريخه البدائى. وتوجد هذه المواد فى الأغلب فى المعـدات، والأسلحة، والأحراف، والقبور. وكان هذا المواد فى المراحل الأولى يصنع من الحجر وينحت بصورة خشنة. وقد عثر عليه فى الغالب إلى

جانب بقايا الحيوانات المقرضة. وعلى هذا الأساس فان أقدم عصور الثقافة يعرف بالعصر الحجرى القديم.

ويليه العصرى الحجرى الجديد الذى يتميز بالتحسن الذى طرأ على صناعة الأدوات الحجرية التى قطعت ونحتت ثم صقلت على وجه أنيق، ولها صلة مع بقايا الحيوانات غير منقرضة ويتميز هذا العصر باستعمال الفخار التى كانت تصنع بادئ ذى بدء بالأيدى، ثم بعد حين على الدواليب. وكما يتميز أيضا بتكريم الموتى بدفن جثثهم فى قبور صنعت من حجارة ذات أحجام ضخمة. ويتضح من كل هذا أن هوة سحيقة من الزمن قد حالت بين العصرين الحجريين. أما الأدوار التالية فى الارتقاء فتكونت بسرعة وبدون شعور بها — العصور التى امتازت باستعمال النحاس، ومركباته (البرونز)، والحديد.

وقد اجتازت الهند كأى بلاد أخرى فى جميع مراحل التطور المشار إليها. ولكن يبدو أنها فاتتها العصر البرونزى (إلا فى أماكن قليلة) واستعاضت عنه بعصر كالعصر النحاسى

والواقع أن بقايا العصر الحجرى القديم فى الهند نادرة. ولم يعثر عليها إلا فى المنطقة الدكنية والهند الجنوبية على اعتبار أن هاتين المنطقتين من أقدم مناطق الهند من ناحية تكوين الأرض. وقد عثر على هذه الأشياء فى بطن طبقات من الطوب والعظام الواقعة ٥٢° جنوبى خط العرض الشمالى، وهى مصنوعة بمادة من الصوان. ولذلك سمى الانسان الذى عاش فى العصر الحجرى القديم بالانسان الصوانى. وقد عثر على عدة أدوات صوانية قريب مدينة مدراس واونكول فى فى مقاطعة گنتور، وأخرى فى كداپا التى كانت بفضل صخورها الصوانية مركز ثقافة العصر الحجرى القديم، كما كانت بلارى موطن الثقافة الحجرى الحديد.

لقد عثر على بقايا العصر الحجرى القديم منعزلة فى عدة من الأماكن

الأخرى. كما عثر على أداة جميلة الصنعة بيضاوية الشكل نحتت من الصو
وادى «برمادا» فى ما بعد الطبقة الثالثة الرمادية التى تضم بقايا جاموس النهر
من الحيوانات المنقرضة وعثر أيضاً على رماد العقيق اليمانى فى مكان مماثل
وادى «گوداورى». وكذلك اسفرت أودية «كون» الصيقة فى منطقة مر
عن أدوات يعتقد أنها تنتمى إلى العصر الحجرى الحديد بسبب محل وجو
وعثر على شوكة سمكة مسننة صنعت على شاكلة رأس السهم فى حفر
راسب نهر گنگا فى مقاطعة غازى پور، تحت طبقة تضم أدوات مصقولة
العصر الحجرى الحديد.

إن رجال العصر الحجرى القديم ألزموا أنفسهم بالمناطق الصوانية كسوا
گوداپا ومدراس، بينما رجال العصرى الحجرى الحديد انتشروا فى جميع أ
الهند. وقد زندت محلفاتهم بالاتساع كما يلى.

١ ـ «صوان قصارى» أو أدوات حجرية صغيرة الأحجام، تتراوح طو
بين نصف بوصة وبوصة ونصف وقد صنعت على شاكلة رأس رمح،
هلال، أو على أشكال معقدة. والظاهر أنها عنيت لتوافق تركيب قبضة
خشب عليها لمختلف استعمالها وقد عثر على كمية منها فى تلال «وندیا» و
ناگلكند، وريوا، ومرزاپور على العموم، وفى بطون الكهوف أو الملاجئ
الصخرية مع الرماد أو فحم المدفأة أو فى أكوام القبور، إلى جانب هياكل
كاملة أو أوان فخارية خشنة. وعثر على فأس مستغرب من البرونز صنع
على شاكلة أزميل، مرتفع الأكتاف فى چوتا ناگپور، وآسام، وبكثرة فى
برما، والهند الصينية، وشبه جزيرة ملايا.

٢ ـ مصانع الأدوات: قد عثر على مراكز متعددة تضم مستعمرات العصر الحجرى
الحديد ومصانع الأدوات فى جنوب الهند. وهذه الأدوات قد تم صقلها

رسوم من تراب معدنى أحمر أو من أحجار الدم. تمثل
الأيل، والتمساح والصيادين — (من مجموعة بى سى راى)

على ما يبدو من صخر بلورى وعليها محاذ يتراوح طولها من عشرة بوصه إلى أربعة عشر، وعمقها حوالى بوصتين. وعثر أيضا بكثرة فى هذه المستعمرات على نوع ممتاز من الأوانى الفخارية المصنوعة بواسطة الدواليب، وأيضا مساحق صنعت من الحجر وقطع من أحجار الدم لصنع الألوان.

٣ ـ مقاطف الكومات الرماديـة الموجودة فى مقاطعة بيلارى من أعمال جنوبى الهند. والمفترض أن هذه هى نتيجة ذبح الحيوانات وحرقها بأكملها. وقد أسفرت عن أدوات ترجع إلى العصر الحجرى الجديد.

٤ ـ علامـة الأكواب أو نحت نقوش على الأحجار والصخور وهى توجـد فى أماكن عديدة من الهند

٥ ـ رسوم مصنوعة من تراب معدنى أحمر أو من أحجار الدم. وهى تتوفر:

(ا) فى تلال وندبا من أعمال مقاطعـة ميرزابور ممثلة بعض الصيادين مصحوبين برماح مسننة. وقد هموا بالانقضاض على الكركدن المنقرض.

(ب) فى كهوف مقاطعة هوشنگ‌آباد، تمثل زرافة.

(ت) فى تلال كايمور، وهى تمثل صيد الأيايل.

(ث) فى سنگبوره، وهى تمثل حيوانا على شاكلة القنفر، وأيضاً على شاكلة حصان أو غزال. وكثيرا ما تشابه الرسوم الأسبانية فى العصر المماثل. وإن هـذه الرسوم التى هى من ما قبل التاريخ، يعثر عليها إلى جانب الأدوات التى كانت تستعمل فى العصر الحجرى الجديد.

٦ ـ القبور: بينما هجر أهل العصر الحجرى القـديم جثث موتاهم فى الغابات، كان يصرفها أهل العصر الحجرى الجديد بطريقة الدفن المتمدنة. ولـكن المقابر التى ترجع إلى العصر الحجرى الجديد قلما توجد فى الهند. ولقد عثر

على هيكل لجثة بشرية إلى جانب أدوات مصقلة مصنوعة من المحار والزجاج فى تربة بميرراپور ووجود مقبرة تضم ٥٥ قبرا مع بعض الأدوات الفخارية فى مقاطعة كولا، وفى تاقرام على مقربة من مدراس عثر على أكوام من تراب التى تضم توابيت الموتى الفخارية، منها على شكل مستطيل للاناث، وآخرى على شكل الكمثرى للذكور. وكانوا يدفنون على صورة مكمشة. وفى أماكن أخرى من مقاطعة مدراس مثل چنگل پيت، وويلور، واركوت عثر على توابيت فخارية مستطيلة مثلها، ولكن مصحوبة تارة بأدوات حديدية. وتوجد القبور الحجرية ذات الأشكال المختلفة فى كل مكان فى مدراس، وبومباى، وميسور، ومقاطعة النظام الدكنية، وإن كانت أغلبيتها ترد إلى فترة ما بعد العصر الحجرى الحديد نظراً للادوات الحديدية التى تضمها. كما أنها تقيم الدلائل على حرق جثث موتاهم وكذلك جرى أهل العصر الحجرى الحديد على طريقة دفن موتاهم فى الأوعية ولكن الأوعية لم تضم رماد احثاث محروقة بل جثثا كاملة ضغطت فى الحجم بالسحق أو القطع. وفى اديچنلور من أعمال مقاطعة تندى ويلى الواقعة على نهر تمراپرنى عثر على مقبرة واسعة تبلغ مساحتها حوالى ١١٤ «ايكر» (أى ٤٨٤٠ يارده مربعة). يضم كل ايكر منها حوالى ألف أوعية مدفونة تحت الأرض. ولا بد من أن أجزاء من مدينة المقابر هذه يرجع إلى العصر الحجرى الحديد نظراً للادوات الحجرية التى تضمها. ولكن القسم الأعظم منها حديث العهد بكثير نظراً للادوات الحديدية الموجودة فيها، وأدوات الزينة المصنوعة من البرونز ومن الذهب أيضاً. وتوجد أمثال الدفن فى الأوعية فى برهمن آباد من أعمال السند أيضاً.

العصر النحاسى

كان العصر الذى تعاقب على العصر الحجرى عصراً حديديا فى جنوبى الهند،

وعصراً نحاسياً فى شمالى الهند. وعلى ما يلوح لم يكن هنالك عصراً برونزيا قبل العصر الحديدى فى الهند إلا فى السند كما سيأتى. والبرونز يتألف من تسعة أجزاء من النحاس وجزء من الصفيح. إن الأشياء المتعددة المصنوعة من البرونز التى اكتشفت فى المقابر الأثرية فى جنوبى الهند هى أشياء تدل على رغد العيش، كالطاسات ويعتقد أنها إما ترجع إلى عصر متأخر أو أنها مستوردة ولقطة من نحاس، أتت من قرية كنجيريا فى الهند الوسطى. فاللقطة تحتوى على ٤٢٤ أداة نحاسية حد قريبة فى الشبه بالأدوات النحاسية القديمة فى ايرلندا، يرجع تاريخها إلى ٢٠٠٠ عام ق. م. وقد ضم الكنز لوحات من الفضة تحتوى على أقراص مستديرة، وتماثيل رأس ثور بقرنيه ولا بد أن هذه الفضة كانت نادرة فى الهند، فلعلها كانت مستوردة أما النحاس فيوجد فى الهند، والمعتقد أنه هو المراد بـ « أيا » الأحمر المذكور فى رگويدا وبالاضافة إلى الكنز فى گنجيريا المحتوية على الأدوات النحاسية قد عثر على أدوات قديمة، وصارات، وسيوف، ورؤوس رماح مصنوعة من نفس المادة فى مقاطعات كانپور، وفتح گره، ومين پور، وماثور، بل فى جميع المواضع فى شمال الهند بأسرها، أى تقريباً من نهر هوگلى (فى الشرق) حتى الجانب الأقصى من نهر إندس (فى الغرب)، ومن منخفضات جبال هماليا حتى مقاطعة كانپور

استخدام الحديد

سبق شمالى الهند فى استخدام الحديد على جنوبى الهند، كما سبق البابليون فى استعماله على المصريين. وقد أشار إليه اثرواويدا الذى ليس متأخراً عن ٢٥٠٠ عام ق. م. ويقول هيرودوتس: إن الجنود الهنود الذين حاربوا فى أوربا ضد اليونان فى سنة ٤٨٠ ق. م. تحت قيادة الامبراطور الايرانى اكزرسيس (Xerxes) قد استخدموا أسهاما من خيزران ذات رؤوس حديدية. وفى

الغزوات التي شنها الاسكندر على الهند فيما بعد، فان الهنود — حسب ما رواه المؤلفون اليونانيون — حذقوا استخدام الحديد والفولاذ كاليونانيين أنفسهم. وقيل أيضا أن بعضا من زعماء مقاطعة بنجاب قدموا إلى الاسكندر هدية مائة «تيلنت» (كل تيلينت يساوى ٨٤ رطلا) من الفولاذ.

حضارة إندس (Indus)

٣٧٥٠ إلى ٢٧٥ ق م

كانت لدينا شهادات ضئيلة عن فترة ما قبل التاريخ مبعثرة فى طول البلاد وعرضها، إلا أن التنقيبات الأثرية التى أجريت فى المنطقة كشفت النقاب مؤخرا عن مجموعة كبيرة محتشدة مقسمة من الشهادات فى مركزين. هما «هارابا» الواقعة ما بين لاهور وملتان، و «موهنجودارو» (أى مقام الموتى) الواقعة فى مقاطعة لاركانا فى السند. ويستدل من هذه القرائن على قيام حضارة كاملة يمكن أن يشار إليها بحضارة إندس القائمة فى منطقة ذات مياه وغابات، وافرة فى ما مضى مما هى الآن. إن الأمطار فى السند فى تلك العصور القديمة كانت أشد غزارة مما هى عليه الآن بدلالة استخدام اللبنات المحروقة فى الفرن لتغطية الجهات المكشوفة من مبانيهم القديمة، واستعمال اللبنات المحمصة فى الشمس فى تعبئة القواعد وملئها لكى تحفظ من العوامل الجوية ودلالة أخرى هى أختام رسمت عليها صور للحيوانات التى تسكن غابات كثيفة. ودلالة أخرى هى نظام متقن لمجارى المياه الذى أقيم فى المدينة. وكانت منطقة السند فى تلك الحقبة من التاريخ لا تستمد مياهها من نهر إندس (وفروعه) فحسب، بل من مياه نهر آخر هو نهرمهران العظيم الذى بقى جاريا حتى القرن الرابع عشر الميلادى. وكان هــذان النهران يقسمان فى ما بينهما كميات المياه الضخمة المصبة من الأنهار الخمس الواقعة فى مقاطعة بنجاب. وإليهما يعود الفضل مبدئياً فى قيام هذه المدنية القديمــة فى

المنظر الداخلى للقاعة فى موهنجودارو
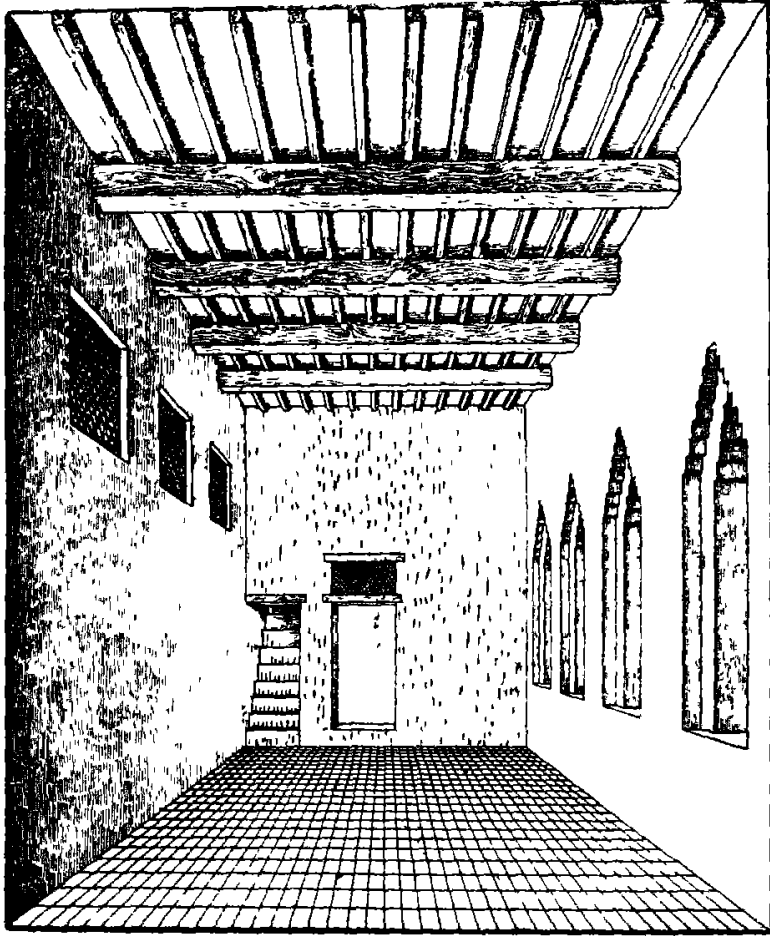
فن حضارة إندس — ٢٧٥٠ إلى ٢٧٥٠ ق م

مجاري في موهنجودارو
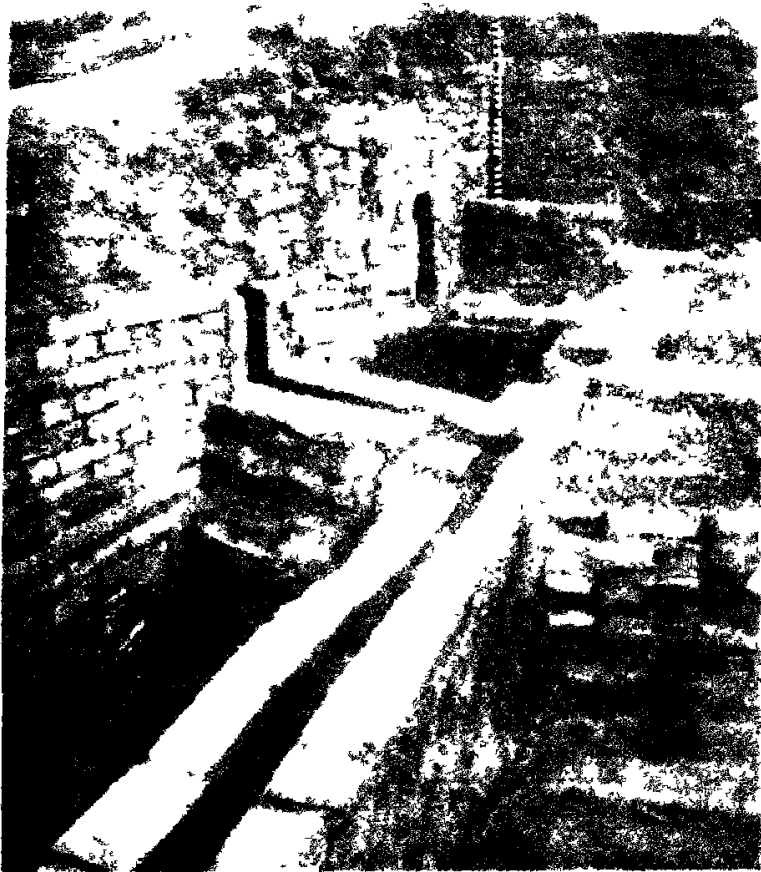
السنـــد. وعلى نفس النحو عثر السير اوريل ستاين (Sir Aurel Stein) على بقايا مستعمرات وسيعة غنية، تشير عهدها إلى ما قبل التاريخ فى إحدى المناطق المجاورة لجنوبى بلوچستان. وقد استمرت رفاهية السند وإزدهارها حتى عهد امبراطور فارس فى القرن الخامس ق. م. (كانت السند فى عهده مقاطعة لها)، وفى عهد الاسكندر الأكبر الذى رآها جزءاً أكثر ترعرع دون غيرها من أجزاء الهند تحت الحاكم موسيكانوس (موشيكا أو موچوكرنا؟). وهـذه المنطقة كانت معرضة للفيضانات كما يستدل على ذلك بالأسس الراسخة والردهات العاليـــة التى استخدمت فى بناءات موهنجودارو.

قامت على سطح الموضع الذى عليه موهنجودارو سلسلة من قمم يتراوح علوها من ٧٠ إلى ٢٠ قدم. وفى المساحات الواقعة ما بين هذه القمم وبين مستوى المياه فى بطن الأرض، عثر على سبع طبقات من البقايا، يرجع عهد الثلاثـــة الأولى منها إلى عصر حديث وثلاثة أخرى إلى عصر متوسط قبله، وأما السابعة فترجع إلى العصر الابتدائى. والمعتقد أن هناك طبقات أخرى أكثر قدما من هـذه الآثار دفنت تحت المياه على عمق ٤٠ قدما من سطح الأرض، على أن الطبقات التى اكتشفت إلى الآن على قيام حضارة كاملة ترد أسسها ومبدأها إلى فترة أقدم أى إلى ما لا يقل عن ألف عام.

بقاياها: مبانيها

وهى تحتوى على أماكن للسكنى وأماكن للعبادة وحمامات عامة شعبية للاغراض الدنيوية والدينية، ودار أخرى واسعة فسيحة على شاكلة القصر واجهتها ٨٥ قدما وناحيتها القصوى ٩٧ قدما، ولها قاعة فسيحة للاستقبال ومدخل واسع، وغرفة البواب، وحوش تبلغ مساحته ٣٢ قدما مربعاً تحيط به غرف فى الطابقين الأعلى والأسفل مرصوفـــة بالطوب، ولها مجرى مغطى يتصل بمجارى عامودية

تصب مياهها فى آبة فخارية دفنت تحت رصيف الحوش لمستراحات الطبقة العليا. وهناك مبان أخرى متسعة غاية الاتساع عها، ويحتمل أنها هياكل المعابد. وعثر أيضاً على قاعة فيها ٢٠ عمودا من الطوب تبلغ مساحتها تسعين قدما مربعاً، ويرجع عهدها إلى الحقبة الوسطى.

ولكن أروع بناء هو المغسل الكبير الذى يستعمل كدائرة مصحة مائية رسمية، وقد أضيفت إليه ملحقات عديدة ويتألف هذا المغسل

(ا) ساحة مربعة مفتوحة ذات ردهات تسدها دهاليز وغرف من جميع الجوانب.

(ب) مغسل للساحة بطول ٣٠ قدما وعرض ٢٣ والعمق ٨ أقدام فى وسط المساحة المربعة، وله مجموعة من الدرج فى الأطراف.

(ت) طبقة عليا من الخشب بدليل الفحم الحجرى أو الرماد الذى عثر عليه.

إن تشييد هذا المغسل للساحة يعكس فصلا وافيا فى الكفاءة الهندسية فى ذلك العصر. ولكى يكون مسيكا وتدعيما لأسسه، قد صنع باطنه من الطوب الناعم المغطى بطبقة من طين الجبس يبلغ سمكها أربعة أقدام، ودعمت هذه بطبقة سمكها بوصة من القير الذى لا تؤثر عليه الرطوبة، ثم عززت من ورائها بجدار خفيف آخر من الطوب المحروق، وأتى بعدها حشوة من الطوب الخام، وعليها مرة أخرى سور مستطيل من الطوب المحروق الذى أحاط الجميع. ولهذا بقى هذا الحوض محفوظاً إلى هذا الحد إلى الآن، بعد أن انقضى عليها زهاء خمسة آلاف عام.

ومن إضافات هذا المغسل الكبير يفرض وجود حمام أو مغسل فى الهواء الدافئ، فهنالك آثار جدران قصيرة تحمل أرض الحمام، ومداخن عامودية لتدفئة الغرفة دلالة نظام التدفئة بمحرق تحتانى.

المغسل الكبير

آثار قديمة أخرى، وفنون لطيفة، وصناعات

إن نمو هذه المدن الابتدائية توقف على العوامل الزراعية والتجارية. وهنالك عينات قمح وشعير أخرجت من الدفن كانا يزرعان فى ذلك الحين — وعينات مسحق ورحى من أحجار غير مستديرة لطحنها. وكانت تزرع أيضاً شجرة التمر، بدلالة ما عثر عليه من النوى.

تألف غذاء سكان إندس من لحم الخروف، والبقر، والخنزير، والطيور، ولحم السلاحف البحرية، والبرية، وأسماك الأنهار، أو ما جئ بها من البحر. وقد عثر على عظام أو أصداف كل هذه الحيوانات فى الخرائب.

ويستدل من بقايا الهياكل أن الحيوانات التالية كانت تدجن فى ذلك العصر: الثور الأحدب، والجاموس، والغنم، والفيل، والجمل، والخنزير، والدجاج، ويمكن أن يكون الكلب أيضاً.

واكتشفت أيضاً البقايا للحيوانات البرية التالية: النمس، والتربات (شبيه بالفار)، والفأر الأسود، والايل، وتماثيل صغيرة لحيوان برى يشبه الثور، والكركدن، والنمر، والقرد، والدب، والأرنب.

المعادن وماداتها

قد استعمل الذهب والفضة، والنحاس، والصفيح، والرصاص، إلا أن الحديد لم يك معروفا على الاطلاق وقد تبين أن الذهب المستعمل يتضمن خلطة من الفضة تعرف بـ «إلكترون» (Electron) ولا بد من أنه تسرب إلى البلاد عن طريق التداول التجارى من أماكن كولار، واناتاپور فى الجنوب مثلا. فالذهب من هذا القسم يوجد هناك. وكان الذهب يستخدم فى صنع الحلى.

والنحاس الذى استعمل فى معية الرصاص لا بد، وأن كان مستورداً من راجپوتانا، أو بلوچستان، أو إيران، التى توجد فيها الرصاص بمعية أحجار النحاس

المعدنية. والآن استعيض الحجر بالنحاس فى صناعة الأسلحة، والأدوات، والآنية المنزلية كرؤوس الرماح، والسكاكين، والفأسات، والأزميلات؛ أو الحلى كالأساور والحلقات وغيرها وقد وجد النحاس هنا فى الطبقة الابتدائية أقدم عهد بكثير من ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد. ويثبت استعماله عـــلى نطاق واسع فى العصور الابتدائية بكثير، بالأدوات المصنوعة من النحاس المدقوق التى وجدت منها ٤٢٤ قطعة فى كنجيريا كما ذكرناها آنفا.

أما الصفيح فلم يستعمل بذاته بل كان يخلط مع النحاس لانتاج البرونز المحتوى على ٦ إلى ١٣ فى المائة من الصفيح. وكان البرونز يؤثر على النحاس فى صناعة الأدوات ذات الأطراف الحادة أو لألطف إنجاز. وحيث إنه اكتشف فى الطبقة الابتدائية القديمـــة فلا بد أنه كان مستعملا قبل عام ٣٠٠٠ ق.م. وهـذا ما يبرر النظرية القائلة بأن الهند لم تعهـــد عصراً برونزياً بالكليـة. إن الموارد التى كان يستمد منهـا البرونز والصفيح المستعمل فى مناطق السند كانت خارج الهـــد، وكانت تنقل إلى الهند من إيران الشماليـة وأفغانستان الغربية، عن طريق «ممر بولان» (Bolan Pass). ومقاطعة هزارى باغ كانت المصدر الوحيد فى الهـــد على أنها لم تكن فى متناول سكان إندس نظراً لبعـد المسافة التى تفصل بينهما.

واستخــــدم فى البـــناء وأعمال أخرى أحجار مختلفة، أوتى بهـا من دانى الأماكن وأقاصيها. والحجارة الكلسيـة المستوردة من سكهر كانت تستعمـل فى تغطية المجارى كما أن تلال كرتار قدمت اللازم من الجبس الذى يستعمل كمونة ورخام فى صنع ستارات مشبكة، والأوانى، والتماثيل. واستخـــدمت الحجارة الصلبـة من المناطق المجاورة، كصخر البلور والحجر النارى، فى صنع المسحق والرحى، ووقبات الأبواب، والمثاقيل للوزن. ونحتت أحجار الصوان وسنت حتى

تصير مثاقيلا وصقالات ، أو شحذت لتستعمل كالسكاكين ، كما استعمل أنواع أخرى من الحجارة لصنع الخواتيم والتماثيل الصغيرة . أما الحجارة الصفراء من جيسلمير فهى المادة التى توجد فى التماثيل وغير ذلك من طقوس العبادة . واستخدمت أنواع مختلفة من الحجارة الشبيهة بالكريمة فى صنع المسابح وأدوات الزينة كالحجر البلورى ، أو حجر الدم ، أو العقيق الأحمر أو اليشب ، أو اليشف ، أو الزبرجد . والحجر الأخضر الدقيق « امازون » (Amazon) الناعم ورد من مصدره الوحيد فى الهند أى من دودابتا (Doddabetta) فى جبال نيلگيرى ، والحجر الكريم الأزرق « أماتست » (Amathyst) من مصيدة دكنية ، والحجر اللازورد (Lapıslazulı) جاء من بدخشان ، والفيروز من خراسان ، واليشم (Jadıte) من جبال پامير ، وتركستان الشرقية ، والتبت .

واستعمل أيضا مواد أخرى كالعظم ، أو العاج ، أو الصدف ، أو الخزف . وجاء الصدف من السواحل الهندية ، والخليج الفارسى ، أو البحر الأحمر .

ويستدل من مجموعة فلكات المغزل التى عثر عليها فى بيوت موهنجودارو أن الغزل كان عادة مألوفة بين عامة الطبقات الغنية والفقيرة على السواء . ودلالته التفاوت فى الفلكات المكتشفة بعضها غال من الخزف وأخرى رخيصة من الفخار أو الصدف . أما المواد التى استخدمت فى صنع المنسوجات فكانت الصوف والقطن وقد دلت التحقيقات الفنية حول كسرات من القطن وجدت ملتصقة بوعاء فضى على أن القطن المستعمل فى ذلك العصر يشابه القطن الهندى الحالى الخشن بما يتميز به من تركيبه الملفوف . وعلى هذا فان القطن الهندى المحلى كان معروفا عند أهل بابل باسم « سندو » وعند أهل اليونان باسم « سندون » . وإنه كان قطنا أصليا ، وليس قطنا من نتاج الأشجار حسب الاعتقاد السائد إلى الآن .

أما أزياء تلك الأيام فشملت الشالات كما نقش على تمثالين . وكان الرجال

طلقون لحى قصيرة وسوالف، وكانوا يحلقون شواربهم تارة كما كان فى سومر، كانوا يسرحون شعرهم إلى الوراء ثم يعقدونها بمساعدة شبكة ويتركونها فى ظهر لرأس. وتارة عثر على غطاء للرأس تجعد إلى نقطة فى ظهره بصورة مجعدة أو غطاء أطول بحافة ملفوفة وعثر على ثلاثة تماثيل للراقصات وقد لففن شعرهن فى كومة بحيث تمر بالأذن اليسرى وتتدلى على الكتف الأيمن.

وشملت الحلى فى الدرجة الأولى القلادات، وعصابات للجبين، والأساور، وخواتم الأنامل للرجال والنساء، والزنار، والحلقات، والخلاخل. كانت الحلى تصنع للأغنياء بالذهب، والفضة، والخزف، والعاج، أو بالحجارة الكريمة الوسطى، وللطبقة الفقيرة بالصدف، والعظم، والنحاس، والمحار. وكان العقيق الأحمر يثقب بحذق ومهارة يستعمل كالخرزات فى الزنار

إن حضارة إندس تنتمى إلى العصر النحاسى، وبرهانه استعمال الأسلحة والأوانى الحجرية والنحاسية والبرونزية فى آن واحد. وكانت أسلحة الحرب والصيد القوس والسهم، والرمح، والفأس، والخنجر، والصولجان على أن صنع السيوف لم يوصل إليها بعد ولا إلى الدرع لوقاية الجسم. ويذكر من بين المعدات الأخرى الطار، والمناجل، والمناشير، والأزميلات، والمواسى، المصنوعة من النحاس والبرونز والسكاكين والفأسات المصنوعة من المعدنين المذكورين ومن الأحجار الصوانيـــة والحجارة الصلبة. وبعض الأشياء الحجرية كالصحون والطاسات، والزهريات، وصناديق الزينة، ولوحات ألوان المصور، والمصقلات أو المثقالات، وقد تركت مهارة عصر الحجرى أو النحاسى وراثها بكثير.

ونظرا إلى قلة اللقطات من الأسلحة التى تستخدم فى الهجوم أو الدفاع، يمكننا أن نعتقد أن سكان موهنجودارو لم يكونوا عسكريين إلى حد كبير، ولم تساورهم مخاوف بوقوع غارات عليهم.

ومثقالات الوزن الاندسية، لها أهميتها. الصغار منها كانت مكعبة من حجر صوانى أو من الأزدوار، والكبار منها مخروطة الشكل. وكانت هذه المثقالات أكثر إتقانا واستقامة من مثقالات إيلام وبلاد ما بين النهرين. وسلسلة نسبة بعضها ببعض كانت ثنائية فى الابتداء كمثقالات سوسا ولكن اعشاريا فى ما بعد، أى ١، ٢، ٤، ٨، ١٦، ٣٢، ٦٤، ١٦٠، ٢٠٠، ٣٢٠، ٦٤٠، ١٦٠٠. والمثقال المستعمل بكثرة كان ذى نسبة ١٦، ووزنه ١٣٧١ جرام.

وكانت الأوانى المنزلية السائدة فخارية ذات أنواع وأشكال مختلفة: حمالات التقديم، والكؤوس، والمسحات وجرات التحرير، وأمثالها. ووجود عدد كبير من الكؤوس أو أقداح الشرب يظهر عادة الاندسى — ولا تزال عادة هندوسية — أن تنبذ الأقداح بعد استعمالها للشرب مرة واحدة.

وكانت الأوانى الفخارية الأندسية تصنع عادة على الدواليب، وتصبغ باللونين الأحمر والأسود. وبعضها كانت أيضا معلولة، ومتعددة الألوان، ومصقلة. والفخارات المصقلة الاندسية هى أقدم نموذج من نوعها، وأيضا من نوع صناعة ناعمة فى العصور القديمة فى العالم. وقد ظهرت فى بلاد ما بين النهرين ١,٠٠٠ عام ق. م. وبعد ذلك بكثير فى مصر. وصنعت ألعوبات فخارية متنوعة بكثرة، منها الخشخيشة، والصفارات (على شكل الطيور)، وأجسام الرجال والنساء، والطيور، والعربات. وكانت الطيور مركبة على دواليب، والثيران مشددة إلى نير العربات. والعربات هى أقدم نماذج ما عرف من نوعها، كالعربة المنقوشة على إحدى الحجارة فى «أور» (Ur) — (يؤرخها «وولى» (Woolly) بعام ٣٢٠٠ ق. م).

وأصحاب إندس قد اخترعوا الكتابة، واستعملوا طريقة كتابة تنتمى إلى نفس النظام المتداول فى ذلك العهد، شبه الكتابة التصويرية كما كان الايلامى

(Elamitic) فى بداية الأمر، والسميرى (Sumerian) القـديم، والمينوئى (Minoan)، والمصرى وغيرهم. وقد عثر على ٣٩٦ علامة لهذه الكتابة، وما عدا ذلك نقوش على الشمع، والأختام، وقطعات الأخزاف، ولوحات نحاسية وأيضا على الأساور الطينية المزججة ووجدت «العلامات» مزدوجة وعدلت الحروف باضافة حركات أو خطوط.

وتشاهد أيضاً مجموعة خطوط لن يتعدى عددها اثنى عشر، وقد تكون لها القيمة اللفظية لا العددية. ويلاحظ أن الكتابة كانت من الأيمن إلى الأيسر، باستثناء ما يكتب منها للتكميل وكأن وفرة عدد العلامات تدل على أن الكتابة لم تكن هجائية بل كانت صوتية

وتبدو من الآثار والبقايا عدم وجود ذلك الجمال الذى ينشأ فيه الفن اللطيف. ولكن فى الأشياء الصغيرة كالخواتم وغيرها يوجد بعض الفن ومن نموذجها الثور الأحدب، والجاموس، وثور الخلاء نقشت على الختم، وأيضاً صورة ثور شاب قوى المنظر نقش على المحار، وكلب صيد قوى نقش على حجر الحرارة، والخروف الجالس، والسحاب، والقرد المصورة على الأختام. فهناك فى هذه النقوش حقيقة ومعها لطافة التحفظ.

ولا تتوفر أمثلة متعـددة من تمثال فنى للجسم الانسانى. والتماثيل الصغيرة التى تتوفر من المحار لا تبدى أى لطافـة فى الفن. ومن التماثيل الحجرية — وهى قليلة — ثلاثة تستحق الذكر فالأولى منها تمثل عابدا (Yogi) وقـد صمت عيناه المفكرتين عـلى أصل الأنف. والثانية تمثل رأساً يبرز منه العظم الوجنى، ووجهاً عريضاً ذا شفتين رقيقتين، ولكن الأذنين مثل صحنين، قبيحتان. والثالث تمثال جالس مرتديا شالا. ويجدر بنا فى ضمن هـذا الموضوع أن نشير إلى تمثال برونزى يمثل راقصة لها ذراعان ورجلان طويلان لا يناسبان، وهى

ضاربة رجليها على الأرض بمناسبة نغمة الموسيقى . وفى هارابا يوجـد تمثالان صغيران فائقان، أحدهما صنع من الحجر الأحمر المستورد من أماكن نائية، يعكس صورة صادقة للاجزاء اللحمية، والآخر، وقد نحت من بلاط ذى لون رمادى داكن، يمثل راقصاً واقـفاً على رجله اليمنى بينما رفع رجـله اليسرى عاليا، سلف لـ « سيواناتاراجا ». وإن هذين التمثالين يسقان الفن اليونانى بفضل صداق أخاذ فى تشريح الجسم، عـلى نفس النحو الذى يعتبر فيـه التمثالان المصنوعان من الشمع المشار إليهما آنفا، مقدمة لما صوره اليونانيون من رسوم الحيوانات .

الديانـة

إن المعلومات التى عثر عليها فى موهنجودارو وهارابا فى الموضوع ضئيلة جدا . وقـد عثر على عدد كبير من تماثيل فخارية للاناث التى تشابه ما عثر عليه منها فى بلوچستان، وإن لم تكن الأخيرة هذه صورا كاملة .

والتماثيل الصغـيرة النسائية المشابهـة للتماثيل المعثورة عليها فى وادى إندس وبلوچستان، وجدت أيضا بكثرة فى بلدان غربى آسيا، وحول السواحل الأفريقية فى إيلام (Elam)، وبلاد ما بين النهرين (Mesopotamia) ، وتراس‌كيس‌پيا (Transcaspia) ، وسوريا، وفلسطين، وقبرص، وكريت ، والبلقان ، ومصر . والاعتقاد سائد أن هـذه التماثيل تنوب عن الالاهـة « الأم الكبرى » و« الفطرة الكبرى ». وهذا يوافق تقاليـد الهند، الهند التى هى منـذ عهد قـديم مهد العبـادة للأم المقدسة، أم اديتيا الواردة فى رگويدا، إلى الالاهات القروية فى عهدنا العصرى الذى تظهر فيـه كمعبودات الشعب الوطنية فى الهند، آريين كانوا أم خلافهم .

وعثر فى هارابا على ختم مستطيل عجيب يمثل الكون أو الالاهـة « الأم »

وقد انبثق من رحمها نبات، ووقف هنالك رجل بيده سكين، ووقفت امرأة رافعة يديها ولعلها كانت لأن تضحى.

وكذلك عثر على خاتم يمثل إلها مذكراً على شاكلة الاله سيوا، ذى ثلاثة وجوه وثلاثة عيون، وقد تربع على عرشه على نحو طريقة ناسك (Yogi) ووقف إلى جانبه حيوانات، الفيل والنمر على الأيمن، والكركدن والجاموس على الأيسر. وإيل دوقرنين واقف تحت العرش. ويصدق المطر لقب «پشوپتى» لـ «سيوا» يعنى به «رب الحيوانات». الايل الذى يشير إلى الغابات جاء كمقدمة للنحوت البودية التى تمثل حديقة الأيايل التى ألقى فيها بودا خطبته الأولى. وفى هذا الرسم ميزة أخيرة للاله سوا التاريخى، وهى القرنان يتوجان على رأسه يرمزان إلى الألوهية. وهذه هى الميزة التى تسبق الرمح ذى ثلاث شوكات لـ «سيوا» (Sanvas) أو ثلاثة درر للبوديين.

وهناك رسم آخر عثر عليه فى موهنجودارو يمثل نفس وضع الناسك، وإلى جانبه «ناگا» راكعا فى العادة له رافعا يديه على جانبيه ولقد عثر على رسم آخر يضم صورة نفس الاله فى نفس الوضع ولكن له وجه واحد فقط وقد ذكرنا الرسم المنحوت على الحجر لناسك وعيناه على مبدأ أنفه.

ويتصور المستر چاندا (فى مجلة «انتقاد العصرى» [Modern Review] لأغسطس ١٩٣٢) أن شكل الواقف بأربع أذرع الذى يوجد فى كتابة العلامات فى إندس هو لاله، ويرمز إلى الالاهة ذات الأذرع الأربعة التى ضمها معبد الآلهات فى إندس، وهو يسبق إله الهندوس المتأخر ذا أربع أذرع مثل براهما، أو وشنو أو سيتا.

وهو أيضا يدل على أن الآلهة الواقفين المنقوشين على حوالى ست أختام من موهنجودارو (لوحة ١٢ ولوحة ١١٨ صورة ٧ من كتاب السير جان مارشل

سيوا بشوبتي (رب الحيوانات)

راجع ص
٥١ - ٩٥

٨ · لأختام — صور (a) العزال (b) النمر (c) الفيل (d) الثور الأحدب والدجاج الحرشى (e) الخروف (f) الثور (g) الجاموس البرى (h) الثو البرى (i) التمساح (j) الثور الأحدب (k) الكركدن .

عن موهنجودارو) هم آلهة فى وضع «يوگا» المسمى بـ «كايوتسرگا»، والوضع الواقف ينتمى إلى نساك الجينيين، كما رسم مثلا فى التمثال الشهير: «حوناريشاباوا» الذى يرجع تاريخه إلى القرن الثانى الميلادية الموجود فى متحف متهرا (Muthra). واللفظ «ريشابا» معناه الثور، الذى هو العلامة للجينيين. وإنه لمن المستغرب أن الأختام عدد ف (f)، ج (g)، ه (h)، فى لوحة ٢ (إب) تظهر إلها واقفا ولديه ثور فى الأمام. هل هى المقدمة لـ «ريشابا»؟ فإن كان كذلك فلا بد لمذهب الجينية أن يأخذ محله كتفا بكتف بالمذهب السيوى (Saivism) كمذهب من أقدم المذاهب الحاسية العهد، مساعدا على سد الثغرة القائمة بين حضارة إندس وبين الحضارات الهندية المتعاقبة على اعتبار أنها مرحلة من مراحل التطور الثقافى العمومى.

وإلى جانب عادة «شكتى» و «شيوا» كانت هنالك عادة «لنگا» و «يونى» كما يستدل على ذلك من رسمين نقش عليهما بصمة واقعية لا إلتباس فيها على أحجار عثر عليها فى حوض إندس وبلوچستان وعلى أحجار الأختام المتعددة. ولا شك أن ثلاثة أنواع من الحجارة الطقوسية قد أسفر عنها النقاب فى موهنجودارو وهاراپا، وهى ثلاث أحجار للخواتم المكمدة اليونانيـة والذكر (Phallic)، ويونى (Yuni)، الصغار كانت تحمل كتعاويذ وعددها منها كثير، والكبار منها كانت طقوسا للعادة.

وكذلك يوجد دليل على عادة الأشجار على نوعين. الأول: عادة الأشجار فى أشكالها الطبيعية كما نقش ذلك على الأختام فى هاراپا. أما فى الحالة الثانية فلم تكن الشجرة طقس العادة بل الروح التى تتقمص فيها. ومن أروع الأختام التى عثر عليها فى موهنجودارو، خاتم يظهر الاله — فى صورة جسم عارى — بين فرعى شجرة، والشجرة هى «پيپل» التى اشتهرت بشجرة العرفان لبوذا. وتتجلى

عبادة هذه الالاهة فى سبع صور للاناث، قد تدلى شعرهن إلى الوراء، وهذا يدل على أنهن من عدة الالاهة. وأيضاً فى رسم شخص متضرع راكع نصف الركوع وله شعر طويل. وقد انتصب حلفه حيوان مزدوج، بعضه ثور وبعضه معزة، وله وجه الانسان، ولعله بمثابة واسطة لالهة شجرة پيپل. ويوجد بعض أختام أخرى، أحدها يبدى شجرة وقد انشق من رأسين مزدوجين للحيوان ذى القرن الواحد، والبقايا (من هاراپا) تظهر معزة أو حيوانات قريبة مع الالالهة وعبدها. وتسلسل تقليد هذا المذهب يظهر فى منحوتات « بارهوت » و « سانچى » التى تظهر « ياكشا » أى حيات الغابة، ولكنها فى محل ذيلى فى دار الآلهة.

ويوجد فى موهنجودارو دليل عبادة الحيوانات فى صورها على أنواع مختلفة من الأختام، وعلى الأوانى الفخارية، وعلى المنحوتات الحجرية. يدل على ذلك أولا صور مخلوقات أسطورية أو مركبة، كمعزة بوجه الانسان كما ذكر آنفاً، أو شكل بعضه من خروف أو تيس وبعضه من ثور وبعضه من فيل، أو شكل مخلوقات وهمية ذات رؤوس ثلاث نصفها آدمى والنصف الآخر بقرى، هاجماً على نمر قرنى (كأنه « اياني » أو « أوكيدو » السميرى من منحوتات أربع آلاف عام ق. م.)، واستعمال القرون للآلهة.

ثانياً، رسمت مخلوقات التى ليست أسطورية كلياً، كالحيوان ذى القرن الواحد، ووحوش أخرى ذات قرنين مصحوبا بمحورات، وحيوانات تمثل عمال دينيون من الجن.

ثالثاً، رسوم حيوانات حقيقية طبيعية، مثل:

(١) جاموس البحر

(٢) ثور الخلاء الهندى

(٣) الثور الأحدب
(٤) الكركدن الهندى
(٥) الثور القصير بدون حدبة
(٦) النمر
(٧) الفيل الهندى

وتبدو بعض هذه الحيوانات، لا سيما النمر، والكركدن، وثور الخلاء آكلة من الأوعية دلالة على قربان الأطعمة إلى البهائم التى اعتقــدت آلهات، لأنها لا يمكن أن تكون بهائم أليفة

وأخــيراً هنالك تمـاثيل ومنحوتات أخرى للحيوانات والطيور: الخروف، والخنزير، والكلب، والقرد، والدب، والأرنب، والسحاب، والببغاء، وطيور غيرها، منها ما كانت على شاكلة الألعوبات، وأخرى مقدسة كالعنز والكبش رسمت على الفخار بمهارة فنية، لاستعمالها كتعاويذ. ويظهر بعض هــذه الحيوانات كوسطاء للآلهة الهندوسيين، مثلا الثور لسيوا، أو الأســد لدركا، أو الجاموس ليــاما، أو التيس لبراهما، أو الفيل لاندرا، أو يعــدّ القرد كأنه هومان، أو الثور البرى لـكورى.

وأخيرا، كان التطهير بالغسل أو باستعمال الماء بطريق آخر، من نظام هــذا المـذهب. وهذا يفسر الأنظمة المتقنــة للغسل التى توجد فى بلد موهنجودارو، والتى تميزها عن غيرها من سائر المدن التاريخية القديمة.

الخلاصــة

فتتألف ديانـة أهالى إندس من
(١) عبادة الالاهة «أم» أو «شكتى»؛

(٢) عبادة إله ذكر — وهو السلف لسيوا؛
(٣) عبادة الحيوانات — طبيعية، أو مركبة بالانسان والحيوان، أو خرافية؛
(٤) عبادة الأشجار على حالتها الطبيعية أو الأرواح التي تتقمص فيها؛
(٥) عبادة الأحجار الجامدة، أو الأشياء الأخرى، أو عبادة رمز لنگا ويونى؛
(٦) عبادة الثروة، كما يظهر في عبادة الحورات المقدسة؛
(٧) الاعتقاد بالتعاويذ والطلاسم الذي يدل على اعتقادهم في الجن؛
(٨) ممارسة الرياضة النسكية (Yoga).

ويلاحظ من هذه المميزات أن هذه الديانة كانت رغم بعض العناصر الدخيلة كما ذكرناه، نمواً محلياً، وسلفاً نسبياً للهندوسية التي ما زالت مميزاتها كطقوس شكتى وشيوا عند «ناگا» وكعبادة الأشجار والحجارة وعبادة الذكر و «يوگا».

تصريف الموتى

كان أهل إندس يتخلصون من موتاهم بالحرق. ويثبت ذلك مما عثر عليه من أوعية مخصوصة لحفظ رماد الجثث المحروقة، أو أوان أخرى محتوية على البقايا البشرية، من عظام محروقة ورماد، وإلى جانبها أوعية أخرى مملوئة من تقدمة محروقة وغيرها، وكذلك أدوات متعددة أعدت لاستعمال الموتى في الحياة الآخرة. وعثر أيضاً على أوعية الدفن تحتوي على أوان للتقدمة وأشياء أخرى للموتى، ولكن عارية من عظام بشرية. ولعل العظام المحروقة التي بقيت بعد حرق الجثث طحنت في مسحوق ثم سدت، كما هي العادة الجارية في پنجاب. وقد وفق السير أوريل استائن إلى اكتشاف عدد من هذه الأوعية للدفن، ومن القبور الفارغة التذكارية في أماكن مختلفة في بلوچستان. وعادة دفن الموتى إما جزئياً (كما كانت العادة في دفن العظام الباقية من الجثث بعد أن أكلتها الحيوانات المفترسة والطيور) أو كلياً كانت نادرة. ويوجد أمثلة الدفن

الكلى فى واحد وعشرين هيكلا عثر عليها فى موهنجودارو، سبعة منها فى الشارع العام والباقية فى غرفة، وهى ترمز إلى ثلاث طراز سلالى — سلالة «استراليائى» (Australoid) الابتدائى، وسلالة البحر الرومى، وسلالة «آلپ» (Alpine). ويستدل من الطبقات التى عثر فيها على هذه الهياكل أن القبور تنتمى إلى عصر التقهقر لموهنجودارو. وعثر فى هاراپا وبلوچستان على عــدة نماذج أخرى من الدفن الكامل. ولكنها متأخرة العهد.

الامتـــداد

الآثار المدفونة التى أخرجت من المكامن فى موهنجودارو وهاراپا تشير إلى وجود حضارة مشتركة متناسقة قد مدت حدودها عميقة فى سائر السند وپنجاب. وقد عثر أيضاً على أماكن أخرى فى هذه المناطق يرجع تاريخها إلى العصر النحاسى، كما أن هناك طبقة حضارة أقدم من العصر النحاسى، تستنبط من الأشياء الفنية التى تنتمى إلى العصر الحجرى القـديم، والتى عثر عليها فى السند كرجمة الحجارة على القبور ومحابىء الحيوانات وعمارات أخرى حجرية خشنة. وكذلك ما وجد فى جبـال روهرى وكرثار من قشور وأصل الأحجار الصوانيـة. هكـذا سبقت ثقافة العصر الحجرى القديم على حضارة موهنجودارو فى السند.

المصادر والاشتراكات

كانــ تطور حضارة إندس هذه جزءاً من حركة أوسع، ظهرت فى نمو حضارات ابتدائية أخرى مثلها خلال العصر النحاسى فى المناطق الآسيوية الأفريقية الواسعة حتى غربى إيران وبلاد ما بين النهرين. وهذه الحضارات هى كسـات للأنهر الكبرى: النـيل فى مصر، والفرات ودجـلة فى بلاد ما بين النهرين، وقارون وكركة فى غربى إيران، ونهر هلماند فى سايستان. وعلى ذلك فليس من

الغريب أن تكون أودية أنهار السند وبنجاب الواسعة الخصبة مراكز لهذه الحضارة الابتدائية، أو إنه ليس بمستغرب إن وجدت فى الاكتشافات الجديدة دلائل امتداد الحضارة إلى أودية جمنا وگنگا، وهما أكثر وسعة وغزارة.

إن هذه الحضارات المتعددة، لكل واحدة منها خصائص امتازت بها، إلا أن هنالك عوامل مشتركة فى ما بينها. على طريق المثال، اخترعت كل واحد من الأقاليم لنفسها علامات لكتابة الكلام. فالكتابات الهيلوغرافية فى مصر تختلف كليا من كتابات كريت (Crete)، والكريتية من السميرية، والسميرية من الايلامية (Elamite)، وهلم جرا. ولكن مع هذا الاختلاف هناك فكرة مشتركة، وهى استعمال علامات صورية ليس لمجرد تقييد الأشياء أو الأفكار فحسب، بل لتقييد الأصوات أيضا. ويوجد مثال متشابه فى صناعة الغزل والنسيج — فبينما استعمل أصحاب إندس القطن كان أصحاب النيل يستخدمون الكتان. ولكن كان فن صناعة الغزل والنسيج معروفا فى المنطقتين كملك مشترك فى العالم المهذب فى تلك الأيام. وينطبق هذا الكلام على صناعة الفخار أيضا. كان لكل منطقة أساليب وأشكال خاصة لأوانيها الفخارية، ولكن دواليب الفخار وفن ثبت الألوان على الأوانى بواسطة الوقود كان معروفا لديهم بدون فرق. ورغما عن وجود هذه الأفكار والاختراعات المشتركة بينها، بقيت حضارة إندس بارزة ومحلية فى مميزاتها المختصة، كما بقيت شاكلة مخصوصة لكل واحدة من الحضارات النهرية المعاصرة الكبرى.

ومع أنه سبق لنا أن أشرنا إلى المميزات الهندية الخاصة التى تطبع بها حضارة إندس، سنقوم هنا بتلخيصها على الوجه التالى.

تحتوى المميزات على:

(١) استعمال القطن للمنسوجات الذى لم يعرفه العرب إلا بعد ألفى أو ثلاثة آلاف عام؛

(٢) وجود مستوى أعلى للحياة فى المدن، ووسائل الراحة كما يتضح من المنازل الفسيحة، والمغاسل، والآبار، ونظام المجارير لمنفعة المواطنين العاديين، التى لم تكن معروفة فى مصر القديمة وفى بلاد ما وراء النهرين، أو فى بلاد أخرى فى غربى آسيا التى لها عمارات ارستقراطية كالقصور الفخمة، والمعابد، والقبور، ولكن بدون اهتمام إلى مساكن الطبقات الفقيرة أو الشعب؛

(٣) بلوغهم مستوى عال فى فن الحفر أو النقش على الحجارة الكريمة، كما يتضح من تماثيل صينية أو من نقوش الحيوانات المنحوتة على الأختام كالثيران، أو من التماثيل البشرية الصغيرة الجذابة بفضل جمال صنعتها، كما ذكرنا من قبل؛

(٤) الديانة التى تبدى عيانا سلفيتها للديانة الهندوسية الحاضرة فى بعض هيئاتها، كما قد وصفاها.

عصرها

يستنبط عصر حضارة إندس من التشابه الذى رأيناه فيما قبل بينها وبين الحضارات الأخرى القديمة التاريخية كالحضارة الابتدائية التاريخية التى قامت فى سومار، والحضارتين المتأخرتين قبل رواسب مياه الفيضان لايلام، وبلاد ما بين النهرين. وقد كشف الغطاء عن التشابه القاطع فى مختلف المواد الأثرية التى عثر عليها فى إندس، وإيلام، وبلاد ما بين النهرين. ولا يمكن تعليل هذا التشابه إلا أنه نتيجة الاختلاط الفعال فيما بين هذه المناطق فى نهاية عام ٤٠٠٠ ق.م

وأهم هذه المواد هى الأختام الخمسة الحاملة للعينة الاندسية الخاصة — (الكتابة والثور الأحدب)، التى عثر عليها فى أماكن مختلفة من إيلام وبلاد ما بين النهرين. ووجد منها رسمان اللذان فى «أور» و«كيس» وقد نسبا تاتاً إلى ما قبل عصر السرجانى (Sargonoid)، أى عصر قبل ٢٨٠٠ عام ق.م. وقد عثر

على أختام تشابهها صمن سبع طبقات أقدم تاريخياً فى موهنجودارو. فاذا فرض ٥٠٠ عام لهذه الطبقات السبعة من البقايا المختلفة فى موهنجودارو، على أنها كانت عرضة للسرعة فى الانحطاط والتجديد بسبب الفيضانات المتكررة، قد يمكن أن يقرر عهد حضارتها فى ما بين ٣٢٥٠ و ٢٧٥٠ ق م.، مع سماحة لعهد أقدم لتاريخها ومصدرها. وبالاضافة إلى الأختام فهناك مواد أخرى وأشياء الزينة التى تقيم القرائن على وجود اتصال صميمى فيما بين هذه الحضارات. فالتى تستحق منها الملاحظة هى

(١) بعض كسرات من الزهريات المصنوعة من الحجارة الأوانية الهندية عثر عليها فى «العبيد»؛

(٢) تطرير رسم على كسوة الناسك فى تمثاله الذى أشرنا إليه سابقا والذى يعتقد أنه من صنع سومرى (Sumerian)؛

(٣) رسوم قرنية على الأختام تثبت انتسابها إلى الاله «ايبانى» (Eabani) البطل؛

(٤) حبات السبحة من العقيق الأحمر المحفورة، التى تظهر نفس أسلوب صنع الحبات التى وجدت فى قور كيش، تنتمى إلى عصر ما قبل السرجانية (Sargonoid)؛

(٥) طراز أو أشكال الجرات، والمواقد لوضع التقدمة، والمثقالات الحجرية؛ وغيرها.

وهلم جرا إن الأوانى الفخارية المصورة من موهنجودارو يحددها المستر أرنست ماكى (Mr Earnest Mackay) بمناسبة أسلوب تزيينها إلى ما بعد عصر سوسا الأول (٤٢٥٠ ق. م) أو حتى إلى ما بعد عصر سوسا الثانى (٤٠٠٠ ق. م.) فى الفترة الواقعة ما بين ٣٢٥٠ و ٢٧٥٠ ق. م. وهى نفس الفترة التى لا بد أن ترد إليها الأوانى الفخارية المصورة من بلوچستان التى عثر عليها السير أوريل استائن.

وقد كشف المستر وولى (Mr Woolly) مؤخرا (عام ١٩٣٢) ختما هندياً آخر فى أور فى جذع قبر، ويحوله إلى السلالة الملكية الثانية ويؤرخه فى حوالى عام ٢٨٠٠ ق. م. ولكنه نفسه يشك فى تاريخه وأهميته نظراً لعثوره عليه بصورة شيء معزول فى محتويات قبر وأيضاً تحوم الشكوك بنفس الطريقة حول تاريخ الأختام الخمسة المشار إليها آنفا.

وإنما لعلى أثبت أساس من حصوص بعض الآثار التى كشفتها البعثة العراقية التابعة لمؤسسة شيكاغو الشرقية (Chicago Oriental Institute)، وذلك فى طبقة محدودة من الآثار القديمة من منطقة التل الأسمر (القديم: إشنونه) فى الصحراء المجاورة لمدينة بغداد. فقد عثر فى سطح هذا المكان على أختام أسطوانية، وقدور، ولوحات حكومة ساراجان (Sarogon) من عكاد — (حوالى عام ٢٥٠٠ ق. م)، يبدو ختم منها بالوضاحة باسم «شدورال» (Shu-dur-ul)، وهو الملك الأخير من تلك السلالة. وكذلك عثر هنالك على آثار هى هندية الأصل على وجه التعيين، ولا شك أنها مُستوردة من منطقة حوض إندس. فيمكن بهذا تحديد تاريخ حضارة إندس على وجه اليقين. وعثر على خاتم يمثل حيوانات كالفيل والكركدن — الأجنبيين لبابل — ويحمل طابع طريقة إندس فى إبراز أرجل وآذان الفيل وطية جلده، وفى إبراز أذن الكركدن على الوجه الخصوص. ويستعاد إلى الأذهان بهذه المناسبة ختم موهنجودارو الذى يعكس موكبا من الحيوانات وضع فيه الفيل والكركدن جنبا لجنب. وعلى هذا فلا يمكن أن يكون ثمة شك فى أن هذا الختم بالخصوص قد استورد من حوض إندس ووصل إلى إشنونه حوالى عام ٢٥٠٠ ق. م. ومن بين الأدوات الهندية الأخرى التى عثر عليها فى هذا المواقع، أختام مربعة بعقدة منقوشة فى ظهرها، وعليها نقش مركبات متراكزة لا توجد فى بلاد ماوراء النهرين ولكنها شائعة فى

موهنجودارو. وحبات السبحة المحفورة من العقيق الأحمر التى هى هندية الأصل بلا ريب، ضمت إلى السبحات العكادية (Akkadian) فى القلائد. ويوجد عظام كلوية الشكل، مشابهة لمثيلاتها، المرصعة فى الصدف، الموجودة فى موهنجودارو، والتى لا يوجد لها أثر ما فى بلاد ما بين النهرين.

التنقيبات التى أجريت فى هذه المنطقة فى بغداد قد كشفت النقاب عن آثار بقايا خمس عصور متعاقبة، وهى :

(١) عصر لارسا (Larsa)، ٢١٨٦ - ١٩٣١ ق م ؛

(٢) عصر ما بعد السارجانية (Post-Sarogonid) من العراة الحليين،

(٣ و ٤) عصر السارجانية المقتبسة من اللوحات والأختام المنقوشة،

(٥) العصر القديم الابتدائى الذى امتاز ببناء المنازل المصنوعة من الطوب المستوى المقعر المعاصر لقبور أور. ويستنبط من هذا أن آثار أور أقدم من آثار بغداد بألف عام على ما حدده المستر وولى، أى أنها ترجع إلى حوالى عام ٣٥٠٠ ق م فإن كان كذلك، سبقت بابل على مصر التى لا يتعدى عهد سلالاتها الابتدائية على ٣٠٠٠ عام ق م. وبهذه الطريقة يرجع تاريخ حضارة إندس مزيداً إلى الوراء.

وأخيراً يجب ألا يعزب عن البال أن هذه الآثار الهندية التى عثر عليها فى مساكن أشنونه من عهد سارجان (كما ذكر بالتعيين فى المنقوشات) لا تتشابه كثيرا بما عثر عليه فى موهنجودارو إلا الأختام الستة المذكورة. ولعل هذا التباين بينها يرد إلى أسباب جغرافية أو تاريخية ولا يستبعد أن الأختام التى عثر عليها فى بغداد ترجع إلى عصر أقدم من حضارة إندس أو إلى عهد بعدها بمقارنة الأختام التى وجدت فى موهنجودارو. كما لا يستبعد أنها جاءت من مركز آخر لهذه الحضارة نفسها. وقد يكون الافتراض الأخير أقرب إلى الحقيقة. وعبها

كان الأمر فان مظهر موهنجودارو لا يعتبر المظهر الوحيد أو أقدم المظاهر لحضارة إندس القديمة، كما سبق — (يقوله الدكتور فرانكفورت فيلد، مدير الحفريات العراقية، فى كتاب بعث به إلى صحيفة تايمس المؤرخ ٥ مارس سنة ١٩٣٢ م).

الواضعين

من هم واضعوا هذه الحضارة؟ فالبقايا البشرية التى عثر عليها فى موهنجودارو تكشف النقاب عن أربعة أقسام سلالية: قدماء الاستراليين (Proto-Australoid) وأصحاب بحر الروم (Mediterranian)، والفرعة المنغولية من آلپ، وأصحاب آلپ.

فقدماء الأستراليين لا بد أن جاءوا من شبه القارة الهندية، وأهالى بحر الروم من السواحل الجنوبيـــة فى آسيا، وأما الألپيون والمغوليون فمن المناطق الشرقية والغربية من آسيا.

فسكان السند فى ذلك العصر المبكر كانوا خليطين من أجناس مختلفة. ودلالة الجماجم قد تأكدت بدلائل التماثيل المنحوتة. إن تماثيل الرؤوس والأجسام التى اكتشفت فى موهنجودارو تشـــير إلى اختلاط أقسام متضادة من السلالات. ولكن هذه الدلالة لا بد أن توحد مع الاحتياط. ذلك لأن الصانعين لم يكونوا علماء وصف الانسان، ولم يأخذوا على أنفسهم أن يقدموا نسخا مؤتمنة طبق الأصل، كشكل مضبوط للرؤوس. وعدد الجماجم التى عثر عليها، قليل بحيث لا يتيح لنا فرصة لاستنتاجات عامة سليمة عن العناصر الخليطة التى ألفت مواطنى موهنجوارو.

والسؤال الثانى الذى يمكن أن يعترض هو: هل كان سكان إندس درواڤيديين؟ هذا السؤال هو على أساس النظرية السائدة بأن السميريين (Sumerians) الذين كانت لهم علاقات حميمـــة بهم، لعلهم كانوا ينتمون إلى نفس القسم السلالى كالدراويديين. ويقيم البرهان على وجود الدراويديـين فى هذه الأماكن

الشمالية فى العصور الغابرة تداول اللغة البراهوئية (Brahvi) فى بلوچستان. ولكن الصعوبة فى المسألة هى أنه لا يمكن تحديد نوع الدراويديين أو السميريين على وجه الدقة حيث أنهم بأنفسهم مخلوطو الأجناس. فإنه لو قدر أن الدراويديين جاءوا إلى الهند من الغرب كغزاة فإن أرومتهم السلالية الأصلية قد تغيرت بسبب التزاوج مع سكان الهند الأصليين أى الجنس القديم من الأستراليين ومرة أخرى، لو قدر أنهم من أهالى الهند فلا بد أنهم كانوا فى الأصل من قدماء الأستراليين، وإنهم اكتسبوا طابعهم الدراويدية خلال تطورات طبيعية وبفضل اختلاطهم بالعناصر الأجنبية. ومهما كان الأمر، وسواء قدم هؤلاء من الغرب إلى الشرق أم من الشرق إلى الغرب فإن الجماجم القليلة التى فحصت فى موهنجودارو لا يمكن إثبات انتسابها إلى الدراويديين أو السوماريين.

الصلة بالحضارة الويدية

أما السؤال الأخير هو ما إذا كان أصحاب إندس وحضارتها معروفة لدى الهند فى سجلها المكتوب القديم المعروف بـ «ركويدا». وما إذا كانت حضارة إندس قد تقدمت الحضارة الويدية أم تبعتها، وهل كانت سلفا لها، أم تولدت منها.

وسنأتى فيما بعد دراسة الهند الركويدية. وإمعان النظر بالدقة فى دلائل ركويدا يؤدى إلى أن الاشارات الموجودة فيه عن غير الآريين وحضاراتهم ترجع إلى أهالى إندس وكما سيبين فيما بعد، فإن قدم ركويدا نفسه قد ثبت بفضل ما وجد فى عاصمة الحيثيين (Hittite) التى ترجع إلى القرن الخامس عشر ق. م. من النقوش التى تصور الآلهة الركويدية الصريحة، الأمر الذى يثبت أن ركويدا نفسه لا بد، وأن نشأ فى عصر أقدم حتى قدرت حضارتها أن تهجر إلى بلاد ما بين النهرين. ونظر سديد إلى تطور اللغة السنسكريتية وأدبها قبل ظهور البوذية فى القرن السادس ق. م. لا يمكن أن يعين تاريخ ركويدا متأخرا

عن ٢٥٠٠ عام ق. م. وهو التاريخ الذى كان قد بلغ فيه رگويدا نتاجا متقنا. ونظراً إلى هذه الاحتمالات التاريخية، استنتج البروفيسور لانگدن (Langdon) أنه الأرجح بكثير أن الآريين فى الهند هم أقدم ممثلى السلالة الهندية ـ الألمانية (Indo-Germanic) ولقــد أكد فى نظريته هذه باعتقاده أن الكتابة البرهمية بنفسها تقتبس من الكتابة الاندسية.

إن رگويدا يظهر دراية وافرة عن أقوام غير آرية أو السكان القدماء. فهو يسمى الغير الآريين «داسا» أو «داسيو» أو «اسورا» ويشير فى محل إلى أناس «پيساچا» و «راكشاسا» المرذولين الذين يفوهون فى المعارك بضوضاء وصرخات مخيفة. وكذلك يذكر أسماء الزعماء والأقوام الغير الآريين. ويبين بعض الخصائص الهامة للحضارة الغير الآرية التى تعيد إلى الأذهان وتمثل خصائص إندس. فلقد وصف الغير الآرى بأنه يتكلم بلهجة مستغربة، وأنه لا يتبع الطقوس الويدية، ولا يعبد الآلهة، ولا يتورع، ولا يضحى، ولا يتبع القوانين بل يتبع نظامـــه الخاص. وعلاوة على هــذه الخصائص السلبية يذكر رگويدا خصوصية إيجابية فى الغير الآرى بأنه عابد الذكر

وبهذا الاعتبار، لا يوجد فى البيان الرگويدى عن حضارة الغير الآريين شىء يناقض تضمينه على حضارة إندس. وقد سبق لنا أن شاهدنا كيف خصصت ديانة سكان إندس لعبادة الذكر، ولغتهم التى لم تقرأ ولم تفهم إلى يومنا هذا، تستحق الوصف الذى وصفها به رگويدا بأنها تختلف اختلافا كليا عن السنسكريتية.

أما فيما يتعلق بالنواحى المادية من الحضارة الغير الآرية فيشير رگويدا إلى مدن وقلاع وسيعة رحيبة، ملآنة بالبقرات، محتوية على ١٠٠ عمود بنيت من الحجارة، ويشير إلى قلاع خريفية ليلجأ إليها فى حالة وقوع الفيضانات، ويشير إلى وجود ١٠٠ مدينة فى مملكة غير الآريين. ولقـــد أشير إلى الاله الويدى

« إندرا » فى هـذه المناسبة باسم « پوراندرا » أى « ناهب المدن »! ألا يلوح فى هـذا كله إشارة ماسة لحضارة مدنية فى حوض إندس؟ ويعرف رگويدا أيضا شعبا تجارية يسميها « پانى »، ويشير إلى الشعوب الويدية — ترداسا ويادو — بأنهم قدموا من البحر.

ومرة أخرى، يحـدد بعض جماجم موهنجودارو بأنها استراليـة قديمة (Proto-Astroloid). ويشير رگويدا إلى هؤلاء السكان المخصوصين بـ « أناسا » وفطس الأنوف، ومن نسل مسود

وأكثر الحيوانات التى عرفها أهالى إندس. يعرفها رگويدا أيضا كالغنم، والتيوس، والكلاب، والثيران والحيوانات التى كان يصطادها معشر الرگويديين هى الغزالات والخنازير البرية، والجواميس، والأسود، والفيلة، وهذه معروفة لدى أهالى إندس أيضا وكان الخيل يربى فى الهند الرگويدى ولا يربى فى حوض إندس.

أما فى مسألة المعادن فيعرف رگويدا الحلى من الذهب وهذه الحلى احتوت على الحلقات، والقلائد، والأساور، والخلاخل، والأكاليل، والدرر للعنق، وقد شاهدنا كيف كانت أكثرية هذه الحلى تستعمل فى مدينة موهنجودارو.

وعلاوة عن الذهب يعرف رگويدا معدنا آخر يسميه « أياس » (Ayas) الذى كان يستعمل فى صناعة الأوانى. وكان المعدن يدقق أيضا. ولعل رگويدا يقصد بأياس، النحاس. وفى الصحائف المتأخرة « اثروا ويدا » قد عرف الحديد وسمى « سياما ـ أياس » وهذا الاسم يميز النحاس باسم « لوهيتا (أى أحمر) أياس » ورگويدا يعرف أيضا الأدوات المصنوعة من الحجارة كـ « اسما چكرا » أى الحرارة الحجرية، أو « أدرى » أو « أسانى » يعنيان أحجار الرمى.

وعلاوة من ذلك، يعرف رگويدا بعض أصناف من الأسلحة التى لم تكن

معروفة فى حوض إندس، كالدرع المصنوع من صفاح معدنية رصت بعضها فى بعض وصفقت بالاتقان، والمغفرة المصنوعة من أياس أو من دهب. وطريقة تزيين الشعر التى كان يتبعها رجال ونساء رگويدا تشابه بالعادة السائدة فى موهنجودارو. كان الشعر يمشط ويدهن. النساء يضفرنه. ويوجد ذكر فتاة تنسج شعرها فى أربع ضفائر. كان الرجال فى بعض الأحيان يرتبون شعرهم فى لفات. والرجال المعروفون بـ «واسشتا» يرجحون لفات شعرهم على جانب الأيمن، ويطلقون لحاهم.

وأشد طابع للحضارة الاندسية، أى حرفة القطن، هى أيضاً حرفة ثابتة فى الهند الرگويدية. رگويدا يسمى الحائك «وايا»، ومسحه «ويمى»، والوشيعة «تسارار»، والسداة «أوتو»، واللحمة «تنتو».

لم تستورد جميع هذه الشهادات الرگويدية ليثبت أن الحضارة الرگويدية كانت سلفا للحضارة الاندسية أو مولودها. والذى يود أن يثبت أن حضارة رگويدا بمناسبة أرضية صورتها الجغرافية والتاريخية تظهر معرفة واسعة بعالم العير الآرى وبصفة حياته وثقافته التى فى بعض شأنها، كما ذكر فى رگويدا، تطابق بما تشير إليه البقايا المكشوفة فى موهنجودارو، فيمكن أن نعتبر فى موقف ما أن الغير الآريين المذكورين فى رگويدا هم العير الآريين الذين أوجدوا الحضارة الاندسية. هذا الافتراض يوافق الرأى المقبول عاما عن رگويدا بأنه لا يتأخر عن ٢٥٠٠ عام ق. م. وهكذا كان معاصراً فى الواقع لهذا التاريخ القديم لاندس.

شعوب فترة ما قبل التاريخ

والآن لنا أن نربط مهما أمكن هذه الثقافات المتعاقبة التى نمت فى فترة ما قبل التاريخ بالسلالات التى أوجدوها، ونصل الآثار القديمة بالتاريخى الطبيعى

للأجناس البشرية. إن تعيين العناصر السلالية، ومصادرها، وعلاقاتها يتوقف على إمعان النظر فى المميزات الطبيعية، واللغوية، والثقافية. ولا يمكن محاولة دراسية كهذه إلا فى رسالة مخصوصة فى الموضوع.

المواد الجمجمية

إن المواد الجمجمية لفترة ما قبل التاريخ لدراسة الأجناس فى الهند ضئيلة. وهى لا توجد إلا فى أماكن قليلة ك «أديچانالور» وفى عدة أماكن أخرى فى الهند الجنوبية. وفى سيالكوت، وفى بيانا على مقربة من آگره، وفى نال فى بلوچستان، وفى موهنجودارو. ويعد هذا جميع دائرة المواد الجمجمية لفترة ما قبل التاريخ فى الهند. والجماجم التى وجدت فى هذه الأماكن هى من أنواع مختلفة — الاسترالى القديم، والتى تنتمى إلى بحر الروم، والآلى، والمستطيل فى الشكل والعريض فيه. فعلى هذا لم يكن سكان موهنجودارو متشابه النوع بل كانوا قوما مخلوطين.

وعلينا أن نقبل وجود أناس برؤوس مستطيلة وعريضتها بين قدماء سكان الهند كما تدل هذه الجماجم عليها.

ولقد لوحظ الفرق بين الجماجم البشرية فى هذين النوعين فى السلالة المشابهة للانسان التى ظهر منها آدم. وكان شكل الجماجم فى السلف عريضا وتطور الشكل المستطيل فيما بعد، ولو كان لبعض الأشخاص رؤوسا مستطيلة من بداية الأمر.

الجنس الزنجى
(Negorito)

ويخمن أن أقدم الأجناس التى قطنت الهند كان من سلالة الجنس الزنجى الذى ما زال يوجد لهم أثر فى أندمان، وربما فى الأوغال الواقعة فى أقصى جنوب

الهند فيما بين أقوام كاردا وأورالى الذين لهم قامات صغار وشعر مملفل . وحصة الجنس الزنجى فى الحضارة هى اختراع القوس .

الجنس الاسترالياتى القديم
(Proto-Astraloıds)

قد اقتفى الجنس المعروف بالاسترالياتى القديم أثر الجنس الزنجى. وكان من ذى رأس مستطيل والمعتقد الآن أن أصله كان فى فلسطين وليس فى أستراليا، كما كان يفترض حتى الآن. ويجب أن يحسب هؤلاء الأستراليائيون القدماء سكان الهند الأصليون نظرا لتركيز طابع سلالتهم فى الهند مع أوصافها المميزة وخصوصيتها، ولو أنهم قدموا إلى الهند بهجرتهم من العرب فى الزمن القديم. والنوع مشاهد فى حاله الأصلى فى قوم «ويدا» (Veddas). وهذا النوع هو المسؤول مبدئياً لفطساء الأنوف وقتومة الجلود فى الهند فى جميع السلالات إلا الطبقة السامية منها.

الجنس الملانيزى
(Mèlanesıan)

يمثل الملانيزى قسما مستقرا، مشتقا من اختلاط الجنس الزنجى والجنس الأسترالياتى القديم. ويشاهد هذا الجنس فى سلسلة الجبال التى تفصل آسام، وبرما، وفى نيكوبار وكذلك على ساحل مليبار. ويعرف الجنس بميزات ثقافية مخصوصة كتصريف جثث موتاهم بتركها مكشوفة، أو بالطقوس القواربى. وهم ليسوا كجنس خاص أو على حدة بثقافتهم الخاصة.

الاشتراك الاسترالياتى القديم فى الحضارة
{ لغــة «مندا» }

يرجع الفضل إلى الاستراليين القدماء فى إيراد الثقافة الحجرية الأخيرة

والصناعة الفخارية فى الهند. ولكن تراثهم اللغوى أكثر رسوخا وأهمية. يعرف عنهم أنهم كانوا يلهجون بلغات أسترالية-آسيائية التى كانت موزعة على مساحة واسعة تمتد من پنجاب إلى نيوزيلندا ومن مدغشقر إلى جزيرة إيستر. فالنوع الهندى من هذه اللغات يعرف بلغة مندا التى لا بد أن تحسب فى هذه الحالات، اللغـــة القدمى التى نطقت بها فى الهند. والامعان فى المساحة اللغوية التى كان يلهج فيه مندا، يبدى الخطة التى تبعته الهجرة الأسترالية القديمة. ويمكن أن الهجرة كانت من الشرق إلى الغرب أو من الغرب إلى الشرق. وبقيت منـدا حيـة فى أدنى السلسلة من جبال همالايا فيما بين لادك وسكيم فى غرب أقاليم الهند الوسطى متجها الجنوب فى جبال گنجام وويزاكاپتم، ولكن لا تتعدى نهر گوداورى. ولا تبدى لغة مندا قيام صلة بلغات جنوب غربى آســيا ومناطق المحيط الهادى فحسب، بل أيضا باللغة السوميرية المتلاصقة. ويحسب من هذا أن الفروع المختلفـة من أسرة لغات الأسترالية-الآسيائيـــة نشأت فى مركز مشترك فى أواسط أو جنوب شرق آسيا، ومن هناك اتجهت اتجاها شرقياً

أما الأقوام الذين يلهجون بلغة مـندا فيدعون بأسمائهم الجنسية: مـندا (Mundas)، وكولار (Kolarians) أو كول (Kols) وعـددهم يتجاوز ستة ملائين، وهم: سونتـال (عـددهم حوالى ٢٣ لك)، وبيل (حوالى ١٨ لك)، وكروما (٩ لك)، ومندا (٦ لك) وسوارا (٥ لك)، وهو (٤ لك) وقبائل صغار أخرى مثل كوروا (من سيرگوجا وميرزاپور)، وجوبانگ (من دينكنال)، أو كوركو (من جبال پنچمارى). والمنطقة الواسعة التى تشتمل سونتال پراگنا وچوتا ناگپور، مضيفا إليها بعض أجزاء الأقاليم الوسطى، وأوريسا، ومدراس، هى مركز الحضارة المفردة المـندائية أو الكولارية الابتدائية. وقد بقيت على مدى العصور بخصائصها المميزة كالمجتمع القروى الحر، والصيد والصيام بالجماعة، وغياب

نظام الطبقات، وعبادة كل قبيلة منها للأرواح المختصة بها المتقمصة فى الأشجار بطريق التضحية، والتزام شرائع مخصوصة من القانون، وفرض العقوبات على مرتكبى الجنح الثانوية بواسطة الغرامات التى تدفع بشكل مأدبة عشائرية، وفى حالة ارتكاب جنح خطيرة باقصاء مرتكبيها عن حظيرة العشيرة والأعمال الزراعية وما شاكلها.

الجنس المغولى
(Mangolians)

يوجد آثار هذا الجنس فى اللغات الدراويدية يعرف باسم مون خمر (Mon Khmer) يلهج بها سكان جبال خسى فى آسام، وجبال برما الفوقانى وبعض أجزاء برما التحتانى وشبه جزيرة ملايا وجزائر نكوبار. وقد تسربت هذه اللغة إلى الهند على يد الغزاة من الشرق، والمغوليين الذين جاء بعضهم من التبت عبر وادى برهمپترا والبعض الآخر من الصين عبر برما عن طريق أنهار ميكونگ وسالوين وإيراودى. ويلاحظ أن الغزوات الأخرى من الشرق قد عرفت الهند بلغتين من أسرة تبت-صينى، وهما:

(١) اللغة التبتية البرمية التى يفوه بها أهل تبت من ألمورا، وگرهوال، وأهالى دفلا، وأبورميرى ومشمى من شمال آسام، وكارو من تلال آسام العربية، وسكان كوكى صين من جبال ناگا، وبودو أو كوچ بهار، وناوگانگ، وكروپا وگولپاره من آسام، وكاچين أسكفو من نهر إيراودى الفوقانية، وأصحاب برما.

(٢) اللغة السيامية-الصينية المنتشره فى ولايات شان فى برما الشرقية.

وكان الغزوة المنغولية التى تعرضت لها الهند من النواحى الشرقية قد امتدت غربا إلى ما وراء المناطق التى انتشرت فيها لغتهم. فقد عثر على خصائص منغولية فى الجماجم والآثار الأخرى التى اكتشفت فى موهنجودارو.

اللغات القديمة

ويلاحظ أن سكان الهند القدماء هؤلاء قد قدموا إلى الهند لغاتها القديمة — لغات مندا، ومون-خمير، وأسترانيسيا، وتبت الصينية. وكما سيبين فيما يلى، دفع الدراويديون هذه اللغات إلى النواحى الجنوبية الشرقية، ولغات الهندية-الآرية بدورها حلت محلها.

بحر الروم والآرمينيين

وتعاقب أجناس بحر الروم، أجناس الأسترالى القديمة مهاجرين إلى الهند فى أمواج متتالية. فجاء فرع معه لغته الملاصقة به مهاجراً بطريق وادى گنگا، ممتزجا بالأستراليين القدماء، واختلط بسكان القدماء من البلاد مؤثرا لغات استرالى-آسيائى، كما قد بين. وهم الذين عرفوا الملاحة والزراعة وبنايات الأحجار الخشنة. ثم تعاقب على ذلك هجرة أخرى من سكان بحر الروم بمعيـة ثقافة وحضارة متقدمـة أوجدوها فى بلاد ما بين النهرين بمشاركة الآرمينيين. وكان أجناس البحر الرومية مستطيلة الجماجم فى حين أن الآرمينيين من قسم الآلبى كانت جماجمهم عريضة. وموافقة لطبعهم، والآرمينيون والأناطوليون نشروا أنفسهم فى جميع أنحاء آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين واختلطوا بأجناس بحر الروم بنسب مختلفة، وأصبحوا العنصر الأكبر فى أهالى سومر. وعلى هذا فكان السوميريون سلالة مخلوطة قد نشأت من أهالى بحر الروم—المستطيلة الرؤوس، ومن أهالى آرمينيا—العريضة الرؤوس.

وعلى ما يبدو فان هذه الشعوب، من أهم الشعوب فى فترة ما قبل التاريخ فى العالم، وهم أول موجدى الحضارة التى يرجح أنها ترعرت فى «الهلال الخصيب» تحت الجبال الشمالية فى بلاد ما بين النهرين ممتدة من الشام إلى الخليج الفارسى. وكما سبق لنا كانت هذه الحضارة فى ازدهارها فى نهاية الألف الرابع ق.م.

مدركة مستوى رفيعاً من الراحة، والفن اللطيف، وحفظان الصحة فى حياة مدينية. وكانت لغتها دراويدية، واستعملت كتابة تصويرية كما كانت تستعمل فى بلاد ما بين النهرين فى فترة ما قبل التاريخ.

وقد يوجد أيضا اجتماع الجنس الآرمينى بجنس البحر الرومى خصوصاً فى التامليين. ويجوز أنه كان هنالك اتصال بحرى مباشر بين المناطق الجنوبية من الهند وبين بلاد ما بين النهرين. ويؤيد وجود الاتصال البرى بين بلاد ما بين النهرين والحوض الاندسى، باكتشاف أشياء مشتركة الأنواع فى هاتين المنطقتين، ووجود اللغة البراهوية فى بلوچستان. وتقيم اللغــة البراهوية برهانا عـلى وجود أقوام يتكلمون بألسنة دراويدية بصفتهم أقدم ساكنى موهنجودارو. وعلى الأغلب هم الذين قدموا بالثقافة إلى الهند.

الجنس الآلى
(Alpine)

إن الناس من ذوى الرؤوس العريضة والأنوف الدقيقة الموجودين فى إقليم بنغال فى الشرق، وعلى الأخص فى المناطق العربية فى الهند يمكن تفسير وجودهم فقط بنظرية غزوة من قوم آخر — القوم الآلى من جبال پامير (Pamir). ولا بد أن هــذه الأجناس ذات الرؤوس العريضة — أجناس الآلى — اليوراشيائى، قــد شقت طريقها إلى داخل حوض إندس، محتلين حضارة موهنجودارو، منتشرين أنفسهم فى السواحل الغربيــة الهندية، ليصبحوا سلفـا لـ «پربهو» و «مراتها» وغيــرهما، مدخلين عنصرا عريض الرؤوس فى «براهوى». ثم انحـدروا جنوبا عبر سهول ميسور، تاركين ساحل مليبار الذى احتفظ بهــذا السبب بالحضارة القديمة الأصلية للسكان الناطقين بالدراويدية. وتكلموا بلغة هندية-أوروباوية، ولا تزال آثارهـا باقية فى اللغــة الهندية الآرية الداردية

(Indo-Aryan Dardic) التى يلهج بها سكان چترال، وهم أيضا عريض الرؤوس وفيما بعد، أخذت الرؤوس العريضة هذه تتحول إلى صبغ الرؤوس المدورة فى وادى گنگا شرقا إلى بنغال.

الجنس الدراويدى
(Dravidians)

يتضح لنا مما سبق أن حضارة حوض إندس كانت قد اختلطت مع الناطقين باللغات الدراويدية من سلالة البحر الرومى مع امتزاج آرمينية وحضارة راقية مشتقة من الشرق الأوسط. ولعل أنسب وصف لهذه الحضارة القديمة من بحر الروم وآرمينيا أنها هندوسية، قامت قبل ظهور الويدية والتى تضمنت بعض الخصائص الهندوسية المتأخرة كما يبدو. وكما سبق لنا كانت هذه الحضارة نشيطة حتى أثرت الحضارة الويدية. ويتحدث رگويدا عن قوتها فى المدن والقصور، والثروة كما يتحدث عن نسائها التى اغتسلن بالحليب. وكان فى وسع العناصر الغير الآرية «اللا أمية» التى وجدت فى عصر رگويدا أن تشير فقط إلى الأجناس الاسترالية القديمة. فاذاً كانت الشعوب كـ«بيل» (Bhils) أو «شودرا» (Shodras) محصرة فى الجبال والأوعال رغم هجرة سكان بحر الروم وآلب، أو كانوا محتلين وادى إندس بعد تأخر حضارة ما قبل الويدية. ومرة أخرى، الحكاية الويدية عن التصادم بين «واسشتا» و «وشوامترا» هى حكاية التصادم بين الثقافتين اللتين يرى امتزاجهما فى أن «شتريا» أصبح «برهمنا». ووردت فى الأحاديث الأخيرة إشارات إلى قوم «ريشى» من غير الآريين. وأخيراً، فان الكتابة البراهمة للحضارة الويدية المتأخرة يوجد أثرها فى الكتابة الصورية لحوض إندس. ومن زمن بعيد أى منذ عام ١٨٦٧ م. أبدى المستر تامس (Mr Thoms) شكوكه فى أن الآريين لم يخترعوا حروفا هجائية خاصة

بهم خلال تنقلاتهم، بل إنهم اعتمدوا على البلاد التى استوطنوها لتزودهم رسم خط حتى يمكنهم ليحولوا كلامهم إلى الكتابة. لم تنل هذه النظرية بتأييد لمدة طويلة من الزمن، ونسبت الكتابة البراهمية إلى مصادر سامية واعتبرت على أنها استوردت من فينيقيا (Phoenicia) فى ألف سنة ق. م. وكان لبروفيسور لانگدن أن يثبت بعد مرور ستين سنة أو أزيد أن الحروف البراهمية قد استمدت من علامات حوض إندس، وهى الرموز التى استخدمها القدماء الذين سكنوا حوض إندس قبل الآريين. وهكذا — كما يشير هو — السنسكريتيون الآريون قد قدموا قيما من لغتهم الخاصة إلى هذه الحروف. وبمعنى آخر إنهم كانوا على إلمام بمعانيها الرمزية، فترجموها إلى السنسكريتية، واستمدوا قيمها الهجائية من الألفاظ السنسكريتية.

يتضح من كل هذا أن الذين كانوا يتكلمون بالدراويدية كانوا هم المقيمين الأخيرين قبل قدوم الهنديين-الأوروباويين إليها. وإنهم جاءوها من الناحية الشمالية الغربية حيث خلفوا آثار لغتهم بين البراهويين (الذين هم نفسهم يعتبرون آثار موهنجودارو من مخلفات أحدادهم)، واستقدموا معهم ثقافة بلاد ما بين النهرين، وآسيا الصغرى أو منطقة شرقى البحر الرومى. ويلاحظ أن الأسماء الدراويدية للأماكن قد عثر عليها أحيانا فى بلاد ما بين النهرين وإيران، وكما أن لغة قديمة متداولة، وهى ميتانى (حاريان) تظهر تشابهات عظيمة مع اللغة الدراويدية الحديثة فى الهند. فيظهر أن الهند قبل أن وطأتها أقدام الآريين أو الهنديين-الأوروباويين فى الألف الثانى ق. م. لم تك مجموعة مضطربة من قبائل الاستراليين كما كان يعتقد لزمن طويل، بل إنها كانت تتمتع بحضارة متقاربة لحضارة ما بين النهرين فى وديان إندس، ولربما فى وديان الكنج أيضا. وكانت تلك الحضارة على اتصال بهذه الحضارة.

آثار هجرتهم من الشمال إلى الجنوب

ارتد الدراويديون أمام الآريين بعد أن خلفوا وراءهم فى الشمال من القرائن ما يدل على قوتهم، وعلى أن هجرتهم هذه كانت من الشمال إلى الجنوب حيث وجدوا مقرا نهائيا لهم. وتتوافر الدراويدية على السواء فى السنسكريتية الويدية والكلاسيكية وفى البراكرتية وكذلك فى اللغات الحديثة المحلية المتداولة فى الهند الشمالية. وقد اكتشف اللغويون أن اللغة الهندية-الأوروباوية لدى إدخالها إلى الهند قد تعرضت لتغيرات ما كان لها أن تأتى من أى مورد آخر غير مصدر الدراويدية. أما هذه التغيرات التى طرأت فتجلى فى وجود سلسلة ثانوية من الحروف المسننة فى لغة رگويدا، وهى الحروف التى تميزها عن لغة «أوستا» أو غيرها من سائر اللغات فى الأسرة الهندية-الأوروباوية. والقرائن الأخرى التى تقيم الدليل على أن هجرة الدراويديين كانت من الشمال إلى الجنوب، تتوفر فى أماكن معزولة أخرى احتفظت باللغة الدراويدية وثقافتها والتى خلفوها وراءهم فى الشمال بين أقاربهم مثل «مال» و «سورياپهارى» فى حال راج محل، و «ادراؤن» فى چوتاناگپور (وعددهم حوالى ٨ لك)، و «گوند» (حوالى ٣٠ لك)، و «كاند» فى أوريسه والولايات المتفرعة عنها.

إن الشعوب المتكلمة بالدراويدية تتألف من عناصر أو أجناس ثلاث، وهى:

(١) مستطيلة الرؤوس وعريضة الأنوف أو مزيج الويدى والاستراليائى
(٢) مستطيلة الرؤوس ودقيقة الأنوف أو عنصر البحر الرومى
(٣) عريضة الرؤوس ودقيقة الأنوف أو العنصر الآلبى

وعلى وجه العموم، كان سكان منطقة الدكن من أصحاب الرؤوس العريضة فى حين أن سكان المنطقة الواقعة إلى الناحية الجنوبية منها بما فى ذلك المنطقتين الساحليتين هم من ذوى الرؤوس المستطيلة. وإن هناك أيضا صلة متزايدة ما

بين أصحاب الرؤوس العريضة وأصحاب الأنوف الدقيقة، وما بين أصحاب الأنوف الدقيقة وأصحاب اللغة السنسكريتية كما هو الحال فى اللغات الكنارية، والملايالامية والمراتية والتيليغوئية، فى حين أن التاملية — وهى أبعد هذه عن السنسكريتية — يتكلم بها أصحاب الرؤوس المستطيلة والأنوف الدقيقة.

وينتشر العنصر الآلبى من أصحاب الرؤوس العريضة على السواحل الغربية ما بين گجرات وكورگ، وفى المنطقة الواقعة ما بين بارس وبهار، وبصورة ملحوظة فى بنغال حيث تقدم الصلة بينهم وبين أنوف عريضة خصوصاً فى الوسط، وعند مصب الأنهار، وبصورة أقل فى الناحيتين الشمالية والشرقية. وعلى ذلك توجد سلسلة متصلة الأجناس من بومباى إلى بنغال. وعلينا أن نتطلع إلى الغرب، لمعرفة أصل البنغاليين، وليس إلى الشرق أو إلى المصادر المغولية. ولا توجد فى البنغاليين بعض أهم خصائص المغول ومميزاتهم كخلو أجسادهم من الشعر —[الدكتور بى. ايس. گوها فى خطبته الرئيسية التى ألقاها فى القسم التاريخ الطبيعى للاجناس البشرية فى مؤتمر العلوم الهندية (Indian Science Congress) سنة ١٩٢٨ م.].

الأسس الجغرافية والاجتماعية

إن تاريخ الهند الحقيق يبدأ بقدوم الآريين إلى الهند. ويجب بادئ ذي بدء أن ندرس الأسس الطبيعية لهذا التاريخ في الظروف الجغرافية التي أثرت على مجراه خلال العصور. وتحضرنا بهذه المناسبة الكلمات المأثورة الصادرة عن المستر ريچرد هاكلويت (Richard Hakluvt). إن الجغرافية والتاريخ هما بمثابة الشمس والقمر، أي أنهما بمثابة عين التاريخ اليمنى واليسرى.

إن أهم خصائص الهند الجغرافية التي أثرت في تاريخها هي: ١ - عزلتها ٢ - ومواصلتها ٣ - وضخامتها ٤ - وتنوعها ٥ - ومعدنها.

عزلتها

قلما يوجد جزء من قارة تم فصله بالوضوح وخصته الطبيعة بعزلة إقليم بذاته. إن الهند وحدة جغرافية لا نزاع فيها، محفوفة بالجبال في الشمال ومحاطة بالبحر في الجنوب، وإنها عزلت في الحقيقة عن بقية العالم بحدود صارمة معروفة. إن جبال همالايا تقدم سورا مضاعفا يمتد بدون تقطع من الشرق إلى الغرب لمسافة ١٦٠٠ ميل ويمتد عرضها ٢٥٠ ميل معدلا، طويلة هذه المسافة. ومن جهة تبت من السور الشمالي تنهض الأنهر الثلاثة، هي إندس وستلج وتسانپو (يسمى «براهما پوترا» في جزئه الهندي)، ومن جهة الهند من السور الجنوبي ينهض گنگا وفروعه الشمالية. ويلتقي السد الهمالياني على جانبه الشرقي بحواجز في صورة جبال پتكوئي، وناگا، ولوشائي المكسوة بالأوعال التي تحول بين وادي إيراودي في برما والسهول الهندية. وتعرقل الطريق المستقيم ما بين الصين والهند. وفي نهايته الشمالية الغربية تقوم مقام السد زاوية من الذروة الأعلى المتألفة من جبل

كراكورم بقمتها الثانوية فى الارتفاع فى العالم، المعروف بجبل «كودوين أوستن» (Mount Godwin Austin)، وقمة هندوكش (Hindu Kush) مكتنفة بين جوانحها وادى ليه، وكلكيت، وچترال التى تشكل أقصى المراكز العسكرية فى الشمال للامبراطورية الهندية. وإلى ما وراء هندوكش أو فى جنوبها يقع «سفيد كوه»، وقمات جبل سليمان التى تحول بين الهند وأفغانستان وجبال كرتار التى تفصلها عن بلوچستان.

وفى الجنوب أقام الأوقيانوس فى الأيام الغابرة حاجزاً مهيبا معزلا، باستثناء التبادل التجارى السلمى القليل الذى كان يمكن بالمراكب الشرعية، وباستثناء الرحلات البحرية المتلاحقة فى تلك الأيام فى السواحل. وكان الأوقيانوس يوفر للهند الوقاية الكافية ضد أى غزو بحرى إلى أن وجد الأوربيون (حول قارة أفريقية) طريق رأس الرجاء الصالح وإن قدوم ثلاث سفن لـ «واسكو دا گاما» على ساحل كاليكوت عام ١٤٩٨ الميلادية، جعل البلاد عرضة لقدوم المقتحمين المغامرين بطريق البحر — طريق غزو سلكته الدول الغربية الأربع فيما بعد باستمرار ونجاح: البرتغال، وهولندا، وفرنسا وبريطانيا.

وفن الملاحة قد غير شكل الأوقيانوس، فجعله طريقا عمومية للاختلاط والغزو حتى انتقلت قيادة البلاد إلى السيادة فى البحر. وقد اكتسبت الآن المدن الساحلية: بومباى، وكراچى، ومدراس، وكلكتا، وكولمبو، أهمية عسكرية فى الدفاع عن الهند. وقد أصبحت كولمبو التى تلتقى عندها عدة طرق بحرية: من بحر الروم، ومن رأس الرجاء الصالح، ومن إستراليا، ومن سنغافوره، ومن الشرق الأقصى، مركزاً عسكريا هاما فى الأوقيانوس الهندى. ويلاحظ أن الحواجز الجبالية العربية على السواحل الغربية، وندرة الموانى الصالحة على السواحل الشرقية، وقلة الغور فى المياه الساحلية، وصعوبة المراس بسبب الأمواج الهائجة،

كل هذه ترتب عقبات مستمرة طبيعية فى المواصلات بطريق البحر مع البلاد الخارجية. وأيضاً طبيعة السواحل الهندية لا تناسب لنموها كدولة ذات قوة بحرية.

وحيث أن قسما عظيما من البلاد الهندية يمتد إلى الداخل، فمعظم سكانها أصبحوا مربوطين بالبر. لا توجد هنالك تعريس، ولا تلك الخلجان العميقة والهوى، أو مصبات الأنهار التى تفتح بها المساحات الداخلية كما توجد فى ناروى (Norway) أو الجزائر البريطانية، التى لا يبعد أى جزء منها من البحر، والبعض من الخلجان والهوى التى توجد فى الهند لا تصلح للموانى. والميناء الطبيعى الوحيد فى الهند هو بومباى. وميناء مدراس وكولمبو هما اصطناعيين، وأما كلكتا فهى على مصب نهر وبالنظر إلى هذه العقبات الطبيعية فان الملاحة الهندية ونشاطها البحرى لم يلعبا دوراً هاما فى التاريخ الهندى.

وفى حين أن الهند تماما تقف منعزلة عن العالم فان بعض أجزاءها بدورها معزولة عن بعض. وسلسلة جبال وندهيا (Vindhya) بأوعالها العويصة الممتنعة قد قدمت فى كل الأزمنة حاجزاً فاصلا بين شمالى الهند وجنوبها وقد وقف استعمار الآريين أمام هذا الحاجز لمدة طويلة بموجب النصوص السنسكريتية القديمة. وإلى يومنا هذا يظهر فى هذين الجزئين من الهند تباين عجيب فى ميادين السلالة، واللغة، والعادات الاجتماعية. فعلى طريق المثال ذكرت فى كتاب من بوذيانا فى عام ٥٠٠ ق. م. عادة اجتماعية عامة التى تفرق بين الناحيتين الجنوبية والشمالية، وهى العادة المتبعة حتى الآن فى المناطق الجنوبية من تزاوج شخص مع ابنة خاله، وهى عادة يستهجنها الهندوس فى المناطق الشمالية. والواقع أن المناطق الجنوبية من الهند كان لها تاريخ منفصل، مع قيام مواقف قليلة من الاتصال بتاريخ المناطق الشمالية من الهند. ولقد قل الملوك الذين أحاطت سيطرتهم على الشقين الجنوبى والشمالى، كحكومة چندرگپتا موريا، أو أشوكا،

أو جلال الدين أكبر، أو أورنگ زيب. والعزلة النسبية في الجنوب هي المسؤلة عن اعفائها من غزوات المسلمين التي تعرضت إليـه الأجزاء الشماليـة من البلاد لعدة قرون.

وسلسلة جبال وندیا بما فيها من جبال ستپورا والتي تضم وديان نهرى نرمدا وتاپتى، تمتد من خليج كامى (Gulf of Cambay) إلى راج محل فى بنغال. وفى الجهة الوسطى فى الهند تتحد جبال وندیا وستپورا لتؤلف المرتفعات فى الأقاليم المتوسطـة (Central Provinces). وفى الناحية الشرقية حتى الجبال الشرقيـة، والمنطقـة الواقعة بين نهرى گوداورى ومهاندى الممتـدة إلى إتجاه شمالى فى وادى نهر سون، هي أيضـا معروفة بالجبال وبالأوعال ذات الحمى موطن السكان الأصليين العاريين من صبغة حضارية، وفى بقاع من الأرض كـ «سونتل پرگنا» وفى جبال وأوعال الهند الوسطى، أو فى مرتفعات نیلگیری، كما قد ذكر.

وحتى فى زمان الكتاب الويدى المسمى «ايتريا براهمانا» (الذى لا يتأخر تاريخه عن ٢٠٠٠ ق. م)، قد ذكر أن الأجناس الغير الآرية: اندهرا، وپوراندهرا، وسارا، وپوليندا، ومريتيا، قد سكنوا فى ضواحى المدينة الآرية فى أوعال وندیا فى الناحية الشرقية وفى الجنوب الأبعد. قد عزلت جبال اناامولاى، وپالى، وكارديم مملكة كيراله التي انعثت عنها فى العصور الحـديثة ولايتا كوچين وتراونكور. ومن آثار هذه العزلة فيهم، يوجد لديهم عادات اجتماعية غريبة كالمرأة تتزوج رجالا متعددين فى آن واحد، أو التراث الأموى (بموجبه إذا مات رجل ورثه ابن أخته)، هـذه عادات غير معروفة فى النظام الاجتماعى الآرى وبقيـة البلاد الهندية.

ومثال عزلة آخر ملفت للنظر هو العزلة فى المنطقتين المزدحمتين، فى جنوب الهند، منطقة سهول كرناتك الممتدة من مدراس إلى تانجور، ومنطقة سواحل

مليبـار ما بين كوچين وكاليكوت. وعزلة المنطقتين المعمورتين فى ما بينهما نقطة تقطع بالثغرة المسمى ثغرة كوئمباتور أو پالگات، وهى التى تتيح لأسواق كرناتك منفذا ضروريا إلى المرافىء. والموانى الطبيعية على سواحل مليبار. إن الأمواج على سواحل كورومندل مضافا إليها الحواجز التى تتألف من الجبال الغربية وراء ساحل مليبار هى السبب فى العزلة النسبية فى جنوبى الهند تعيقه منها ثغرة كوئمباتور وتلتحم كوئمباتور التى أصبحت تتمتع بأهمية كبرى بسببها.

المواصلات

إن الهند رغما عن كل هذه العزلة الطبيعية لتعكس صورة اجتماعية معقدة غريبة مخلوطة بأجناس مختلفة، ولا شك أنها وليدة المواصلات بالعالم الخارجى، والهجرات، والغزوات الأجنبية. فهكذا يناقض تاريخ الهند جغرافيتها. وحركات عالمية فى الفكر والشعوب قد تعدت على عزلتها خلال العصور الغابرة وأدخلت فى حضارتها عناصر سلالات وثقافات مختلفة، يمكن تقسيمها إلى:

(١) الأجناس ما قبل الدراويديين (Pre-Dravidian)؛

(٢) الدراويديين (Dravidian)؛

(٣) الآريين (Aryan)؛

(٤) الفرس (Iranian)؛

(٥) اليونانيين (Greeks)؛

(٦) الروميين (Roman)؛

(٧) السيثيين (Seythian)؛

(٨) الألمانيين (Huns)؛

(٩) المسلمين؛

(١٠) الأوربيين (European)؛

السؤال هو: كيف أمكن جريان النفوذ الأجنبى؟ وما هى الطرق الثابتة التى ساعدته فى الدخول إلى الهند؟

إن الحدود الشمالية الشرقية من البلاد لا تحتوى إلا على عدد قليل من الثغرات، وهى تسمح بحركات واسعة النطاق. والممرات الثلاثة فى ما بين سيكيم وتبت ــ جيلپ، وناتو، ودونكيا ــ رفيعة ممتنعة تسمح بالتنقل القليل فقط. وفى الشرق تقدم طريق برهمپترا ممرا من تبت، ومن الصين بطريق ميكانك، وسالوين، وإيراودى، ولكن الهجرات على نطاق واسع من هذه الطريق، تمنعها الأدغال الكثيفة وسكانها الوحوش. هكذا قد تركت وقاية الهند فى هذه المنطقة فى يد الطبيعة.

والحصن الشمالى بأكمله حوالى ١٥٠٠ ميل، فى الحقيقة لا يسمح بالاختراق. وهناك بعض ممرات تمتد من جبال پامير على طريق گلگيت، ومن تبت على طريق ليه، ومضيق ستلج إلى الهند. وبالممرات الثلاثة المعروفة بممر مستاغ (أى الجبل المثلج)، وممر كاراكورم (أى الجبل الأسود)، وممر چانگى هيمو التى يزيد ارتفاع كل منها على ١٨٫٠٠٠ قدم، قد يسرت حركة تنقل محدودة ما بين پنجاب وتركستان الشرقية من ناحية، وتبت من ناحية أخرى. ولكن هذه الممرات صالحة لمرور التجار لا للهجرات والغزوات. ولم يعتبرها صالحة الحجاج البوذيون القادمون من الصين فى القرون الوسطى كـ «يوان چوانگ» الذى توجه فى بداية سفره غربا متخذاً الطرق الصحراوية الواقعة فى شمال تبت إلى أن وصل إلى أوكسس، ثم انحرف باتجاه جنوبى عبر ممر هندوكش.

وفى المناطق الجنوبية، كانت الهند دائما عرضة للنفوذ الأجنبى بطريق البحر، وللتبادل التجارى السلمى مع مصر وبابل فى بداية الأمر ومع الامبراطورية الرومانية بعد ذلك. وقد عثر فى مدافن مصر على المنتوجات الهندية كالنيلج

(للصباغة)، وخشب أشجار التمر الهندي، والثوب الناعم (موسلين) لاستعماله فى لف المومياءات . ومن بين الغنائم التى حملها فرعون معه فى سفينته إلى مصر كان العاج ، والذهب، والأحجار الكريمة، وخشب الصندل، والقردة وجميعها من الهند. ويجد بعض العلماء ثبوت التجارة الهندية فى التوراة، وذلك بسبب ما يقع من الذكر فيها عن أشياء كانت الهند فقط تقدر أن تصدرها فى ذلك الزمان، كالأحجار الكريمة، والذهب، والعاج، وخشب الآبنوس، والطواويس، والتوابل — كانت هذه الأشياء جزءاً من البضائع التى حملها سفن سليمان. وقد وجد خشب الساج الهندى فى خرائب أور والكلمة البابلية للثوب الناعم هى « سندو ».

ويتحدث الكتاب الهندى « بويرو - جاتاكا » المؤلف فى حوالى ٥٠٠ ق. م. فى لغة پالى قطعاً عن التجار الهنود الذين كانوا يحملون الطواويس إلى بابل. والمنتجات الهندية الخاصة كالأرز، والطواويس، وخشب الصندل، كانت معروفة لدى اليونانيين بأسمائها الهندية التاملية فقط. ونظراً لقطع المواصلات بين بابل والهند بعد عام ٤٨٠ ق. م فلا بد أن هذه المنتوجات قد استوردت فى بابل قبل هذه الفترة بكثير حتى وصلت إلى يونان حوالى عام ٤٦٠ ق. م. وأصبحت مألوفة فى اثينا (Athens) فى عهد سوفوكليس الذى تحدث عنها (٤٩٥ — ٤٠٦ ق. م.).

وبموجب المؤلفات الهندية القديمة كانت سوپاراكا - سوپارا، وبهاروكاچاچها - بهروچ أهم مراكز التجارة القديمة على سواحل بومباى. وكان للتبادل التجارى الهندى مع الروم الذى تطور على أوسع نطاق بين عهدى أغسطس ونيرو، قاعدتان رئيسيتان فى موزيريس (كرانگانور) على ساحل مليبار، وفى كويرى پداتام (پوهارا) على ساحل كورومندل، وكانت تشحن منهما البضائع الهندية التى قدرت ثمينة فى الروم، كالتوابل والعطور، والحرير، والثوب الناعم والقطن،

واللؤلؤ والأحجار الكريمة. وكان مركز تجارة اللؤلؤ مدينة باديا القديمة، عاصمة كوركاى (تيى ويلى) وهى الآن مدفونة تحت الرمال. وزاد الاقبال على الزبرجد من الأحجار الكريمة، وكان يستخرج من مناجم منطقتى كوئمباتور وسالم. والنقود الرومانية توجد أغلبها فى كوئماتور ومادورا. وتتحدث المؤلفات التاملية القديمة عن قوم «ياوانا» (القوى) و«مليچها» (الأبكم) بأنهم كانوا فى خدمة ملوك تاميل. والكلمة «ياوانا» بنفسها قد دخلت فى السنسكريتية بسبب اتصال هندى مع اليونانيين. وإلى هذا الاتصال أيضا ترد بقايا مستعمرتين من اليهود والمسيحيين على ساحل مليبار.

وقد بدأت تجارة أهل اليمن مع الهند على أعقاب التجارة بين الهند وبين مصر، وبابل، والروم وبعد نمو الاسلام فى ٦٢٢ الميلادية عمت سيطرة العرب على جميع الموانى الواقعة على بحر العرب وسواحل أفريقيا وعلى الطريق البحرية المودية من الخليج الفارسى إلى الهند والصين.

إن اتصالات الهند مع العرب حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى اقتصرت على التجارة الساحلية التى كانت تجرى على جوانب الهند العربية. وبعد ذلك خضعت البحار لعلوم الملاحة ومهدت طريق التسرب فى الهند للأوربيين فى حين أن غزاة الهند وفاتحيها كانوا قد تسللوا إليها سابقا بواسطة الطرق البرية الواقعة على الحدود الشمالية الغربية من البلاد. والحدود الشمالية الغربية رغم المنطقة الجبلية الملتفة حولها يعتبر أكثر قابلية فى الاختراق فى جميع الامبراطورية الهندية، وهى تحتاج إلى استعدادات مستمرة وعالية لتامين الدفاع عنها. والذى يضاعف عموم أمنها هو حدودها الطويلة الممتدة التى تخترق المناطق القبائلية إلى أفغانستان.

ولشعور أهمية حدود الهند الشمالية الغربية بأكملها لا بد أن نتطلع إلى ما

وراء الحدود المباشرة للهند ونقوم بدراسة هيئة النجد الايرانى الذى يشمل على الممالك الثلاثة المتجاورة : أفغانستان، بلوچستان، وفارس. وهـذا النجد يرتفع إلى المرتفعات الممتنعة فى جبال پامير فى الناحية الشمالية الشرقية، وفى جبال آرمينيا فى الناحية الشمالية الغربية. ولكنه من السهل بلوغه بالنواحى الأخرى فى جهة الخليج الفارسى، وبحر العرب، والهنـد، وتركستان أو توران فى الشمال. فتأمين الدفاع عن الهند يحتاج إلى السيطرة على الخليج الفارسى وبحر العرب، كما يقتضى انعدام قواعد القوات الأجنبية على النجد الايرانى فى الجهة الجنوبية والشرقيـة.
إن النفاذ إلى الهنـد سهل عن طريق أفغانستان بواسطة نهر كابول، وعن طريق سيستان. وإن ممر هـندوكش الذى يفصل حوض نهر أوكسس عن حوض نهر إندس سهل الوصول إليـه من كلتا الناحيتين ويمهد عـدة طرق إلى الهـند سالكة وديان الأنهار، أشهرها وأكثر استعمالا هى طريق «خيبر». وهذه الطريق تمتد من كابول فتمر على وادى نهر كابول مارة بمنطقـة «بنو» عبر ممر «كورم» وفيما بعد فى نهر إندس. ووادى نهر توچى يبتدى من غربه ويمتـد إلى داخل الهـند وتفيض منه نهر توچى التى ترتفع إلى سفوح جبال وزيرستان لتصب فى نهر كورم. ويقع ممر گومال بين أفغانستان وديرا اسمعيل خان. وعلى بعد منه، حيث تنخفض الجبال الأفغانية فى الجهة الغربية، تقع طريق أخرى حول أطرافها فوق النجد المفتوح ما بين هرات وقندهار، وهى لا تبعد كثيرا من سيستان، وتسير من قندهار باتجاه جنوبى شرقى مارة بمنطقة صخرية حتى تبلغ الأرض الواطية فى إندس. وهذه الطريق تسمى طريق بولان عندما تتعدى المضيق الأخير وتصل إلى الهند. والطريق الأخيرة فى المواصلات التى تربط إيران بالهند، تمر بمنطقـة مركان الصعبة المرور سالكة ساحل بلوچستان. واكتسبت هـذه الطريق شهرة فى التاريخ لأن الاسكندر المقدونى قد اختارها (لعله كان طبقا للخطة السابقة التى سلكها الفاتحان من قبل : سميرامیس وسائرس). وكانت نتيجة منكبة لجيوشه

فى سفر رجوعهم من الهند عام ٣٢٥ ق. م. وقد كثرت استعمال هذه الطريق على يد تجـار العرب. وهناك أيضاً اتصال جانبى بين الطريقين المهمين: خيبر وبولان، سالكاً عبر سلسلة من الوديان ما بين قندهار وكابول مارة بغزنة. وقد اشتهرت هـذه الطريق بالزحف الاسكندرى فى غرواته البكترية (Bactrian) والهندية، وفى العصور الأخيرة بزحف الجنرال روبرتس من كابول لنجدة قندهار خلال الحرب الأفغانية عام ١٨٨٢. وهناك عدد من الممرات ما بين طريق كابول وقندهار التى تؤدى إلى المنطقة الجبلية على الحدود الهندية.

وهكذا جميع هـذه المواقع، مفتاح لجزء عظيم من تاريخ الهـند القديمة والحديثة. إن الثغرات الموجودة فى حواجز الهند الجبلية الواقعة فى الشمال الغربى قـد استخدمت — كما ذكرناه آنفا — للمواصلات السلمية والغزوات العنيفة ولحركات وهجرات سلاليـة واسعة. وجاء من هذه الطرق بعض شعوب ما قبل التاريخ، والآريون الذين تولد منهم التاريخ الهـندى. وفى العصور التاريخية جاء الغزاة الأجانب من أمثال سائرس وداريس، والإسكندر وسيليوكس، وأقوام ديمتريو، وسليقيا، وبارتيا، وكوشان الذين دخلوا الهند فى عهدهم فى المواصلات التجارية النشيطة مع الامبراطورية الرومانية بطريق البر. وجاء المسلمون خلال القرون الوسطى. والاستثناء الوحيد فى مسئلة الأصل المهم الأعظم فى تاريخ الهند هو الأوربيون الذين دخلوا الهند من ناحيتها الجنوبية بطريق البحر.

وليست هنالك مغالاة فى أهمية صحراء راجپوتانا من الناحيـة الاستراتيجية أو العسكرية فى الدفاع عن الهنـد خلال العصور الغابرة. هذا القفر اليابس من صحراء كچھ (Rann of Cutch) الممتد فى جهـة الشمال الشرقى لمسـافة حوالى ٤٠٠ ميل وعرض ١٥٠ ميل، بمعية سلسلة جبال اراولى من ورائه كحصن آخر، يشكل خطاً ثانياً من التحصينات ضد غارات عـدائية من طرق بولان ومكران

إذا عبر مر خير ذات مرة. فالطريق ممهدة إلى دهلى التى يمكن أن توصف بـ «النقطـة المركزية التاريخية لجميع الهـد». ومن موقف الحد الشمالى من جبـال أراوالى حيث تصل القوات العارية من شمال الغرب إلى المياه الصالحة للملاحة، تسيطر دهلى على المدحل الذى يمهد الطريق من سهول پنجاب إلى الداخل — إلى قلب الهد الذى يحتوى على سهول نهرى جمنا وگنگا. لم يصل الفاتح الفارسى داريس إلى هدا المدحل فى القرن السادس ق. م. ولا الاسكـدر الدى توقف تقدمه عند حال بياس (Beas). وقد بقى للمسلمين وحدهم أن يعبروا هذا المدخل ويتمكنوا بذلك من تثبت أقدامهم بصورة دائمة فى الهد. ولكنهم استغرقت لهم حوالى حمس قرون — من يوم فتح العرب السد فى ٧١٢ م. إلى أن طهر السلطان الأول فى دلهى فى ١١٩٣ م. — ليوسعوا نطاق حكمهم من أطراف الهند إلى قلبها بمدحل دلهى وفى حلال هـذه المدة، كان سكان راجپوتانا فى مأمن بمرية بلادهم الطبيعية، وقـد أوقفوا المسلمين العزاة من حهة الشمال الغربى على الطريق المؤدية إلى دلهى، وقاموا أمام الجناح الحنوبى من الجيش المهاجم. وبعد فتح دهلى أصبح المسلمون القوة السائدة فى الهد.

«ويمكنـا أن نتصور حوض إندس — الذى يقع ما وراء صحراء راجپوتانا فى أسفل مرتفعات أفغانستان — كالعرفة الأولى للهد الأصلية. وقد كان للمسلمين فى هـذه العرفة حلال ما يربو عن ٩٠٠ عام الأغلبية بين السكان. والبقاع الواقعة فى الناحية الشمالية الغربية من دلهى، أى فى المدخل الدى يقع بين الصحراء والمناطق الحبلية، مروعـة بميادين الحرب — القديمـة منها على مقربة نهر جمنا حيث تمكن الفاتحون المسلمون من التغلب على المقاومة الهندية، والحديثة منهـا على مقربة من نهر ستلج حيث استطاعت القوات البريطانية الزاحفـة من التغلب على السيخ (Sikh). وليس من باب الصدفة أن وقع اختيار الانكليزية على مدينة

شملا التى كانت المقر الصيفى لنائب الملك الانكليزى لنصف سنة كل عام، بل هى كذلك لأنها تقع على المرتفعات الهمالية، وتطل على هذا المركز الطبيعى للامبراطورية والكفاح من أجل السيادة» — (تاريخ كمبرج للهند).

اتساعها

وقد تكون الهند قطرا منفصلة قائمة بذاتها من الناحية الجغرافية، ولكنها من ناحية الاتساع وحدودها الشاسعة أقرب إلى أن تكون قارة. فحجمها يساوى القارة الأوربية، باستثناء روسيا، أو عشرين ضعف مساحة بريطانيا العظمى. ومن بين التقسيمات أو المقاطعات فكل واحدة من پنجاب والمقاطعات المتحدة، والمقاطعات الوسطى، تفوق بريطانيا فى الحجم. ومساحة كل من مقاطعة بنغال وبهار، وأوريسا تساوى مساحة انجلترا واسكتلندا معاً. وكل من مديريتى بومباى ومدراس تفوق مساحتها من مساحـة ايطاليا، بينما مساحة مقاطعة آسام تعادل مساحة انجلترا لوحدها. ولا تنزل الهـند فى ضخامتها إذا قوبلت بمناسبة عدد سكانها بدلا من أرضها. فمجموع سكان الهند يعادل خمس سكان العالم. وكذلك كل واحـدة من مقاطعات بنغال، أو مدراس، أو المقاطعات المتحدة، تفوق عدد سكانها سكان بريطانيا الكبرى فى حين أن مقاطعة آسام الصغيرة تضم من السكان ما يعادل سكان الممالك بلجيكا، أو السويد، أو هولندا.

تنوعها

وضخامة الهند قـد أنشأت التنوع المطابق فى خصائصها الطبيعية وأحوالها الاجتماعية وقـد وصفت الهند من أجلها بـ «ملخص العالم».

ألف — تنوعها الطبيعى

يتوفر للهند مجموعة من أحوال جغرافية هى مبعثرة فى جميع بلدان العالم وفى

المجال الواسع بين خطوطها العرضية والطولية تضم الهند ثلاثة أنواع من الطقس: طقس القطب الشمالى أو الجنوبى يوجد فى المساحات الواسعة على ١٥٠٠٠ قدم فى جبال هماليا والطقس المعتدل والحار فى سهولها المنخفضة الممتدة إلى البحر. ومن ناحية الرطوبة أو الأمطار تقدم الهند نفس المجال الواسع، من ٤٨٠ بوصة فى السنة من الأمطار فى چيرابونجى — وهو أكبر تسجيل قيد فى العالم — إلى أقل من ٣ بوصات من الأمطار السنوية فى السند وراجپوتانا. وهذا التنوع فى أحوالها الجوية قد أدى إلى التنوع المطابق فى منتجاتها. ويقول العالم « هوكر » إن نباتات الهند أكثر تنوعاً من النباتات فى بلدان أخرى لها نفس الضخامة فى المساحة فى النصف الشرقى من الكرة الأرضية، إن لم تكن فى أكملها. ويقول « بلانفورد » إن تنوع الحيوانات فى الهند يفوق تنوع أوربا ولو كانت أوربا مضاعفة للهند فى حجمها. والواقع أن منتجات الهند، كما تقول « لى لى » تحتوى على جميع ما يحتاج إليه لخدمة الانسان. وعلى ذلك فان الطبيعة قد أنعمت على الهند قابلية خاصة فى الاكتفاء الاقتصادى لها وعدم الاعتماد على الغير فيه، وقد ترك للانسان تحقيقه.

ب — تنوعها الاجتماعى

الأقوام، واللغات، والمذهب

إن ضخامة عدد سكان الهند، وهم الذين يؤلفون خمس البشرية، تشتمل على أوسع تنوع فى حياتها الثقافية والاجتماعية. فهنا تجتمع السلالات البشرية الثلاثة المبدئية: القفقازى أو الصنف الأبيض مع ما يميل منه إلى الشقراء والسوداء، والمنغولى أو الجنس الأصفر، والحبشى أو الصنف الأسود (فى أندمان). ويشمل هذا التقسيم العام على الأصناف التالية من السلالات البشرية كما أشار إليه السر هربرت رائلى (Sir Herbert Risely) فى تقريره عن إحصاء السكان

فى عام ١٩٠١ م:

(١) الصنف الأصلى من السكان قبل الدراويديين. ويتميز هـذا الجنس بقصر القامة وعرض الأنف وغير ذلك من الخصائص التى سبق ذكرها، وبينت فى ذكر القبائل المختلفة الموجودة فى الأدغال.

(٢) الصنف الدراويدى، وهو يتميز بقصر القامة، والبشرة السوداء، وغزارة الشعر، وطول الرأس، وعرضية الأنف، وهو يوجد فى جميع المنطقة الواقعة فى جنوب الأقاليم المتحدة وفى شرق خط الطول ٧٦° فى الشرق.

(٣) الصنف الهندى الآرى. الذى يوجد فى كشمير وبنجاب وراجپوتانا المتميز بطول القامـــة، وشقارة البشرة، وغزارة الشعر على الوجه، وطول الرأس، ودقة الأنف البارز.

(٤) الصنف التركى الفارسى الذى يوجد فى مقاطعـــة الحدود الشمالية الغربية (N W Frontier Province)، وبلوچستان، والمناطق الواقعـة فى غرب إندس، ويتميز بقـامة فوق المتوسط، وبشرة شقراء ورأس عريض، وأنف طويل. فعلى هـذا فإن نهر إندس هو حد سلالى بين صنفى التركى الفارسى والهندى الآرى، كما هو حد سياسى بين إيران والهند.

(٥) الصنف السيتى الدراويدى (Seytho-Dravidian) الذى يوجـد فى السند فى شرق إندس وگجرات وفى المناطق الغربية من الهند، ويتميز هذا الصنف عن الصنف التركى الفارسى بقامـة أقل طولا، ورأس أطول، وأنف أقصر وأمثـالها. ويظهر من اسمـــه أن العنصر الأجنبى فى الصنف بوجود الرأس العريض هو بسبب السيتيين الذين حكموا المناطق الغربية من الهند فى الفترة ما بين سنـة ١٢٠ و ٣٨٠ الميلادية. ولـكن لم يكن فى وسع السيتيين، كما

يظهر من تاريخهم، أن يؤثروا فى السلالة المحليـــة لأنهم بدلا من أن يؤثروا فى ثقافتهم، قد أخذوا بأنفسهم صبغة هندوسية بالتدريج. ولا بد أن انحدر العنصر الأحنى من السلالة الآلـبية ذات رأس عريض، القاطنة فى غربى آسيا وإيران، والتى شقت طريقها إلى غربى الهند على نحو ما فعل الدراويديون. ولا بد أن حدث هذا فى عصور بعيدة عن الزمن الذى يبست وسدت فيه طريق الهجرة.

(٦) الصنف الآرى ـ الدراويدى أو الهـندوستانى من بنجاب الشرقيـة، والأقاليم الوسطى، وبهار شكل رأسه طويل والبشرة يتراوح لونها بين الأسمر والأسود، والأنف يتراوح بين المتوسط والعريض، والقامـة دون المعتـدل — ما بين ٥ أقدام و ٣ بوصات، و ٥ أقدام و ٥ بوصات. ويعود أصله إلى اختلاط الهنديين الآريين مع الدراويديين المفتوحين. يوجد أولا هذا الصنف بحالة فى مقربة من خط الطول لـ « سيرهـند ». ويظهر من رگويدا أيضاً أنه فى عهده لم يتعد الاستعمار الآرى إلى وراء سيرهند التى هى وادى « سرسوتى ». إن رگويدا مربوط ببلاد ذات سبعة أنهر. والأدب الويدى المتأخر لبراهمنا وابنيشد، مربوط بالمناطق الشرقية بين نهرى جمنا وگنگا، وتمتد حتى مقاطعة متهرا المشتملة على كوروك شيترا — الأرض التى شهدت النضال منذ عصر مہابھارتا إلى حروب پانى پت. فالبرهان المنتج من الأدب تسعف البرهان الذى يتوفر من علم السلالات فيما يختص بالحـــدود الفاصلة ما بين هذين الصنفين، وهى الحـدود التى تتبع طبعا خط التقسيم الفـاصل بين دورين أو عصرين من التـاريخ، عصر هجرة القوم الهندى الآرى الذى تبعه عصر الاستعمار الهندى الآرى، وكانـــ ذلك تطوراً بطيئاً محتوياً عـلى فتوحات وامتزاج فى السلالات والثقافات.

(٦) الصف المغولى فى برما وآسام ومنخفضات سلسلة هماليا المشتملة على بوتان ونيبال وأطراف الأقاليم المتحدة. وبنجاب وكشمير. ويتميز الصف بالرأس العريض، والبشرة الغامقة الصفراء، وقلة الشعر على الوجه، وقصر القامة، والوجه المسطح، وجفن العين المـائلة ويرجع وجود هـذا الصف إلى الفتوحات المغولية من تبت والصين

(٨) الصف الشـالى فى بنغال وأوريسا المميز برأس عريض، وبشرة غامقـة، وشعر غزير على الوجه، وقامة متوسطة، وأنف متوسط مائل إلى العريض. وقد اصطلح « رائلى » لهذا الصف اسم المغولى الدراويدى، لاعتقاده بأنه نتج بادغام عنصرى الدراويدى والمغولى. وقـد سبق لـنا أن أوضحنا بأنه من الصف الآلى من ذوى الرؤوس العريضة والحاجز الفاصل بين بنغال وبهار هو سياسى وكذلك حسى كما أشير إليـه أيضاً فى المراجع الأدبية فمثلا ذكر أترواويدا أن أصحاب مگدا وأصحـاب أنگا هم من الأقوام الخارجة من صبغة الحضارة الآرية . فى حين أن مرجع ستاپاتا برهما يذكر اسطورة عن انتشار العقيـدة البراهمية من منطقة غرب الشرقية إلى ويديها أو تيرهوت .

وهذا التنوع فى الأجناس مصحوب بتنوع على أوسع درجة فى اللغات فى الهند والتقرير الاحصائى الصادر فى سـنة ١٩٣١ قد عد ٢٢٥ لغة حية فى الهـند التى تمثل فيما بينها أربعة من الأسر العظمى للنطق البشرى أى الآسترية (Osteric)، والتبتية الصينية، والدراويدية، والهندية الأوروباوية . قد تركزت اللغة الدراويدية فى الجنوب فى لغات تيليگو، وتامل، وكنارى، ومليالم، ولكل واحدة منهـا أدب عظيم . وورائها فى الشمال تسيطر اللغة الهندية الآرية على اللغات المتكلمة التى لم تتركز وتتشكل بعد بالأدب. إن التوزيع الحالى فى اللغات الهندية الآرية

يحذو على نمس القواعد التى تحدو عليها المراجع السنسكريتية القديمة. ويعين «ستاپتا براهما» موطن النطق، أى اللغة الهندية الآرية، فى أرض كوروپنچالا من حيث أنها انتشرت إلى جهات مختلفة. وبعد ذلك يعين «منو» موطن الثقافة الهندية الآرية فى ما سماه «آرياورتا» أى المنطقة التى تقع ما بين جبال هماليا ووندهيا من خليج بنغال إلى بحر العرب. ويعين «براهمارشيديسا»، وهى أرض كورو، وپنچالا، ومتسيا، وسوراسينا، بأنها كانت إلى عهده حاملة للواء تلك الثقافة وهذا معلوم. وعلى ذلك تعد فى العصور الحديثة منطقة وسطى من اللغات الداخلية، مثل اللغة الهندية الغربية. ولها حزام داخلى من اللغات مثل البنجابية، والراجستانية والگجراتية فى الغرب، والبهارية فى الشمال، والهندية الشرقية فى الشرق، وحزام خارجى يشتمل على الكشميرية ولغة اللاندائية، والسندية، والكچية فى الغرب والمراتية فى الجنوب الغربى، والبهارية والبنغالية والآسامية والأورية فى الشرق. وكأنما تقع الثقافة الهندية الآرية من براهمارشيديسا التى تنطق المساحة اللغوية الداخلية على طول مجارى گنگا وجمنا عبر كوسالا إلى مدهيا ويوگا معرفة مساحات الحزامين الداخلى والخارجى من اللغات.

والصلات اللغوية بين براهما رشيديسا وبين المستعمرات الهندية الآرية اللاندائية فى بلاد الأنهار السبعة لا بد من أنها تأثرت بالعروات الفارسية من قاعدتهم فى گندهارا فى القرن السادس ق م وكان نتيجة هذا الاتصال ما بين الايرانيين والهنديين الآريين ظهور مجموعة لغات مختلفة تعرف باللغات البيساچية (Pisacha) التى ما زالت تحتوى على كثير من المفردات الويدية المهجورة، والتى تستعمل فى المناطق المحيطة بنهرى كابول وسوات المشار إليهما فى رگويدا وفى ما وراء اللغات البيساچانية والحزام الخارجى الهندى الآرى فى الغرب، توجد اللغات الايرانية كلغة پشتو وبلوچ.

وتقدم الهند أكبر تغاير من جهتها الدينية فتوجد بها جميع أديان العالم فالهندوسية وحدها دين ٢٩٠ مليون نسمة من السكان، ولا بد لمذهب أن يكون جامعا وعميقا فى مبادئه حتى يوافق الناس بهذه الكثرة من الملايين وذلك لاتساعه المنظم، وأسلوبه الجامع. وأصبح دينا عموماً لأناس متباين فى السلالة، واللغـة، والتقاليـد، والمصالح السياسية الاجتماعية. ولدين الاسلام حوالى ٩٠ مليون من المتبعين قد وزعوا على مختلف المقاطعات فى الهند بنسب مختلفة. مؤلفين الأكثرية فى مقاطعات الحدود العربية الشمالية، وپنجاب والسند وبنغال، وأقلية فى المقاطعات الأخرى وهناك ١٢ مليونا من البوذيين والمسيحيون هم أكثر من ٦ ملايين، والسيخ أكثر من ٤ ملايين، والجينيون أكثر من مليون، و ١٠٠ ألف من الفرس المجوس وتقدم الهند تطور البشرية فى جميع أحوالها وأدوارها من أدناها إلى أعلاها. ويمكن أن توصف كمتحف طقوس، ومذاهب، وعادات، وثقافات، ومعتقدات، ولغات، وأصناف سلالية، وأساليب إجتماعية، ولكنها ليست بمتحف للأشياء الميتة، أو أغراض مادية، بل لملة حية، وأساليب روحانية كل يتطور على شاكلته

حقيقة وحدتها [1]

وهكذا كونت الهند بلادا موحدة قد يفوت ويصيب تصورها فى وسعها الاقليمى واختلافها. ومجموعتها ضخمة جداً حتى لا يمكن إدراكها كوحدة، ويمكن إدراك أجزائها فقط فهى أشبه بالاسطورة القديمة عن الرجال العميان الذين عاينوا فيلا، كل واحد منهم يمس عضوا منه ويحسبه جميع الحيوان وتحصرنا واحدة من حكايات أوپانيشاد عن الخصام فى الأهمية الذى نشب بين الأعضاء الجسدية، غير مبالين عن الحياة التى قد عضدتهم جميعاً. والواقع أنه لمن العسير أن تتلمس

١ — إلا أن الظروف السياسية القاهرة مزقت وحدتها فى السنين الأخيرة

الوحدة فى الكثرة، والفرد فى الجماعة، والبسيط فى المركب. ومجرد التنوع ليس بدليل معاكس للوحدة بل على خلاف ذلك هو علامة الحيوية، والوفرة، والقوة.

ووحدة الهند الجغرافية واضحة على الخريطة تظهر كيف تنفصل البلاد تماما عن بقية العالم بحواجز كأنها لا تقبل حد مشابهة بالحدود المتنازع فيها التى عينت بدون حقيقة بين بعض الدول الأوربية.

وبالرغم عن هذا فالسؤال باق إلى أى درجة قد أدرك الأهالى هذه الوحدة الأساسية فى الهند أو مثلوها فى التاريخ؟ ليست هناك أهمية لنعم الطبيعة حتى سخرت لخدمة الانسان، وله أن يعرف كيف يستكشفها، ويسخرها ويستفيد منها.

إن أول شرط لتقـدم الشعب فى السياسة والثقافة هو الحصول على قطر مقرر ومعين، يمكنهم أن يحسبوه موطنا لهم فيخدموه. فقوم لم يجدوا وطنا لأنفسهم، يسكنون فى حالات غير ثابتة وغير معينة، فى الاضطراب والالتباس، تنقصهم الشروط اللازمة التى يمكن أن تسمو فيها الثقافة والحضارة إن الحالة البدوية لهى من أسفل درجات الحضارة وإن الوطن لقوم بمثابة جسم للانسان. هو ضرورى للتعبير عن نفسه ولا شك فيه أن تكوين أمة يتوقف على توحيد فى عدة عوامل، كالوحدة فى اللغة، والدين، والحكومة، والعمومية فى التاريخ، والتقاليد، والعادات والطقوس ولكن هذه العوامل كلها ثانوية، وجذورها مغروسة فى حياة مشتركة ووطن مشترك

كان تقدم الهنديين المبكر فى ميدان الثقافة والحضارة بسبب تعصبهم الهند كوطنهم المشترك فطبقا لذلك أطلقوا على الهند بأجمعها لقب «بهارت ورشا»، ومراجع بورانا وصفت اصطلاح «بهارت ورشا» بأنها البلاد التى تقع فى شمال الأوقيانوس (أى الأوقيانوس الهندى) وفى شمال الجبال المثلجة (أى جبال هماليا)، والتى تتميز بسبعة سلاسل رئيسية من الجبال: مهيندرا، وملايا، وساهيـة،

وسوكتي مت، وركشا (أي جبال گوندوانا)، وونديا، وپاريپترا (أي جبال ونديا الغربيـة إلى نهر أراواليس)؛ وفيهـا يقطن قوم بهارتا، فيسكن قوم كيراتا (أي الأهماج) في شرقها، وقوم ياوانا (أي الآيون أو اليونانيون) في غربها، والسكان أنفسهم يشتملون على برهمن، وشترى، وويسيا، وسودرا (أي الهندوسيين) — [راجع «وشنو پورانا» لولسن]. إن الاسم الحديث «هند» للبلاد ليس بتسمية أهلية بل هي استيرادة أجنبية. كانت الهـند معروفة لدى الأجانب في العصور القديمة بنهرها «سندو» التي تلفظها الفرس «هندو» واليونانيون «إندوس» تاركين الحرف الحلقي الثقيل. إن تسميـة «بهارتا ورشا» ليست عبارة جغرافيـة محضة مثل اسم «الهند» بل لها معنى تاريخيا مشيرا إلى بلاد يقطنها قوم بهارتا — بلاد ثقافة الهـــند الآرية التي اتكلت لأعمدتها الرئيسية على قوم بهارتا. ولما تعين عند الهنديين الآريين بأنها كانت موطنهم فعمروها بأقصى جهدهم وقد استخدمت منهم عواطف حبهم وخدمتهم العميقة كما يدل على ذلك أدبهم وبموجب دعاء من أدعيتهم العمومية كان يلزم على كل هندوسي أن يتذكر صورة وطنه ويعبدها بصفتها أرض سبعة أنهر مقدسة گنگا، وجمنا، وگوداوري، وسرسوتي، ونرمدا، وسندو، وكاويري التي تقتسم فيما بينها مجموع مساحة البلاد ودعاء آخر يتضرع به إلى صورة الوطن كأرض تضم سبع مدن أيودهيا، ومتهرا، ومايا (هردوار الحالية)، وكاشي وكانچي (كنجي ويرم)، وأوانتيكا (أوجين)، ودراواتي (دواركا)، وهي المدن التي تمثل مناطق هامة من الهند وقد عضد روح هذه الأدعية نظام الزيارات الهندوسية العجيبة فيتطلب من الهندوسي أن يزور في حياته الأماكن المقـــدسة التي تقترن بمعتقدته. وتوجد لكل واحدة من المعتقدات الهندوسية لهمة أو فرقها قائمـة ذكرت فيها الأماكن المقدسة إما من صنف ويشـناوا، أو سيوا، أو سكتا، وهي موزعة في طول الهند وعرضها، غير مقصورة على مقاطعة واحدة. ولقـد تجمع الفرق المختلفة على أن يفرض على كل فرد من المتعبين

أن يزوروا أماكن مختلفة وبعيدة فى البلاد حتى يبعث فيهم شعور حى عما يؤلف موطنهم المشترك. وعلى نفس هذا المعنى، أسس شنكرا أربع مراكز دينية (مثا) فى أربع نقاط من أقصى جهات البلاد، هى «جيوتير مثا» فى الشمال (على مقربة من بدرى كيدار على جبال هماليا)، و«سراد مثا» فى دواركا فى الغرب، و«گوردهانا مثا» فى پورى فى الشرق، و«سرنگرى مثا» فى ميسور. وعلى هذا فالاعتقاد الدينى ممد للقومية فى الثقافة الهندوسية. وتوجد فى بعض المراجع المقدسة كمؤلف «بهگوات پورانا» أو مؤلف «ويشنو پورانا» عبارات مملوءة بحماسة حب الوطن. ذكر فيها أن الآلهة أنفسهم قد شكلوا بهارتا ورشا وودوا لو أنهم ولدوا فيها لأنها تعتبر الجنة على الأرض بسبب بيئتها المحركة للروح. وفوق ذلك، بلغ الذكر أوجه الأعلى بقول «الأم والوطن يفوقان الجنة فى العظمة».

ويدل على هذه الأدلة والمقتبسات أن الهندوس قد رفعوا شأن الوطنية إلى درجة الدين. ويقول الأستاذ ... شهير «ينظر الهندوسيون إلى الهند كوحدة سياسية فهم يريدون أن تكون تحت سيطرة واحدة مهما كان صاحب السيطرة — بريطانيا أو مسلما، أو هندوسيا، وأن تكون الهند تجسيما ماديا لثقافتهم الروحانية، بل يعتبرونها الأم لهم. وجعلوا الهند رمزاً لثقافتهم، وملأوها بروحهم حتى وجد بها تمثاله شىء أكبر من نفسهم».

والتجارب السياسية التى حصل عليها الهندوس القدماء ساعدتهم أيضاً علاوة عن الدين، فى إدراكهم تصور الوطن. ويمكن تصور وحدة البلاد إذا ما حكمتها سيطرة سياسية واحدة. ولقد كان الهندوسيون القدماء على علم بنظام السيطرة العليا وميزتها فى عصور قديمة جداً. وتدل على ذلك ألفاظ ويدية هامة مثل إكارات، أو سمرات، أو راجادهيراج، أو سرو بهوم، والرسوم الويدية للعبادة مثل راجا سويا، أو واجابيا، أو أسواميدا، التى قررها الملك الذى أصبح بفضل

غزواته ملك الملوك ويوجد فى بعض المراجع الويدية وبعدها فى النصوص أمثال مهابهارتا أو پوراناً. قوائم لمثل هؤلاء الملوك العظام. وعلاوة على هؤلاء الأباطرة الذين وجدوا فى فترة ما قبل التاريخ. قـــد ظهر عدد منهم خلال فترة التاريخ من أمثال چـندرگپتا موريا. وأشوكا. وسمودراگپتا. وهرشا. ومهيرا بهوجا. وفى الأيام الأخيرة خلال الدين أكبر وأورنگزيب وكان بعضهم يقدمون تضحية الحصن ليعلنوا عن سيطرتهم العليا، أمثال پوشيامترا، وسمودراگپـــتا، وكاراگپتا الأول، وآديتياسيما، وپولاكيسين الأول فنظام السيطرة العليا تاريخ طويل فى الهند. وكان إدراكها يوافق المثل الأعلى الذى وضع فى كتبهم المقدسة لأجل الملوك الذين لاقوا بماسة كونهم من جماعة المحاربين تشجيعاً على الطموح بأنه كان حلالا طيباً لهم أن يوسعوا مناطق سلطانهم إلى أقصى حدود وطنهم

وتظهر وحدة البلاد أيضاً بطابع الثقافة الذى يميزها عن غيرها. هـــذه الثقافة قد أنشأها الهندوس الذين يبلغ عددهم ٢٩٠ مليون والفرس قد وصفوا الهـند كموطن الهندوسيين «هـندوستان» «الهـند والهندوسيون، هما مربوطان فيما بينهما أساسياً كالجسد والروح» — (يقوله رعمرى مكدانلد) وقـد أدت الهـــندوسية إلى جمع الهـند وحدة ثقافية متينـة ثابتـة تحملت خلال العصور صدمات الثورات السياسية، وذلك لأنها بقيت مصونة فى نظامها المميز فى الحكم الذاتى الاجتماعى الذى ظل منفصلا عن الدولة، أهليـة كانت أم أجنبية وغير منتمٍ إليها بأى صلة إن الهـــند تسودها القرى، واعتبرت هـذه القرى كأنها جمهوريات تحكم نفسها، مع عدة كاملة من دستورات محلية لحفظ الثقافة الأهلية، غير مبالية بالتغيرات السياسية التى تطرأ فى الادارة العليا أو الحكومة المركزية

وما هى الخصائص المميزة لهذه الثقافة الأهلية الهندوسية؟ قد بينت الخصائص فى الوصف الأهلى الهندوسى بأنها الديانة القائمة على تقسيم السكان إلى طبقتين

ومرحلتين من الحياة، وهى أميز خصوصية وأكبر موحد للهندوسية. ففى الأصل كما يتضح من المراجع الويدية كانت تتكأ على تقسيم المجتمع إلى أربع طبقات أو أربع هيئات إجتماعية على حدة: برهمن، وشترى، وويسيا، وسودرا. وبمرور الزمن انقسمت هذه إلى طبقات يصعب عدها. فالهندوس فى جميع الهند مقسمون فى مئات من الطبقات والطوائف. وأصل نظام الطبقات الذى هو مميزة للهند قد أسيء فهمه إلى حد كبير. فالنظام يتصل فى الأصل بحياة الفرد الذاتية والبيتية والدينية. ولا يتصل بالحياة العامة. وهو يحرم التزاوج فيما بين الطبقات المختلفة (لحفظ النسل فقط)، ولكن تقسيم الطبقات هو فقط جزء من النظام الهندوسى. والجزء الآخر هو تقسيم حياة الفرد إلى أدوار معينة:

(١) براهماچارى أو دور طلب العلم،

(٢) گراهستا أو دور الحياة الأهلية البيتية،

(٣) وانپراستا أو دور العبادة،

(٤) سنياسى أو دور نسك، ينصرف المرء فيه إلى التأمل.

والدور الثالث لا بد أن يبدأ والمرء فى الخمسين من عمره، العمر الذى يليق لرب البيت أن يعزل من الدنيا والحياة العائلية، وينصرف إلى أوسع وأعلى مصالح الحياة وفى خدمة الآخرين. ويقصد بالدور الأخير التهيأ للانتهاء بقطع جميع علائق الدنيا الممكنة. فهكذا تتألف الهندوسية فى هيئتها الاجتماعية الخارجية — كما سبق ذكره — فى فرعين نظام الطبقات ونظام الأدوار. ولسوء الحظ قد زاد التأكيد على نظام الطبقات بالنسبة إلى نظام الأدوار. إن نظام الطبقات يقسم على أساس الولادة ولكن نظام الأدوار يوحد، فيربط جميع الطبقات فى قوانينه المشتركة، حتى يهدى المرء حياته بجانب الطريقة المنظمة للتطور الطبيعى الدورى.

واللغة السنسكريتية هي مركبة لهذه الثقافة الهندوسية. ولا يمكن أن نبالغ أهمية نفوذ السنسكريتية تدعيم الوحدة. ولقد بينها مونير وليمس (Monier Williams) بالوضوح (فى الهندوسية ص ١٣)

«إن الهند وإن كان لها خمسمائة لهجات منطوقة، فلها لغة مقدسة وحيدة، وأدب مقدس وحيد، يقبلها ويقدسها جميع أتباع الهندوسية على السواء، مهما اختلفوا فى السلالة، والرتبة، والفرقة فتلك اللغة المقدسة هي السانسكريتية. وذلك الأدب هو الأدب السنسكريتي — المخزن الوحيد لويدا أي «العلم» فى أوسع معناه» وهو المركبة الوحيدة للمذهب الهندوسي» وهو المرآة الوحيدة التى تنعكس فيها بالأمانة جميع الفرق الهندوسية، وآرائها، وخصائلها، وعاداتها» و (إذا أبيح لنا الاستعارة الرائعة) صخرة وحيدة من حيث تملك جميع المواد الضرورية لتحسين اللغات المتداولة أو للتعبير عن الأفكار الدينية أو العلمية الهامة».

وهذه الثقافة الهندية المتميزة قد وحّدت البلاد مع مرور الزمن إلى حد عرفت فيه البلاد والثقافة باصطلاحات مترادفة فكانت البلاد هي الثقافة والثقافة هي البلاد، فالمملكة الروحانية قد احتوت على الحدود الأرضية ومنذ إدخالها فى الهند من عهد رگويدا، قد انتشرت هذه الثقافة الهندية الآرية خلال العصور فى دائرات ومناطق كانت ولا تزال تتوسع، وعرفت أدوارها المتتابعة سپتا-سندو، وبرهما رشيديسا، وبراهما ورتا، ومدهيا ديسا. وآريا ورتا، وجمبود ويپا، وبهارت ورشا، إلى أن اجتازت بسبب قوة نشاطها حدود الهند، وشيدت الهند الكبرى فى ما وراء حدودها عبر البحار وتوحد الأفكار الهندية وأنظمتها فى الأدب، والأنصاب التذكارية، والأناشيد، والأساطير، والأخلاق، والعادات، ولا تزال حية إلى الآن فى بلاد كسيام، وكمبوديا فى البر الأصلي، وفى جزائر جاوا،

وسوماترا، وبالى، ووربيو، وكان دلك على يد المهاجرين الهنود المستوطنين فيها. وبعض هذه البلاد قد تلقت حتى ديانتها من الهند، أمثال تبت، ونيبال والصين اتبعت مذهب « مهايانا » من البوذية وأمثال برما، وسيلان، وسيام، وكمبوديا، التي تدينت بمذهب « هايانا » من البوذية. إن الاستعمار يستمد جروره من القومية الشيطة المتعدية التي تتعدى لشعور الموطن المشترك وثقافتها المتميزة

أثرها على التاريخ

إن ما تركته الهند أو خلفته من أثر على التاريخ، يصعب حدا تحديده وبالرغم عن وحدة الهند الأساسية. قد أوجد اتساع حجمها وتنوع هيئاتها الطبيعية وأحوالها الاجتماعية، النتائج الطبيعية على تاريخها ونشوء سياستها ولقد عسر دائما أن تنسق الهند بأجمعها فى وحده. وأن يبسط حكمها من مركز واحد تحت سلطان واحد، أو تحت سيطره سياسية واحدة والنتيجة هى أن الهند لم تدرك نظاما كاملا أو نشوءاً موحداً حتى نسمى تاريخها بالتدقيق كـ « تاريخ الهند » كما نقدر أن نسمى « تاريخ انجلترا » أو تاريخ فرنسا إن تاريخ الهند قد تحلل فى أكثر الأحيان فى تواريخ فرعية، ثانوية، غير مسلسلة، ولا تبقى هناك مواصلة فى تاريخ عام لجميع الهند وبدل أن ينشأ التاريخ من مركز واحد تحت إدارة مشتركة، قد نشأ فى الغالب من مراكز مختلفة، وحتى من مراكز مستقلة فيما بينها، فاقداً وحدته فى تنوع تواريخها المعزلة والمحلية لمختلف الشعوب والمناطق التى كانت تتطور حسب أساليبها المستقلة، والتى قدمت نقاطا ضئيلة فى الاتفاق، ونقاطا وافرة فى النزاع بينها.

وترتب عليه أن يتتبع ويدرس تاريخ الهند السياسى فى قطعات وكسرات، وفى انقطاعات وترتيبات معزلة، وفى الحلقات المفقودة المتعددة. ولقد تشكل التاريخ خلال العصور على أيدى عدة أقوام وحكومات أمثال موريا، وكوشان، وإيدرا، وگپتا، وگورجارا للشمال، وپلاوا، وچالوكيا، وچولا فى الجنوب، أو

المسلم، ومراتها، والسيح، والانكلير فى الأيام الأحيرة وقد حكم هؤلاء من مراكز مختلفة ومتغيرة أمثال پاتلى پترا، وپورشاپورا، وپيتهان، وناسك، وأوحين، وقنوج، وبدامى، وكانجى، وكلياں، وتاحور، ودلهى، وپونا، ولاهور، وكلكتا كل هده كانت مراكز الادارة المختلفة لأولياء الأمور السياسيين، ولمختلف أدوار فى التاريخ الهندى. ولقد حدث مرة واحدة للهند أنه كان لجميع الهند تاريخا واحدا تحت سيطرة حكومـة عامة، وهى إمبراطورية موريا فى رئاسة أشوكا الدى دبر أن يشعر بوجوده فى جميع أنحاء البلاد بل فى أفغانستان وبلوچستان، حتى إلى فارس كأجزاء الهند موسعة، أصبح لها الامبراطور أشوكا، السلطان الأعظم

ويجب أن يفهم أنه علاوة على ضخامة الهند، لم تسمح الأحوال فى العصور القديمـــة — كالصعوبات فى المواصلات قبل الاختراعات الميكانيكية الحديثة أن تتكون فى الهند أمبراطورية واسعة أو إدارة حكومة مركزية ولكى يكون لنفوذ سلطنة أثر حتى تكون الأجزاء المختلفة البعيدة فى مساحة واسعة، مألوفة على طاعة حكمها، كان لها أن تكون غير مركزية لحد بليغ، معطيه دائرة وسيعة للحكومات المحلية فهكذا كان هناك ولا بد حياة وتاريخاً محلياً، غير مبال بالحياة العامة والتاريخ الهندى وبذا أصبح التاريخ الهندى مجرد مجموعة من التواريخ المحلية المتفرقة

ويلاحظ أنه فى وراء هذا الاختلاف فى التاريخ المحلى، كان هناك دائما فى أرضيـة الصورة تاريخ جميع الهند، الذى لم يكن سياسياً بسبب كيفية الأحوال، ولكن كان ثقافياً فى صبغته التاريخ الفكرى الذى يتجاوز الحدود المحلية والتخوم الادارية إن جميع الهند لتحمل بعض حركات الفكر والحياة المشتركة التى تنتج فى قيام بعض المبادى العاليـــة المشتركة والأنظمة التى تميز الحضارة الهندية عن غيرها من الحضارات العالميـــة، وتصفها بأنها «وحدة فى تاريخ النشوء البشرى اجتماعياً، ودينياً، وذهنياً» — (يقوله إسمث [Smith] فى «تاريخ الهند القديم»).

مجلس الهند للروابط الثقافيــــة

تقرير السنوات الخمس (١٩٥١ — ١٩٥٦)

قدم سكرتير المجلس السيد إنعام الرحمن خان تقريرا عن نشاط «مجلس الهند للروابط الثقافية» خلال السنوات الخمس الماضية، فى إجتماع الهيئة الادارية العليا للمجلس المنعقد فى شهر أبريل الماضى تحت رئاسة رئيس المجلس مولانا أبى الكلام آزاد. وفيما يلى مقتبسات من ذلك التقرير.

كان المجلس فى عام ١٩٥١ يشتمل على ثلاثة أقسام — قسم الشرق الأوسط، وقسم جنوب شرق آسيا، والقسم الايرانى. والآن توجد عندنا ثمانية أقسام، وهى (١) قسم غرب آسيا (وكان يسمى قسم الشرق الأوسط سابقاً)، (٢) قسم شرق آسيا (قسم جنوب شرق آسيا سابقا)، (٣) القسم الايرانى، (٤) القسم الأفريقى، (٥) قسم منطقــة جزر غرب الهند البريطانية (Caribean)، (٦) قسم لخدمة الطلاب، (٧) قسم الاستعلامات، (٨) مكتبة ودار المطالعة.

وليست عـــدنا الآن أقسام خاصة لبلاد أوروبا وأمريكا لأسباب شتى، ولكن نشاطنا يمتد إلى تلك المناطق ونقوم باتصالات خاصــة مع المؤسسات الثقافية فى تلك البلاد

وإليكم خلاصة نشاطنا فى الأقسام المختلفة

١ - قسم غرب آسيا (مع القسم الايرانى).

يقوم المجلس باتصالات مستمرة مع المنظمات الثقافيــة المحلية فى بلاد غرب آسيا. وكذلك يستقبل بلاد الناطقين بالضاد والبلاد التى يتكلم أهلها

باللغة الفارسية عدداً صحيحا من مجلتنا العربية « ثقافة الهند » التى تصدر عن المجلس بعد كل ثلاثة أشهر ومجلة « إيران وهند » (Indo-Iranica).

وكان المجلس يتمتع بتشجيع من الحكومة الهندية فى سبيل تنفيذ بعض المواد الواردة فى المعاهدة الثقافية بين الهند وتركيا المعقودة فى عام ١٩٥١ ، وطبقا لهذه المعاهدة عين المجلس الدكتور مى لال پاتل أستاذاً للعلوم الهندية (Indology) فى جامعة استامبول. وقوبل نشاطه العلمى فى ذلك الميدان منذ عام ١٩٥٤ بقبول حسن لدى الأتراك. وطلبت منا الحكومة التركية فى عام الماضى باتخاذ التسهيلات اللازمة لنقل الدكتور پاتل إلى أنقره لتأسيس قسم خاص للعلوم الهندية فى جامعة أنقره. وبناء على ذلك الطلب قرر المجلس أن يعين الدكتور پاتل أستاذاً زائراً فى جامعة أنقره علاوة على خدماته فى استامبول

أما الدكتور سى كنهان راجه الذى عين أستاذاً للغة السنسكريتية فى جامعة طهران عام ١٩٥٠ واصل نشاطه العلمى إلى شهر يوليو ١٩٥٤ ثم استرخصته جامعته. وعين فى تلك الوظيفة الدكتور ايراج تاراپوروالا الأستاذ الجليل المشهور فى السنسكرتية وتولى الدكتور تاراپوروالا مهام منصبه فى طهران عام ١٩٥٥. ولسوء الحظ قد تداعت صحته عقب ذلك ونقل إلى الهند فى حالة المرض الذى لم ينتعش منه. وسيعين قريباً من يستخلفه.

وفى شهرى أبريل ومايو عام ١٩٥٢ زار الهند أستاذان وثمانية طلاب من إيران فى رحلة قام بتكاليفها المجلس. وفى ١٩٥٣ أعان المجلس ماليه إيرانية التى زارت الهند. وقد نجحت برامج الجماعة وصارت مساعدة المجلس فى هذا الشان محل ثناء فائق من الحكومة الايرانية.

قام المجلس فى سنة ١٩٥٣ بتكاليف ايفاد بعثة ودية إلى كابول بمناسبة

احتفالات أقيمت هناك

أهديت الكتب الكلاسيكية وغيرها من الكتب عن الهند المؤلفة بأيدى الكتاب الهنود إلى الشخصيات البارزة والمكتبات والمعاهد العلمية فى بلاد غرب آسيا

وقام المجلس باستقبال الزائرين البارزين الذين قدموا إلى الهند من هذه المنطقة استقبالا مصحوبا بالحفاوة البالغة، بطريق استقبالات رسمية وبطرق أخرى مناسبة لتلك الشخصيات الزائرة، منهم جلالة الملك سعود عاهل المملكة العربية السعودية، وجلالة شاه إيران وملكتها، ورئيسا وزارتى مصر وسودان

وشجع المجلس تبادل الطلبة بين الهند وبين بلاد غرب آسيا باعطاء المنح الدراسية لمدة قصيرة وبعث المجلس طالبين من الهند لدراسة لغات وثقافات بلاد غرب آسيا، كما أنه دعى طالبين من تلك المنطقة إلى الهند لدراسة الموسيقى الهندية والفنون الجميلة

وشكل المجلس فى أوائل عام ١٩٥٥ لجنة للترجمة تتألف من اثنى عشر عضواً تحت رئاسة الدكتور جترجى (S K Chetterji) بينما يكون السفير الايرانى فى الهند عميدها وتستهدف اللجنة إلى اختيار الكتب الكلاسيكية وغيرها من الكتب فى الآداب الهندية لترجمتها إلى اللغة الفارسية ونشرها والعمل الأول الذى قامت بها اللجنة هو ترجمة شكنتلا لكاليداس إلى الفارسية وهى الآن قد وصلت إلى مرحلتها النهائية. ومن المقترح أن تنشر ترجمة لاپانيشد على أساس ترجمتها للأمير دارا شكوه (أواسط القرن السابع عشر) ويجرى العمل على قدم وساق تحت إشراف الدكتور تاراچند السفير الهندى لدى إيران، ومن المتوقع أن يتم قريباً.

١ ـ جنوب شرق آسيا:

تحمل المجلس تكاليف زيارة الأستاذ پى. وى. باپت إلى بلاد جنوب شرق آسيا زيارة دراسية استغرقت حوالى ثلاثة أشهر من مارس إلى يولية سنة ١٩٥٣. وكان الهدف الأول بزيارة الأستاذ باپت هو دراسة أثر الفكر الهندى والثقافة الهندية فى بلاد جنوب شرق آسيا.

وفى عام ١٩٥٣ أوفد المجلس الدكتور ايس. ايم ايچ بيدار إلى اندونيسيا لمدة عامين لبحث آثار الثقافة الهندية على الشعب الاندونيسى وانتهت مدة مهمته فى شهر يولية ١٩٥٥، ولكنه قرر لأن يقيم هناك لعدة أشهر أخرى على حسابه الخاص لجمع معلومات زائدة لكتابه الذى يريد أن ينشره فى هذا الموضوع.

ولعب المجلس دورا هاما فى إكرام واستقبال الشخصيات البارزة والبعثات الثقافية التى قامت بزيارة الهند خلال مدة خمس سنوات مضت وأضاف المجلس البعثات الرسمية والغير الرسمية التى جاءت من الصين فى أعوام ١٩٥١ و ١٩٥٤ و ١٩٥٦ ضيافة مصحوبة بالتقدير والتكريم. وأقام المجلس حفلة استقبال على شرف الدكتور محمد حته نائب رئيس الجمهورية الاندونيسية حينما زار الهند فى شهر سبتمبر ١٩٥٥

وأهدى أيضاً كتباً كلاسيكية وغيرها من الكتب الهندية المؤلفة بأيدى الكتاب الهنود عن الهند إلى المكتبات والمعاهد العلمية فى الصين، وإندونيسيا، وملايا

٢ ـ القسم الأفريقى:

كانت الزيارة التى قام بها نائب رئيس مجلسنا كاكا صاحب كاليلكر إلى غرب أفريقيا فى شهر أكتوبر ١٩٥٢ تحت مسئولية المجلس سدسا

للعمل بالقرار الذى اتخذ فى ابتداء عام ١٩٥٣ لتأسيس قسم أفريقى خاص. وتحمل المجلس عبء زيارة شرى راگهو راؤ إلى شرق أفريقيا لدراسة الحالات الاجتماعية والاقتصادية للجالية الهندية فى تلك المنطقة. وقد نشر تقريره بصورة مقالة لنيل الدكتوراه من جامعة بومباى. وفى شهرى يوليو وأغسطس عام ١٩٥٤ قام الدكتور سنيتى كمار چاترجى رئيس مجلس التشريع لغرب بنغال وعضو فى مجلسنا بزيارة ودية إلى غرب أفريقيا من جانب المجلس هذا

ومن جانب أفريقيا قام ثلثة من الشخصيات الممتازة بزيارة للهـند فى أوائل عام ١٩٥٣ ضيوفاً على المجلس، وهم المستر موسارى والمستر موتيرا من أوغانده والمستر جے اين لوواتی المعلم فى مدرسة بـ «كينيا». وفى شهر مارس من نفس العام وصل إلى الهند المستر أوديگا أحد زعماء أفريقيا الشرقية البريطانية بدعوة من المجلس للقيام بزيارة على نطاق وسيع فى طول البلاد الهندية وعرضها وفى السنة الماضية قدم إلى الهند المستر لوپاما أمين صندوق لرابطة الشبان فى بدو وقام بتجولات وسيعة لمدة حوالى ستة أسابيع ضيفاً على المجلس وأعطى المجلس علاوة على ذلك منحا دراسية للمستر إى ايم متوپوكا وإيل دى ايف موكو بوتو من شرق أفريقيـا فى عامى ١٩٥٤ و ١٩٥٥ لمدة ستة أشهر لحصول التدريب فى الصحافة فى الهند

هذا وقد أهدى المجلس إلى المكتبات والمعاهد العلمية والشخصيات الممتازة فى شتى أنحاء أفريقيا، عـدداً ضخماً من الكلاسيكية الهندية مثل أوپانيشد ورگويدا وگيتا وغيرها من الكتب عن الهند التى وضعها الكتاب الهنود مثل «دسكورى آف إنديا» (أى اكتشاف الهـندى) لجواهر لال نهرو وكتب مهاتما غاندى

ومن الأعمال الهامة المثمرة فى برامجنا نحو أفريقيا هو زيارة بعثة ودية من

أوغانده إلى الهند فى شهر مارس ١٩٥٦ ووصلت إلى الهند فى ٤ من مارس البعثة المحتوية على ستة من الشخصيات البارزة تحت زعامة الدكتور موارى السكرتير العام للحزب الوطنى فى أوغانده واجتمع أعضاء البعثة خلال إقامته فى الهند التى استغرقت أربعة أسابيع مع زعماء الهند وشعبها، وكذلك زاروا المراكز الصناعية ومراكز التطور الاجتماعى وكانت زيارة هذه البعثة فى فرصة مناسبة، ونرجو أن تكون تلك الزيارة ناجحة مثمرة

ـ منطقة جزر غرب الهند البريطانية

عين المجلس محاضرا ثقافيا فى ترينيداد (Trinidad) فى شهر يناير ١٩٥٤ بناء على الطلب الذى قدمه إلى المجلس أهالى جزر غرب الهند البريطانية. وفى شهر فبراير ١٩٥٤ عين المجلس شرى ايس سى. ديكشت فى هذا المنصب فى ترينيداد لمدة عام فى الوهلة الأولى. وكان نشاط شرى ديكشت فى نشر الثقافة واللغة الهندية قوبل بقبول حسن من أهالى تلك المنطقة المنحدرين من أصل هندى وغيرهم. وعلى ذلك قرر المجلس تعيين محاضر ثقافى آخر فى جزر غرب الهند على أن يكون مقره فى غيانا البريطانية وعين شرى مهاتم سنح فى هذا المنصب فى شهر سبتمبر ١٩٥٤. وعاد شرى ديكشت إلى الهند فى أواسط سنة ١٩٥٥ وخلفه شرى جيديو محاضرا ثقافيا فى ترينيداد. ويتلق المجلس تقارير دورية عن نشاط محاضريه المثمر فى تلك المناطق هذا وإن المجلس قد تلقى طلبات مماثلة من أهالى جامائيكا وسرينام لايفاد المحاضرين إلى تلك الجهات أيضا. وزارت الهند فى السنة الماضية بعثة ودية غير رسمية تمثل الشعب المنحدر من أصل هندى فى جزر غرب الهند البريطانية وفى أوان إقامة البعثة فى الهند ضيفها المجلس، ووزع على أعضائها كتب عن الهند.

وأرسل عدد كبير من الكتب الكلاسيكية الهندية وغيرها من المؤلفات فى

المواد التى تتعلق بالهند إلى منطقة جزر غرب الهند.

وكان هناك اقتراح فى العام الماضى لايفاد عالم هندى ممتاز كمحاضر زائر فى تلك المنطقة ولكن المجلس لم يستطع أن يعمل بهذا الاقتراح فى السنة الماضية لأسباب شتى. وهو الآن قد اتخذ الاجراآت اللازمة ليرسل الدكتور أميا چكرورتى الذى يحاضر الآن فى جامعة بوسطن فى أمريكا عن الدراسات الشرقية، لزيارة هذه المنطقة فى هذه السنة لمدة حوالى ستة أسابيع ويلقى خلالها سلسلة من المحاضرات بالمراكز الهامة حول مختلف المواضيع عن الثقافة الهندية

٥ - قسم خدمة الطلاب

يوجه المجلس عناية خاصة تجاه رفاهية الطلاب الأجانب الذين يدرسون فى الهند ولهذا الغرض فتح المجلس قسما خاصاً لخدمة الطلاب فى سنة ١٩٥٣ وإنه فى تعاون تام مع الحكومة الهندية وجامعات الهند. وعندنا الآن حوالى ثلاثة آلاف طالب أجنبى (منهم طلاب منحدرون من أصل هندى) من خمسين بلد مختلفة ويهتم القسم أن تكون إقامة هؤلاء الطلبة الأجانب فى الهند على أتم راحة ويجعلها أيضاً نافعة ومثمرة. ويهيء القسم مباشرة وسائل لعقد احتفالات اجتماعية، ورحلات العطلة، وإنشاء حلقات دراسية، وخيام الترفيه للاستفادة منها. ويقوم المجلس بهذه الأنواع من النشاط وغيرها مستهدفاً إلى توثيق الصلات بين الهند وشعبها.

وألف المجلس اللجان المحلية للترفية فى المراكز الآتية لمساعدته فى نشاطه. وهى علىگره، وإله آباد، وبنارس، وبومباى، وكلكته، ولكناؤ، ومدراس، وپونا، ووشوا بهارتى (شانتى نيكيتن). وهذه اللجان تقوم بتنظيم احتفالات اجتماعية وتشرف على توفير وسائل الراحة للطلاب الأجانب فى تلك المراكز

وتسعى فى سبيل حل مشكلاتهم الغذائية والسكنية وغيرهما.

كان مؤتمر الطلبة الأفريقيين المقيمين فى الهند المعقد بدلهى فى شتاء عام ١٩٥٣ عملا هاماً من الأعمال التى قام بها المجلس قد افتتح شرى جواهر لال نهرو هذا المؤتمر وخطب فيه عدة شخصيات هندية بارزة واشترك فيه أكثر من مائة مبعوث.

اشترك حوالى ثلاثين طالبا من اثنى عشر بلدا فى حلقة دراسية عقدت فى ناگپور أثناء عطلة عيد الميلاد عام ١٩٥٤ حول فلسفة غاندى وألقى فيها عدد من أجلة العلماء سلسلة من المحاضرات الثقافية عن مختلف نواحى فلسفة غاندى وعن الفكرة الغاندية.

وكذلك قام المجلس بتنظيم معسكرات التسلية التعليمية فى أيام المسامحات وأقيم أول معسكر فى مسامحة الصيف عام ١٩٥٤ فى كودا كنال. واشترك فيه من عشر جامعات الهند ثمانية وعشرون طالباً من ستة عشر بلدا وصار النجاح الذى حرز هذا المعسكر من بواعث التشجيع لنا لأن نفتح معسكرين آخرين فى مسامحة الصيف فى شهرى مايو ويونيو عام ١٩٥٥، واحد فى كشمير وآخر فى اوتى كاند فاشترك فى معسكر كشمير مائة وستة عشر طالبا من خمسة وثلاثين بلدا ممن يدرسون فى خمس وعشرين جامعة فى شتى أنحاء الهند بينما اشترك فى معسكر اوتى كاند ثمانية وثلاثون طالباً من ستة عشر بلدا ممن يلتحقون إلى اثنتى عشرة جامعة هندية واشترك فى هذه المعسكرات عدد من الطلاب الهنود أيضاً.

عين قسم الطلاب فى المجلس ثلاثة مديرين ليقوموا باتخاذ الاجراآت اللازمة لاسداء تسهيلات خاصة لرفاهية الطلاب وراحتهم، واتخذوا مراكزهم الرئيسية فى بومباى وكلكته ومدراس. وهؤلاء الثلاث إلى جانب مدير عام فى المركز

وقرر المجلس إفتتاح حلقات خاصة للدراسات الشرقية للطلاب الأجانب الذين يقدمون إلى الهند فى هذا العام . إذا نالت هذه الفكرة مرموقا ستكون هذه الدراسات الشرقية جزءاً مستمراً من نشاطنا الثقافى .

٦ - قسم الاستعلامات

أما برامج قسم الاستعلامات للمجلس فهى مساهمة جوهرية صوب إنجاز أهدافنا المنشودة . ومن برامج قسم الاستعلامات المستمرة إصدار مجلتين بعد كل ثلاثة أشهر، إحديهما الثقافة الهندية الآسوية (Indo Asian Culture) فى اللغة الانكليزية والأخرى « ثقافة الهند » بالعربية . وتصدر الهيئة الايرانية فى كلكته مجلة ثالثة فى الفارسية والانكليزية باسم « إيران وهند » (Indo Iranica) تحت اشراف المجلس .

ونالت المجلة العربية التى بدأ صدورها منذ عام ١٩٥٠ محل قبول ورضا من قرائها فى داخل الهند وخارجها .

وأما المجلة الانكليزية فقد ابتدأ صدورها منذ عام ١٩٥٢ ، وقد كملت أربع سنوات إلى الآن . ومن الشواهد على الطلب المتزايد والاستحسان من الجمهور هو أن المجلس اضطر لطبع كمية كبيرة من أعدادها واستحسنها القراء فى الهند وفى الخارج استحسانا بالغاً . وتمتاز المجلة بمحتويات ثمينة وبجودة بديعة فى الطبع وبأحسن أنواع الصور والرسوم .

ويساهم المجلس أيضاً فى نشر المخطوطات النادرة وغيرها من الكتب القيمة عن الهند بطريق القيام بطبعها ونشرها بنفسه أو بطريق منح إعانات مالية لازمة إلى أشخاص أو معاهد تقوم بهذه المهمة . وتنفيذاً لهذه المهمة وافق المجلس على إسداء إعانة مالية لازمة للدكتور آر . بى . سكسينا فى السنة

الماضية ليستعين بها على نشر كتابين مخطوطين نادرين فى حورته . أما ترجمة بروفيسور هادى حسن لشكنتلا إلى الفارسية فقد سبق ذكرها . واشترى المجلس حقوق الطبع للتراجم العربية لستة كلاسيكية هندية قام بترجمتها الشاعر العربى المشهور المرحوم وديع البستانى، من ضمنها گيتا، وراماينا، ومهابهارتا، وشكنتلا . واتفق المجلس مع مدير الوثائق التاريخية الوطنية لترتيب مجموعة قيمة من الوثائق المنشورة من جانب شركة الهند الشرقية . وتشتمل تلك الوثائق على تقارير من وكلائها فى مختلف أنحاء الهند وفى الشرق الأوسط حول الحالات الاقتصادية والاجتماعية فى تلك البلاد فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ويقوم المجلس بطبع ونشر هذه الوثائق .

٧ ـ المكتبة ودار المطالعة ·

تحتوى مكتبة المجلس على ثمانية آلاف كتب، منها ستة آلاف كتب من جانب رئيس المجلس مولانا أبى الكلام آزاد من المجموعة الثمينة النادرة التى جمعها شخصيا . وأضيفت إليها فى السنة الماضية كتب تعادل بقيمة خمسة عشر ألف روبية ومعظمها فى اللغة الانكليزية . ومما دعانا إلى هذا الاهتمام الكبير لجمع كمية ضخمة من الكتب هو رغبتنا الملحة لانشاء مكتبة تضم أكبر عدد ممكن من الكتب النافعة التى تصور للقراء وتخبرهم عن الحياة الثقافية والاجتماعية لا فى الهند فقط بل فى جميع بقاع العالم . لقد صار عدم اتساع المكان الحالى للمجلس سببا مانعا للسرعة المطلوبة للنهوض بمكتبتنا .

أما دار المطالعة الملحقة بالمكتبة فهى مفتوحة لعامة القراء . وتتلقى دار المطالعة حوالى أربعين صحيفة ومجلة فى مختلف اللغات، ومعظمها يصل بالتبادل مع مطبوعاتنا ومنشوراتنا .

٨ ـ نشاط المجلس فى مختلف النواحى :

امتد نشاط المجلس إلى المناطق التى لم تفتح لها بعد أقسام خاصة إلى جانب أنواع النشاط التى يقوم بها المجلس فى المناطق المذكوره بطريقة سبقت تفاصيلها. وقام المجلس بإيفاد فرقة للرقص إلى الولايات المتحدة الأمريكية تحت إشراف شرى راى (D K Roy) فى عام ١٩٥٣. وفى عام ١٩٥٤ قدم المجلس إعانة مالية للدكتور ايس سنها فى جامعة كلكتـه ليسافر إلى استراليا ليشترك فى مؤتمر العلوم الهندية العامة المنعقد فى پرث (Perth) بأستراليا. وكانت زيارة الدكتور «ماى ليس ديلن» (Myles Dillon) من دبلن للهند فى رحلة ثقافية تحت مسؤولية المجلس وأقام المجلس احتفالات استقبال للزائرين البارزين من أوربا وأمريكا مثل «الدكتور وينترى» (Venturi) من إيطاليا و «الدكتور گريسن كرك» (Grayson Kirk) رئيس جامعـة كولمبيـا بنيويارك. كما أن المجلس أهدى إلى الزائرين البارزين كتبا عن الهند، وكذلك أرسل مجموعة منها إلى إيطاليا، وبولندا وبلغاريا، ويوغوسلافيا، والمملكة المتحدة، والولايات المتحدة الأمريكية.

وأنشأ العلاقات وكون التعارف مع المؤسسات الثقافية فى معظم البلاد على وجه الأرض ووصلنا أيضا إلى اتفاقيات حول تبادل المنشورات والمطبوعات مع هذه المؤسسات.

ويخصص المجلس اعتمادات خاصة فى برامجها القادمة لما يلى :

١ ـ نشر الكتب حول مختلف النواحى فى الآداب الهندية والثقافة والفنون.

٢ ـ فتح المراكز الثقافية مع المكتبة ودار المطالعة وقاعة المحاضرات لغرض نشر المعلومات عن الهند فى البلاد الخارجية. ومن المتوقع أن يبتدأ هذا البرامج

فى اليابان، واندونيسيا، ومصر، ولبنان، وسوريا، وأفريقيا، ومناطق جزر غرب الهند البريطانية.

٣ ـ ايفاد العلماء الهنود كمحاضرين زائرين فى تلك المناطق.

٤ ـ إدخال البلاد الأوروبية والأمريكية فى نطاق نشاط المجلس الواسع (وقد دخلت فعلا نوع ما فى هذا النطاق).

من أخبار الهنـــد الثقافيـة

احتفلت الهند وبعض البلاد البوذية عند تمام البدر فى ٢٤ من مايو ١٩٥٦ ذكرى ألفين وخمسمائة لوفات بودا العظيم، وتحديد هذا التاريخ يرجع إلى الروايات التى تمسكت بها بعض البلاد البوذية، لأن هناك خلاف بين المؤرخين بشأن التاريخ الحقيق لوفات بودا.

وقـــد صرح الدكتور راجندر براشاد رئيس الجمهورية أن الحكومة الهندية قررت إنشاء كرسى لدراسة الفلسفة البوذية بجامعة دلهى لكى يتسنى الاحتفال بذكراها.

٭ ٭ ٭ ٭

افتتح رسميا الدكتور رادها كرشنن معهد «نالندا» (Nalanda). وقد كانت نالندا فى عصر القديم مركزاً علميا عظيما يشد إليها الرحال طلاب العلم من سائر العالم.

٭ ٭ ٭ ٭

عثر نائب المدير لمصلحة الآثار القديمة على المحوتات الصخرية بجزائر هاويان (Hawaiian)، وهى تشبه الصور المرسومة عـــلى الخواتم التى وجدت بوادى إندس. ويرجع تاريخ هذه المحوتات الصخرية إلى ثلاثين قرنا قبل الميلاد.

٭ ٭ ٭ ٭

وجدت فى المكان التاريخى «بوتيشور» بالقرب من متهرا مجموعة كبيرة من النقود النحاسية التى يرجع تاريخها إلى القرن الأول والثانى من الميلادى. وكان هناك فى زمن من الأزمان معبد عظيم للبوذيين

٭ ٭ ٭ ٭

اكتشف فى مكان لوتهال القديم (أحمد آباد) أكثر من مائة خاتم يحمل كتابات وصورا حيوانية. ويرجع عهد هذه الخواتم إلى ثقافة هارابا بوادى إندس.

٭ ٭ ٭ ٭

قام المجلس الهندى للروابط الثقافية بطبع ترجمة التمثيلية الشهيرة «شكنتلا» لكاليداس باللغة الفارسية، ترجمها الدكتور هادى حسن.

THAQĀFATU'L-HIND

(INDIAN CULTURE)

PUBLISHED QUARTERLY

in

MARCH, JUNE, SEPTEMBER and DECEMBER

CONTENTS

	Subjects	Contributors	Page
1	Some Problems in Indian History	by Dr. N P Chakravarti	2
2	Malabar (Kerala) . .	by Mohiyyuddin Al-Alwaiye	30
3	A mistake in Heaven ? (Rabindranath Tagore)	by Anwar Shata	65
4	How Path - Putra came into existence ? .	by Mahmud Ali Khan	71
5	Pre-Historic India .		78
6	Hindu Civilization Geographical and Social Background		122
7	I C C R Report, 1951 — 1956		148
8	Cultural News of India		160

ANNUAL SUBSCRIPTION: Inland Rs 8 Abroad Sh 8 **SINGLE COPY** - Rs 2

INDIAN COUNCIL FOR CULTURAL RELATIONS

PATAUDI HOUSE, NEW DELHI 1

THAQĀFATU'L-HIND

(INDIAN CULTURE)

A QUARTERLY ORGAN OF
INDIAN COUNCIL FOR CULTURAL RELATIONS

MARCH - JUNE 1956

ثقافة الهند

يصدرها مجلس الهند للروابط الثقافية

سبتمبر ١٩٥٦

ثقافة الهند

تصدر اربع مرات فى السنة: مارس، ويونيو، وسبتمبر، وديسمبر

الاشتراك للسنة: فى الهند: ثمانى روبيات فى الخارج: ثمانى شلنات

ثمن العدد الواحد: روبيتان

تطلب من

مجلس الهند للروابط الثقافية، پتودى هاؤس، دلهى الجديدة نمرة ١

مطبعة "ق" بالهند

لصاحبها خليل شرف الدين، ٢٩ شارع محمد على، بمباى ٣

طبعت بامر مجلس الهند للروابط الثقافية

ثقافة الهند

يصدرها مجلس الهند للروابط الثقافية

المجلد السابع — سبتمبر سنة ١٩٥٦ — العدد الثالث

محتويات هذا العدد

			صفحة
١	الآريون في الهند : التمدن الركويدي		٢
٢	الأساطير الهندوسية عن الكون وخلقه		٣١
٣	مذكرات رابندرانات طاغور عن طفولته	تعريب الأستاذ أنورشنا	٥٤
٤	الثقافة الجينية		٦٦
٥	من أخبار الهند الثقافية		٧١

الآريون فى الهند: التمدن الرگويدى

نصوص رگويدا عن الأصليات الآرية

يعتبر تاريخ الهند فى الأعلب تاريخا للآريين فى الهنـد. فيبدأ التاريخ من زمان ظهور الآريين فى الهند وأقدم مرجعه هو المؤلف المعروف بـ «رگويدا سميتا» (Rigveda-Samhita)، وهو ليس بأقدم كتاب عن الآريين الهنديين فحسب، بل أيضاً عن سلالة الآريين بأكملها فالكتاب لا يوضح فقط ابتداء التاريخ الآرى فى الهند، بل أيضاً يبين تاريخ الآريين فى أماكن أخرى، ويبين هيئة اللغة فى عصر ما قبل التاريخ (كالصرف، والتلفظ، والأوزان)، وهيئة المذهب، وهيئة الحضارة على العموم

اللغة الآرية ووطنها المشترك

وجد اللغويون بأنه يظهر فى لغة رگويدا وتراكيب نحوها ومصادر أفعالها علاقة بالفارسية، واليونانية، واللاطينية، والتوتونية، والسلتية، والسلاوية، كأن هـذه اللغات هى الخلفاء لسلف مشترك فيوجد لديهم ألفاظ مشتركة تعبر عن القرابة الابتدائية، أو عن التجربة الأساسية فى الحياة مثلا الألفاظ التى تعبر عن الأب، والأم، والولد، والبنت، والرب، والقلب والدموع، والفأس والشجر، والكلب والبقر.

فللأم:

فى السنسكرتية	:	ماتر	(Mātar)
فى اللاتينية	:	متر	(Matar)
فى الانكليزية	:	مدر	(Mother)

وللولد

في السنسكرتية	:	سونُ	(Sūnu)
في اللتيوانية	:	سونو	(Sūnu)
في الألمانية الفوقانية	:	سُ نُ	(Sunu)
في الانكليزية		سَن	(Son)

هـذه الشهادة اللغوية، هي شهادة مهمة في التاريخ عن العهد الابتدائي فالعلاقة كهذه في ما بين اللغات، تشير إلى أساس مشترك للغة مشتركة نطق بها في موطن مشترك أجداد من ينطق بها الآن والناطقون بهذه اللغات أصبحوا أقواما منفصلين راحلين من موطنهم المشترك الأصلي، ولكن أجدادهم كانوا قوما واحدا آريا. ويمكننا أن نسميهم «ويرور» بمناسبة لفظ ويرور بمعنى «رجال» الوارد في أكثر هذه اللغات.

والسؤال هو، ما هو الموطن الآري الأصلي — بلاد ويروز؟ يستنتج ذلك فقط من المعلومات التي نجـدها في هذه اللغات الهندية - الأوربية أو الهندية - الألمانية. فأولا لم يسكن «ويرور» في جزيرة أو حتى على مقربة من البحر لأنه ليس له عندهم اسم. ثانياً إنهم قـد عاشوا في جو معتدل حيث عرفوا خشب قرو (oak)، وخشب الزان (beech)، والصفاف (willow)، وبعض الأشجار التي بها ثمار مخروطية (coniferous). ثالثا كانوا قوما مقيمين (غير مسافرين)، حيث زرعوا الحب برعاية الشهور، وربوا الحيوانات مثل الثور والبقرة، والغنم والفرس، والكلب والخنزير، ما عدا الحمار، أو الجمل، أو الفيل. ويشير الفرس والبقر بوبتهما حالة متضادة. فالفرس يسكن في أراضي ممهدة مكشوفـة وفلوها يتبع أمـه في تجولاتها. وأما البقرة فهي تبقى قريبة من عجلها في رعيها. فعلى هذا، لا بد للوطن الآري أن يكون مزيجـا لمقامات زراعية ومكتنة — أراضي ممهدة لتربية الخيل،

ومنحدرة لرعى الغنم.

إن هذه المقدمات عن النباتات والحيوانات، طبقا لما قاله الدكتور كائيلس فى تاريخ كيمبرج للهند (Dr Gile's Cambridge History of India)، تنفى الأماكن الآتية حتما أن تكون إحداها وطنا مشتركا للآريين كما قد زعم:

١ - الهند،

٢ - جبال پامير التى اشتهرت لعدم أهليتها فى الاستيطان الابتدائى،

٣ - الأراضى الممهدة الشمالية فى أوربا التى كانت فيها أدغال كثيفة فى الأيام الغابرة،

٤ - الأراضى الممهدة الجنوبية فى الروسيا،

٥ - مناطق القطب الشمالى

ويرى الدكتور أن المناطق فى أوربا التى تشتمل الآن على المجر، والنمسا، وبوهيميا، تطابق المقدمات المذكورة

الهجرات الآرية

الآريون الذين هاجروا من هـــذا الوطن الأصلى إلى الشرق (وبهم يتعلق تاريخ الهند)، وتفقدوا مزارعات جديدة ومكلآت بكرة، لا بد أن تبعوا السبيل السهل على طول نهر ديئيوب (Danube) الموصل إلى والاچيا (Wallachia)، وفى أقصى الجنوب إلى باسفورس (Bosphorus) والدرديبل (Dardanels). وبعد عبور هذه المنـاطق ومسطحات آسيا الصغرى لا بد أن وصلوا إلى المياه العالية من جبال يوفرت (Euphrates) وتيگرى (Tigris) — متجنبين الحضارة المقتـدرة التى ترعرعت فى ما بين سلسلة الجبلين — إلى أن نزلوا فارس بالطريق التى تقع بين تبريز وطهران، أو تقدموا أبعد منها إلى مشهد، وهرات، وبكتيريا.

المشابهة بين «رگويدا» و «أوستا»

إن الآريين الذين كانوا أجدادا للهنديين والايرانيين قـــد استوطنوا هذه

المنطقة. وعليه فكتاباهما المقدسان، رگويدا وأوستا، يبديان تطابقاً فى اللغة والفكر أكثر مما هو فى اليونانية أو اللاطينية أو فى مؤلفات أخرى هندية ـ ألمانية. «يمكن كتابة ألفاظ وجمل وحتى أشعار من حروف لغة الهند إلى حروف لغـــة إيران بدون أى تغيير فى الكلمات والتركيب» (يقوله الدكتور گائيل). ويمكن تشريحه بالأمثلة الآتية.

١ — الشعر

أوستائيه (إيرانيه)	معادلها فى الويدية
تات توا پرسا ايرس	تات توا پريچا ريجو
موئى ووچا	ما واچ
أهورا	أسورا
تاچيت	تاچيت
مردا	مريستا
وسمى	وشمى
أياچا	أياچا
ويدى	ويدى

٢ — الآلهة

اندرا	اندرا
وايو	وايو
مترا	مترا
موبائيتا	ناساتيا
ويرى تراگنا	ورى تراگنا

فيظهر من هذا أن أجداد الهندوس والفرس قد عاشوا معا لمدة أطول بالنسبة

إلى أقاربهم الآريين الذين كانوا قد هاجروا إلى الغرب. فكأنهم فى الجيل الأخير الذى غادر الوطن الآرى، ويدل على ذلك لغتهم التى حملت قسمة كبرى من التراث الأصلى الآرى المشترك، من النحو، والألفاظ، والأساطير، والقصص.

عهد رگويدا: الدلائل الأجنبية والهندية

فالآن السؤال هو، ما هو تخمين العهد الذى وقعت فيه هذه الهجرات الهامة؟ يبحث من منبع أجنبى ضوء صدفة على هذا الموضوع. قد أسفر العطاء عن بعض التسجيلات المؤرخة حوالى ١٤٠٠ ق. م. التى عثر عليها فى «بوغاز-كوئى» (Boghaz-Koi) فى الشرق الأدنى، وهى تسجل بعض المقالات التى أنجزت بين ملك الحثيين وملك ميتانى، وتذكر فيها بعض الآلهة كالوكلاء والشهداء على تلك الاتفاقيات وقد وردت أسمائهم كما يلى:

إيلانى مى-ايت-را أس-سى-ايل (إيلانى)

«أو-رو-و-نا-أس-سى-ايل (ايلو) إن-در (إيلانى) نا-سا-ا (تا-تى-إيا-ا) ن-نا»

تعتبر هذه الأسماء أنها تطابق أسماء الآلهة الرگويديين «مترا»، و«وورونا»، و«إندرا»، والقسمين من «ناستيا». وبناءً على أن هؤلاء الآلهة معروفون لدى أوستا أيضاً، ظن بعض العلماء أنهم كانوا الآلهة المشتركة للقوم الآرى الموحد قبل تقسيمه فى الهنديين والايرانيين. ولكن هجاء الأسماء فى الكتابة التى تتعلق ببلاد ما وراء النهرين يشير بالوضوح انتمائه إلى الأصل الرگويدى. فان كان كذلك فلا بد لنا أن نفترض أن رگويدا وثقافته قد شيدا نفسيهما فى الهند قبل ١٤٠٠ ق. م. بكثير حتى قدرا على أن يطلقا أثرهما على ثقافة الشرق الأدنى فى ذلك العهد.

إن الكتابات الشهيرة من تل العمارة (Tel el-Amarna) تنتمى إلى نفس العهد

الذى يحـدد فيه بعض كتابات بوغار-كونى . وقـد ذكر فيها بعض ملوك ميتانى بأسماء سنسكرتية فى التلفظ، أمثال: آرتاتاما، وتسرتا، وستاربا. ويحمل أيضاً أسماء مـلوك كاسى (Kassites) الذين حكموا بابـل ما بين ١٧٤٦ و ١١٨٠ ق م.، أسماءاً سنسكريتية مثل «شورياس» (سوريا)، و «ماريـتاس» (ماروتاس الويدى)، وغيرهما وتوحد فى مكتبة أسوربانى پال فى حوالى ٧٠٠ ق. م. قائمة للآلهـة الذين عبدوا فى أشوريا، وفيها إسم اسارا-ماراس مساو للاله الأوستائى الـكبير: أهورا-مردا، ولو أن تلفظ «أسارا» أقرب إلى كلمة «أسورا» السنسكرتية من كلمة «أهورا» الأوستائية.

وتشير شهادة الأدب الهندى إلى نفس قدم العهد للهجرات الآرية ولوجود رگويدا. وإذا ترعرعت البوذية فى الهند فى القرن السادس ق. م. فلا بد للثقافة البراهمية وأدبها أن تكونا أقدم منها لأن البوذية تعترف بها ولنا أن نسمح زمنا كاف لنمو الأدب البراهمى بأقسامه المتنوعـــة سوترا، وآرنياكا، وأوپانيشاد، وبرهما، وسميتا الويدى الأربعة التى سبقتها المواد الأصلية التى رتبت فى ما بعد فى سميتــا الرگويدى. فعـــلى أقل التخمين، نصل إلى ٢٥٠٠ ق م فى تعيين عهد رگويدا.

يكشف رگويدا الغطاء عن حضارة متقدمة

لا توجد فى رگويدا نفسه ولا إشارة إلى هذه الهجرات، بل هو يشير إلى شعب قد سكنوا البلاد، وإلى معاشرة منظمة، وإلى حضارة قد بلغت رشدها. وبموجب النظرية الهندوسية السائدة، لا يظهر من رگويدا أشعة ثقافة الهند الابتدائية أو فجرها، بل يظهر أوجها فى الثقافة. فكأن إلاهة الحكمة، والحرب، والفنون والعلوم والشعر كانت قـــد ولدت بعدتها الكاملة. إن رگويدا هو الجزر لشجرة الفـكر الهنــدوسى بتفرعها فى عدة فرق، ومعتقدات فلسفية، وطرق فى العبادة. فهو

لا يزال الأصل الوحيد المسلم به فى العبادة. فيوجد فيه «گيانترى منترم» الذى يفوه به إلى يومنا هذا ملايين من الهندوس كلمة كلمة معتقدين فى النفوذ السرى فى كل حركات ألفاظه وسكناتها، وينهون عن تبديلها فى عبارة نثرية أخرى.

الهند الرگويدية. أنهارها، ومناطرها، وشعوبها

إنما نرى فى رگويدا أن الآريين قد ملكوا إقليما واسع المساحة واشتغلوا فيه بخططهم وثقافتهم. وبعض التفاصيل الجغرافية التى نجدها فى رگويدا تشير إلى الحدود الهندية الرگويدية. فقد ذكر فى الغرب أنهار كوبها (أى كابل)، وكرومو، وگوماتى، وسواستو (أى سوات)، إشارة على سيطرة الهند على أفغانستان فى تلك الأيام. وذكر بعد ذلك الأنهار الخمسة فى پنجاب سندهو (إندس)، وتاستا (جهلم)، وأسيكنى (چناب)، وپروشنى (إيراوتى أو راوى)، وويپاس (بياس)، وكذلك سوتودرى (ستلج) وسرسوتى. وذكر جمنا وگنگا أيضاً. وقسم أناشيد الصبح من رگويدا يستدعى إلى الأذهان بهاءات الصبح فى پنجاب، ولكن قسما أكبر منه يتخصص بنزاع الطقوس، وبالرعد والبرق، وبانشقاق الأمطار من الغيوم، وبالجبال التى لا ترى فى پنجاب بل فى المنطقة تسمى براهماورتا التى تسيل إليها مياه أنهار سرسوتى، ودريشادوتى، وأپايا، ولا بد أن معظم رگويدا قد رتب فيها.

وقد وزع كل هذا الاقليم على عدة شعوب ويدية. وقد ذكر البعض الأهم منها وسمى بقوم گندهارى (المشهورين لصناعات صوفهم)، وقوم مجاونت (على الشاطئ الجنوبى لنهر كوبها)، وأقوام أنو، ودرويو وتورواسا (على خطة نهر پروشنى)، وقوم پورو وشعب وسط البلاد.

تطوره السياسى: حرب الملوك العشرة

كان تدرج الوحدة السياسية فى الهند الرگويدية فى معمعان الحركة. يقول

رگويدا عن حرب الملوك العشرة خلاف سوداس، ملك شعب بهارتا. وكانت الحرب بسبب المنافسة في السيادة في ما بين الشعوب من الاستعمارات القديمة في شمال الغرب والمتأخرة منها في براهماورتا. ويظهر أن هذه الحرب الويدية العظمى قد استغرقت جميع الهند الرگويدية مع من كان من الشعوب غير الآرية. فكان هناك خمسة أقوام في غرب إندس. قوم أليا (من كافرستان الحالي)، وقوم پختا (التي تذكر پختون الأفغانية)، وقوم بهلاناس (ولعلهم من ممر بولان)، وقوم سيوا (من وادي إندس)، وقوم وشانين. وكان أيضاً خمسة أقوام من داخل الهند، وهم أنو، ودورويو، وتروسا، ويادو، وپورو. وقد شمل الامتزاج أيضا على ثلاث أقوام شرقية من نهر جمنا الذين قد اعتقد بأنهم كانوا غير الآريين، وهم أجا، وسيگرو، وياكشو، وقادهم رئيسهم بيدا. وكان في العصبة سيمبو ملك غير آري آخر والملوك الآريون الآخرون الذين ذكروا، هم كواشا، وسمترا، وويكاربا الاثنان اللذان أضافا إلى العصبة من قبلهما واحدا وعشرين قوما من أتباعهما. وظهر فرقة ريشي كالمدربين للملوك، والقائدين في حربهم. وكان ويسوامترا يقود العصبة ضد سوداس الذي كان يتبع أوامر واسستا. وقاد بريگو قوم أنو. وغلب سوداس وأقام سيطرته على جميع الهند الرگويدية.

ويمكن أن يذكر من الأقوام الرگويدية المهمة، علاوة عن قوم بهارتا، قوم پورو، الذين انضموا بعد ذلك بمعية قوم بهارتا في قوم كورو، وحلفاءهم كريوي، وقوم سرنجايا.

وكان تنافس السيادة في ما بين الأقوام الآرية المختلفة جزء من التطور التدريجي الذي كان يتجه إلى تكوين مجموعة سياسية كبيرة، وتوحيد الهند الرگويدية تحت سلطان أو حاكم رئيسي. وحصول السلطة الآرية على السكان الأصليين غير الآريين لم يكن جزءاً ضئيلا في ذلك التطور.

ويتوفر فى رگويدا لمحات هـذه المناقشة المبدئية بين الآريين وبين غيرهم وكانت لهذه المناقشة أسباب ثقافية وسياسية.

الغير الآرى فى رگويدا

يطلق رگويدا على الغير الآرى اسم داسا، أو داسيو، أو أسورا. وقد ذكر أسماء أفراد من القائدين غير الآريين أمثال ايليبيسا، ودونى، وچومورى، وپيپرو، وورچين، وسمبرا، وأسماء أخرى لأقوام غير آريين أمثال سيميو، وكيكاتا، وأجا، وياكشو، وسيگرو الذين قد أشير إليهم. وفى رگويدا إشارة إلى قومين مرذولين پيساچا وراكشاسا اللذين صرخا صرخات مخيفة فى الحرب.

ولقد حدد التميز بين الآرى وبين غير الآرى طبيعيا وثقافيا. فالغير الآرى هو أدكن الجلد وبدون أنف أو أزلف الأنف (مثل الدراويدى): (١) كلامه محالف، أى يتكلم بلغة تختلف كليا من السنسكريتية الويدية؛ (٢) محروم من الطقوس الويدية؛ (٣) لا يعبد الآلهة الويدية؛ (٤) محروم من الورع؛ (٥) لا يضحى؛ (٦) عاص؛ (٧) يتبع شريعة غريبة؛ (٨) يسب الآلهة الويدية؛ (٩) يعبد الذكر.

وساق الآريون غير الآريين إلى الغابات والجبال، أو أخذوهم أسارى. فيشير الأدب الويدى بكثرة إلى «داسى» أى الأمة (الجارية). وفى رگويدا، فى قسمه پوروشا سوكتا، يذكر تخليق الفرق الأربعة من الجسم العمومى من الرب. والفرقة الرابعة منها قد تشكل من سودرا الذى يتضمن العبيد. وكان هناك عاملا لا مناص منه وهو المزج بالتدريج ما بين الآرى وغير الآرى بسبب التزاوج أو التحالف. وقد ظهرت أمثال هذا التحالف فى حرب الملوك العشرة كما قد ذكر. فكان للآرى أن يواجه فى الهند مأمورية ذات ثلاث طبقات: أن يظفر، ويستعمر، ويهذب. فكان عليه أن يتغلب على العنصر الأصلى ويدعه

ولـكن لم يكن من السهل البسيط للآرى أن يعطل الجلد الأسود. كان غـير الآرى فى عهد رگويدا محصا تماماً فى حصون حضارته التى كانت من جهة المادة متقدمة. يذكر رگويدا عن مدنه وقلاعه المصنوعة من الحديد أو الحجر، وعن قلاع وسيعة وفسيحة مملوثة بالبقرات، وقلاع ذات مائـة عمود، وقلاع حربية للملاجئ ضد الفيصانات.

وتوجد مخلفات هذه الحضارة فى خرائب المــدن التى اكتشفت فى هاراپا وموهنجودارو كما قد ذكر. فالمخالفون الرئيسيون من غـير الآريـين فى رگويدا، هم قوم پانى، قوم تجار عــلى ما يزعمه ياسكا — ولعلهم هم السادة لهـذه الحضارة التجـارية فى وادى إندس (السند). فالآثار التى عثر عليها تحتوى على النقود وأشياء مصنوعـة من الصدف التى قد استنتجت من تجارة بحرية فعلى هذا، كان للآريين أن يجاهدوا ضد حضارة متقدمة فى وادى إندس التى كانت بها مدن كثيرة والتى كان لهم أن يخضعوها. فموجه قد سمى إلاههم إندرا «ناهب المدن».

وتلقى عدة عبارات منتخبة من رگويدا ضوءاً على الاصطدامات بين الآرى وبين غير الآرى. فتوصف الأرض فى محل بأنها قبر للعبيـــد؛ وتوصف الاله إندرا بأنه ينهب مدن العبيـد السود، ويفنى جيوشهم، وتشـير إلى دبح ٥٠،٠٠٠ عدو ذى بشرة سوداء فى ميدان الحرب؛ وقتل ٣٠،٠٠٠ عدد من العبيد؛ وتشير إلى حصار ١٠٠ مدينة لـ «وانگريدا» غـير الآرى على يد «ريجيسوان» وحربه ضد «نسل أسود». وتشير عبارات كثيرة إلى نهب قلاع العبد الجبلى وسمبرا وذكر عــددها ٩٠ فى محل، و ٩٩ فى محل آخر، و ١٠٠ فى محل. والدعاء الآرى لدى الاله إندرا يلخص الحال هكذا:

«إننا قد أحاط بنا قبائل داسيو من جميع الجهات فهم لا يقربون التضحية؛ ولا يعتقـــدون فى أى شىء؛ وطقوسهم مختلفة؛ وهم ليسوا بآدميين! يا مهلك

الأعداء! أهلكهم. وأهلك نسل داسا (العد)».

المجتمع: الزواج والعائلة

كان المجتمع الرگويدى على نظام متقن. وكانت وحدته العائلة التى كان كبيرها رباً لها. وكان الرجل يعتقد أساسيا بوحدة الزواج. ولم يعرف زواج إمرأة بأكثر من رجل واحد وكان الزوج رب البيت وكانت زوجته ربة البيت. وكانت الأخلاق الجنسية عالية. ولم يبح مضاجعة المحارم أى زواج الأب بالبنت أو زواج الأخ بالأخت. ولم يعرف أيضا الزواج الطفلى ولو أنه شاع فى ما بعد. وكانت هناك حرية الانتخاب فى الزواج. وعاشت البنات تحت حماية أبويهن وبعد وفاتهما تحت وقاية إخوانهن.

وكانت عادة الموهبات فى الزواج مألوفة. ويظهر من الأناشيد الرگويدية عن الزواج أن العروس كانت بعد زواجها تنقل من بيت أبيها إلى بيت زوجها، وأنه كان لها فى بيتها الجديد مقاما ساميا كربة البيت، تحكم فيه على أبى الزواج وأمه المتقدمين فى السن، وعلى إخوة الزوج وأخواته. ويظهر أيضا أنه لم يكن فى مستطاع البشر أن يحلل الزواج الويدى، ولم يفكروا فى عقد ثان للارملة ولو أن هناك إشارة إلى الأرملة التى تزوجت بأخى زوجها الذى كان قد مات بدون أولاد. وكانت الزوجة رفيقة الزوج فى الحفلات الدينية.

الميراث

كان الولد يرث أباه ولا ترثه بنته إلا إذا كانت وحيدة فى نسله. وقد اعترف بحق الرجل أن يتبنى ابنا له.

الملكية

واعترف بالحق فى الملكية. وأبيح ذلك فى الأمتعة الشخصية المتنقلة كالمواشى،

والحيـل، والذهب، والحلى، والعبد. وأيضا فى الأرض التى وزعت فى حقول، وقيست الحقول بالعناية التامة، وتركت بينها شقات مصفوفة مشتركة.

الحياة الاقتصادية. المرعى والفلاحة

دارت الحياة الاقتصادية حول المواشى. واستخدم الثور والبقر فى الحرث وجر العربات. واستخدمت الخيل فى جر العجلات وفى المسابقات. والحيوانات الأخرى التى ربوها، هى الضأن، والماعز، والحمير، والكلاب التى استخدمت فى الصيد، ولحرس المواشى وتتبعها، وللحراسة ليلا.

ورعت المواشى عـلى المكلآت تحت مراقبـة الراعى وكان مسلحا بالمحاس، وكان عليه أن يصونها من أن تقع فى الثغرات أو تقطع أعضاءها، أو تضيع أو تسرق. وكانت هناك غزوات لنهبها. وصنعوا آذان المواشى علامة الملكية

وعلق رگويدا أهمية عظيمة على الفلاحة وميز بها بين الآرى وبين الهندوسى الذى هو خارج من صنعة البرهماية

وسميت أرض الحرث اوروارا أوكشتيرا. وشـدت الثيران إلى المحراث فى سرب، عددها ستة وثمانية وحتى اثنا عشر وقطعت سنبلات الحبوب الناضجة بالمحصد، وجمعت فى حزمات، وضربت على أرض مخزن الغلة. ثم نظفت الحبوب من العصافة بالغربال أو بمروحـة التذرية وسمى العـامل عليها «دهاياكرت». وكيلت الحبوب بالمكيال.

واستعمل السماد أيضاً. وذكر عمل الفلاحة فى ملخص فى «ستاپاتا براهمنا»: «الحرث، والزرع، والحصد، والدوس».

الارواء

يوجـد ذكر آبار للانسان وآبار للمواشى. واستجلب الماء من الآبار بالدلاء.

المشددة بالحبال الجلدية وجرت على جرارة حجرية . فالماء الذى دلى بهذه الطريقة سيق فى مجار واسعة للتروية. وحصلوا على الماء للارواء من بركات وقنوات كذلك.

حشرات الأرض

ويوجد ذكر حشرات الأرض الزراعية كالدوبات، والطيور، والجراد وذكر أن كثرة الأمطار أو امتناعها مضرة للغلة.

الحبوب

يسمى الحب الذى يزرع « ياوا » و « دهانيا ». ويذكر كتاب ويدى متأخر عشرة أقسام من الحبوب المزروعة: الرز، والشعير، والسمسم، وأقسام الفول، والذرة، والعدس، وأمثالها.

الثروة

كانت تعد الثروة بالمواشى، وبالخيل، وبالأنطال أو الأناء الجاء.

الصيد

بالاضافة إلى مهنة رعى المواشى والفلاحة، أخذ الهندوسى الركويدى بالصيد للقوت، واللهو، ولوقاية المواشى من الحيوانات المفترسة. واستعمل للصيد السهم، والشبكة التى استعملها صياد الطيور. ومسكت الغزلان فى الحفر. وصيدت الخنازير بتعاقب الكلاب، وربقت الجواميس بالربق. وأسر الأسد فى حفرة الصيد، أو قبض عليه بالمرصاد بعد أن سيق إلى حفرة مستورة، أو أحيط به وقتل على يد الصيادين. وأسرت الفيلة الوحشية بالفيلة المألوفة.

الحرف اليدوية

كان النجار هو الاول، يصنع العربة للحرب أو الصيد أو لحمل البضائع،

وكان لبعض العربات غطاء. واستعمل الفأس كأداته، وكذلك أنتج أشياء منقوشة لطيفة. وجاء بعده العامل فى المعدن الذى اداب المعدن على النار واستعمل المنفاح المصنوع من ريشات الطيور. وصنع الأوانى من المعدن المذاب أو من المعدن المدقوق. وصنع الصائغ حللا من الذهب. واستنتج الذهب من قاع النهر كنهر إندس التى سميت «السيل الذهبى»، وكذلك من الأرض. وصنع العامل فى الجلد أشياء جلدية كوتر القوس، والمقلاع، والاسار لربط حرء من العربة، والعنان، ومجلدة السوط والكيس. وكذلك كانت دباغة الجلد معروفة. وكان أيضا هناك الحائك الذى اشتغل بمنسجه. وسمى الوشيعة التى استعملت للنسج «تسارا» وسمى السداة «أوتو»، واللحمة «تنتو». وتركت الحياكة عموما للنساء. ويمكننا أن نرى عبارة لطيفة تشير إلى والد رجل بأنه كان طبيبا وإلى أمه بأنها كانت طاحنة الحبوب.

التجارة والنقود

كان التاجر معروفا لدى رگويدا. وكان التبادل شائعا. فعرض تمثال إندرا بقيمـــة عشر بقرات. وقد عرف التماحك فى البيع والشيراء، وكذلك الالتزام بالاتفاقية: «يبيع الفرد كمية كبيرة بثمن زهيد ثم يذهب إلى المشترى وينكر البيع ويطلب ثمنا أزيد. ولكن لا يمكنه أن يزيد على الثمن الذى عين مرة أو يعتذر بأنه أعطى كمية كبيرة. إذا ناسب الثمن أو لم يناسب فالثمن الذى عين فى وقت البيع سيبقى على حاله». إن تصور النقود يوجد فى ذكر هدية ١٠٠ «نيشكا» و ١٠٠ حصان. وعرف القرض كذلك وكل ذلك خصوصا بسبب ألعاب النرد. وهناك ذكر دفع الثمن أو التثمين إما كالربى أو كجزء الرأسمال.

وعرفت التجارة البحرية. فلا ريب أن رگويدا ذكر «سمدرا» بمعنى الأوقيانوس. وهناك إشارة إلى الخزائن فى الأوقيانوس، ولعلها اللؤلؤ أو مصالح التجارة. وحكاية بهجيو الذى غرقت سفينته فى البحر «حيث لم تكن هناك معونة، ولا راحة

للرجل أو اليد»، وتخلصه منها سميسة ذات مائة مجذاف، تشير إلى الملاحة في البحر.

اللباس

شمل لباس الناس على الملابس التحتانية، والكساء والملابس الفوقانية. وكان ينسج على العموم بصوف الغنم. وكانت بلاد پاروشنی شهيرة بصوفها، كما كانت گندهارا لغنمها. وهناك إشارات إلى الملابس المطرزة صنعتها النسوة. وتوجد إشارات إلى الأجنحة المزينة بالذهب. ولبس النساك ملابس الجلود.

الحلى

استعمل الإنسان حليا من الذهب أمثال القروط والقلائد، والأساور، والخلاخل، والأكاليل، وتزينوا بالأحجار الكريمة أيضاً.

ومشط الشعر ودهن. والنساء ضفرنه والرجال بعض الأحيان رتبوه في اللفات وقوم واسستا لفوه على الجانب الأيمن. وذكر أن فتاة رتبت شعرها في أربع أضافر. وأطلقت اللحى ولكن كذلك حلقت. وقد ورد ذكر المواسى التي حددت على الحجر. وسمى الحلاق «ويتا».

الطعام والشرب

كان اللبن من أهم الأطعمة وكذلك منتوجاته، الزبدة واللبن الحامض. وورد أيضا ذكر وجبة الحب المطبوخ بالحليب وقسم من الخبز، وأكل الكعك المصنوع من الرز والشعير ممزوجا بالسمن. وصنع الثريد أيضاً من الحب الذي قشر، وجفف، ثم عجن. أما اللحم فكان يؤخذ من الحيوانات التي أضحيت، أي الغنم والماعز. وقد اعتبرت البقرة «أگنيا» أي لا تذبح. وحرم المشروبات المسكرة، لأنها أنشأت خصومات في الاجتماع. وكان هناك مشروب نبات

« سوما » كتقـدمة دينية، حث عليها الفصل التاسع من رگويدا وستة أناشيد أخرى. ويوجد النبات على الجبال أمثال جبال موجاونت، أو فى بلاد قوم كيكاتا. ولصاعة المشروب عرض النبات للعمليـة التى يصعب فهم تفاصيلها. فيوضع على جلد، وعلى رصيف، ويضغط عليه بالحجر أو بالمدقة فى الهـاون ليخرج عصيره، وجمع العصير فى إناء چمسو، ولقب «كوب الآلهة» أو فى إناءى «كلاسا» و «چماسا» كوبى الرهان. وتارة غطس فى الماء حتى يعصر منه كميـة زائدة من العصير. وينسب النبات إلى الكرم الأفغانى، أو إلى قصب السكر، أو حشيشة الدينار ولكنـه لم ينسب إليها على علم. وقد نوه بأثراته التى كانت ذات سرور وهيجان.

التسليات

شملت التسليات على مسابقة العربات، ومسابقة الخيل، ولعب النرد، والرقص، والموسيقى. وسمى السباق «أجى»، وسمى حلقـة السباق «كاشتا» أو «سپتيا» وكانت وسيعة ومحددة المقياس. وكان يطلق اسم وسپلا على الحصان النشاش أو حصـان السباق. ولعبوا النرد بالقمار الذى قادهم إلى الفقر والاستعباد لأن الديون تراكمت ووجب عليهم دفعها. وعاقب الوالد ولده المقامر وسمح الرقص لكلا الجنسين مرافقا بالصوح. وكانوا على علم بالأنواع الثلاثة من الوسائل الموسيقية: القرع، والوتر، والنفخ، أى الطبلة، والعود، والقيثار (بأصواتها السبعة المعروفة والمميزة لديهم)، والمزمار (من القصب).

نظام الحكومة

يمكن أن نجد تطور الهند الرگويدية سياسيا فى سلسلة التشكيلات أو الرهطات الآتية التى تكونت تدريجيا:

١ — الأسرة (گريها)

٢ — القرية (گراما)

٣ — المقاطعة (ويس)

٤ — الشعب (جنا)

٥ — البلاد (راشترا)

الأسرة

كانت الأسرة وحدة تشكل بها المجتمع وشملت على بضعة نفر عائشين تحت رئيس مشترك، وهو الوالد أو الأخ الأكبر. وسكنت الأسرة بيتاً فسيحا يسع فيها جميع أفراد العائلة الغير المقسمة بأسرها، وكذلك سكنته مواشيهم لما رجعت من المرعى فى الليل وأمكن إغلاق البيت بحجرها العديدة.

القريــة

وتألفت القرية («گرام») ببضعة عائلات وأظهر عكسها بالوغل مع ما فيها من الحيوانات والنباتات الوحشية وتارة أطلق كلمة «گرام» على أهاليها وكان فى كل قرية كبيرا لهم.

المقاطعة

كان التشكيل التالى أكبر من السابق وسمى «ويس»، ودل على «مقر» لأن معنى «ويس» فى الأصل، «حل أو استقر» وسمى رئيسها «ويسپالى». ويصعب القول عما هل كان «ويس» المذكور فى رگويدا عبارة عن تجزئة محلية للجزء، أو عن مقاطعة، أو عن جماعة الأقرباء كالعشيرة، ولم يعرف ما كانت علاقته الصحيحة بالقرية أو بالأسرة.

الشعب

إن الشعب أكبر من ويس. ونجد فى رگويدا سلسلة «الأسرة، والمقاطعة، والعشيرة، والشعب». ويوجد مقارنة الأسرة بالمقاطعة والشعب. ونجد فى ذكر الشعب

بيان خمسة أقوام معروفة، وبيان قومى يادو وبهارتا. وسمى الملك محافظ الشعب.

البلاد

كان الاصطلاح للبلاد أو للحكومة: راشترا.

الملك

كانت الملوكية الويدية نتيجة طبيعية للظروف التى أحاطت الآريين، فهم كانوا الفاتحين فى بلاد عدائية «أنتجت الحرب ملكا» فى التاريخ الويدى على العموم كما كان الحال فى الدول التوتونية ويشير رگويدا إلى الورطة المؤلمة التى يجد الشعب نفسه فيها إن لم ينتخبوا أحداً ملكا عليهم يقودهم فى مقاومة الأعداء. فعلى هذا كان الملك قائدا بنفسه فى حرب الاعتداء وأيضا فى حرب الدفاع. وكان يدعى «محافظ الملة» كما قد رأينا، وكذلك «ناهب المدن».

ومكافاة لهذه الخدمات، حصل الملك على الانقياد من رعيته طوعا كان أو كرها. وحصل أيضاً على الخراج الذى أعطوه لتعضيد منصبه السامى. وحصل أيضاً على الهدايا منهم ومن القبائل العدائية كذلك.

وأدى الملك بدوره، فرائض القاضى ولعله كان الملجأ الأخير فى الاستغاثة فى الانصاف الحقوقى. وكان لديه للعقوبة على الجنايات سلطة قضائية. وكان هو نفسه مصونا من العقاب، وحمل سلطة العقاب لكونه المنفذ الرئيسى فى الشعب، واستعمل الجواسيس لعمله.

وكان لباسه الفاخر علامة منصبه الملكى، وبمناسبة مقامه كان له قصر وحشم وخدم. وورد ذكر قصر ذى ألف عمود وألف باب.

وزرائه

كان فى مقدمهم «پروهيت» ومعناه «مقرون فى المقدم»، وسميت إدارته

« پروهيتى » و « پروها ». وكان هو المصاحب الوحيد للملك كدمر له أو كرشد وفيلسوف وصديق. ومن أمثالهم فى رگويدا: ويشوامترا أو واشستا فى خدمة « سوداس »، ملك بهارتا، من أسرة تريتسو. ومن أمثالهم المصاحب للملك كروسراونا، وديواپى المدبر للملك سنتانو.

وكانت وظيفته الرئيسية أن يكون كاهنا عائليا للملك. فكان بمثابة نفس ثانية للملك فى جميع أموره الدينية. ولكنه أخذ على نفسه القيادة فى أمور سياسية أيضا وصاحب الملك فى الحرب وشدد إزره بالأدعية لحفظه وظفره. وإن فرقة برهمن هى التى كانت قد استولت على السياسة التى لها أهميتها فى جميع أدوار التاريخ الهندى

شملت حلقة الملك أيضاً على « سينانى » أى قائد الجيش، وعلى « گرامانى » أى قائد القرية للأغراض المدنية والعسكرية ولا بد أن يكون عددا كبيرا من گرامانى فى المملكة ولكن يظهر من الكتب أنها تتكلم عن واحدهم فقط فى حلقة الملك. فكأنه كان نائبا يراعى مصالح القرية وأهاليها. وأطلق كلمتى أپاستى وإبيا على رفيق الملك المقرب

الجمعيات

ولقى حكم الملك المطلق شيئا من العنان بوجود هيئات شعوبية سميت « سبها » و « سميتى ». وظهر خلالها رأى الملة فى الأمور المهمة المتعلقة بمصالحهم التى اشتملت أيضا على انتخاب الملك نفسه. وورد ذكر « سبها » فى مواضع مختلفة فى رگويدا ولكنه لا يحدد ماهيته ووظيفته بالضبط. واستعمل اللفظ بمعنى جمعية وكذلك قاعة للاجتماعات العمومية لأجل المخالطة الاجتماعية ومباحثة الأمور الشعبية كالبقرات، وكذلك استعملت للعب النرد.

وسمى النمر الذى كان سامياً فى الجمعية: «سبها ساها»، ونفرا أهلا للجمعية: «سبهيا»؛ وكذلك ورد أن الجمعية لزمها النبلاء، واستحقها الأغنياء. ولعل هذه الألفاظ ترمز إلى الحقيقة أن الجمعية الرگويدية كانت المجلس الشورى للشيوخ والنبلاء.

وورد أيضاً كلمة «سميتى» فى مقامات عديدة فى رگويدا ولكن لا يظهر منها سجيتها الصحيحة. فهناك إشارة إلى الملك بأن شخصيته كانت مألوفة فى «سميتى»، وكان وظيفته أن يلزمه. وجاء فى عبارة أن الملك لقى أصحاب سميتى وأبدى عليهم قوته المنيعة، وجذب إلى نفسه أدهانهم وعزائمهم. وعبارة أخرى تؤكد الحقيقة بأن الاتفاق يلزم بين الملك وبين سميتى لأجل فلاح المملكة.

العـــدل

تقل الشهادات فى هذا الموضوع. وقد شاع قانون المكافاة (وكانت المكافاة بالنقود التى دفعت إلى أقرباء الرجل المقتول) وسمى الرجل «ستـاديا»، لأن ثمن دمه كان مائة بقرة. ولكن النجيل غير المقبول «پانى»، سمى «ويراديا» أى الذى استحق العداء لمكافاته.

وتحديد هذه المكافآت يدل على إصلاح فى الطريقة الابتدائية التى أحدثت بـ «العين بالعين، والسن بالسن» وكذلك يدل على المانع فى أخذ الثأر ابمراديا.

والاصطلاحات كـ «أوگرا» أو «جيوا-گريب» أى «القبض حياً»، تدل على وجود حكام الشرطة. وسمى الرجل الذى أقيم للتحكيم «مدياما-سى»، أى الذى وقع فى الوسط. وسمى القاضى للقرية «گراميا-وادين».

الحرب

كانت الحروب الرگويدية للدفاع، وللفتوحات، وللغزوات عـــلى البلاد المتجاورة لجلب الغنائم. وسميت الحرب «يودها» أو «رنا». وأطلق اسم «پريت»

أو « پريتانا » على الجيش. وشمل الجيش على المشاة، وعلى ركبان العجلات الذين خرجوا إلى الحرب فى جماعات. ونعثر على ذكر عجلات تحارب جيوش المشاة، أو على معركة المشاة الذين حاربوا وجها لوجه ضد ركبان العجلات.

ووصفت أسلحة المحارب فى أحوال داسا ـ راجا بأنه كان مسلحا بالأسلحة الآتية:

١ ـ القوس والسهم. وصنع القوس من قضيب قوى ألتوى فى شكل القوس وشدد طرفاه بحبل من جلد البقرة. وأطلق السهم من وسط الحبل وسمى ذلك المحل كرنايونى، أى المحل الذى خرج منه السهم وسميت الكنانة: نيشانگين

٢ ـ سترة من الزرد سميت « ورما » المكونة بقطعات من صفائح معدنية نسجت بعضها فى بعض، وكذلك سميت « أتكا » ووصفت بأنها كانت من نسيج صفيق.

٣ ـ محافظ اليد للوقاية من الدلك بحبل القوس.

٤ ـ المغفر من الحديد أو من الذهب. وسمى المحارب الذى يلبس المغفر « سيپرين ».

والأسلحة الأخرى التى أشير إليها هى السيف وغمده وحزامه؛ والرمح، والمزراق؛ والقديفة، وأحجار المقلاع. واستعملت الأسلحة بالمهارة. وشدت الخيل إلى العجلة مثنى وثلاث ورباع، وقادها السائق بالعنان والسوط. وجلس صاحبه المحارب على جانبه الأيسر.

ومن المصحوبات الأخرى للحرب كانت الأعلام، والطبول، والمؤذنين عن الحرب.

ومن طرق الحرب كان الهجوم على الحصون المصنوعة من التراب أو الخنادق لمقاومة المهاجمة، أو أحيطت القلاع بالنار.

العلم

إن الحضارة الرگويدية قد أسست على حياة سادجة وفكر عال. فلا توحد لها بناءات فاخرة تذكارية، تظهر تقدما ماديا، كما كانت حضارة المصريين أو الآشوريين، ولكن لا تقل لديها براهين على التقدم الفكرى والروحانى. كانت الحياة بسيطة، ولكن كان الفكر عال بالغا أقصى مداركه، سائرا فى العالم السرمدى. وبعض أدعية رگويدا، مثل گياترى منترم، تصل أقصى نقطة العلم وتبهر روح البشر إلى الآن. فلا يسمح هندوسى مهما كان عصريا بأى تبديل فى حركاتها وسكناتها وألفاظها الأصلية.

إن تاريخ رگويدا هو تاريخ ثقافة عهده ورگويدا فى شكله الموحودة تأليف مجموعة محتوية على عدة حصص، وينتمى إلى أدوار تاريخية مختلفة. فهو لا يشتمل على الأناشيد فى حمد الآلهة، وعلى الأدعية، وعلى ترتيلات التضحية فحسب، بل على قصص شعرية، وكسرات من أشعار دنيوية، وأناشيد تعبر تفكرات فلسفية عالية أيضا ويشير نفس رگويدا إلى أشعار قديمة ومتأخرة، وإلى العلماء الأقدمين والمتأخرين الذين صنفوا أناشيده. وذلك لأن محتوياته ألفت خلال العصور. فكان كل عالم ينشد الأناشيد التى أوحيت إليه خلال تأملاته العميقة التى تأسست على ممارسة الامتناع من اللذات. ويورث العالم أناشيده ولده التلميذ، وأسرته. فهكذا أصبحت عائلات العلماء مدارس ويدية تحمل مجموعة أناشيدها وتنقلها من الوالد إلى الولد، أو من المرشد إلى التلميذ فجمعت كمية كبيرة من تآليف هذه العائلات أو المدارس الويدية. فكانت ذخيرة عمومية من الأناشيد الملية. ولأجل العبادة كانت هناك حاجة إلى منتخبات يسيرة الحصول من تلك المجموعة الضخمة من الأناشيد. هكذا تولدت المنتخبات المسماة بـ « رگويدا سمهيتا» وخرجت منه ثلاث شقات ويدية أخرى: ساما، وياجوس، وأثروان. فلدينا

أربعة أدوار لنمو العلم الويدى :

١ ـ الأناشيد الابتدائية

٢ ـ الأناشيد فى مختلف المدارس أو المراكز من أسر العلماء المختلفة

٣ ـ انتخاب الأناشيد فى مجموعة رگويدا سميتا

٤ ـ نمو ثلاث شققات ويدية أخرى من الانتخابات المحفوظة فى رگويدا سميتا

ويظهر من كل هذا النصح الذى سجل فى رگويدا بأن له تاريخا طويلا . ويقول ميكدانل : « ولا بد أن وجود جميع هذه الأناشيد فى رگويدا إحتاج إلى عدة قرون » . ويقول ونترنتز : « ولا بد أن مضت عدة قرون بين الأناشيد الابتدائية وتكميل رگويدا سميتا » وعلى هذا لما نرى إلى رگويدا نجد فيه مدى ارتقاء سام فى اللغة والفلسفة . ولا يوجد فى السنسكرتية الرگويدية أثر لتقدم اللغة . بل كان قد تم اتقان هيئتها النحوية ، وقد عين رمز الفعل وصيغه ، ومفرده وجمعه وشخصه ؛ وقررت جميع قوانين الأحوال (فى الجملة) . وإذا جمعت هذه الميزات فى سيرة حياة لغة ، ظهر أن درجة صرفها متقدمة جداً . وكما يقول بونسين : « وحتى هذه النماذج من الشعر الويدى الأقدم تتعلق بالتاريخ العصرى البشرى » .

وتبدو من القواعد التى استخدمت فى انتخاب الأناشيد وترتيبها فى رگويدا سميتا ، ومن الطرق التى رتبت لحفظها ، براعة علميـة واختراع راق فى الخطـة . فأولا انتخب ستـة من العلماء الرگويدية عـلى أنهم كانوا أكثرهم نيابة واعتبر مؤلفهم جديرا بأن يحفظ . وهم گريتسمادا ، وويسوامترا ، وامادیوا ، وأترى ، وبهردوجا ، وواسستا . ورتبت الأناشيد التى نسبت إليهم فى ستة كتب عائلية ، من « مندل » (أى الفصل) الثانى من رگويدا إلى السابع ، وهذه الفصول هى قلب رگويدا .

وأضيفت إليها :

١ ـ مجموعة الأناشيد من العائلات الأخرى ، ويتكون بها النصف الثانى من

« مندل » الأول .

٢ ـ الصف الأول من مندل الأول .

٣ ـ الأناشيد التى تنسب إلى العالم كنوا ، فى مندل الثامن .

٤ ـ أناشيد سوما فى محل واحد فى مندل التاسع ، حتى لا تختلط بالأناشيد التى تتكون بها الأجزاء الأخرى .

٥ ـ مجموعة الأناشيد الاضافية ، وعددها ١٩١ ، وهو نفس عدد الأناشيد التى فى مندل الأول ، ويتكون بها مندل العاشر ، وتوجد تلميحات خصوصية فى لغتها وبحر أوزانها ، ومحتوياتها . وهى مشتملة على الأناشيد الفلسفية ، وأخرى على موضوعات شتى كالزواج والدفن .

فيشتمل رگويدا سميتا على ٧٠,٠٠٠ بيت ، منها ٥,٠٠٠ تكرارات . وذلك لأنه قد وجد فى البلاد مجموعة كبيرة من الأناشيد فى حالة سيالة ، وأنشد كل واحد من العلماء ترانيمه راجعاً إلى تلك الأناشيد السيالة ، كأنها ملك أدبى عمومى ، وجدير بأن يلاحظ أن الأناشيد قد احتفظ بها بصحة تامة فى الأذهان فى الفترة الطويلة بين إنشاء الأناشيد وبين توليد نظام الكتابة على يد علماء النحو الذى نتج به المتن الموجود الآن وسمى بـ « سميتا » . فصان هؤلاء العلماء بأمانة فى متن سميتا ألفاظها الأصلية التى استعملها الأنبياء القدماء . وكذلك حافظوا على أدق الشدودات النطقية واللغوية بدون أى سعى منهم أن يبدلوها إلى الطريقة المعاصرة لهم إلا إذا كان لا بد من تبديلها على قوانين الكتابة الرائجة فى دور اللغة السنسكرتية المتأخر حين صحح المتن المقدس

وعندما كمل الترتيب لمتن سميتا ، إتخذت خطوات أخرى لصيانته هو بدوره ، حتى يسد باب التبديل والفساد بمرور الزمن . ويمكن أن نلاحظ هذه التدابير ولو أنها إتخذت بعد كثير من الزمن . فأولاً رتب متن جديد لسميتا نفسه

يظهر فيه كل كلمة فى شكله المفرد وعلى حالته الأصلية التى كانت قبل قيد الكتابة، وقد فصل المركبات فى أجزائها. ويسمى هذا «پدا-پاتها» أو «المتن اللفظى» ("word text"). والخطوة الأخرى تسمى «كراما-پاتها» أو «المتن السلمى» ("step text") وفيه يلفظ كل كلمة المتن اللفظى مرتين فى كلا الموضعين، قبل كل كلمة وبعدها. فللمثال نأخذ ا ب ح د كأنها تنوب عن أربع كلمات. فكتبت هذه الكلمات هكذا: اب بح ح د.

وفضلا عن ذلك أتقن مشروع صيانة الصفاء فى المتن المقدس تأليف مراجع خصوصية ككتاب الأمثال الذى يقدم التعديلات الادغامية، والتى اضطر إليها أوان تبديلها من كلمات سماعية إلى كلمات صوتية فى صورة متن سميتا، وكتاب الفهارس الذى يقيد عدد الأناشيد، والأبيات، والألفاظ، وحتى المقطعات الهجائية الواردة فى المتن المقدس، ليمكن أن تحفظ نزاهته. ويقول ميكدانل فى كتابه «ماضى الهند»: «هذه التدابير قد صانت أمانة الأحاديث بصفة لم يماثلها غيرها فى الأدب القديم».

التعليم

والآن كلمة عن طرق التعلم والتعليم فى ذلك العهد. كما قد بين، كان بيت المعلم مدرسة لتلاميذه الذين اشتملوا فى الغالب على أبنائه أو أبناء أخيه، وعلمهم المعلم فيها المتون المقدسة التى اختصت به. وحفظ التلاميذ المتون فى بداية الأمر بتكرار ألفاظها. إن رگويدا تشير إلى التلاميذ يكررون الألفاظ التى علمها المعلم. وأعطيت أهمية كبيرة للنطق والتلفظ. فورد ذكر سبعة أشكال فى النطق وأربع درجات فى الخطاب. وكذلك ذكرت براعة العالم وسوامترا فى القراءة.

ولكن طريقة التعلم الأساسية كانت الممارسة بأعمال الكفارة والامتناع عن اللذات، وهى المنوال الذى يوصل إلى معرفة النفس، وأدى ذلك إلى وجود

الشخصيـــة للوحى الالهى أو إلى المعنى الملهم الذى يدرك جميع العلم. ولـكن يجد جزءاً من العلم طريقة إلى النطق البشرى. فأوردنا هنا مقاما فلسفيا هاما الذى اتصل به رگويدا، وهو أن ما ظهر فى التخليق ليس إلا كسرة من المضمر أو المطلق. وتشير عبارة هامـة أخرى إلى الفكر الباطنى التركيزى الشديد تتبعة الاستنارة حيث يصبح بها التلميذ لئيقا لأن يكون معلما ملهما، ومثاله مثال الضفادع التى تنهض إلى النشاط بعد فترة من غمض بسبب الغيوم.

الديانة والفلسفة

إن بساطـــة الحياة الرگويديه لن تضاد بديانته المتقـنة كما يظهر من المجموعة الضخمة من آلهة الأمة.

فلدينا أولا مجموعة من الآلهة النائبين عن الظواهر الطبيعية الأساسية، وهم

ا ـ دياؤس (السماء)؛

ب ـ پريتهوى (الأرض)؛

ح ـ واروبا (إله السماء الأصلى)، وهو الموضوع لأفخم أناشيد رگويدا. ويدعى واروبا بلقب أسورا أيضاً، وهو يطـــابق «أهورا مزدا» الايرانى. وفى أناشيـد رگويدا المائلة إلى الفلسفـة أكثر من غيرها، يحل «واروبا» محل «ريتا» ويظهر بها نظاما كونيا ويعد ذلك نظاما أخلاقياً؛

د ـ إندرا، اله الرعـد الذى يسبب الأمطار. وبالتدريج غلب على «واروبا» فى العبادة الرگويدية. وذلك لمـا أخذ الآريون يغادرون مناطقة پنجاب اليابسة ويتوجهون شرقيا إلى أرض براهما ورتا المقدسة التى هى ممتازة بأمطارها وعواصفها.

هـ ـ الشمس، وكانت تعبد بخمسة أشكال:

١ ـ سوريا (الشمس)،

٢ ـ ساوتري، ممثلة قوة الشمس الانتعاشية،
٣ ـ مترا، الذي اشتهر في إيران أكثر من شهرته في الهند، وهو ينسب إلى وارونا،
٤ ـ پوشان، الذي يرمز إلى قوة الشمس لتأثيرها في نمو الحشيش والنبات،
٥ ـ وشنو، الذي ينوب عن الشمس السائرة المسرعة في رگويدا، وعد في ما بعد كإله بذاته،

و ـ رودرا أو إله العواصف والمبشر عن شيوا المتأخر،
ز ـ أسوين الصبح وأسوين المساء، الممثلين بحمى الصباح والمساء،
ح ـ مروت، آلهة العواصف الذين خدموا «رودرا».

ط ـ وايو
ى ـ واتا
إلاها الرياح؛

يا ـ پارجانيا، إله المطر، والمياه، والأنهر،
يب ـ أوشا، إله الصبح الذي ألهم بعض أشعار بديعة في رگويدا.

ولدينا بعد هذا مجموعة من آلهة للعائلة

ا ـ أگني، إله النار في ثلاثة أشكاله: الشمس في السماء، والرعد، والنار الدنيوية،
ب ـ سوما (ماء الحياة)، الذي ألهم أناشيداً رمزية في الغاية في رگويدا وينتمي إلى القمر.

ولدينا مجموعة آلهة معنوية أيضاً.

ا ـ شردها، الايمان،
ب ـ مينو، الغضب،

وتوجد هناك بعض الآلهة بالأهمية الزهيدة أمثال:

ا ـ ريبوس، العفاريت الفضائية،
ب ـ أپسارا، جنيات البحيرات،
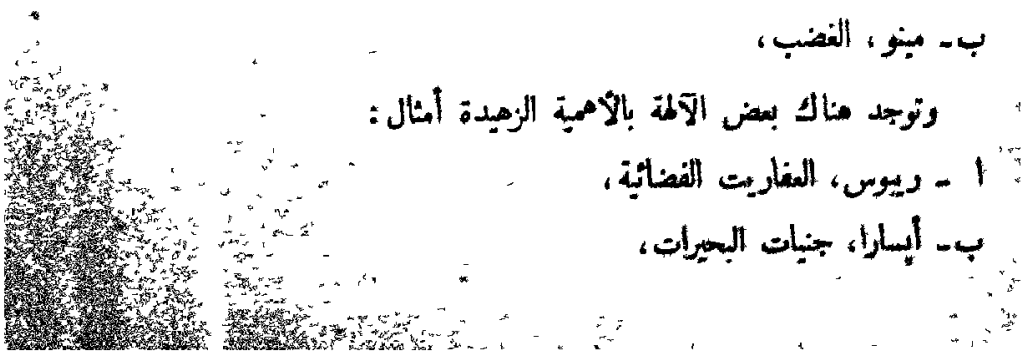
ج ـ گندهروا، حيات الفضائية.

وتارة يدرك الآلهـة بالحيوانات، كاندرا بالثور، والشمس كالحواد المسرع.

ولكن هذا لا يدل على عادة الحيوانات فى رگويدا. وكذلك لا يوجد فى رگويدا أثر للطوطمية أى الايمان فى سلف حيوان حتى يعتبر ذلك الحيوان مقدسا وجليلا. ولا يوجد أثر لعادة الثعبان، ولو أن الثعبان إله الهاوية، أو الذى يخرج منه ماء يتولد به الشيطـان والذى قتله إندرا. وهناك بعض الأثر للحس الذى يعاون صاحبه كما يظهر على سبيل المثال فى استعمال تمثال إندرا للوقاية من الأعداء. وكان هناك أعداء للآلهة الرگويدية أشير التى بأسورا وراكشاسا

وتشتمل الديانة الرگويدية فى الأساس على عبادة الآلهـة الذين يرجى منهم الاحسان أو البركة، وذلك بتقديم تضحية مقررة، وأمكن بها الحصول على المرام واحتوت التضحية على تقدمة من اللبن، والحب، والسمن واللحم، و « سوما » ولكن وردت فى رگويدا تفاصيل عن تضحية سوما فقط

ولقد نشأت الديانة الرسمية إلى حد بعيد حتى أوجدت سبع أقسام من الكهنة لأداء تلك الرسوم، وهم كهنة هوترى الذين ترنموا الأناشيد، وكهنة أدواريو الذين قاموا بالأعمال اليدوية فى العبادة، وكهنة أودگاترى الذين غنوا أغنية « سامن » مع مسعفيهم. وكان بعض أنواع التضحية متقناً وعال، حتى لا يقدر عليه إلا الملوك والأمراء فقط. وعلى ذلك يعتبر رگويدا أرستوقراطياً فى مظهره، وليس فيـه ديانة عمومية تليق بعامة الشعب.

وتنتهى هـذه الديانة الطقوسية إلى فلسفة عميقة توجـد فى الجزء العاشر من رگويدا، وكذلك فى عبارات أخرى. فقـد أورد الارتياب فى فهم تكاثر الآلهة بالوضاحة، وأثبت وحدة العالم فى النهاية كمخلوق لله الواحد الذى تنتمى

إليـــه الخصوصيات المختلفة. وكذلك قدم التخليق كنتيجة قربانـــ قام به الروح الأعظم، أو نتيجة تطور من العدم الذى يوجد فى شكل الماء أو الحرارة. وتشير عبارة ركويدية بالوصاحة إلى «الحق الوحيد الذى يتكلم بلسان الأنبياء فى طرق مختلفة» ويسميهم «أگنى» أو «ياما» أو «ماتريسوان».

وأخيراً يعتقد رگويدا بالحياة بعد الممات فى عالم تحت سيطرة «ياما».

الاساطير الهندوسية عن الكون وخلقه

لكل قوم أساطير، وللهدوس أساطير، وفى الأساطير الهدوسية ما هو يشبه كل الشبـــه بما جاء فى أساطير الشعوب الآرية الأحرى كالأغريق، والرومان، والألمان القدماء، والذين يقطون فى للاد سكنداويا كأهل فلندا، والسويد، والبروح. فقد وحدت أسطورة فى الكتاب الهدوسى «كهدوحيا اوپانيشد» تدكر «البيضة الأرضية» فتقول إن هده البيضة هى أصل الحليقة «انكسرت البيصة، فكان نصفها من الفصة والنصف الآحر من الدهب فصار النصف الفضى أرضا، والنصف الدهى سماء، ونشأ من صفار البيصة الصاب والغمام، وتكونت من عروقها الدقيقة الأنهار، ومن زلالها البحر، وتولدت الشمس من البيصة». وقد قال علماء الأساطير إن هذه الأسطورة الهدوسية تشبه أسطورة شعب فلندا فى باب الحليقة من كل الوحوه.

وليست الأساطير وحـــدها التى تشابهت فى كثير من الشعوب الآرية بل تشابهت أسماء الآلهة ووطائفها كدلك.

والدى يحير الباحث هو التشابه بين الهدوس والمصريين القدماء فى كثير من أساطيرهم وأسمـاء آلهتهم وأبطالهم. كأسماء «امسيس، وستى، وهرى‌هر المصرية، وأسماء راما، وستى (زوحته) وهرى‌هر من (من الآلهة). وقد عبد المصريون عجل أبيس، كما يعبد الهنـــدوس «نندى» (Nandı) عجل «شيوا» (Shıva). ويقابل الاله المصرى «اوزيرس» الاله الهنـــدوسى «إسورا» (Iswara)، وكما حارب اوزيرس «طيفون»، كذلك حارب الاله الهندوسى «برهما» أخاه «وشنو» وتغلب عليــه، ولكن «مهاديوا» قهره وقطع رأسا من رؤسه الخمسة. وتقول

« گنیش »

الأساطير المصرية إن الاله « رع » سكب دموعه ، ومن أشعة هذه الدموع وجدت الخلائق كلها ، وكذلك قالت الأساطير الهندوسية ان الخلائق كلها وجدت من دموع « براجاپتى ».

والحاصل أن الأساطير الهندوسية تشبه أساطير الشعوب الأخرى ولكنها تمتاز عليها بأنها لا تزال دينا حيا تدين بها الملايين الكثيرة من الهندوس إلى هذا اليوم، بينما أصبحت أساطير الشعوب الأخرى تراثا للتاريخ.

خلق العالم

وقد عالجت الأساطير الهندوسية مسئلة خلق العالم، كما عالجته أساطير الشعوب الأخرى ، غير أن الأساطير الهندوسية لم تتفق فيما قالته فى الموضوع، بل اختلفت اختلافا شديداً، وافترضت أشكالا وكيفيات عديدة لخلق العالم. ومن العجيب أن هذا الاختلاف لم ينل من قدسية الأساطير عند القوم، بل يؤمنون بها كلها على رغم اختلافها، بل تناقضها.

وقد تضاربت أقوال « ريگ ويدا » (Rig Veda) نفسه — وهو أقدم كتب القوم وأقدسه — فى بيان كيفية الخلق. ولقد جاء فى واحد منها إن الآلهة ضحت بعملاق، فتحول جسده إلى السماء، وتحولت سرته إلى الهواء، ورجلاه إلى الأرض. وقد خلق من مخه القمر، ومن عينه الشمس، ومن فمه الالاه « إندرا » والالاهة « اگنى » (النار) وخلقت من نفسه العواصف. ونشأت منه كذلك الطبقات الأربعة البشرية : فالبرهمن من فمه، وكشتريا من ذراعه، وويشيا من اضلاعه، وسودرا من قدمه.

وقد نسبت أساطير الشعوب الأخرى، خلق العالم إلى الاله الأكبر، إلا أن أسطورة هندوسية تقول إن الانسان هو الذى أوجد الكون كله بنفسه!

وذلك ان الروح الكونى تشكل بالشكل الانسانى، ثم نظر حوله فلم يجد هنالك شيئا غير نفسه، فصرخ بملء فيه « ها أنا ذا » فوجدت من هذه الساعة كلمة «أنا» ولذلك أول ما يقول الانسان إلى الآن عند كلامه عن نفسه «أنا» ثم يذكر اسمه. وشعر هذا الروح الكونى، أو الانسان الأول بالخوف من وحدته — ولذلك يخاف الانسان إلى الآن إذا كان وحيدا ليس معه أحد — ولكنه نظر حوله مرارا وتكرارا، ولم يجد غير نفسه، فقال: « لما ذا أخاف أنا، ما دام ليس هاهنا أحد غيرى، وإنما يخاف الانسان من غيره، لا من نفسه.

« ووحده نفسه لا يشعر بالسعادة — ولذلك لا يشعر الانسان بالسعادة إذا كان وحيدا — فرغب فى إيجاد قرين له، فقسم نفسه قسمين: قسم بقى على حاله، وتحول القسم الآخر إلى امرأة، فكانت هذه المرأة زوجته. ومن تلك الساعة تسلسل خلق الانسان ».

وقالت أنشودة من ريگ‌ويدا، أقدس الكتب الهندوسية وأقدمها ما نترجمه فيما يلى:

« لم يكن إذ ذاك شىء لا الوجود ولا العدم، لا الهواء ولا السماء.

« وما ذا كان يغشى الكل؟ وعلى ما ذا كان يستقر الكل؟

« لم يكن هنالك شىء إلا لجة عظيمة متلاطمة من الماء.

« لم يكن الموت، ولا عدم الموت، ولا كان الليل ولا النهار.

«كان الواحد الوحيد، وحده إذ ذاك، يتنفس بهدوء، مدعما نفسه بنفسه،

ولم يوجد شىء غيره ولا وراءه.

« تسطرت الظلمات فوقها ظلمات. بحر مائج هائج يغشى الكون.

[illegible] الواحد الوحيد، الناشى أخذ يترسخ فى داخل نفسه حماس وقوة.

[illegible] وكانت هذه الرغبة أول جرثومة للعقل [illegible]

كما حققه الحكماء.

« ومرق شعاع نارى، مزق تلك اللحة المظلمة المخيفة

« أ كان الشعاع فى الأسفل؟ أم كان فى الأعلى؟ كيف يدرى دلك الشاعر المسيح؟

« ووحدت القوى الخصبة العظيمة، ووحد فوقها نشاط لا يصيبه الكلل.

« ومن يدرى، ومن الذى يستطيع ان يقول، كيف نشأ هذا الكون المتسع؟

« لم توحد الآلهة إذ ذاك لتخبر بما حرى.

« من اين ظهرت هذه الدنيا الجميلة؟ هل صنعتها اليد الالهية؟

« ليس عند أحد علم بذلك

« وإن الرب الذى فوقنا، عنده وحده العلم

« ولكن هل هو يرضى بأن ينبئنا بالغيب؟»

وعالجت تفاسير «ويداس» وشروحها «بوراناس» (Puranas) كذلك مسئلة الخلق، ولكنها كذلك لم تأت بشىء مقنع، بل تجد أقوالها متناقضة

الإله الأزلى «نارائنا» وهو يمتص ابهام قدمه

فمثلا تقول إن الاله الأولى « نراثنا » (Narayana) هو الذى خلق كل ما فى الوجود، فخلق الكلام من فمه، وخلقت كتب « ويداس » المقدسة من أخلاطه البدنية، وخلق ماء الحياة من لسانه، والفلك من أنفه، والسماء والشمس من عيونه، والأماكن المقدسة من آذانه، والسحب والمطر من شعره، والصواعق من لحيته، والصخور من أظفاره، والجبال من عظامه، إلى آخر ما قالت.

ثم تعود فتقول كان هذا الاله قبل خلق الكون، يسبح فى البحر الأولى، وهو راقد فوق ورقة من شجرة « بيان » (Banyan)، يمتص إبهام قدمه فيه. تقول هذا ولا تخبر من الذى خلق البحر الأولى الذى وجد الاله سابحا فيه.

وكذلك تقول هذه الكتب إنه كان، قبل أن يكون شىء، بيضة كبيرة، سمتها بـ « براكريتى » (الطبيعة). وقد تطورت هذه البيضة تطورات كثيرة فى دهور عديدة، حتى تحولت إلى بيضة ذهبية.

لقد ظل « سيد الكون » مستكنا داخل البيضة الذهبية أكثر من ألف سنة. وكانت البيضة عائمة فوق سطح البحر المحيط. وبينما كان « سيد الكون » مشتملا على نفسه، مستريحا داخل البيضة، لا يفكر فى شىء، إذ برزت من سرة بطنه زهرة لوطس ذات بهاء وضياء، لا تضاهيها ألف شمس فى بهاءها وضيائها، وكانت الزهرة كبيرة جدا تسع كل ما هو فى الوجود. ومن هذه الزهرة خرج « برهما » خالقا نفسه بنفسه. ثم خلق برهما سائر الخلق بقدرته!

ولكن « برهما » تعرض لخطر عظيم قبل أن يخلق الخلق! وذلك أن « برهما » بعد أن أوجد نفسه، بقى دهورا لا يعمل عملا، لأنه كان يجهل العمل! وأخيرا تنبه إلى جهله، فنبذه عن نفسه، فنشأ من جهله الليل والظلام، ومن الظلام تولدت الشياطين والعفاريت. ثم كان أن جاعت هذه الشياطين والعفاريت، ولما لم تجد ما تسد به جوعها، زحفت على « برهما » نفسه لتأكله، فأخذ هذا يصيح

مذعورا «لا تقربوا منى، لأنى أبوكم، ولا يجوز لكم أن تأكلونى!» غير أن الشياطين والعفاريت الجائعة، لم تصغ إلى صياحه وهمت بأكله، فعند ذلك اضطر «براهما» إلى أن يخلق ما نراه اليوم من هذا العالم!

«وبعد أن اكتسب براهما قسطا من الحكمة بادر إلى خلق مخلوقات توحد فيهم الصفة الروحانية (ستوا) فأصبحوا سماويين. وخلق براهما من خاصرته فرقة «أسورا»، ومن قدميه الأرض، ومن شعره الحوارى، وهلم جرا.

وورد فى مؤلف بهگوت أن براهما بعد الاخفاق الأول الذى لازمه، خلق أربعا من العقلاء والحكماء وهم ساكا، وسادا، وسنتنا، وسنتاكارا. ولكن ظهرت منهم معارضة لعملية الخلق وعمدوا إلى التقشف وإلى عبادة واسوديو. وبذا انحرفوا عن الهدف الذى خلقوا من أجله. فأغضب هذا براهما، فانبعث من هذا الغضب «رودرا» القوى الذى تولى على عملية التخليق.

وقد أورد العالم منو فى دستوره رواية مختلفة عن قيام الكون. فيقول هذا الثقة إن الخالق الأول الذى خلق نفسه بنفسه أحس بالرغبة لخلق مخلوقات مختلفة من جسمه، فخلق المياه أولا، ثم ألقى فيها بذراً، فتحول البذر إلى بيضة ذهبية لامعة تعادل لمعان الشمس، وإنه بنفسه تولد فى هذه البيضة كـ «براهما» — موجد العالم بأجمعه. ثم تمضى هذه الرواية إلى القول سميت هذه المياه «نارا» لأنها انبعثت من «نارا». وحيث أن المياه كانت فى دائرة حركته الأولى، سمى هو بناراين. ولأن ذلك المولود قد خلق من الأسباب الخالدة التى لا تدرك بالحس والتى كانت موجودة وغير موجودة اشتهر فى العالم كـ «براهما». وبعد أن مكث داخل البيضة زهاء عام واحد، شطر نفسه بدافع تفكيره الخاص إلى شطرين. وبعد أن شطر براهما نفسه إلى جزئين تحول الاله بالنصف الواحد إلى الذكر وبالنصف الآخر إلى الأنثى. وخلق فيها «ويراج» (جرثومة الحياة).

وشنو
شيوا
براهما
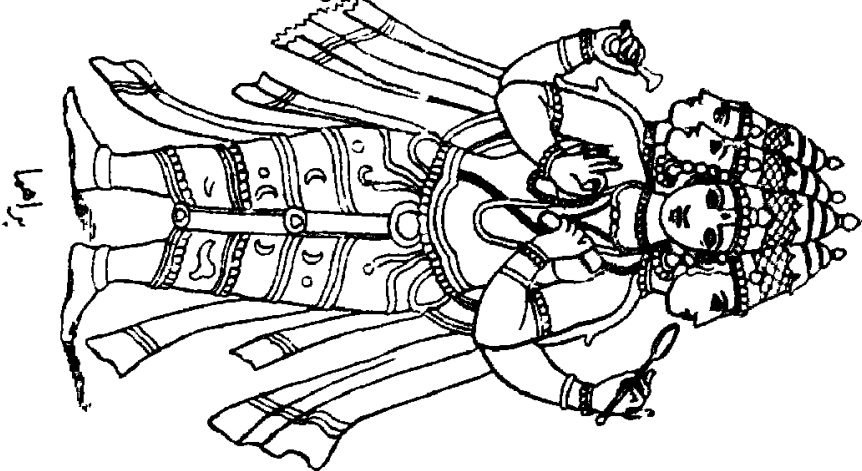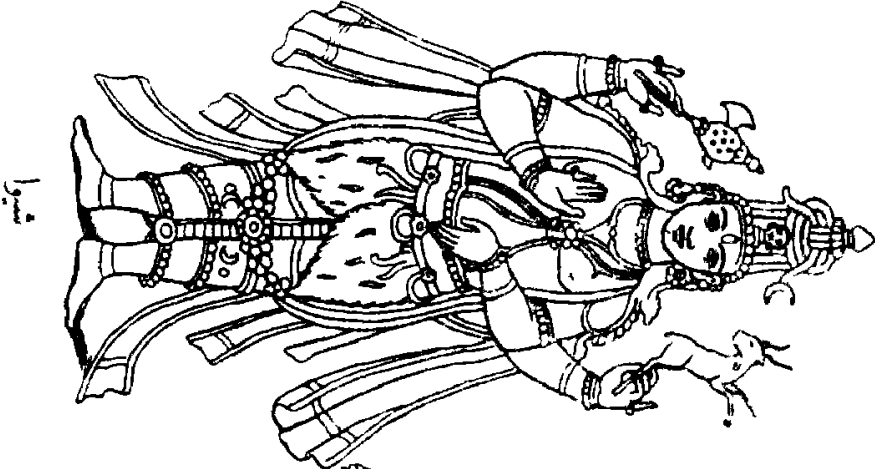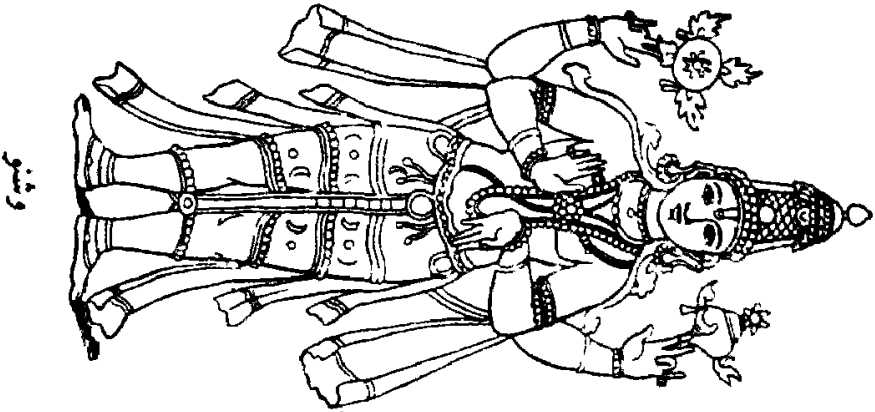
« ولتعلم أبى أنا (أى منو) الذى خلقى الاله الذكر ويراح نفسه خالق العالم كله ».

يستنتج من هذه الرواية التى تعتبر ممزوجة من أساطير متعددة بأن الفصل يرجع إلى منو فى خلق الكون. وإنه على سبيل المصادفة حسم سبقة نارايں على نارا. وهى النقطة التى يكتنفها الغموض فى كثير من أساطير أخرى.

وجدير بى أن أذكر الأسطورة الأخرى التى تقول بأنه انبعثت الخليقة من دموع « پرجاپتى ». ولما جاء پرجاپتى فى الوجود من العدم بكى قائلا. « يا ترى لما ذا ولدت إن كنت قد ولدت من هذا الذى لا حول له ». فالدموع التى سقطت فى الماء تحولت إلى الأراضى، والدموع التى مسها تحولت إلى السماء.

إن هذه الأسطورة تمثيل النظرية التشاؤمية فى الحياة. وهى النظرية التى تمثل البوذية وعددا من المعتقدات الهندوسية.

ولقد لخص السير وليمس فى ترنيمته عن نارايں كل ما استحسن من نظريات الهندوس حول تخليق الكون. وحيث أن السير وليمس قد لمس فيها روح الشعراء الأقدمين بلطافة تامة وحيث أن صحة الأنشودة سامية ومثالية، أرجو السماح من القراء إن استوردت الترنيمة بطولها:

« يا روح الأرواح! أنت التى بسطت المكان فى جميع جهاته، وبسطت الزمان الذى لا نهاية له،

« قد أمرت الضوضاء أن يتخذ سبيل النظام الجميل إلى ما وراء حدود الخيال السامى،

« فأنت الموجودة قبل وجود السماء:

« فأنت قد استويت على العرش

«قبل أن دارت الأجرام تحتنا أو الأجرام فوقنا،
«وقبل أن علقت الأرض نفسها فى الهواء الفلكى،
«حتى بمصل حلك الحق،
«وثبت إلى الوجود الأشياء المعدومة،»
«والأنشودة الطريفة قد غنيت.
«يا أيتها الخير المقصود!
«ما الذى حملك على أن تطلق القوات فى بداية الأمر؟
«يا أيها الحكمة البالغة!
«ما هو النور البهى الذى انبعث من قوتك؟
«ما الذى حملك عليه فى بداية الأمر؟ إيه، اهدى محليق سواء السبيل!
«إيه، ارفعى من القرار الثقيل روحى المغموسة فى الطرب!
«حتى ترتفع حرية على أجنحة من نار،
«لأنك أنت التى تعلمين وأنت التى يمكنك أن تبعثى فيها النشاط،
«مذهولة فى الظل الدائمى المنفرد.
«فى الكآبة العريضة من النور القوى،
«المبيع، الحرير، الفسيح،
«قبل أن انبعثت الروح وتظاهرت الأشكال
«عاين براهما ذهن نفسه.
«ولما حدقت العينان الفانيتان النظر (وهكذا نعبر المحدود باللامحدود) إلى المرايا المصقلة
«فبنظره وثب إلى الوجود مسرعاً شكل فائق فى الجمال وله لمعان غير منضود،
«ويمكن للمعانه أن يذهل خمسين شمسا.
«وسميت الالاهة الأولى بـ «مايا»،

وهى التى أعطت لسيده بالحب المهيج اللاهوتى تابوتا مملوءة بالأفكار العالية
فخلق به هذا العالم الفاخر؛
ولما أراد الله القدير أن يخلق،
عددا غير محدود من العوالم
فظهر من الوحدة إلى الجمع،
بينما ضحكت الخليقة السارة، وربت القدرة الخصيبة
فأولا، صوت فعال عميم امر المياه أن تسيل فسالت المياه
مطربة فى مكانها الذى ليس له إحصاء،
منشرة، وافرة، عميقة،
من فوق، ومن تحت، ومن جميع الجهات
ثم هب النسيم الابتدائى على الميدان المائى الوسيع حتى نهض حباب لامع
وأحد يسمو فى شكل متقن، كأنه بيضة سامية،
واللمعان الذى وجد فيه، لم يظهر فى أى خليقة أخرى،
ولا تعرف الأرض جمالا تفوقه.
ورقص بالجمة على الأمواج المتناضلة،
حتى خرج مرفرفا من قشرته المعلقة على الميدان المائى
شكل سماوى اللون فى غاية من الجمال،
أبهى ما يكون فى الموجودات، وأعظم العظماء،
فلم يكن كالبشر الذين يغطسون وفى أعينهم نوم الصبح،
بل كان ملقى على اللوطس فى تأملات سماوية،
فأزهر اللوطس بلمس منه وانبعث منه شعاع ذهبى.
مرحبا بك، يا أيتها الزهرة الأولى!
مرحبا بك، يا أيتها الدرة السماوية!

يا زهرة « كمل » أو زهرة « پدما »!
أو زهرة أى اسم حسن ترضين بها أحرى
ما هو اللاهوت ذات الأوجه الأربعة
الذى طلع من جذعك الأخضر،
فى لباس فاخر وتاج مرصع ؟
براهما الذكى الكامل!
قام وهو فى تفكراته الهامه،
وخرجت من حوالى عينيه سهام نارية.
ولكن بينما فتش عن أصله العيى
رأى فسيحا من مياه زرقاء أمامه.
ولم ير ينبوعها ولم يعرف!
ثم ارتد إلى ساق النبات الذى خرج منه
ولأحقاب بعده فحص عن المسألة وهو فى قلق وألم،
ماذا كانت قوانه، ومن الذى وهبها له، ولماذا ؟
كان متحيراً بالشكوك، ومهيجا بصبره العنيف،
فقام، ولما قام سمع
القول الحق المملوء بالعلم الكلى
براهما! لا تصر على بحث ما لا يطاق،
لا يمكنك أن تسفر عن النقاب، اذهب ومر جميع العوالم أن يظهر فى حيز الوجود
أهلا بك يا أيها الموجود بذاتك! قد أطلق عليك بالنطق السماوى اسم « ماراين »
بسبب أرجوحتك المائية:
أو أنت « وينا مالا » بالشريط الزاهر الذى يتدلى إلى نعليك،

هل لى أن أغرد بدون لوم عن جمالك الذى لا يمكن أن يوصف؟
أو « پيتامبر » الأعلى الملوس بالألسنة الصفراء التى هى أكثر ضياء من الأشعة
الشمسية الوهاجة فى منتصف النهار، التى تسح نورها السماوى حول الكرات السيارة.
أنت الذى لا تمل، أنت الذى لك العينان مثل زهرتى اللوطس،
أنت العدو المستمر للشر العنيف بقوتك الجبارة!
حواسى المغشية قد ملأتها هذه الأفكار،
وتعوم عيناى فى الظلام،
وأى عين يمكنها أن تحمل شعلتك،
وأى نطق يمكنه أن يعبر عن أعمالك بالنوق المصفى أو بالودع النوق المكلل.
إن الروح العليمة بقوتها المسيطرة تأمر أن تشرق من كل إدراك فيضانات مضيئة،
وتلمع فى قوس القزح، وتتلألأ فى الأنهار،
وتبسم فى البرعم وتضحك فى الزهر الذى يظهر
على المظلة الربيعية فى البستان،
وتنهد فى الرياح وتغرد فى حلقوم كل طائر من الطيور التى ترحب باتيان الربيع الناضر،
أو تنطق عن حبها فى نغمات رائقة
بينما المغنى المغتبط يطرق سلك المناس حتى ترن به الصخور والغابات:
وتتنفس بالروائح الطيبة فى غابة الصندل، أو فى الأمكنة التى ترعى وتلعب فيها غزال المسك الثمين،
وتقطر فى العصير العذب من عقود الفواكه،
وتخترق للصحة فى القرنقل اللذيذ؛
وتملأ نفوذ وجودك فى الشواطئ الناعمة والجبال النضرة،

وتنفخ الروح بإرادتك فى الهواء، والسيول، والكهوف، والغابات، والميادين،
وتحكم تخيلك السامى على الجميع.
يا أيتها القبة الزرقاء اللورية والنيران العصرية التى تلتهب وتتمس فى الهواء
السيال اللطيف.
ويا أيتها القوة الفعالة التى تحيط فروعك هذه الكرة المشغولة البال بالحركات
الدائرية المشكلة،
والجبال التى تشيد أوج قممها الحريثة المضيئة فى السماء، وتمرح ألوانها الحمراء
بالنور الياقوتى الأزرق.
والروضات الحادثة والمرجات التى تتلألأ بالألوان لمختلفة من أوراقها وأزهارها
المزركشة بالندى.
فلهذه الأشياء أن تبعد من أنظارى!
هى صور خادعة! ومظاهر لا أساس لها!
إن روحى المستغرقة تعلم فقط وجودا وحيدا،
ومن المحسوسات تدرك المصدر الوحيد الذى لا انقطاع له،
والذى ينشأ منه كل مادة وكل شأن.
فالشموس تشتق قواتها منه،
والسيارات تعلم مصيرها منه.
ولكن لا أرى الآن شموسا ولا عوالم،
فإنى أرى الله فقط، وأحمد الله فقط.

مدة العالم ونهايته

إن الأساطير الفلكية عند الهندوس ترد وحدة الكون الرمية إلى «كلپا»
أى إلى يوم من أيام براهما الخالق. يخلق براهما فى الصباح العوالم الثلاثة:

الأرض، والجنة، والجحيم. وفى الليل تنتشر العوالم الثلاثة فهى فى فوصى، والمخلوق الدى لم يبلغ درجة التحرر والخلاص يحتفظ بجوهره ويتحول عند نهوض براهما إلى الشكل الدى تقتضيه أعماله.

فتمضى الليالى والأيام هكدا بأحداثها الخطيره إلى أن يبلغ براهما سن المائة. وبعدها تتحول العوالم الثلاثة والأجرام وجميع الموجودات بما فيها نفسه و «ديوا» و «ريشى»، و «أسورا»، والرجال، والمخلوقات، والمادة، كل هده تتحول إلى الطوفان العظيم ولما ينقضى قرن آخر من الفوصى الدى لا نظام فيه يولد براهما آخر

ولنحسب القارى من الوجل عن سن نفسه نخبره بأن «كلبا» أى يوما من أيام براهما يعادل ٤٣٢٠٠٠٠٠٠٠ سنة مما نعد من السنين الأرضية.

يقسم يوم براهما بدوره إلى ألف احقاب كبيرة متساوية فى امتداد زمنها، ويتألف كل منها من أربع أحقاب وهى «كريتا»، و «ترتيا» و «دواپارا»، و «كالى»

فى حقبة كريتا يكون الدين على أربع أرجل، أى أنه يكتمل من نواحيه الأربعة. فتختص الحقبة بممارسة الفضائل الأربعة: الصدق، والشفقة، والورع، والانفاق فى سبيل الله وتوصف رجال هده الحقبة بالقناعة، والشفقة، والمحبة، واللطف، وضبط النفس والمعافاة. والناس يراعون فيها مبدأ المساواة ويتمتعون بلذة الروح المروضة.

وقد أورد هنومان فى مهابهارت صورة واضحة لحقبة كريتا هده، فيقول إنه لا يوجد فى تلك الحقبة تنوع فى الآلهة ولا تنوع فى البشر ولا يعرف الناس عمليات البيع والشراء، ولا يبدل الناس جهدا، لانهم يحصلون على متاع الدنيا وثمراتها بمجرد رغبتهم فيها. ولا يظهر أى مرض أو فتور فى أعضاء الحواس كما

يظهر بمرور الزمن. ولا يعرف أصحابها الحقد، أو البكاء، أو الاغترار بالنفس أو الخداع. ولا يكون هناك تنازع، أو مقت، أو ظلم، أو وجل، أو حزن، أو حسد، أو غطة. وتكون طبقات الناس متساوية فى وظائفها مؤدية لواجباتها، تداوم على عبادة إله واحد، ودعاء واحد، وطقس واحد، وتكون لهم صحيفة واحدة.

وتستمر حقبة «كريتا» لمدة ١٠٧٢٨٠٠٠ عام ويقال إنه يكون الأبيض لون الآلهة خلال هذه الحقبة

وفى الحقبة التالية «تريتا» يكون الدين على ثلاثة أرجل ويرمز ذلك إلى أن الفضيلة تنقص فى ذاتها بالربع فالناس فيها يتمايلون قليلا إلى المكر والتخاصم وتمتاز هذه الحقبة بظهور أناس مائلين إلى الانغماس باللذات، ولكن يفوق عدد البراهمة عليهم بكثير، ويكون البراهمة على إلمام بالتعاليم الصحيحة ولو أن الناس يصبحون شاطرين ويبدأون بمراعاة أغراضهم، ولكنهم مع ذلك يكتفون بالمشاغل الدينية ويحافظون على أوقات أدائها.

وتمتد هذه الحقبة إلى ١٢٩٦٠٠٠ سنة ويكون الأحمر لون الآلهة.

وفى الحقبة الثالثة «دواپارا» يقوم الدين على رجلين فاستناده ضعيف جدا. وينتشر الزور والمقت وعدم القناعة بالكثرة. ويبقى النصف من مبادئ الاخلاص والعطف والتسامح، ويكون الأصفر لون الآلهة وتكون للصحائف أربع طبقات.

يعتنى بعض البراهمة فى هذه الحقبة بدراسة الصحف الأربعة، وبعضهم يكتفى بدراسة ثلاثة منها ويدرس فريق صحيفتين فقط. وفريق لا يعتنى ولا بواحدة منها. ويكون البراهمة على إلمام بنصوص الصحائف. ويتمسك كثير من أفاضل «كشتريا» و «ويسيا» بدينهم بعناية تامة.

ومدة حقة دواپارا هي ٨٦٤،٠٠٠ عام.

والحقبة الأخيرة هي كالى وهى الحقبة الحاضرة المنحطة. إن الدين فى هذه الحقبة على رجل واحد فهو مطروح على الأرض. وبقى فى هذه العصر ربع من جميع الفضائل أى فضلتها. وتنعدم هذه البقية الباقية أيضاً. فتنتشر عوامل الاثم والعدوان.

وقد وصف الشعراء بملاحمهم وفصاحتهم تعاسة هذا العصر. وورد فى مهابهارت بأنه أصبح القسم الأعظم من أهل هذا العصر عبيدا وقعوا فى الوساوس واتخذوا سبل الحنث والظلم والتخاصم، فهم الأشقياء ومثانتهم مثانة الفقراء ويتربأ الناس بالغرور والباطل، والكسل، والبطئ، والمكر، والعناء، والهم والخوف، والفقر ويعيشون فى ظلام دامس وحبب إليهم ما هو المنحط السافل فيجدون أنفسهم فى شقاء متواصل ويأكلون بشراهة عظيمة.

الرجال فى هذا العصر منقادون لزوجاتهم وتصبح النساء قليلة الحياء، شديدة الخسارة، ميالة إلى الشهوة ويلدن أولادا وافرا. ويكثرن من الطعام والكلام والثرثرة. وتزدحم المدن باللصوص والمفسدين. وتسيطر الرذائل والخداع على الأعمال التجارية. وتتسرب القسوة إلى قلوب الملوك فيمصون دماء رعاياهم بغير حق ويقصر أصحاب المنازل فى واجباتهم ويأخذون بالتسول على الطرقات. وتفسد أحوال البراهمة فينحدرون إلى مستوى العبيد.

وتكثر الفيضانات والقحط على الزرع والمحصولات، ويتناقص عدد السكان بسبب الحروب والمجاعات. وقصارى القول إن أحوال العالم تتردى إلى حد يحمل العقلاء والحكماء على الابتهال فيرجون ظهور الاله المدمر «كالكى».

أما مدة هذه الحقبة فهى ٤٣٢،٠٠٠ عام. وتكون الآلهة سوداء اللون.

ومن الطريف أن نلاحظ أننا الآن حسب هذا التقويم فى الألف السادس من حقبة «كالى» من العصر الحاضر المشئوم. وهذا أول يوم للسنة الخامسة والخمسين من عمر براهما

يدل كل هذا على أن نظرية الحياة الهندوسية هى نظرية الارتقاء التدريجى إلى الانحطاط. ومن الغريب أنه يوجد هذا التصور عن انحطاط العالم فى معتقدات جميع المذاهب، فأتباع مجموعة الديانات السامية يعتقدون بجنات عدن، وهى الفردوس الأرضى الذى طرد منه أبو البشر سيدنا آدم عليه السلام لسوء عمله واضطر إلى العمل والموت

وهناك أسطورة مصرية تقول بأن الانسان كان خالدا وسعيداً فى الأيام الماضية ولكنه دبر مؤامرة وأراد أن ينزع العرش من «الأب الأول» ففشل فى أمره وعثر على جريمة وهو متلبس فيها، فحكم عليه بالفناء

ويقول الشاعر اليونانى «هيسيود» (Hesiod) بأن أساطير بلاده تقسم التاريخ فى خمس عصور فى البداية قام أولمپس تحت أمر كرونوس بخلق رجال من ذهب وكان أهل هذا العصر يعيشون كالآلهة فى السعادة التامة، ولم يضطروا إلى استعمال الأيدى للعمل لأن الأرض كانت تؤتى ثمارها بدون أى عناء ولم يعلم هؤلاء تعاسة الشيخوخة وكان الموت بمثابة الانتقال من اليقظة إلى النوم العميق وبعد وفاتهم قررت أرواحهم فوق الأرض ليحافظوا على الأحياء ويساعدوهم.

وبعد ذلك خلق الآلهة رجالا من فضة على أنه لا يمكن مقارنة هؤلاء بمن سبقوهم فى العصر الذهبى. فبقوا على الحالة الطفولية لسنين عديدة. ولما بلغوا رشدهم رفضوا الخضوع لآلهتهم وبدأوا يتقاتلون فيما بينهم. وبعد وفاتهم تحولوا إلى أرواح طيبة تعيش فى حيز الأرض.

ثم تبعهم الرجال من البرونز الذين انبعثوا من شجر البلوط وكانت لهم قلوب قاسية وحاسدة. فالشهوة قرضت الدنيا بوجودهم. وهؤلاء الناس صنعوا جميع الأشياء من البرونز. فبسبب اختراعاتهم انتقلوا من عالم النور إلى عالم الظلام — عالم الملك هاديس، فلم يبق لهم عزة ولا ذكرى.

وبعد ذلك قام الاله تريوس بخلق جنس بشرى من الأبطال، الذين حاربوا فى تيبس. ولما قضى هؤلاء نحبهم، نقلهم «أولمبين» إلى ديار السعادة فى أطراف العالم.

وتلى هؤلاء الأبطال الرجال من الحـــديد، وهم الجنس البشرى فى العصر الهمجى الحاضر. وقد كتب علينا الكد والكدر فى الليل والنهار، ولا تنتهى هـذه التعاسة إلا عـندما تزول هذه السلالة. ويكون ذلك حينما ينعكس نظام الطبيعة وتتحول المحبة إلى الحقد.

وقـد أورد مؤلف «بوراما» صورة مختلفة عن الطريقة التى ينهدم فيها العالم فى نهاية حقبة «كالى». فتقول إحدى الروايات إن الاله «وشنو» سوف يظهر على شاكلة الاله «كالكى»، وهو يكون بطلا مسلحاً، راكبا على حصان أبيض، وله جناحان محلان بالجوهرات، ويظهر محركا بيده فوق رأسه حسام الدمار والخراب، وحاملا فى يده الأخرى قرصاً. ويرفع حصانه قدمه الأمامى الأيمن. وإن الدنيا واقفة على رأس «شيشا» الحنش، والحنش جالس على ظهر سلحفاة. وعـندما يضرب حصان كالكى قـــدمه الرافع على الأرض، تسقط السلحفاة فى الهاوية وتتخلص من الثقل العظيم، وهكذا يهلك جميع حشاء العالم.

وورد فى بهگوت أحوال هذا العصر وما فيـه من الهول. فى هذا العصر تمتنع الغيوم عن التقطر فى صورة الأمطار على الأرض لمـدة مائة عام. فلا يجد الناس طعاما يأكلونه. فلما يعضهم الجوع بأنيابه يضطرون إلى أكل بعضهم

بعضا. وهكذا يغلب عليهم العصر فيلقون بأيديهم إلى التهلكة والفناء.

وورد فى محل آخر ذكر الطوفان العالمى بتفاصيله الواضحــة. يكون هنالك قحط لمدة سنين، وبعد ذلك تظهر فى السماء شموس ملتهبة تمتص جميع المياه، ثم تهب على الأرض ريح من نار تأكل جميع الأشياء وتتسرب إلى العالم السفلى فتتلف كل ما فيه فى لحظة واحدة وهكذا يحترق العالم بأسره.

وبعد ذلك تتراكم الغيوم اللامعة ذات الألوان العديدة كجموع الفيلة المزينة بأكاليل من البرق، ثم تنشق بغتة فتمطر لمدة اثنى عشر عاما باستمرار إلى أن يتوارى جميع العالم بجباله وغاباته تحت سطح الماء. وبعد ذلك تنعدم الغيوم والإله الموجود بذاته الذى هو أول سبب لجميع الأسباب، يمتص الرياح ويعود إلى سباته وعندئذ يصبح العالم فسحة من الماء.

إن يوم براهما يقسم أيضا إلى أربعة عشر أدوار زمنية، يحكم فى كل واحد منها معلم، ولا يفنى هذا المعلم عند فناء العالم بعد كل حقبة من الأحقاب الكبيرة المذكورة. وقــد وصف الحكيم «ماركنديا» فى مهابهارت كيف بقى معلما فى الطوفان الأخير وها هى الحكاية

إن المعلم – وهو يساوى براهما فى المجد – مارس الامتناع عن اللذات لمـــدة عشر آلاف عام. وقد حدث ذات يوم بينما كان مشغولا فى التأمل والتفكير فى اللانهاية، وهو قائم على قدم واحد على شاطئ نهر ورافع إحدى ذراعيه، إذ شاهد سمكة خرجت من الماء وطلبت منه النجدة ضد سمكة أخرى أكبر حجما كانت تطاردها

فما كان منـــه إلا أن التقط السمكة من النهر ووضعها فى جرة من طوب. وكبرت السمكة بحيث أن الجرة لم تكد تسعها. فأخذها المعلم وألقى بها فى بركة

من الماء. فكبرت هناك أيضا وتضايق عليها البركة. فالتجأت إلى المعلم أن يلقى بها فى مياه نهر كنكا. فكان لها ما أرادت. ولكنها ازدادت فى الحجم لنهر كنكا أيضا فنقلت إلى الأوقيانوس.

وابتسمت السمكة فى الأوقيانوس وأبدت للعلم نفسها فبدى له أن براهما كان قد تقمص فى صورة السمكة وتكلمت السمكة عن الغيب فأخبرت أن العالم سيهلك بطوفان عظيم، وطلبت منه أن يبنى سفينة وينقل إليها العلماء السبعة والبذور المختلفة كما عددها البراهمة القدماء وأن يحفظها على صورة محكمة.

وامتثل المعلم لأوامرها وعندما بدأ الطوفان أقلع سفينته وربط حبالها إلى قرنى السمكة.

« وحملت السفينة أبا البشر فى الأوقيانوس،
« فى أمواجه الراقصة ومياهه القاصمة،
« وهبت الرياح فقذفت السفينة يمينا وشمالا،
« فداخت السفينة على سطح المياه العميقة
« فتمايلت وارتعشت كامرأة سكرانة.
« ولم تظهر الأرض،
« ولا الأفق البعيد، ولا المسافة فى ما بينهما،
« لأن المياه الهائجة قد انتشرت فى جميع الجهات
« وكانت البحارات قد تراكمت فى الجو والسماء اللامحدد
« فلما غرق جميع العالم فى الطوفان، لم يظهر شىء على الأمواج.
« سوى المعلم والعلماء السبع والسمكة التى قادت الفلك.
« وساقت السمكة السفينة لسنين عديدة ولم تتعب
« فكانت تجرى بها على المياه المتراكمة، إلى أن استوت السفينة على هيماوان.

وأخذت المياه بالهوط والمعلم معها ووصل المعلم إلى الميادين فى الوقت المعلوم وأخذ بعملية الخلق لحقبة «كريتا» اللاحقة.

وفى هذه الحكاية مماثلة عظيمة بالأسطورة العبرانية عن الطوفان وسفينة النوح. ولعل المصدر للروايتين واحد.

الأساطير الهندوسية فى الجغرافية

تقول الروايات القليلة الواردة فى «ويدا» أن الشعراء الويديين تصوروا الأرض مفروشة وعريضة لا حدود لها. وإنها على شاكلة الدولاب ولا توجد هناك إشارة إلى وجود أوقيانوس محيط بها.

وأقدم النظريات عن نشأته هو أن العالم يحتوى على الأرض والسماء. وتختلف الآراء عن شكل الأرض فإذا اتحدت بالسماء، فوردت بطاسين قد وضعا وجها لوجه. ومن وجهة أخرى شبهت الأرض والسماء بدولابين على طرفى محور.

إن أساطير «پورانا» تختلف كليا فى بيانها عن استناد الأرض وتقسيمها. فى إحدى الروايات تظهر الأرض مستندة على رأس «شيشا» الحنش. والحنش جالس على ظهر سلحفاة فوق المياه الأولية

وقيل فى رواية أخرى إن الأرض مستندة على أربعة من الفيلة.

وهناك رواية ثالثة تقول إن أربعة من العفاريت يحملون الأرض فوق أكتافهم، وإن الزلازل تقع فى الأرض حين يعتريهم التعب فيضطرون إلى نقل الكرة من كتف إلى آخر

وتحدث بعض روايات «پورانا» عن وجود سبع جزائر من القارات، وأن الأرض هى القارة الداخلية. وقد سمت العالم «جزيرة جامبو» وذلك بسبب أسطورة عن شجرة جامبو التى تنبت فوق أحد جبال الجزيرة. ويساوى حجم

فواكه الشجرة، حجم الفيلة. وعندما تنضج الفواكه، تتساقط على الجبل ويتحول عصيرها إلى نهر جامو، وكل من يشرب ماءه يلاقى الصحة والحياة

يقع جبل «ميرو» فى وسط العالم، ويبلغ ارتفاعه ٨٤٠٠٠ فرسخا فوق الأرض، وتقع جبال هماليا فى جنوب ميرو وتقع بلاد «بهارت ورشا» (أى الهند) المقدسة بين هماليا والبحر المالح

وتقوم على قمة جبل «ميرو» مدينة براهما التى تمتد إلى ١٤٠٠٠ فرسخا. وهى مشهورة فى السماء. وتقع حواليها مدن «إندرا» والنائبين الآخرين للكرات ويسيل نهر كنگا حول مدينة براهما. ويسكن فى منحدرات جبل ميرو ووديانه جميع طبقات البشر

وتعتبر بلاد «بهارت ورشا» الواقعة بين هماليا والبحر المالح أعظم وأحسن بلاد فى الأرض والسماء، وذلك لأنها مركز الحركة، فى حين أن البلاد الأخرى، ولو أنها سعيدة، ولكنها مناطق مستمرة على حالة واحدة.

مذاكرات رابندرنات طاغور عن طفوليته

ترجمة الأستاذ اورشتا — ١ —

كنا ثلاثة صبية نشأنا معا. وكان رفيقاى الاثنان، يكبرانى بعامين اثنين. ولكنا بدأنا معا فى تعلم الكتابة والقراءة، والاغتراف من منهل العلم سويا. وما زلت أتذكر الأسطر الأولى التى وعيتها من تعليم الطفولة: إن «المطر يهمر..، والأوراق تهزها الريح، وتبللها قطرات الماء» وكانت هذه السطور، هى أول أبيات من الشعر حفظتها فى حياتى، بسبب قافيتها الموسيقية السهلة

وهناك اشراقة أخرى، لا أزال أذكرها من عهد الصبا. فقد كانت العائلة تستخدم صرافا كان يدعى «كيلاش» كان خفيف الظل، حلو الدعابة، مطلق اللسان، قوى التعبير، غزير المادة وكنت أنصت لحديثه دائما، فى شغف وإقبال وكانت كل كلماته تلتصق بذاكرتى، كحكم بليغة لا يتطرق إليها الشك أبدا!

وكم أدين لهذا الصراف! انه حبب إلى الاطلاع، والقراءة، والاستزادة من الحكم البليغة وفى يوم ما تزوج كيلاش وكان هذا الحدث، دافعا قويا لاثارتنا واهتمامنا. كان كيلاش بالنسبة إلينا، نحن الصبية الثلاثة، بطلا. وكنا نفتقر إلى بطلة وجاءت البطلة فى صورة عروس كيلاش لقد رأيناها، جميلة صغيرة ساحرة، تتحلى بالحلى من رأسها إلى قدميها! وظلت صورة هذه العروس، تداعب مخيلتى حتى الشيخوخة وظلت منبعا يلهمنى كافة الصور عن النساء التى لعبت أدوارا هامة فى انتاجى الأدبى.

والشىء الثانى الذى لازلت أذكره، هو بداية حياتى المدرسية. ففى يوم ما شاهدت أخى الأكبر، وابن اختى، ساتيا، وهو أيضا يكبرنى بقليل، يركبان العربة

إلى المدرسة. وكنت حتى ذاك السن، لم أركب عربة فى حياتى، أو أخرج بعيدا عن البيت. وعندما عاد ساتيا ممتلئاً نشاطا وهو يتحمر فرحا، ويقص علينا حوادث النهار فى المدرسة، أحسست حينئذ، بأنى لا أستطيع أن أبقى فى البيت بعد اليوم. وشاهدنى رائدى وأنا أبكى فقال «أنت الآن تبكى لكى تذهب إلى المدرسة، ولكنك ستبكى أكثر فيما بعد، لكى لا تذهب إلى المدرسة!

وأنا لا أذكر تماما وجه هذا الرائد، ولكن نصيحته لا تزال عالقة فى نفسى وذاكرتى حتى اليوم فلم يسبق أن تحققت إلى نبوءة أكثر صدقا من تلك.

ولقد أدى بكائى المتواصل إلى إلحاقى بالمدرسة الشرقية ولست أذكر شيئا ما تعلمته فى تلك المدرسة، ولكنى لا زلت أذكر فى وضوح وسائلها فى انزال العقوبة بالتلاميذ. ولعلماء النفس أن يبحثوا كيف تتمكن الطرق الشادة القاسية، فى معاملة التلاميذ، من تعليمهم، وتهذيبهم، وملأ قلوبهم بالاحترام والمحبة نحو المدرسة ومدرسيها. إن التلميذ، فى تلك الفترة، لا يتحصل فى تلك الأنواع العقاب المدرسى، غير عدد لابأس به من العقد النفسية، تظل تشقيه طيلة حياته

ولكنى كنت مشغوفا بالأدب، مشغولا به عن كل شىء آخر. وأول ما وقع فى يدى لقراءته، وأنا فى تلك السن المبكرة، ترجمة بنغالية لأساطير تشانا كيا، وراماياتا كريتيفارا. وحتى اليوم ومن حين لآخر، تنبعث فى ذاكرتى صورة ذلك اليوم الذى بدأت أقرأ فيه «الرامايانا» كانت السماء مظلمة داكنة، تكسوها السحب المحمصة القاتمة. وكنت ألعب فى الشرفة الطويلة التى تطل على الطريق وفجأة، ولسبب ما، أراد «ساتيا» أن يخيفنى. فأخذ يصرخ يا شاويش! يا شاويش! وكانت فكرتى حينئذ عن مهمة رجل البوليس مشوشة غامضة. ولكنى كنت على يقين من شىء واحد. وهو إذا وقع متهم بجريمة فى يد رجل البوليس، فسوف تهصره هصرا حتى يتلاشى! ولهذا السبب، لم أكد أسمع صياح «ساتيا»،

حتى أغلقت باب الشرفة ووضعت المتراس من الداخل. وهرعت إلى أمي في الغرفة المجاورة وأنا أبكي وأرتعد خوفا من رجال البوليس. ولكن يبدو أن أمي لم تعر المسألة أهمية بالغة، إذ تركتني أبكي دون أن تختصني كالعادة. وأبصرت أمامي الكتاب الصغير الذي تقرأه جدتي فانحنيت عليه، وأخذت أحدق فيه وأنا لا أزال باكيا. ثم قرأت سطرا .. فثان فثالثا وتوقف بكائي. وتنبهت بعد ساعات بأني انتهيت من قراءة « الرامايانا »!

(٢)

وكانت عيشة الترف، يكاد لا يعرفها الناس أيام طفولتي. فمستوى المعيشة وقتئذ، كان أكثر بساطة مما هو عليه الآن وبعاب هذا. فقد كنا نحن الأطفال، أبعد ما نكون عن « الدمع » فتربيتنا كانت قاسية وكنا نخضع دائما لحكم الخدم ولكي يحموا أنفسهم المتاعب، كانوا ينكرون علينا حق الحرية في الحركة أو العمل ولكن عقولنا بقيت متحررة من كل القيود والسخافات

وكان طعامنا بسيطا ونظرة واحدة إلى قائمة ملابسنا، تملأ نفس الصبي « المودرن » بالقنوط والاشمئزاز كنا لا نلبس الشرابات أو الأحذية، حتى سن العاشرة وفي الشتاء البارد، كنا نكتفي بوضع صديري آخر فوق قميصنا. ولكنا كنا نهتم اهتماما زائدا بالجيوب في الصديري فتلك الجيوب كنا نحشوها دائما بما لذ وطاب وويل الترزي « بيامات » إذا نسي وضع الجيب في صديري أحد منا! وكان مقررا لكل صبي منا، زوجا من الأحذية الخفيفة. ولكنا غالبا ما كنا نكتفي بحملها على أكتافنا أو تكويرها ووضعها في الجيب وكان الكبار في عائلتنا، يعيشون حياتهم الفاخرة، في المأكل والملبس واللهو ولكنهم كانوا يسكنون بعيدا عنا.. لذلك لم نتأثر بهم كثيرا.

وكنا نمضي أيامنا في مساكن الخدم. وكان واحد من هؤلاء الخدم يدعى

شيام، كان أسود الوجه، لامع العينين دائماً، يعتني بنظافته عناية خاصة، وكنت استغربه جداً وسط طبقة الخدم أيام طفولتي. وكان هذا الخادم يعلمني الكثير من الألعاب الصبيانية التي ظلت تسيطر على حواسي، كلما وعت إلى نفسي حتى بعد أن أصبحت شيخاً كهلا ولا أستطيع أن أنسى. شجرة الموز الصغيرة، التي كنت أستظل بظلها بعد أن يأخذني التعب من الجهد واللعب. والتي عدت إليها بعد سنوات طويلة. لأسطر عنها تلك الأبيات التي أصبحت أغنية شهيرة فيما بعد.

«أيه. شجرة الموز العجوز.. تقصين في مكانك خالدة خلود النهار والليل. هل تذكرين؟ هل تذكرين ذلك الطفل المرح الذي كان يلعب طيلة النهار.. بظلك الظليل؟ إني. لا أنسى..»

ولكن وا أسفاه! لم تعد شجرة الموز هناك ولا حتى الغدير الصغير من الماء الذي كان يرويها ويعكس اهتزازات أغصانها على صفحة مرآته..

ولم تكن لنا الحرية لكي نخرج من المنزل حينما نشاء، لذلك كنا نطلق لأعيننا وخيالنا العنان. من خلف الخراخر والقضبان. وكانت عيني تقع دائماً على هذا الفضاء الفسيح اللانهائي. الذي يسمى بالخارج سحر الطبيعة، جمال الليل، زقزقة العصافير، رقرقة النهر والغدير همهمة الحيوانات في الليل. كل هــذا كان يتراءى أمام عيني ومخيلتي.. كعالم غامض مجهول ولكن سحر الكشف عن المجهول. . كان يؤرقني في طفولتي.. وكان يدفع بي إلى الاسترسال في تفكير عميق طويل.

ومر الزمن.. واختفى خط الطباشير الواهي الذي كان يحجزني في طفولتي عن الخروج من البيت وارتياد المجهول.. ولكن العالم الخارجي.. ظل دائماً.. وطيلة حياتي هو المجهول الذي كرست حياتي من أجل الكشف عن بعض أسراره

وخباياه. وفى هذا كتبت فيما بعد:

«كان الطير الأليف حبيسا فى القفص وكان الطير الحر مطلقا فى الغابة..

والتقى الطيران عندما سمح الزمان وسطر القدر. وصاح الطير الحر: أيها الحبيب. دعنا نطير إلى الغابة... وهمس الطير حبيس القفص: تعال معى. دعنا نعيش نحن الاثنين فى القفص.

«وقال الطير الطليق كيف يتسنى لنا أن نرفرف جناحينا ونحن سجناء هذا القفص!

«وبكى الطير الحبيس وا أسفاه! إنى لا أدرى أين أجلس مستريحا فى السماء...»

وفى طفولتى، وفى تلك السن بالذات، كنت أعلم بأن سراً ما يحيط بمكان ما فى منزلنا! ولم أنجح أبدا فى الكشف عنه وكانت تسميه إحدى صديقاتى من الأطفال، وهى تلعب معى دائما «قصر الملك»! وفى بعض الأحيان كانت تقول لى «إننى كنت هناك منذ فترة وجيزة فقط». ولكن، ولست لا أعرفه. لم تحن الفرصة أبدا لكى تصحبنى معها إلى ذلك المكان. وطالما سألت صديقتى «أخبرينى بالله هل هذا المكان موجود داخل المنزل أم خارجه. ؟» وكانت دائما تجيبنى «إنه فى هذا البيت بالذات» وكنت أجلس وحدى وأتعجب «أين يوجد هذا المكان! ألست أعرف غرف المنزل جيدا. ومن يكون هذا الملك الذى يشغل مكانا فى منزلنا؟ لقد ظل هذا اللغز دون حل حتى اليوم!

(٣)

إن فترة حكم العبيد فى تاريخ الهند. لا تدعو إلى الفخر. فاذا عدت بخاطرى إلى فترة حكم الخدم فى حياتى الخاصة، لا أستطيع أن أجد شيئا يدعو إلى الفخر أو البهجة. وكنا فى مثل هذه السن، لا تتاح لنا الفرصة للاجتماع

أو الانتقاد، بل كنا نتقبل دون مناقشة، قوانين الحياة، وهى أن الكبير أو القوى يؤلم الصغير.. وأن الصغير أو الضعيف عليه أن يتألم ! وأمضيت وقتا طويلا، قبل أن أدرك الحقيقة المضادة، وهى أن الكبير هو الدى يتألم، وأن الصغير هو الدى يتسبب فى الألم. كنا نضرب ضربا مبرحا... توضع رؤسنا فى أوعية الماء الممتلئة . تخلع ملابسنا وتمزق أجسادنا بالسياط.. وكنا نقابل كل هدا، بصرخة مكتومة مرة . ومطلقة مرة أخرى . ولكنها صرخة عادية فى الحالتين.

والآن أعجب فى بعض الأحيان، لماذا كان يعاملنا الخدم بمثل تلك القسوة، ولست براغم. بأن أخلاقنا وتصرفاتنا وسلوكنا كانت فوق الشبهات فى ذلك الوقت، ولكن يبدو أن السبب الحقيقى، هو أننا كنا بمثابة عبء ثقيل، ألقى على كواهل الخـــدم، وهدا العبء كان من الصعب احتماله حتى بالنسبة لأقرب المقربين إلينا!

ولو كان يسمح للاطفال أن يكونوا مجرد أطفـال فقط، يمرحون ويلعبون ويحققون رغباتهم الصبيانيـة، إذن لكان الأمر فى منتهى البساطة ولكن المشاكل تبدت، حينما تحمل الطاقات البشرية، فوق ما تحتمل، وتلقى عليها بضغط ثقيل، قد يهتت الأعصاب والعظام. وهكذا كان الحال معنا، كان مطلوبا منا ألا نتصرف كالأطفال، ونحن فى سن الطفولة. وبالتالى انحرفت أخلاقنا وشخصياتنا، فأصبحنا عبئا ثقيلا على أكتاف المربين والأوصياء. وأنا لا أذكر شيئا عن هؤلاء المربين والأوصياء، سوى سعالهم وعراكهم بالأيدى

ولكن هناك شخصا واحدا فقط، لازلت أتذكره جيداً إن اسمه إسوار. وكان يعمل ناظرا لمدرسة القرية قبل أن يلتحق خادما فى بيتنا كان رجلا وقورا أكثر من اللازم.. يهتم بكل صغيرة وكبيرة من سلوك الانسان.. وبطافته بوجه خاص. وكان يبدو كما لو كان غير راض عن الكرة الأرضية ذاتها. إذ أنها لا

تبدو نظيفة كما يود وكما ينبغي. وكان إذا نزل إلى النهر ليستحم، ظل يحرك بيديه الماء حتى يبدو صافيا. وقد تستغرق هذه العملية منه ساعات وساعات.. وبعدها يتوكل على الله ويضع قدمه فى الماء. ولا يزال الاشمئزاز يكسو وجهه! وعندما يمشى فى الطرقات، كان يرفع ذراعه على شكل زاوية قائمة، ربما، وعلى حد تصورنا، أنه لا يثق فى نظافة ملابسه! وعندما كان يتكلم أمامنا، كانت تخرج الألفاظ من فمه منسقة منتقاه كأنه صاغها من حديقة الانشاء. وكانت تلك الألفاظ تبدو ساحرة وقتئذ، كانت تخلب ألبابنا، وتزيد من هيبة ووقار الرجل فى أعيننا. ولكنى حينما استعرض تلك الألفاظ اليوم، يكتسى وجهى بحمرة خفيفة. هى السحرية من ألفاظ حديقة الانشاء!

وهذا الناظر، استطاع أن يكتشف طريقة بارعة، ليجعلنا نمضى الأمسيات، هادئين، ساكنين، منصتين. فى كل مساء كان يجمعنا حول المصباح الزيتى، ويقرأ لنا فصولا من الرامايانا والمهابهاراتا. وكان بعض الخدم ينضمون إلينا فى بعض الأحيان، لسماع تلك الفصول.

وكان المصباح، يلقى بأشباح هائلة على الحائط والسقف، بينما تعمل « الوزغات » نشطة، فى التهام الحشرات التى يجذبها ضوء المصباح.. والفيران تلعب وترقص حول الشرفة. ومع ذلك، كنا نستمع صامتين، وقد عقدت الدهشة، والعجب ألسنتنا، وباتت على وجوهنا. ولا زلت أذكر، تلك الأمسية التى أخذ فيها « إسوار » يقص علينا حكاية « كوشا ولاقا »، وكيف كان هذان الصبيان يعملان على هدم مجد الآباء والأجداد. لا زلت أذكر تلك الانفعالات التى كانت على وجهه، بينما يأخذ المصباح الزيتى فى الخفوت شيئا فشيئا... فيصبح كل شىء، وكل شخص فى المكان... كأشباح باهتة.

وبعض الأحيان، كانت تبعث تلك القراءات، المناقشات العميقة الحامية بيننا
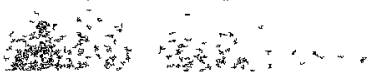
جميعا، ولكنها كانت تهدأ دائما عندما يتكلم «إسوار» ويبدى رأيه الحاسم فى موضوع المناقشة.

وكان معروفا عن «إسوار» إدمانه على تعاطى الأفيون.. لهذا كان مغرما جدا بالطعام الدسم. ولكنه كان يحصل عليه فى الغالب على حسابنا. ومن وجباتنا المقررة فقد كان يفرض على كل منا أتاوة معينة، هى ملعقة أو ملعقتين من طعام كل منا وكنا نقبل هذا راضين مسرورين، بل كنا لا نبدأ التهام طعامنا قبل أن نتأكد من دفع الأتاوة لاسوار

(٤)

وبينما كنت تلميذا مقيدا فى المدرسة الشرقية الابتدائية، كنت أفتح فصلا خاصا بى فى أحد أركان شرفتنا. وكانت قضبان الشرفة الخشبية، هى تلاميذى؟ وكنت أنا معلم الفصل، أحمل العصا فى يدى، وأجلس على مقعد أمام القضبان. وكنت أحدد من هم التلاميذ المجتهدون ومن منهم الكسالى وكنت أميز فى سهولة، الهادىء منهم والعفريت. والذكى من الغبى وكانت العصا تهبط دون شفقة على التلميذ الكسول أو الشقى أو الغبى ولكن سرعان ما انهارت تلاميذى الخشبية، وكان على أن أبدلهم بتلاميذ من الحديد! وكنت يوما لا أدرك، بأن ما كنت أفعله. ليس إلا رد فعل الانفعالات العنيفة التى كانت تعمل فى نفسى، عن المعلمين والتلاميذ فى فترة صباى

ولم أطق صبرا بالمدرسة الابتدائية الشرقية، فنقلت بعد شهور إلى المدرسة العادية. وكل ما أتذكره عن تلك المدرسة، أن التلاميذ جميعا، كانوا يصطفون فى طابور طويل كل صباح، وينشدون بعض الأشعار أو الأغانى، كمحاولة لاثارة الفرح فى نفوسهم قبل بدء اليوم الدراسى.

ولكن لسوء الحظ، كانت كلمات الأناشيد انجليزية، ويبدو اللحن أجنبيا، لهذا كنا لا نفهم كلمة واحدة من هذا الذى نردده فى أصوات عالية. وكانت تجربتى مع تلاميذ تلك المدرسة، مريرة للغاية. فقد كان أغلبهم شريرا.. من طبقة منحطة، لا خلاق لهم لهذا لم استطع الاندماج معهم، والحصول على أصدقاء من بينهم. ولعل الابتعاد عن هؤلاء التلاميذ، هو الذى هيأ لى الفرصة، للاستذكار الطويل العميق، والتهام كل ما كان يقع فى يدى من كتب وكراسات ومقالات

وبعد مرور عام واحد فى تلك المدرسة، أديت الامتحان فى اللغة البنغالية، وكان ممتحنى هو البانديت كاشاساتى وحصلت على أعلا درجة بين كافة التلاميذ. واشتكى المدرس لسلطات المدرسة، بأن الممتحنين كانوا يلقونى الاجابة، وبأنهم يحابوننى محاباة صريحة ولهذا السبب أديت الامتحان للمرة الثانية، بينما وقف ناظر المدرسة يراقبنى. ولكنى أظهرت تفوقا فى هذه المرة أيضا

(٥)

وكان سنى لا يتعدى الثامن فى ذلك الوقت. وكان ابن عمتى «جيوتى» أكبر منى سنا، فاستطاع أن يتعلم الأدب الانجليزى، وأخذ يلقى على مسامعى كل يوم أشعار «هملت» بعد أن يحفظها عن ظهر قلب. وحدث بعد ظهر أحد الأيام أن استدعانى إلى غرفته، وطلب منى أن أحاول كتابة بعض أبيات من الشعر، ثم أخذ يشرح لى كيفية بناء بيت الشعر المكون من أربعة عشر مقطعا. وكنت لا أتخيل مطلقا، أن محاولتى فى كتابة الشعر ستنتج شعرا، وصفه ابن عمتى، بأنه رصين وممتاز.

وفى مساء أحد الأيام، سمعت أن لصا تسلل داخل البيت وبأن الخدم قبضوا عليه. واعترتنى مشاعر الفضول والخوف معا، وعزمت على مشاهدة اللص

بفسى. ولكنى وحدته، رحلا عاديا تماما. بل عدما شاهدت بواب البيت، يقسو عليه بالصرب المبرح، امتلأ قلبى شفقة على اللص. ومثل هدا الشعور أحس به تجاه الشعر. ! حتى اليوم، عـــدما أسطر بعض الكلمات غـير عامد، أحدها تتحول إلى شعر موزون وعدما أحـد الشعر المسكين يتعثر مع شماه أو أقلام بعض الكتاب، أشعر فى بفسه إحساس الشفقـة الدى أحسست به نحو اللص.

ومبد دلك اليوم، أحدت يدى تخط أبيات مهلهلة من الشعر، على كل ورقة تصادفنى. بل حدث يوما أن وحدت ملفا حكوميا هاما، فأحدت أسطر على صفحاته الحليقة، كل ما كانت تسعفى به قريحتى من الشعر وكان حرائى «علقة ساخنة» لا أنساها مدى الحياة.

وحدث يوما أن لمح ابن عمتى السالف الدكر «ناحوبال ميتر» محرر صحيفة «بيشنل بيبر» قادما لزيارتنا فاقتحم عليه الغرفة، وقال له دون مقدمات. عمى ناحوبال، ألا تستمع إلى قطعة من الشعر ألفها رابى؟ ورابى هو اسمى بين العائلة.

وكنت دائما مستعدا لاطلاع أى شخص على شعرى، فقـــد كنت الكاتب والطابع والناشر، كلها فى أن واحـد. وكانت جيوبى دائما مليئة بالمخطوطات. وكان أخى هدا هو وحده الدى يقوم بالاعلان والدعاية

وفى سرعة، أحدت ألقى قصيدة «اللوسى» أمام الكاتب والشاعر والصحفى ناحوبال بابو. ولم أكد انتهى حتى صاح: هدا جميل. رائع ! ولكن ما معنى دويرفا؟

وأسقط فى يدى، فقد كنت لا أعرف معنى هده الكلمة. ولكنى وضعتها فى القصيدة، لضرورة القافية فقط. وابتسم «ناحوبال» كأنه قد فهم. واعترانى

الخجل. وشعرت بالتفاهة، وقررت ألا أقرأ الشعر أبدا امام هذا الرجل. ومرت بى السنون. كنت أتحسس خلالها « باحوبال »، حتى أتى إلى يوما، وقال لى و هو يبتسم: لقد عثرت فى القاموس على معنى « دوبيرفا »، انها النحلة عندما تسكر من العسل... لقد غاب هذا المعنى عن بالى فشكرا لك. ؟!

(٦)

وكان أحد معلمى المدرسة الاعتيادية، يأتى إلى بيتنا لاعطائنا بعض الدروس الخصوصية. كان يابس العود، جاف الوجه، أجش الصوت، يبدو كرعروعة القصب وكانت مواعيده بين السادسة إلى منتصف العاشرة صباحا. وبفضله تحولت قراءتنا من الأدب الشعبى والعلوم المبسطة، إلى ملاحم ميغاناو قادا.

وكان شقيقى الثالث، حريصا على أن يمدنا بالمعلومات المنوعة. لهذا كنا نتعلم فى البيت، أكثر مما كنا نحصل فى المدرسة وكان علينا أن نستيقظ قبل الفجر. فنقوم ببعض التمرينات الرياضية السابحة، ثم نقبل على الدرس مباشرة، ندرس الأدب والحساب والجغرافيا والتاريخ وعند عودتنا من المدرسة، نجد فى انتظارنا معلمى الرسم والألعاب الرياضية وفى المساء، كان يفد علينا أغور بابو، ليعطينا دروس الانجليزية. لهذا كنا لا نفرغ من الدرس قبل التاسعة مساء. وفى صبيحة أيام الآحاد، كنا نتلقى دروسا فى الغناء على يد الأستاذ فيشنو. ولم تكد تمر فترة طويلة، حتى بات يفد على بيتنا الأستاذ سيتانات دتا، ليعطينا دروس العلوم الطبيعية. وكنت اهتم اهتماما بالغا بتلك الدروس. وكانت نفسى تمتلىء بالعجب عندما كنت أرقب أستاذ العلوم الطبيعية وهو يجرى أمامنا بعض التجارب البسيطة.. يفصل التراب عن الماء فى انبوبة الاختبار.. ويرسب المواد المعدنية، وتفاعل الأحماض.. وما إلى ذلك. وكانت أيام الآحاد، لا تبدو كذلك، إلا إذا قدم سيتانات بابو، مدرس العلوم الطبيعية!

وفى بعض الأيام كان يأتى لزيارتنا، طالب فى كلية طب كامل، فيحدثنا عن عظام الانسان، ويرسم لنا الهيكل العظمى، كما كان يمد علينا من حين لآخر، بانديت تاتواراتنا ليعلمنا قواعد اللغة السنسكريتية

وبدأنا نتعلم الانجليزية، بعد أن قطعنا شوطا بعيدا فى تعلم البنغالية. وكان معلمنا للغة الانجليزيه، آغور نابو، يدرس فى كلية الطب، لهذا عمد إلى أن يأتى إلينا فى المساء.

وتقول لنا الكتب، بأن اكتشاف النار، من أعظم اكتشافات الانسانية. وأنا لا أريد أن أنازع فى هذا الرأى. ولكنى لا أستطيع أن أكف عن التصور: كيف أن الطيور الصغيرة، سعيدة الحظ، لأن آباءها، لا يوقدون لها مصباحا فى الليل، وأنها لا تتلقى دروسها اللغوية فى الساعات الأولى من الصباح وبالطبع يجب علينا ألا نأسف، لسبب عدم إلزامهم تعلم اللغة الانجليزية ومع ذلك، لا أستطيع أن أزعم بأن آغور بابو، كان رجلا فظا غليظ القلب. ولم يكن يعلمنا بالعصا كما كان يفعل غيره. ومهما كانت نواعت انفعالاتى، فإن موعده معنا كان فى المساء. وكان موضوع الدرس: اللغة الانجليزيه . وكى ..!

الطائفـــة الجينيـة

إن للجينيين فرقا عـديدة الأساسية منها هى «ديگامبر» و «سويتامبر» و «استانكاواسى». وهناك أيضاً فرق صغيرة محليـــة ويوجد فى جميع هـذه الفرق الدينية اتحاد أساسى. وقد ساهمت الطائفة الجينية مساهمة لا تهان بها فى تراث الهند الثقافى والعقلى وهى تعتبر اليوم من الطبقة العليا اجتماعيا واقتصاديا.

وتوجد لهم فى جميع مراكز التجارة والثروة فى الهند جماعة تشتغل بالتجارة. وقد استوطنوا مناطق الهند الغربية والوسطى والجنوبية. أما فى شرق الهـــند فهم قليلون.

وتلتفت أنظار الأجانب إليهم بسبب ميزتهم الخاصـة فلهم معابد وتماثيل فاخرة ومنحوتات فنونهم جميلة ورهبانهم منهمكون فى طلب العلم وممارسة الورع ولرهبانهم نفوذ عظيم على عامة الجينيين وهذا النفوذ يحثهم على أعمال البر والخير مع الناس، والاجتناب من القتل والذبح لسائر المخلوقات، ويقتصرون على أكل النبات فقط

وأخذ الجينيون بالفلاحة فى شمال الهند ومناطقها المتوسطة، وبالتجـارة فى المناطق الأخرى ويوجد فى رسوماتهم وعاداتهم اختلاف، لأنهم منتشرون فى الهند كلها وقد أخذوا تمهات سلمية بسبب أصول دينهم الهادئة.

إن الجينية مذهب قديم جداً. ويزعمون إن مذهبهم قد اكتمل على يد أربعة وعشرين من العارفين. وظهر العارف الأول «رسابها» فى زمن بعيد جداً. ولا توجد تفاصيله وتفاصيل الذين تبعوه فى التاريخ، إلا أنها تستنبط من الأساطير

الخرافية. ولكنا لما نصل إلى العارف الأخير فحينئذ نتصل بالعهد التاريخى.

وقبل خاتم العرفاء مهاويرا، كان «پارسواناث»، العارف الثالث والعشرين لهم. وقد عاش فى القرن الثامن قبل المسيح. ويعتبر عند الباحثين العصريين كرجل تاريخى ويوجد له أثر ولو تافه فى الكتب العتيقة. فورد أنه كان ابن الملك «اسواسينا» الذى حكم ببارس وكانت «واما» أمـه الملكة وعاش العارف «پارسوا» مثل عامة الناس كرب البيت لمـدة ثلاثين سنة، ثم أخذ بالنسك، وقاسى مقاساة عنيفة فى ذلك.

أما «مهاويرا» فيعتبر العارف الرابع والعشرين ويقع عهد مهاويرا بعـد پارسواناث بمائتى سنة

ولد «مهاويرا» فى قبيلة «ناتا» فى بلدة «كندگرام» على مقربة من «پتنا» فى منطقة بيهـار وكان أبواه من الحكام ولا نجد ذكرا ما عن زواجه يزعم بعضهم أنه عاش منفرداً. ويقـول الآخرون إنه تزوج وكانت له بنت، وترك بيته لما بلغ الثلاثين من عمره وأخذ طريق النسك. فمارس بالعادات الشديدة المضنية على طريقة پارسواناث، وصبر على ما لاقى من الصعوبات من قبل معانديه حتى أنقذه العرفان بسبب تأملاته الدينية العميقة.

والعرفان الذى ناله مهاويرا، كان عاريا من قيود الزمان والمكان. فامتلأ بحياة دينية فائقة، وأخـذ يجول فى الأرض ينشر دعوته — الدعوته للنجـاة من تعاسة الدنيا وكان أساس ديانته وأقدارها الأخلاقية، العناية بـ «الحياة» وشدة إلحاحه على قداسة ذوى الأرواح. وكان يقول إن التعـاسة التى تسربت إلى هيئة الاجتماع، هى سبب الأعمال السيئة التى يرتكبها الفرد، ولا بد من إعدامها للحصول على النجاة.

كان لمهاويرا صلة بالأسرة الحاكمة فى شرق الهند. ولما رأى الناس — وضيعهم ورفيعهم — حياته الراقية، رغبوا فيها واستحسنوها واحترموه لأجلها. وكانت فى دعايته داعية للجميع. وكان اعتقاده بالالاهيات مؤسساً على الحقيقة التى يقبلها العقل السليم. وكان فيه تسامح عقلى فكان سهل القول ويسيرا فى العمل به وتشكلت جماعة من متبعيه مشتملة على الراهبين والراهبات، وأرباب البيوت من الصوفيين وكانت الجماعة متقنة للغاية.

وضرب مهاويرا الأرض لمدة ثلاثين سنة ناشرا دعوته. ولم يمكث خلال هذه المدة الطويلة فى محل واحد لأكثر من بضعة أيام، إلا إذا اضطر إليه بسبب المطر. وتوفى مهاويرا فى «پاوا» من أعمال پتنا وعمره ٧٢ سنة

كان العصر الذى عاش فيه مهاويرا ونشر دعوته عصر جيشان عظيم فى الفكر الهندى، وفى نفس العصر ظهر الدعاة الآخرون كـ «گوسالا»، وبودا وغيرهما. واتبع مهاويرا مذهب المبشر «پارسوا» الذى سبقه. وهكذا لم يضطر إلى أن يذهب من معلم إلى آخر ناشدا الحق. فنشر دين پارسوا ودعى الناس إليه. وترك وراءه فلسفة ممتازة ومذهبا منسقا، كما ترك هيكلا اجتماعياً متقنا مشتملا على الناسكين والمعتقدين بمذهبه وكلهم اتبعوا تعاليمه وقلدوه، واتبعوا تعاليم أصحابه الأقربين.

ولما مات مهاويرا أخذ الرهبان القيادة الدينية فى أيديهم. وحصل للدين اعتناء عظيم من الملوك أمثال سرينيكا بمبى سارا، وچندرگپتا، وكهاراويلا، وغيرهم. وامتدت بالتدريج دائرة نفوذه إلى جنوب الهند وغربها.

وقيل أن «بدرا باهو» أحد أصحاب مهاويرا ارتحل إلى الجنوب مع جماعة من متبعيه. وبعد ذلك تقسم المذهب فى قسمين: ديگامبر وسويتامبر. وكان هناك تناقض فى ما بين الرهبنة منذ زمن قديم ولكن كان ذلك فى مسالك

لتنسك والتقشف — إما زائدة فى العنف أو ناقصة فيه. وتولد التقسيم أولا فى
لزعماء، ثم مس العامة أيضاً. وبقى الفكر الديبى الأساسى على حاله، واختلفوا فى
عتقادات بسيطة، وفى تفاصيل الأساطير، وممارسة التقشف.

إن تنسك الجينيين وورعهم جذب إليهم أنظار الملوك والملكات، والوزراء،
وقادة الجيش، والتجار، والأغنياء. فمالوا إليهم واعتنقوا طريق حياتهم. فمن
لملوك من تمسك بديهم بالولع والاخلاص كملوك جنوب الهند وگجرات. فكان
مود الرهبان عظيم لديهم وفى إبتداء العصور الوسطى حصلت للجينية رعاية
خصوصية من السلاطين أمثال جنجا، وكدمبا، وچالوكيا. ولبعض ملوك
راشتراكوتا الذين أنفسهم كانوا جينيين، حصة بالغة فى الاعتناء بالفنان الجينيين.
دترقت فنونهم اللطيفة تحت رعاية هؤلاء الملوك.

ويحرط فى سلك هذا العصر جماعة من الشعراء النادرين والمصنفين العظام.
تتوحد فى ابتكاراتهم الأدبية براعة العلم. ولهم أهمية عظيمة فى الأدب السنسكريتى،
وبروكريتى، وأپابرمسى، وكنارى، وفى علوم أخرى فرعية كالحساب والنحو.

وبعد سقوط امبراطورية ويجانگر، بقى فى الجنوب حكام صغار من الجينيين
إلى أن ظهرت سلطة الانكليز وترعرعت الجينية تحت عناية التجار الأغنياء فى
گجرات. وحصل لهم رعاية خصوصية من ملوك گجرات، لاسيما رعاية الملك
سدراج والملك كماربلا ورأت الجينية فى دورهما أياما سعيدة. وعظمة الفنون
اللطيفة والأدب الجينى فى گجرات رهينة لها.

وفى عهد كماربا بدأ دور حركة أدبية فى گجرات. فنشأ فى دوره العالم
لشهير هيماكاندرا وعدة من علماء أخر، وهؤلاء هم الذين أوقدوا الحركة الأدبية
فى ابتداء الأمر.

وفى دور حكم المسلمين حصلت لهم العزة والاحترام وأيضاً استخدمهم الملوك

المسلمين فى دعاية الأمن والسلام. وإن كانت هناك معاكسة لهم فى بعض الأقطار، ولكنها على نطاق ضيق جداً.

وخلع الامبراطور أكبر على المعلم الجينى هيراويجيا لقب «معلم الدنيا»، ومنع ذبح الحيوانات أيام عيد الجينيين فى المناطق التى أقامت بها الطائفة الجينية، وكان ذلك بناء على طلب هيراويجيا.

وحصلت العائلات الجينية العليا على نفوذ عظيم فى الديوان الملكى المغولى فى دهلى وأحمدآباد وكان ذلك بسبب علاقاتهم التجارية وثروتهم الطائلة

وفى مناطق راجپوتانه فاز الجينيون بوظائف مهمة فكان منهم قواد الجيوش والوزراء وقد برزت منهم شخصيات عظيمة فى تاريخ راجستان فى عهد رانا پرتاب وتوجد آثار نفوذ الجينيين فى راجپوتانا إلى يومنا هذا، فيسكن فيها عدد كبير من هؤلاء.

واشتغلت بعض أكابر الجينية فى الماليات. فكان مقامهم مقام البنوك الأهلية أيام شركة الانجليز فى الهند. فبذلك حصل لهم نفوذ واسع فى نظام المملكة

تبرع الجينيون فى الفنون اللطيفة الهندية وحيث أن رهبانهم احتاجوا إلى محل السكنى والعبادة، فبنوا عمارات ومعابد فاخرة واستعملت الكهوف والمعابد الجينية للسكنى والعبادة

وقد نحت الكهف «هاتى گمبا» فى منطقة أوريسه فى القرن الثانى قبل المسيح. والكهوف الجينية منتشرة فى مختلف جهات البلاد فتوجد فى مندورا، وبدامى، وتيرا، وايلورا، وكليان گره، وناسك، ومنگى تنگى، وگيرنار، وأودياگيرى، وفى محلات غيرها والجينيون مولعون بتعمير المعابد. والمعبد ضرورى للمجتمع الجينى، كما أن تعميره فرض دينى لديهم، ويعتبر عمل ورع وتقوى.

من أخبار الهنـد الثقافية

إن آثار الفساد التى كانت قـد ظهرت فى الشجر البودى مؤخراً كانت بسبب الحشرات، وقـد عالجها القسم المختص بعلم الحشرات التابع لحكومة بهـار، فعاد هذا الشجر المقدس إلى سيرته الأولى

☆ ☆ ☆ ☆

قـدم المستشار الثقافى للسفارة الايطاليـة البروفيسور ايبوليتو (Ippolito Galante) قصيدة لاتينية عن المهاتما غاندى مصحوبة بترجمتين هندية وسنسكريتية. قـدمها فى احتفال أقيم بدلهى من جانب بلدية دلهى، وقـد نحتت هذه القصيدة تحت التمثال البرونزى للمهاتما غاندى الذى أزاح ستاره الدكتور راجندر برشاد منذ سنين مضت.

☆ ☆ ☆ ☆

يقول تقرير أصدرته وكالة تاس للانباء فى نيو دلهى انه عثر خلال التنقيبات فى «كرغيزيا» فى أواسط آسيا على معبـد بودى يعود تاريخه إلى القرنين السابع والثـامن للميلاد. وهو أول معبد وجد من نوعه حتى الآن فى ذلك الجزء من العالم. وقـد كشف التنقيبات الأخرى التى أجريت فى ذلك المكان عن عـدة تماثيل خزفية لبوذا قائمـة على كبرتين عاليتين فى مدخل المعبد، كما أنه وجـدت قطع صغيرة لتماثيل كبير لبوذا، وكذلك أكتشف مصنع لانتاج التماثيل الخزفيـة لبوذا، وآثار الصور الزخرفية للشجر البودى.

☆ ☆ ☆ ☆

وكشفت التنقيبات عن مكان بالقرب من شرق «بتنا» تدل الأشارات على

أن هذا المكان كان معملا فى القرن الثامن قبل الميلاد حتى السابع عشر للميلاد، ومن بين الأشياء التى عثر عليها فى هذا المكان، بلاطات جامدة، وأوانى خزفية يعود تاريخها إلى القرنين السابع والخامس قبل الميلاد، وكذلك وجد هناك آثار للمبانى الآجرية التى بنيت فى القرن الثانى والخامس للميلاد. ومصنع مصقل لانتاج الأوانى الفخارية والأوانى الزخرفية وزهر عاجى وغيرها من أشياء مختلفة.

٭ ٭ ٭ ٭

وفى التنقيبات التى أجريت فى ملارى، وهى قرية ترتفع عن سطح البحر بـ ١١,٢٥٠ قدم وتقع فى مقاطعة گرهوال، وجد مكان قديم تدفن جثث الموتى ساجدين بشمول الأحجار المنحوتة والأوانى الخزفية لوضع المأكولات وتبدو هذه الآثار الهيكلية قديمة جداً حتى أنها تتكسر بلمس خفيف، وعسى أن تلقى هذه الآثار ضوءاً على تاريخ هذه البلاد خلال القرون المسيحية.

٭ ٭ ٭ ٭

والتنقيبات التى أجريت فى آثار براديش من جانب القسم المختص بالعلوم الأرضية، تلقى ضوءاً على أنواع مختلفة لحرفة الانسان وانتاجه منذ ألف سنة قبل الميلاد. ويظهر من الرسوم التى وجدت على الأوانى بأنها تتعلق بالعهد الآرى القديم وتدل الآثار والأطلال للمبانى التى شيدت فى عهد كوشن (Kushan) فى القرنين الأول والثالث للميلاد، على أن البيوت كانت تبنى بأحسن طريقة ونظام وترتيب بالآجر.

٭ ٭ ٭ ٭

وفى التنقيبات التى اجراها قسم العلوم الأرضية لحكومة الهند فى اجين بمدهيا بهارت، وجدت بعض الحصون التى شيدت فى القرنين السابع والثامن قبل الميلاد، ويبدو أن هذه الحصون كانت لصيانة الأهالى من خسائر الفيضانات فى نهر سپرا (Sipra).

THAQĀFATU'L-HIND
(INDIAN CULTURE)

PUBLISHED QUARTERLY

in

MARCH JUNE, SEPTEMBER and DECEMBER

CONTENTS

	Subjects	Contributors	Page
1	The Aryans in India Rigvedic Civilisation		2
2	Cosmic and Cosmogonic Myths of the Hindus		31
3	Childhood Reminiscences of Rabindranath Tagore	by Anwar Shata	54
4	The Jainas		66
5	Cultural News of India		71

ANNUAL SUBSCRIPTION Inland Rs 8 Abroad Sh 8 **SINGLE COPY** Rs 2

INDIAN COUNCIL FOR CULTURAL RELATIONS
PATAUDI HOUSE, NEW DELHI 1

PRINTED AT Q PRESS BY

KHALEEL SHARAFUDDIN, 29 MUHAMMADALI ROAD, BOMBAY 3 AND PUBLISHED BY
MR I R KHAN
SECRETARY INDIAN COUNCIL FOR CULTURAL RELATIONS PATAUDI HOUSE, NEW DELHI 1

THAQĀFAT'UL-HIND

(INDIAN CULTURE)

A QUARTERLY ORGAN OF
INDIAN COUNCIL FOR CULTURAL RELATIONS
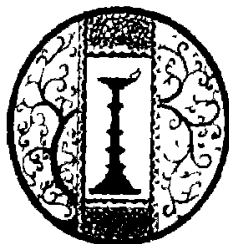
SEPTEMBER 1956

ثقافة الهند

يصــــدرها مجلس الهنــــد للروابط الثقـافيــــة
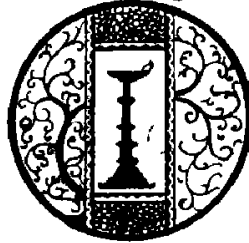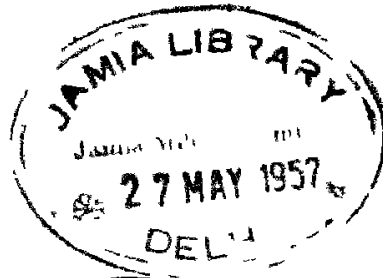
ديسمبر ١٩٥٦

ثقافة الهند

تصدر أربع مرات في السنة مارس، ويونيو، وسبتمبر، وديسمبر

الاشتراك للسنة في الهند ثماني روبيات في الخارج ثماني شلنات

ثمن العدد الواحد روبيتان

تطلب من

مجلس الهند للروابط الثقافية، پتودي هاؤس، دلهي الجديدة نمرة ١

مطبعة «ق» بالهند

لصاحبها خليل شرف الدين، ٢٩ شارع محمد علي، بمباي ٣

طبعت بأمر مجلس الهند للروابط الثقافية

ثقافة الهند

يصدرها مجلس الهند للروابط الثقافية

المجلد السابع — ديسمبر سنة ١٩٥٦ — العدد الرابع

محتويات هذا العدد

			صفحه
١	آثار الاسلام الثقافيه فى الهند		٢
٢	الأغانى الشعبية لطائفة «مايلا»	للاستاذ محى الدين الألوائى	٢٣
٣	مؤتمر يونيسكو المنعقد بدلهى الجديده		٣٧
٤	العلم والديموقراطية والاسلام	تعريب الأستاذ السيد عبد الخالق الندوى	٦٧
٥	المجلس الهندى للروابط الثقافية	للاستاذ إنعام الرحمان خان ، سكرتير المجلس	٩١
٦	من أخبار الهند الثقافية		٩٦
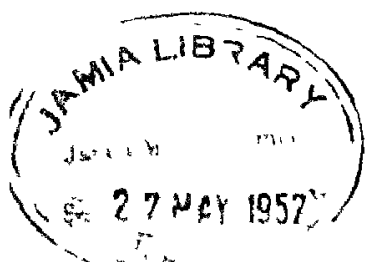
آثار الاسلام الثقافية فى الهنـد

لقد تطورت الحضارة الهندية الحديثة نتيجة أعمال كثير من العناصر والمذاهب وتفاعلها معا بحيث يصعب كثيراً القول لأى مظاهرها كان من جراء أثر بالذات. ولعل أصعبها جميعاً فى التقدير هو الاسلام، إذ أن مختلف غزوات المسلمين فى الهند أتت بأناس قلائل نسبياً من عنصر غريب إلى الهند. وحتى عندما قر رأى «بابر» العظيم واستعد لغزو الهند فى تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٥٢٥، وهو فى كابول، لم يأخذ معه سوى ١٢،٠٠٠ من المحاربين والتجار. فان الأغلبية العظمى من الثمانين مليون مسلم أو أكثر فى القارة الهندية الذين يشكلون اليوم ربع السكان ينحدرون من أصل هندوسى. ويحتفظون بمميزات معينة عامة بالنسبة للهنود كمجموع. ومع ذلك فان المسلمين إذ جاؤا فاتحين وحكاماً وبعثات تبشير قد تركوا فى الهند وخاصة فى الشمال منها أثراً كهذا حتى أنه ليتراءى لكثيرين من الأوربيين والأمريكيين أن طريقة المعيشة وفن البناء فى الهند لا بد وتكون إسلامية.

إن الثقافة الاسلامية فى الهند بجمعها بين حضارتين قد أدت دوراً خاصاً إلى العالم الغربى ولبقية العالم الاسلامى. ولقد كان لعملية الجمع بين حضارتين أهمية خاصة طريفة، وهناك فقرة فى مؤلف السير جون مارشال «تاريخ الهند» تصف جيداً تأثير الثقافتين الاسلامية والهندوسية الواحدة على الأخرى، فيقول: «إن صلة الاسلام الأولى بالهند بدأت فى النصف الثانى من القرن السابع وبداية القرن الثامن من عهد المسيحية عن طريق السند وبلوخستان، فان العرب الذين فتحوا السند وظلوا هناك قد تركوا أثرا مستديما على عادات الناس وطبائعهم. وجاء فيما بعد سيل آخر من المسلمين إلى الهند عن طريق الحدود الشمالية الغربية. وكان عنصرهم

وثقافتهم مختلفا عن الغزاة العرب الذين أتوا إلى الساحل الغربي. فان مثلى مختلف القبائل والسلالات فى آسيا الوسطى الذين استشعروا سحر الاسلام واعتنقوا العقيدة بدأوا بسلسلة طويلة من الغزوات فى الهند. ويتضح على أى حال أن غزوات كالتى جردها تيمورلنك ومحمود الغزنوى لم تكن ليحسب لها أن تؤتى ثمرات ثقافية ملموسة أو لتترك آثاراً كثيرة دائمة لنفوذها. إن هذه الصلات لم تدم طويلا ولم تهيء فرص إقامة علاقات وثيقة بين سكان البلد والزوار غير المرغوب فيهم من الشمال بل بدأت الاتصالات الحقيقية عندما بدأ المسلمون يستوطنون فى البلاد على أنها موطنهم الثانى.

لقد سبقت عدة سلالات من ملوك المسلمين تاسيس امبراطورية المغول فى الهند، ولا شك أنها ساهمت كثيراً فى تطعيم حضارة البلاد القديمة بالثقافة الاسلامية، ولكن المادة المتوفرة ضئيلة جداً لوضع تقدير محدد للنصيب الذى قدمته. ولا بد من حصر الاهتمام بصورة رئيسية بالعهد المغولى الذى كان أكثر ما ساهم فى تنمية الثقافة الهندية — الإسلامية.

إن بعض آثار النفوذ التى أتت إلى الهند عن طريق المسلمين ربما لا تكون من عناصر الاسلام الأساسية عندما نبتت فى الأصل فى شبه الجزيرة العربية، ولكنها أصبحت تقرن بها على مر الأيام إبتداء من زحفها من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد فارس وآسيا الوسطى. وكان لايران من بين هذه البلدان أثر غالب على الاسلام وعن طريقها على الهند. فلقد فتح العرب بلاد فارس، ولكن الحضارة الفارسية تركت أثراً عميقا عليهم حتى أن الآداب واللغة الفارسية أضحت جزءاً ضرورياً من الثقافة الاسلامية فى كثير من الأراضى الشرقية. إن سلالات آسيا الوسطى التى أتت إلى الهند وأسست ممالك فيها قد جاءت متأثرة بالأدب الفارسى قبل أن تصل إلى الهند، وكانت النتيجة أنهم اتخذوا الفارسية لغة

البلاط والأدب. وفى عهد المغول أقبل المسلمون وغير المسلمين على تعلم اللغة الفارسية بشغف. والهندوس بما لديهم من مقدرة فائقة على الاقتباس فى الشؤون الفكرية، استساغوا الأدب الفارسى تماما كما هم مقبلون الآن بشوق على دراسة اللغة الانجليزية وآدابها، وقد أخرجت مناطق الهند الشمالية أمثلة كثيرة لامعة لأساتذة هندوس فى الفارسية تمكنوا من اتقان اللغة فى النثر والشعر على السواء. وقد امتازت طبقتان من الهندوس بصفة خاصة فى هذا الميدان وهما طبقة الكشميريين الملقبين باسم بانديت، وطبقة الكائستا. وقد نشر مؤخراً مؤلف ضخم يتضمن مختارات من الأشعار الفارسية نظمها أساتذة من كشمير.

ولقد كان أفضل أثر لفكرة الاسلام الأخلاقية على المثقفين من الهندوس فى تلك الحقبة من الزمن هو عن طريق الفارسية كواسطة تفاهم تأثرت هى الأخرى بدورها إلى حد كبير باللغة العربية وكتب التعاليم المقدسة التى ظهرت فى عهد الاسلام. والنتيجة العظمى لهذا الأثر النمو التدريجى للاعتقاد المتسع فى وحدانية الله ونمو العقائد التوحيدية المحلية. والنتيجة الثانية البارزة هى خلق لغة محلية جديدة سميت «الأردية» وهى مزيج من الفارسية والهندية والتى أصبحت على مر الزمن أكثر لغة شائعة الاستعمال فى الهند.

لقد كان لهذين النفوذين آثار بعيدة المدى فى الماضى، ولهما إمكانيات هائلة فى المستقبل، ولهذا يتطلبان بحثا مطولا. أما الآثار الأخرى فهى أكثر من أن تسرد بالتفصيل إذ أنها تشمل دائرة بالغة الاتساع. فانت تراها فى طراز المبانى والبيوت وفى الموسيقى، والرسم، والحروف، والفنون، وفى الهندام، والألقاب، والرياضة وبالاختصار فى حياة البلاد بأسرها... وعلينا الاقتناع باشارات عابرة إلى هذه التذكارات من الامتزاج السعيد لثقافتين اختارت ينابيعهما منذ أمد بعيد سلوك طريق مشترك.

فلنلق أولا نظرة على الفكرة الدينية . وأنا لواجدون أغلبـية عظمى من المثقفين فى الهند، وحتى غير المسلمين، يؤمنون باله واحد مبدع الكون وحافظه لا ند ولا شريك له، ومع أن هـذا الاعتقاد موحود فى جميع الأديان العظمى فى الـعالم عـلى الأغلب فى شكل من الأشكال، فلا يمكن الانكار أنه ليس ثمـة عقيـدة أخرى أعطته حقه من التوكيد كما فعل الاسلام . وعلينـا أن ندكر أن أنظمة المعتقـدات السائدة بين الهندوس أبان ظهور المسلمين قد انحرفت بعيداً إلى حـد كبير من نقاء المذاهب الأصلى فى الـكتب المقدسة القديمة، واستفيض عنها بأشكال وثنية مختلفة للعبادة . وقد تبدلت الأمور الآن كثيراً حتى أنه رغم احتفاظ الهندوس المستقيمين حتى اليوم بأوثان فى معابدهم فان نظرتهم إلى عبادة الأوثان تختلف كليــة عما كانت عليه من قبل . فان المتعـلم والواعى منهم يصرح أن الأصنام يقصد منها فقط أن تكون عونا على تركيز الفكر، وأن أولئك الذين يتراءى لهم أنهم يعبدونهـا، هم فى الحقيقة يعبدون الخالق الذى يستحق العبادة وحده . وفى هذه الحالة المتبدلة كثيراً يمكن تتبع أثر الاسلام بسهولة، مع أن أثر المسيحية فى الأزمنة الحديثة كان قوة عظيمة أخرى تعمل ضد الخرافات وعبادة الأوثان . ومما يجدر ذكره أيضا أن قوى برزت داخل الهندوسية نفسها لمقاومة الميل إلى عبادة الأصنام أو الانقيـاد للكهـنة دوى الطرق . فان مؤسسة « آريا سماج » التى أنشأها المرحوم « سوامى دايا نندا سارسواتى » فى البنجاب فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر يمكن ذكرها، عـلى أنها أكبر مثال على خروج الهندوسية على عبادة الأوثان . وهذه الحركة تشير إلى إحياء العقيدة الفيدية القديمة . ومع أنها تتخذ أحيانا موقف المحارب نحو الاسلام كى تقف أمام نفوذه، غير أنه من الجلى أن بعض اصلاحاتها تسير على أسس موازية لتعاليم الاسلام . فهى فضلا عن استنكارها عبادة الأصنام تنكر الـكهنة وتسمح لأتباع الديانات الأخرى باعتناق مذهب « آريه » وتوصى بتزوج الأرامل، الأمور التى لا تبيحها الهندوسية .

وفضلا عن مدلول هذه الأفكار الاسلامية التى أثرت تدريجيا وبصورة غير منظورة على أنواع الفكرة الدينية فى الهند، فان الاسلام كان له تأثير مباشر فى إيجاد نظم العقيدة التوحيدية فى الهند، فالديانة السيخية التى أسسها القديس «كوروناناك» هى مثال بارز لهذا التأثير. فقد آمن هذا القديس بوحدانية الله بنفس القوة التى يؤمن بها أى مسلم ورغب فى تلطيف الخلافات بين الهندوسية والاسلام. وكتاب السيخ المقدس «گرانت صاحب» يحمل شاهداً على أن مؤسس الديانة أحب الله وأحب أقرانه الرجال وخص النبى العربى وآخرين من أئمة المسلمين باحترام عظيم وقد نشر شخص سيخى معروف يدعى سردار «ام راو سنج» فى الآونة الأخيرة كتاباً يدل بوضوح على معتقدات المسلمين والسيخ الأساسية كثيرة الشبه الواحدة إلى الأخرى. وهذا الكتاب هو ترجمة فارسية لمؤلف «سوكانى» وهو جزء من كتاب السيخ المقدس. وكل مقطع فيه ينص بمحبة الله وقد عثر سردار «ام راو سنج» لحسن الحظ على المخطوط الفارسى لهذا الكتاب فى المكتبة الوطنية فى باريس ونسخها. وقد حمل النسخة إلى الهند وتعب كثيرا فى مقارنة الترجمة بالأصل وتحريرها بعناية. ومن سوء الحظ جداً أن السيخ والمسلمين نظراً لقلة احاطتهم التامة وعدم تقديرهم بمعتقدات بعضهم قد ابتعدوا كثيراً الواحد عن الآخر.

وثمة شاعر دينى آخر عظيم يجدر ذكره فى هذا الصدد يسمى «كبير» فكان خير مبشر للحركة المعروفة باسم «بهكتى» فان هذه الحركة كما ذكر أحد الكتاب حديثا لا ترى فرقا بين «رام» ورحيم، وبين الكعبة و«كيلاش»، وبين القرآن و«پوران». وتوصلت إلى أن كارما (العمل الصالح) هى دهارما (الدين). وأن مبشرى هذا المذهب، وهم رامانندا، وكبير، ودادو، ورامداس، وناناك، وشيتانيا، الذين اشتهروا فى مختلف أنحاء الهند وبشروا بمبادىء وحدانية الله كانوا متأثرين

إلى حد كبير بالاسلام. ثم إن «كبير» نفسه كان ابنا لوالدين مسلمين.

اللغة والأدب والفن

إن اللغة الأردية هي برهان آخر على وحدة الثقافتين الاسلامية والهندوسية مع أنه غريب وجود ميل فى بعض الأوساط للنظر إليها كشيء مستورد من الخارج يمكن التخلص منها على أنها لغة أجنبية. وهـذا الرأى الخاطىء هو نتيجة لقلة المعلومات عن منشأ اللغة وأصول تطورها ومما يبعث على السرور أن نلاحظ اعترافا متزايداً بقيمتها حتى فى مناطق تسود فيها لغات إقليمية، والفقرة التالية التى نقتطفها من مقالة كتبها السيد «ايل تشـاندرا بارجى» حول الأدب الهندى ـ الفارسى والمساهمة التى أداها إليه الشاعر الشهير «أمير خسرو» من دلهى تتضمن رأى كاتب هندوسى منصف بالنسبة لمكانة اللغة الأردية فى ثقافة هـذا القطر فيقول: «إن كل انتاج عـلى الأعلى فى الأدب الهـندى ـ الفارسى يشمل عـدداً كبيراً من الكلمات الهـندية الأصل وآلاف كلمات فارسية أصبحت من صلب كل لغة محلية هندية. إن هذا التمازج بين الأفكار والكلمات الفارسية والعربية والتركية مع اللغات والمعتقدات السنسكريتية الأصل شيء ممتع حقا من وجهة النظر الفلسفية، وهذا التناسق غير المعروف ساهم فى أصل اللغة الأردية الجميلة. وتلك اللغة فى حد ذاتها ترمز إلى التوفيق بين أنواع الحضارات المتعادية التى لم يتم توافقها حتى الآن والتى تتمثل فى الهندوسية والاسلام».

وهكذا فان اللغة التى نشأت بجهود المسلمين والهندوسيين مجتمعة تفخر الآن بادب واسع وحافل نوعاً ما، يمكن اعتباره تراثا عاما لكليهما، وهو يكتسب فى كل يوم قوة وأهمية.

إن أدب الأردية غنى فى الشعر، ولا بد من الاعتراف فى أى حال أن الشعر بالأردية محصور إلى حد كبير ضمن نطاقه فى الماضى، وأن الجهود تبذل فى

الآونة الأخيرة فقط لتوسيع ميدانه. فقد كان «الغزل» هو أشهر أبوابه ويتألف من أفكار عابرة شاردة عن مواضيع كهذه مثل الحب والجمال والآداب. وكان كل «بيت» بنفس الوزن ونهايتها متسقة الواحد مع الآخر. وقد وجد هذا الطراز من الكتابة تعلقا كبيرا به بين المسلمين وكذلك الهندوس. وإنك لتجد في قصائد الغزل في دواوين لكثيرين من الأدباء البارزين درراً أدبية تقارن بأفضل انتاج أدبي في لغات أخرى مع أن الجزء الأعظم من هذا النوع من الشعر لا يمكن أن يصح مثالا. ومن ثم أدرك بعض شعراء النصف الثاني من القرن التاسع عشر الذين تفهموا حدود الغزل وعيوبه، الحاجة إلى إصلاح أدبي. وفي دلهي كان الشاعر «غالب» أول من أدرك هذا، ولكن الحظ خالف تلميذه النجيب «حالي» كي يبدأ بالاصلاح. فأنشأ مدرسة جديدة في الأشعار الأردية كان لها أتباع كثيرون بين معاصريه ومن خلفوه. وفي لكناو ابتعد الشاعران العظيمان «انيس» و«دبير» عن الأسلوب العادي في الشعر فكتبا رثاء عن استشهاد الامام حسين. وقد أضاف انيس ودبير ثروة طائلة إلى أدب الأردية وصقلوا اللغة الأردية إلى حد عظيم. ومن الشائق أن نلاحظ أن هذين الشاعرين البارزين لم تكن عظمتهما كشاعرين فقط بل لما أيضا الاثر البديع الذي تركاه من انتاجهما. فقد جعلا من الانشاد فنا كان حتى ذلك الحين تقليدا، ولكنه لم يصل حد الابداع حتى الآن في الهند. وقد اعتاد الهندوس والمسلمون من جميع الطبقات التجمع بأعداد هائلة للاستماع إلى أشعارهما وهذا أدخل الوفاق الثقافي بين الطائفتين ولا تزال حتى الآن متعة. والأثر الملحوظ لهذا النوع من الأدب أن كبار الكتاب الهندوسيين اقتبسوا أسلوب الرثاء لتصوير قصص «الرامايانا» الساحرة فيما يتصل بتضحيات البطل «راما» حين قام بواجبه الورع، وحبه الخالص لأخيه «لكشمن» و«سيتا» زوجته. إن جاوالا برشاد وباندیت بریج نارایان هما بين الكتاب الهندوس الذين أتقنوا استعمال أسلوب الرثاء الذي إبتدعه الشاعران

الكبيران المذكوران . إن هذه الاشارة إلى مدرسة أدب الأردية فى لكناؤ لن تكمل بدون ذكر « فسانه آزاد » وهو من القصص الخيالى الرائع فى الأردية كتبه المرحوم بانديت راتان ناث الذى يحتل مكانة فريدة بين الكتاب الناشرين فى الأردية . فقد أعطى صوراً دقيقة لحياة الغنى والفقير فى لكناؤ . وفى كتابه هذا وكذلك فى كثير من مؤلفاته الأخرى يظهر بوضوح أثر الأدب الاسلامى الذى توسع فى قراءته .

إن التنافس بالأشعار وإلقاء القصائد هو من مظاهر الأدب المعروف لدى المسلمين فى الهند ، وهذه المسابقات فى الأشعار ، وتسمى « مشاعرة » تعقد عادة للحكم على المتفوق فى نظم قصائد الغزل فى قافية معينة . ويلقى الشعراء المشتركون فى المباراة قصائد من نظمهم . وليست العادة المألوفة فى المباريات الشعرية بين الطبقة العليا أن يعلن المجتمعون أو الرئيس من الذى كسب جائزة السبق ، بل أن الجمهور فى معظم الأحوال لا يترك فى شك حول أفضل قصيدة ، إذ يظهر الاتجاه فى الرأى من الأعجاب الذى يبديه عالياً المستمعون أو من تعابير الاستحسان التى يفوه بها من هم فى مركز على إصدار حكم فى معرض إلقاء القصائد . ومع أن هذه المظاهرات الأدبية لا تتميز بالبهرجة التى تمتعت بها فى الأيام الخوالى ، غير أنها لا تزال شائعة نوعا ما ، وغالبا تجمع معا أناسا من مختلف الطبقات والطوائف ممن يستطيعون نسيان خلافاتهم موقتا فى إعجابهم بالأدب العام .

فن البناء

أما فن البناء فكان من فروع الفن دائما أشد ما اجتذب اهتمام المسلمين . وإن رسم الأشخاص والحيوان كان موضع عدم التشجيع على أساس دينى خلال الفترة الأولى من الهداية والتوسع الاسلامى ، ودام ذلك قرونا عديدة فيما بعد . ففى الهند كان بناء المساجد والمقابر والقصور من أعظم مميزات عهود الحكام المسلمين
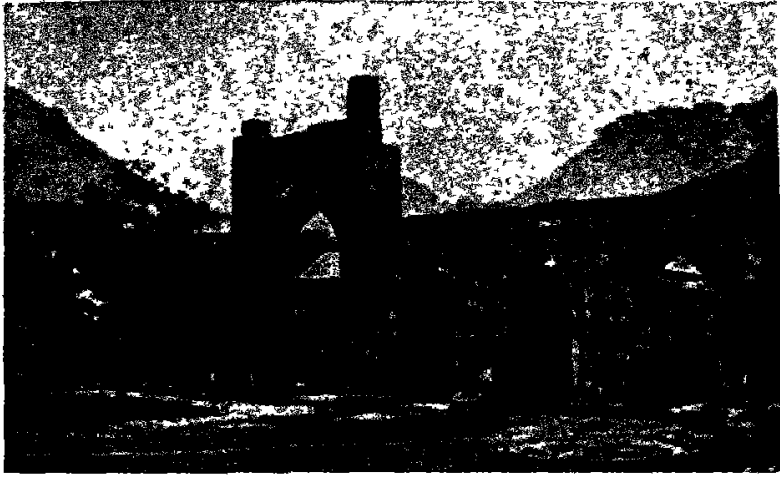
احمير: المسجد الكبير
سنة ١٢٠٠ م.

الأوائل، وهذا فتح آفاقاً واسعة لأولئك الصانين الذين قدموا من أنحاء أخرى فى آسيا، وكذلك لأصحاب الحرف المحليين الذين عملوا تحت إشراف المسلمين وإلهامهم. وقد وجدوا مخرجاً لنبوغهم الفنى فى رسم الأشكال البديعة على الجدران بالأحرف والاجسام وتنمية التناسق والتناسب فى الأبنية، وهكذا أصبحت الأضرحة والمساجد وحيا للفنانين فى كل شكل من الفن. وقد وفدوا من كل جزء من البلاد ليأخذوا صور هذه المبانى وقد نسخت رسوم الأزهار التى زينت جدران هذه المبانى ونقلت للتطريز والمنسوجات. وليس فى الامكان تقدير المدى الهائل لقيمة تلك المبانى التعليمية فى تكوين الأذواق وتنميتها ومستوى فن النحت وصقل ملكة الخيال لدى ملايين الهنود فى جميع أنحاء شمال الهند والبنغال والدكن، إن كان المجتمع الهندى يتجه نحو جعل الانتاج الفنى معتمدا على الرعاية المستمرة من قبل الحكام وكبار الموسرين. وهذه الرعاية تمكن المغول وإلى مدى أقل الحكام المسلمين الأوائل من تهيئتها. فلم يأتوا فقط بأفكار جديدة بل جاؤا أيضا بدافع [illegible] الذى الهند [illegible] من كتاب العصر الجديد أهمية كبيرة فى

مؤلفه « تاريخ إمبراطورية المغول » على نفوذ الأباطرة على ندمائهم ومنهم على الهند بأسرها. وقد عرض « بابر » ذوقا رفيعا فى الرسم، ويقال انه أحضر إلى الهند معه تحفا مختارة من الرسوم التى استطاع جمعها من مكتبة أجداده من سلالة تيمورلنك. وقد نقل بعضها إلى إيران نادرشاه بعد غزوه الهند واحتلاله دلهى، ولكنها طيلة بقائها فى الهند تركت أثراً عظيما وخلقت دافعاً جديداً لفن الرسم فى الهند.

ولكن « بابر » كما نعلم لم يعمر طويلا كى ينفذ مشروعاته لأعمار الهند، وكذلك كان حكم ابنه همايون أيضا غير مستتب نوعا ما وترك لجلال الدين أكبر، حفيد بابر ان يوصل إلى حد الاتقان الولع بالفن الذى ورثه. وبرهن على أنه راعية عظيم للفن فى كل فروعه وروى أبو الفضل وزير أكبر المعروف أن الامبراطور كان له أكثر من مائة مصنع للفنون والحرف ملحقة للقصور الملكية وكل منها كمدينة. وقد كتب السيد عبد العزيز من الكتاب المعاصرين فى مؤلفه عن حكم
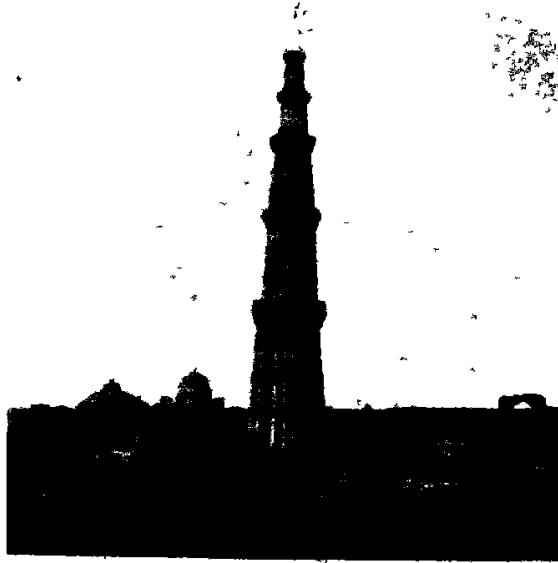
دلهى : قطب منار

الامبراطور أكبر يقول: «لقد بنى مصنعا قرب القصر حيث كان كذلك استوديوهات وعرف خاصة للفنون الأرفع وأكثر شهرة، مثل الرسم والصياغة وصناعات الأقمشة المزركشة والسجاجيد والستائر والأسلحة. وهناك كان يتردد كثيراً ويترك العنان لعقله بمراقبة أعمال الذين يمارسون تلك الفنون».

وقد حذا حذو الامبراطور أكبر فى رعايته للفنون ابنه «جهانگير» الذى كان هو نفسه مولعا بالرسم، وشاهجهان كان أيضا رجل فن فقد شجع اهتمامه الشخصى ندماءه أن يقلدوه، وهكذا تغلغل نفوذهم إلى أولئك الذين كانوا على صلة بهم وكان هذا الميل قويا بصفة خاصة بين النبلاء فى بلاط المغول الذين كانوا بمثابة وكالة تنتقل منهم المثل العليا فى الرسم والآداب والعادات إلى الطبقات الدنيا، فكان الناس على دين ملوكهم فى عاداتهم وطباعهم وأفكارهم وميولهم وأذواقهم كما قال الكاتب عبد العزيز نقلا عن كتاب «الأب مونسيرات».

إن مميزات الرسم وخصائصه تحت رعاية المسلمين خلال عهد المغول كانت موضوعاً لعدة رسائل ومقالات، وقد بحثت قيمتها كعون للتاريخ فى محاضرة ألقاها السير توماس ارنولد أمام جمعية الفنون الملكية ويوجد عدد كبير من النماذج البديعة فى مختلف المتاحف الأوربية وفى المكتب الهندى بلندن والمتحف البريطانى وبودليان فى اكسفورد تحف بديعة نادرة للفن يصعب على العالم العربى اعطاءها حقها من التقدير، البالغ الروعة.

ويتصل فن الرسم اتصالا وثيقا فن تزيين الكتب. وهذا لقى تشجيعا كبيراً تحت تأثير الاسلام فى الهند. فان المسلمين الذين استطاعوا ذلك رغبوا فى زخرفة القرآن الكريم ومخطوطات دينية أخرى أو كتب الأدب القديم بحواشى ذهبية على كل صفحة وتجليد الكتب وزخرفتها بالذهب. وقد اقتبس ذوق اقتناء كتب كهذه الهندوس أيضا. فان الفنانين من كلا الطائفتين وجدوا لذة وربحاً

من تزيين الكتب العربية والفارسية والسنسكريتية .

أما بصدد موضوع المخطوطات اليدوية فيمكن القول أن المسلمين هم الذين أحضروا الورق إلى الهند . وكان هذا مساهمة هامة جداً فى تقدم العلم والمعرفة . ويبدو أن صنع الورق جاء فى الأصل من الصين إلى آسيا الوسطى . وكانت له صناعة هائلة فى سمرقند ومن هناك أتى الورق إلى الهند .
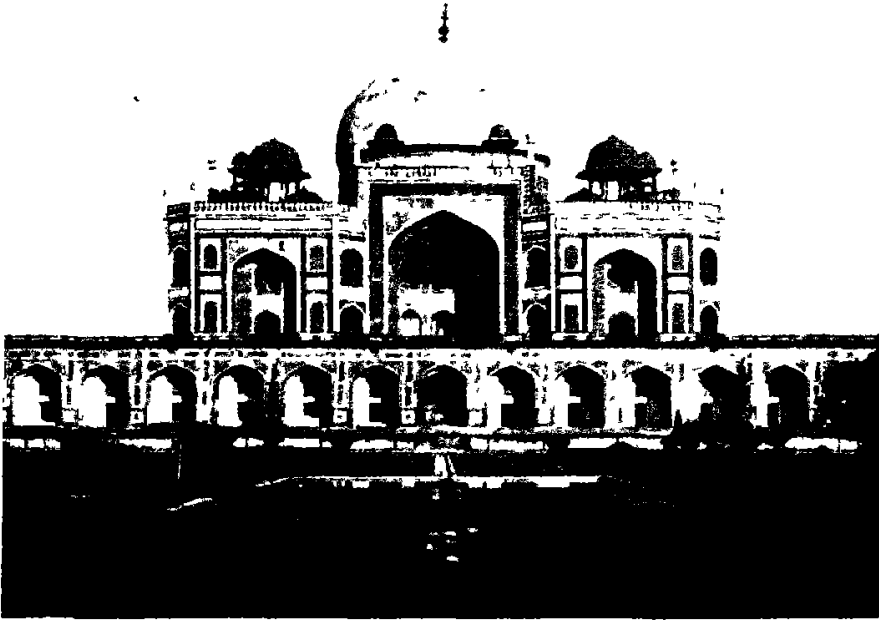
دلهى : مقبرة همايون
سنة ١٥٦٥ م

ويمكننا الآن دراسة القسط الذى ساهم به المسلمون فى فرع آخر من الفن ونعنى به الموسيقى . والموسيقى الهندية كما أشار السيد جعفر فى مؤلفه « تاريخ إمبراطورية المغول » هى مثل فنون رفيعة أخرى برهنت على وجود مسلك جديد من التشابك بين الهندوس والمسلمين . فان عملية التعاون والتمازج لم تكن

شيئاً جديداً فى عهد الامبراطور « أكبر »، إذ بدأت قبل ذلك بقرون. وفى ميدان الموسيقى أصبح ملموساً كيف كانت الطائفتان تقترضان من بعضهما القسط الثمين الذى ملكتاه فى هذا الفن، وبهذا أضافتا الواحدة إلى ثروة الأخرى. فان « الخيال » مثلا الذى ابتدعه سلطان حسين شاه من بلور أصبح جزءاً هاما من موسيقى الهندوس. ومن جهة أخرى دمجت « دروبود » نفسها فى الموسيقى الاسلامية. ويروى لنا أبو الفضل أن الامبراطور « أكبر » كرس عناية فائقة للموسيقى ورعى أولئك الذين مارسوا هذا الفن. والملحوظ أنه وإن كان هذا الفن لم يشجع مثل الرسم فى أول عهد الاسلام، إلا أن اتصال الاسلام بايران أحدث تبدلا فى نظرة المسلمين إليه وعلى الأخص تحت تأثير الصوفية الذين آمنوا بأثر الموسيقى كوسيلة للسمو بالروح وكعون للتقدم الروحى. ولقد أصبح هذا الاتجاه أكثر وضوحا عندما وجد المسلمون الذين استوطنوا الهند أن الهندوس أبناء بلادهم كانوا مغرمين بالموسيقى وأنهم استعملوها فى مراسيمهم الدينية.

وكانت النتيجة أنه رغم استمرار العادة فى المساجد على الأساس الذى درجت عليه دون أى عوامل مساعدة خارجية كالغناء أو العزف على أدوات موسيقية، فان الموسيقى أصبحت أكثر شيوعا بين المسلمين فى الهند. إن ولع الأغنياء بها جعلتها تسلية محببة حتى أنه أضحى من الشائع إقامة حفلات موسيقية فى كافة مناسبات الاحتفال والأعياد. ثم أن إقبال الصوفيين على الموسيقى أوجد عادة إقامة الاحتفالات شبه الدينية والاجتماعات لسماع أغانى المحبة السماوية ينشدها مغنون محترفون. وتعرف طبقة هؤلاء المغنيين باسم « القوّالين » وأطلق على الالحان والأغانى اسم « قوالى » وأصبحت جد شائعة. وهكذا استحدث المسلمون عدداً من الأدوات الموسيقية الجديدة أو أطلقوا على بعضها أسماء فارسية حسب ما تدل أشكالها. والأمثلة على ذلك الرباب والسارود والطوس ودلروبا.
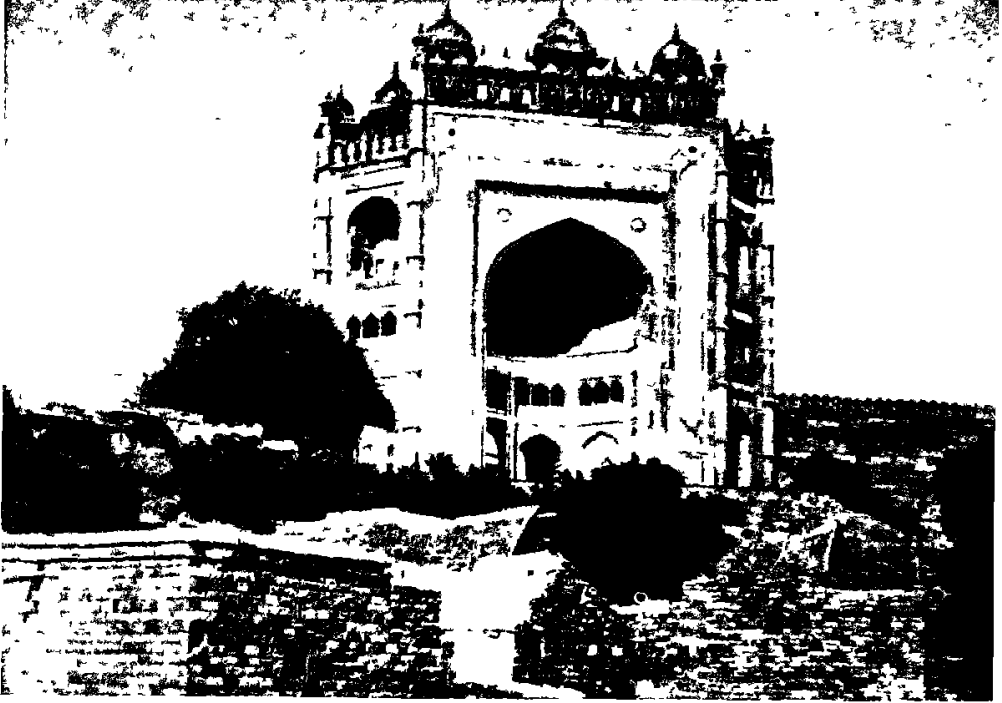
بلىد درواره (الباب العالى) فى فتحپور سيكرى
سنة ١٥٧٥ م

الحــدائق

إن حـدائق المغول فى الجزء الشمالى من الهـد معروفة جيداً فى أوربا كما اشتهرت مبانى المغول . فقـد أدخل العرب قبل ذلك بعدة قرون إلى جنوب أسبانيا فكرة تنظيم الحدائق وإعدادها كمكان يجد فيه المرء راحة وجمالا ومتعة وحماية من حر النهار . واستعمال المياه كان مظهراً ضروريا ليس لرى المزروعات والشجيرات فحسب بل لخلق جو البرودة وفى السهول إيجاد صورة الينابيع الجبلية . وترجع هذه الفكرة ذاتها فى الأصل إلى المغول كما هى بالنسبة للمراكشيين ، ولا شك أن إعادة كشف هذه الحدائق فى شمال الهند كان لها تأثير على إيطاليا وإنجلترا .

وطبيعى أن المغول أحسوا أحساساً عميقاً بالجمال الطبيعى وهزهم نوع من

الحنين فى سهول السحاب الخافة القاحلة قبل أن تحل الأيام التى انتشرت فيها وسائل الرى وتساعد على تلطيف السأم منها. وحدث احيانا أنهم كانوا يذهبون إلى أماكن بعيدة سعيا وراء الجمال الطبيعى متحملين مصاعب جمة ونفقات فى سبيل ذلك، وفى غيرها كانوا يتكبدون حتى مشاق أكثر ونفقات لاحضار جمال الطبيعة إلى أماكن لم تكن موجودة فيها من قبل.

ومن الطريف أن نقرأ فى رسائل كتبها أبو الفضل قصة رحلة الامبراطور «أكبر» من «آگرا» إلى كشمير كى يمتع الطرف بالمناظر الخلابة وجو الوادى الساحر. ويروى لنا أنه اعتاد الذهاب هناك فترة الصيف يرافقه ندماؤه وجنوده وكان من عادته أن يسلك طريقا جديداً فى كل مرة حتى يذهب العمال والحفارون قبله يمهدون الطرق حيث لم توجد سبل من قبل. وسار على هذا المنوال ابنه جهانگير وكان مولعا مثل والده بجمال كشمير. وحديقة شاليمار الشهيرة فى كشمير لا تزال ماثلة للعيان كقطعة من الجمال والمرح الازلى وتساهم فى مسرات آلاف الزوار كل عام وهكذا الحال بحديقة «نشاط» التى تصارعها جمالا. وهكذا كانت الرحلات إلى كشمير أمثلة على ذهاب الملوك المسلمين إلى مواطن الجمال فى الهند بينما كان إنشاء حديقة شاليمار فى لاهور يصور اندفاعهم لاحضار جمال كشمير إلى سهول الهند. والحديقة إلى يومنا هذا هى من أعظم مناظر لاهور، والمراحل التى قسمت إليها الحديقة فى سرى نگر (بكشمير) أمكن ذلك نظراً للموقع الطبيعى للمكان الذى اختيرت له. فقد كان ذلك على حافة جبل، والمياه تتدفق من السفح إلى الحديقة وتشبع تربتها. أما الارتفاع والانخفاض فى موقع فيسهل ان تعير وجودها إلى تصميم الحديقة على مراحل وفى لاهور على أى حال قسمت الحديقة إلى ثلاث مراحل بالوسائل المصطنعة التى أضافت كثيراً إلى صعوبة المهمة. ولم يكن ثمة مياه يتيسر الحصول عليها قرب المكان الذى وقع الاختيار عليه، وهكذا حضر

الماء فى قناة اصطناعية ولكن حتى والحال كذلك فقد أمكن خلق جمال الحديقة فى كشمير وسحرها فى قلب البنجاب. وذكرت بصفة خاصة هذه الحدائق كى اصور أن حب الحدائق الذى أبداه كثير من ملوك المسلمين فى الهند كان له نفوذ ثقافى قيم، وترك أثرا مقيما على ذوق الطبقات الراقية الغنية فى الهند، سواء من الهندوس أو المسلمين. وهذا الذوق كان له دافع آخر بظهور الانجليز الذين لم يتأخروا عن شعوب أخرى فى ولعهم بالحدائق.

وكان الامبراطور جهانگير مهتما بصفة ملحوظة فى فن البستنة، وكان مغرما باكتساب المعرفة وجمع المعلومات حول الأشجار والنبات والأزهار. وكان جزء من لاهور المعروف باسم «بادامى باغ» مليئا بأشجار اللوز التى تمت زراعتها

تاج محل فى آگره
سنة ١٦٣٢ م.
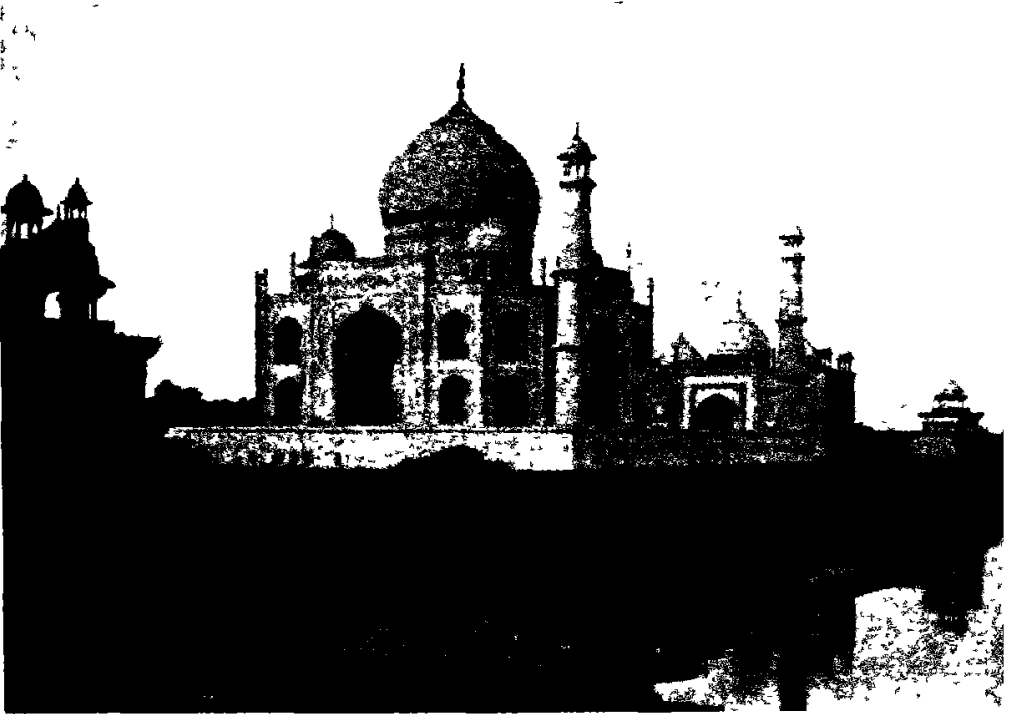
هنـاك . ولقد رأيت فى مجموعة الرسوم الخاصـة كتابا قديما يحتوى على رسوم يدويـة لأوراق الأشجار والشجيرات المثمرة المحليـة وكذلك المستوردة فى عهـد جهانكير، وكما هو معروض ساء على طلبه.

إن جمال حدائق المغول واتساقها وهدوءها بدون شك هزت خيال المؤرخين المعاصرين والمسافرين وكذلك الهنود التى انشئت بينهم. فقد هيأت معتقدا جديدا فى الحياة وأهدافها التى أثرت على الأدب فى الهند وفى أوربا على السواء. وهناك أشعار فى الأدب الهندى الفارسى وكذلك بالأردية، كانت بوحى من الحدائق فى كشمير ولاهور. وقد نظم الشاعر الهندى الشهير «إقبال» واسمه الكامل الدكتور سير محمد إقبال عدة قصائد بديعة بالفارسية استلهمها من زيارته إلى سرى نكر. فقد ارتجلت اميرة مغولية بيتين من الشعر المشهور عند مشاهدتها مطر الشلال الجميل الذى يزين وسط حديقة شاليمار فى لاهور. وكانت ترقب باعجاب لآلىء الماء الذى يتساقط على قطعة من الرخام مما افتعل شلالا، وكانت تصغى إلى الصوت الصادر عن سقوط الماء المصطنع عندما اسعفتها شفاها بما يلى: وهذه ترجمة لا تصور جمال المعنى الأصلى التى قيلت به هذه الكلمات

«أيها الشلال! من الذى تندب عيانه هكذا عاليا..
لم أحنيت رأسك حزنا وكمداً.
كم هو الألم حاداً ألمك طوال الليل
كنت تهب القلق مثلى تلطم رأسك
عرض الصخر وتذرف الدمع بغزارة!»

نظام الادارة

وقد عرضنا حتى الآن مسرات الحياة، ولكن المغول أحضروا كذلك أفكارا جديدة فى الادارة إلى الهند، وكثير منها مثل نظام دخل الأراضى قد دمجت

فى الحكومة المحلية لهذا البلد تحت الحكم البريطانى. ومع أن الكثير من إدارة المغول قد انهار قبل معركة « بلاسى » غير أنه بقيت مبادىء نظام البريد، والمسلمون عبدوا الطرق، وشقوا قنوات الرى، وشجعوا إنشاء الحدائق من مياه الآبار، وملأوا البلاد بسرايات القوافل كما كانت تسمى، وبالطبع سهلوا للهنود والأوربيين السفر فى

موتى مسجد (مسجد لؤلؤ) فى آگره
سنة ١٦٥٣ م

الهند. فأقاموا حكم القانون الذى كان من طرق كثيرة أكثر إنسانية من ذلك الحكم المعاصر المتبع فى أوربا. فان حكم الاعدام الذى كان يفرض للسرقة فى إنجلترة المعاصرة كان يحتفظ به تحت الادارة المغولية فى الهند لجرائم أخطر

بكثير. وهناك دليل كاف يظهر أن البعاليين فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر وجدوا قانون الجرائم الاسلامى أسهل بكثير على الفهم من القانون المنسق الدخيل الذى فرضته المحاكم العليا الانجليزية. وتصف فقرة مأثورة من ماكولى الآثار المدمرة من إدخال النظام الجديد وقد اعترف تماما بفضائل القانون الاسلامى الاداريون المستعمرون فى أفريقيا.

ويتبادر إلى الأذهان سؤال عن كيفية بدء المغول وإلى أى مدى كان مجرد اقتباسهم المراسيم القضائيـــة وطريقة السلوك التى أدهشت كثيرين من الرحالة. ومن ملتون إلى من جاءوا بعده هناك عدد من لا حصر له من الاشارات إلى هـذه الناحية من حضارة المغول. وفى الامكان أن المغول مثل الانجليز الذين أتوا بعدهم اعتقدوا بالأثر السيكولوجى لهذه الأبهة على العقل الشعبى. وربما يكون مثار الشك أن هـذا المظهر المدهش للثروة والسلطان كان فى الواقع يجر إلى أى تطور فى المستقبل، ولا بد أن أقول على أى حال أن لهذه المظاهر سيطرة لا تقاوم عـلى أخيلة الناس، وحتى البلدان التى تزهو بأسمى الحضارات الحديثة لا يمكنها الاستغناء عنه والمظهر الغريب للبلاط فى الهند هو أن الشعراء اعتادوا أن يأتوا ويلقوا القصائد والأقوال فى مدح الحكام الذين يترأسون الحفل واعتادوا أن يكافأوا عـلى ذلك. وهـــذه العادة لم تنس حتى الآن ولا تزال سائدة فى الامارات الهندية، وإلى حد أقل بقيت فى المنطقة البريطانية حيث كانت القصائد تلقى أحيانا تكريما للحكام ونواب الملك. وهذه القصائد لم تكن كلها من الطراز الأول من وجهة النظر الأدبيـــة ولكن هناك أمثلة من القصائد ذات القيمة الأدبية الحقيقية القيمة فى مناسبات كهذه.

المكاتب

ان المكتبات التى وجدت فى الهند نتيجة لحب العلوم لدى الكثيرين من

منظر منزلى : للفنان محمد فقير الله خان
المدرسة المغولية فى القرن السابع عشر

حكام المسلمين كان لها تأثير عظيم على الثقافة الهندية . ولم يكن فقط الملوك والأمراء الذين جمعوا خزائن غنية من الأدب لمتعتهم بل النبلاء من كافة الطبقات تنافسوا فى اقتناء هــذه النفائس ومن بين ملوك المغـول كان همايون شغوفا بكتبـه والمبانى التى ضمت مكاتبه لا تزال ماثلة فى دلهى . ومن إعتابها الضيقـة

سقط همايون وفارق الحياة. ومن بين أمراء المغول كان دارا شكوه أكبر أبناء شاهجهان اميراً أديبا واسع الأفق، وكان مؤلعا كثيراً بالكتب، فترك خلفه مكتبة عظيمة حمد باؤها زمنا طويلا، ولا يزال موقعها يشار إليه بالبنان. إن الدمار الدى اعقب الفترة المريعة لعصيان عام ١٨٥٧ هـ. حرف معظم هذه الحزائن من الأدب. وربما لا تزال دخائر قليلة خاصة من ذلك العهد موحودة لدى بعض الأسر العريقة فى الهند أو فى الامارات الهدية، ولكن آلاف الكتب القيمة ضاعت أو دمرت أو بيعت ثمن بحس من قبل أولئك الدين بهوها. وقد وصل عدد كبير منها إلى الغرب وهى محفوظة لحسن الحظ فى مكتبات أوربا. ومن بينها يمكن العثور على مخطوطات تحمل أختام أو تواقيع الملوك المسلمين والسلاء الدين ملكوها وهى تحمل شهادة صامتة، ولكنها بليغة على ثقافة الأيام الحوالى حين تحمل صبر الانسان مشقة عظمى فى حفظ خير أفكار رجال العلم القدامى للسلف فى وقت لم توجد فيه الوسائل الحديثة لنشر الأدب والاكثار من الكتب

الأغانى الشعبيـــة

لطائفة « مابلا » ـــ مالابار

للاستاذ محى الدين الألوائى

كما لطائفة « مابلا » ـــ مالابار ـــ عادات وطقوس وتقاليد خاصة تمتاز بها عن سائر الطوائف التى هناك تختص بنوع خاص من الأغانى الشعبية التقليدية المعروف باسم: « أغانى مابلا ».

نشأت هذه الأغانى الشعبية فى « مالابار » منذ أن وطئت أقدام المسلمين فيها وساهموا مساهمة فعالة فى شتى مرافق الحياة الشعبية فى طول البلاد وعرضها. وقـــد اخترعوا فى أول الأمر حروفا خاصة للغة السائدة فى تلك الناحية أى « مليالم ». وهذه الحروف تكتب بالحروف العربية بتصرف بسيط فى بعض منها. واشتهرت فيما بعد باسم حروف « عربى ـ مليالم »، وأصبحت منذ ذلك الحين لطائفة « مابلا » لغـة محلية ـــ أو حروف خاصة على أدق تعبير. ومن أهم العوامل التى دعتهم إلى إختراع هـــذه اللغة أو إيجـاد هذه الحروف، هو الاحتفاظ بالنطق الصحيح وبالهيئة الأصلية لبعض الألفاظ العربية والاصطلاحات الشرعية بدون تحريف ولا تبديل، مثل اسم « محمد » و « الرحمن » و « الصلاة » و « الصوم » و « القرآن » لأنه لا توجد فى اللغة المليبارية حروف ح، و ص، و ق، و ض، وغيرها.

والباعث الآخر لاختراع هـذه الحروف هو التسهيل للعرب الوافدين إلى « مالابار » على تعلم اللغة المليبارية ـــ لغة البلاد ـــ بواسطة الحروف المألوفـــة عنـــدهم لأنه يصعب عليهم الالمام بلغة غريبة عنهم كتابة وتحدثا فى آن واحد.

ولذا لجأوا إلى هذه الطريقة السهلة المنال. ولعبت طائفة «مابلا» دورا فعالا في الحياة الاجتماعية في كيراله. بل وكانوا مثلا عليا في هذا الميدان.

وخطر ببالي الآن رأى طريف عن المنشأ الأصلي لكلمة «مابلا»، ولم يساعدني الحظ لذكره في معرض سرد الأقوال المختلفة عن أصل هذه الكلمة في مقال لي في «ثقافة الهند» (عدد سبتمبر ١٩٥٥)، بعنوان «مابلا». وهذا الرأى الذى يؤيده كبار اللغويين في «مليالم» مثل السيديم أبوبكر، و أو — أبو هو أن أصل كلمة «مابلا» يرجع إلى «محفل» أي المجمع لأن المسلمين كانوا أكثر اجتماعيا وأشد تمسكا بالاحتفالات الشعبية وغيرها بالنسبة إلى الطوائف الأخرى في ضواحي مالابار، وكان الأهالي يتوقون الحضور في تلك المحافل تلهف وتلقى فيها أنواع من الأغاني التقليدية وخطب دينية وأدبية وغيرهما. وعلى مر الدهور عرفوا باسم «مابلا» أو «مهپلا» لأنه لا يوجد في اللغة «المليالمية» حرف «ح» — وينطقونه بـ ها — ولا «ف» — ويبدلونه بـ پا.

ولطائفة «مابلا» آداب خاصة كما أن لهم حروفا خاصة. ومن مظاهر تلك الآداب الأغاني الشعبية المعروفة باسم «مابلا پاٹ» أي أغاني مابلا. وهذه الأغاني تمثل غالبا الحياة الاجتماعية والفكرة العقلية والعقائد الدينية لديهم، ولعلنا نستطيع أن نعتبرها مظهرا هاما من مظاهر أفكارهم وعاداتهم الحقيقية. ومن ميزات تلك الأغاني أنها تحتوى على كلمات عربية، وفارسية، وأردية، وتاملية، وسنسكريتية. ولها أوزان وبحور خاصة وأسلوب رائع وتصوير جميل يجذب قلوب السامعين. وفي استطاعة شاعر شعبي من «مابلا» أن يؤثر الجماهير ويثير شعورهم بحسن إلقائه ودقة المعاني. ويخاطب الشاعر قلب السامعين ويستحث أحاسيسهم الكامنة في أعماق قلوبهم من دين وعقيدة وتقليد. ولهم أي لشعرا «مابلا» مواقف نبيلة في ميادين النهوض بالامة والعمل في سبيل رفاهية البلاد

وكتبت معظم الأغانى التقليـــدية لمابلا فى «عربى ـ مليـالم»، وهناك بعض الشعراء يؤلفون قصائدهم ويضعون أغانيهم فى اللغة العربية نفسها، ولكن أوزانها وبحورهـا تختلف عن القواعد المتبعـة فى الشعر العربى بل طبقا لقواعـــد الشعر «المليالى» أو لقواعد خاصة اخترعوها لشعر أو أغانى «عربى ـ مليالم» أخيرا

وليس المراد «بعربى ـ مليالم» اللغة المليالمية الخليطة بألفاظ عربية ولكنها لغـة مستقلة لها خصائصها ومميزاتها وفيها ألفاظ من شتى لغات الهنـد الجنوبية من تامل، و تلـگ، وكنڈا وغيرها، إلى جانب الألفاظ العربية والسنسكريتيـة والأرديـة، والفارسية، كما تقدم. وتعتبر هذه اللغة «عربى ـ مليالم» مظهراً عاما للعصر الذهبى لطائفة المسلمين ـــ مابلا ـــ فى مالابار وكانت لمالابار عـلاقات تجارية واسعة النطاق مع البلاد العربية وسائر دول الشرق الأوسط، وكذلك تكونت هناك ثقافات عديدة وعادات شتى بفضل تلك الحياة المشتركة والتعايش السلمى والاتحاد الثقافى. وأما لغة «عربى ـ مليالم» فهى الغنائم التى اكتسبها مسلمو مالابار من تلك الظروف السانحـة والفرص السعيدة. ثم ربوها واحتفظوا بها فى كل الأدوار التى مرت عليها والأحوال التى أحاطت بها فى مختلف العصور.

واحتفظت طائفة «مابلا» بهذه الأغانى الشعبية والأناشيد التقليدية فى بيوتهم ومعاهدهم وأفراحهم واجتماعاتهم جيلا بعد جيل. واتخذ بعض منهم نظم الأغانى الشعبية وإسماعها فى المحافل، والتغنى بها فى بعض المناسبات حرفة خاصة ووسيلة لكسب العيش. واهتم بعض الناس بتعلم الأغانى الشعبية لمابلا وتعليمها والدعاية لها بشتى الطرق ليكونوا عونا على الاحتفاظ بها من الضياع، وأعتنى آخرون بإقامـة مجالس الشعراء يلتقى فيها الشعراء من طائفـة «مابلا» ويتنافسون فى إلقاء الأناشيد فى شتى المواضيع. وكذلك تقام حفلات شعبية يشرح فيها المترجمون والمفسرون مقاصـــد القصائد الهامة والأنظمة الشعبية لعـامة الناس. والوعاظ

الشعبيون أيضا يلعبون دورا هاما فى نشر هذا التراث الجميل والفن الرائع بين أوساط الشعب لأن هناك ذخيرة ثمينة من الوعظ والارشاد والترهيب والترغيب فى قصائد « مابلا » وأغانيهم

والذى يتضح من كل هذا وذاك أن طائفة « مابلا » جعلوا هذا الفن جزءاً من حياتهم اليومية وكانوا يحتفظون به، ويوسعون فيه، ويذودون عنه، ويغترفون منه ليلا ونهارا، سرا وجهارا، ويصرون عليه إصرارا — ومما هو جدير بالذكر أن الأغانى الشعبية « لمابلا » قد امتد نطاقها فى الوقت الحاضر إلى غيرهم أيضا فبدأت الطوائف الأخرى يصغون الأغانى الشعبية فى طراز أغانى « مابلا » وبحورها. ولكن الفرق الواضح بين هاتين الأغنيتين هو وجود الألفاظ الأجنبية — العربية والفارسية والتاملية — بكثرة فى الأغانى الشعبية الخاصة « لمابلا » بينما تكون الأخرى خالية منها ولكن هذا الفرق الظاهرى لا يؤثر فى شىء من قوة المعانى والاهداف

وأما الذى دعاهم إلى الاكثار من استعمال الألفاظ العربية بطريقة ملحوظة هو أن الأغانى الشعبية « لمابلا » تطرق كل مرفق من مرافق حياة تلك الطائفة المسلمة، وكان هدفها الأول أن تعبر عن طريقة حياتهم الاجتماعية والدينية والثقافية حتى صارت مرآة صافية تنعكس فيها مظاهر حياتهم اليومية ولا غرو فى ورود الكلمات العربية الدينية والاصطلاحات الشرعية، إما لصعوبة ترجمتها إلى لغة غير عربية، أو لضرورة الشعر الذى يكون فى أغلب الأحيان متعلقا بالشؤون الدينية والثقافية أو الاجتماعية التى لا تتجرد كل التجرد من اعتقادات دينية وعادات متبعـــة لدى « مابلا »، مع أن لغة « عربى ـ مليـالم » تكتب بالحروف العربية فهى اللغـــة الأصلية لأغانى مابلا فيسهل على شعرائهم استعمال الكلمات العربية — موضوعيا وشكليا — أكثر من استعمال الكلمات العجمية مثل مليالم، أو السنسكريتيـة، أو التاملية، وغيرها التى تصعب كتابتها بالحروف العربية.

وتختلف أوزان وبحور الأغانى الشعبية لمابلا عن أوزان وبحور لغات « دراوڈاس » المعروفة فى جنوب الهند فى أمرين. أولا فى شكل الأوزان وهيئتها وثانيا فى القابلية الظاهرة فى أوزان « أغانى مابلا » لهضم كلمات اللغات الأخرى بشكل مرموق والآن قد بدأ بعض الشعراء غير « مابلا » يضعون الأغانى ويؤلفون القصائد فى أوزان الأغانى الشعبية « لمابلا » خالية من الكلمات الأجنبية والاصطلاحات الخارجية، وهذا التطور الجديد لا يؤثر فى كثير ولا قليل من اختصاصات الأغانى الشعبية لطائفة مابلا وميزاتها التقليدية جيلا بعد جيل.

و « لمابلا » مالا يزال أغانى خاصة غالبا فى كل المناسبات من الأفراح إلى مناسبة الختان وكذلك فى أيام الأعياد المختلفة وإليكم بعض الأمثلة للأغانى الشعبية لطائفة « مابلا » يغنون بها بالعربية بوزن « ايشا » المألوفة عندهم فى حفلات العرس فى حضور العريس تهنئة له

الله حسبى وهو نعم الوكيل الله ☆ آمنة الزهرية أم خير عروس محمد
أكرم العرس العروس خاتمين طه ☆ أشرف خلق أحمد صلى الله عليه وسلم
سيد الخلق إمام القبلتين طـــه ☆ رحمة خلق أحمد صلى الله عليه وسلم
شفيع الأمة وهو جد الحسنين طه ☆ سهم سقاوة أحمد صلى الله عليه وسلم
رؤوف بنا منير الملوين طــه ☆ سعد سعادة أحمد صلى الله عليه وسلم

والأغنية التالية أيضا يغنون بها مع « التصفيق » فى نفس المناسبة مطلعها

طه طه طه رسول إله سموات بعلاها ☆ فاه فاه فاه نوحى الله شافعنا محمد
حم حم حاميا من حاميه من آمنة بيوى ☆ حم حم حامى حميـة لسيدنا محمد
ربى ربى رب أنلنا روح رياح آمنة بيوى ☆ روح روح روحا ريحانا الخلود على محمد
باهى باهى باهى به الثقلان لست آمنة بيوى ☆ طه طه طه جميع الورى لسيدنا محمد

وأما الأغنية الآتية يحيون بها مقدم العريس إلى منزل العروس وهذه أيضا

يصحبها التصفيق أحيانا.

أنت العليم يايا هادى البرايا أنت العليم بيا
أعطنا الهادى أحيد الزادى بحق طه رسول هادى البرايا أنت العليم بيا
مظهر الأتم ررح الأعم سيدالكونين يا شفيع البرايا أنت العليم بيا
ثبتن لنا تعلما بحق تاج الأنبياء هادى البرايا أنت العليم بيا
واعفرن دنبا واسترن عيبا جاء النبى صلى الله عليه هادى البرايا
أنت العليم بيا

ويقول شاعر «مابلا» فى صدد الوعظ والتذكير بالموت:

«پوتانى من تص پن چور كتّا ٭ پن اپو كاشٹم چمبور كوتا»

معناه: أيها الانسان كنت نطفة فأصبحت علقة وأنت الآن ملىء بالقاذورات!!
فلما ذا الغرور بالدنيا؟ ويصف شاعر آخر منهم موكب العريس إلى منزل العروس يقول

يتمارن بحراس اتاروے ٭ پرشارم اورليلكان ارنعڈے

(ها هو ذا موكب العريس على وشك الوصول والناس يستعدون لاستقباله بشغف وتلهف!)

ارع پل پت ماتر ترمے أرير چماى ترمد ودمے
عرشذے تاحرم پل جم أدكے
أدكپى الكّارم پلے تماشا ٭ آنند كص باتم پتمانيشا

(وأقيمت هناك أنواع من الزينات والاقواس ويصطف الناس على جانبى الطريق، وتجرى أصناف من الألعاب النارية والفكاهية والمغنون يغنون الأناشيد والمطربون يعزفون الموسيقى ابتهاجا بالفرح والسرور)

نيشا كض دنى راگمے پاڈى   ناكا كيل وض تنبرى ريرى

نيا كڈا پڈى تسور أڈى أڈى

أڈ باہم مگ چكرم بهما ترى ٭ آنـد كص پاہم برم لا ترى

(وتضرب الدفوف، وتعرف المزامير، وتطلق الألعاب النارية، وتضاء المشاعل، وتنور المنازل) .

هكذا يصور الشاعر الشعبى فى نسيج أناشيده وخلال أغانيه تقاليد الشعب وعاداتهم وطقوسهم، تصويرا واقعيا كاملا بدون إفراط ولا تفريط. أما «مابلا» مليبار فلهم عادات خاصة وطقوس معينة فى مناسبات الأعياد والاحتفالات الموسمية حيث تمتاز عن سائر الطوائف فى الهند ولكن هذه الطقوس والعادات لا تختلف اختلافا موضوعيا فى جميع الحالات بل فى الأشكال والمظاهر فقط، مثلا فى حفلة الزواج عندهم تخرج بعثة استقبال من منزل العروس إلى منزل العريس، وأحيانا ينشدون أناشيد الفرح ويغنون أغانى الطرب فى طريقهم إلى منزل العريس. وفى منزل العريس تقام حفلة استقبال خاصة تكريما لهذه البعثة وتدار فيها أكواب من الشاى والمرطبات ثم أطباق من التنبول «البان» وعلب السجاير أو الدخان المعروف باسم «بيڑى» وبعد الانتهاء تغادر البعثة مع العريس وأصدقائه وأقربائه إلى منزل العروس فيستقبله والدها وإخوانها وأقاربها بحفاوة وتكريم بالغين. وتتم مراسيم عقد الزواج أغلب الأوقات فى منزل الزوجة، وفى بعض الأحيان فى منزل الزوج أيضا، ويكون عقد القرآن فى بعض الحالات فى المساجد لا فى البيوت.

عند بعض العائلات المحافظة على التقاليد القديمة تجرى احتفالات الزواج بأنواع من مظاهر البهجة والسرور من الأناشيد التقليدية، والأغانى الشعبية، والطبول والموسيقى، والدفوف، والمزامير وغيرها وكذلك لطائفة «مابلا» زى خاص سيما

الطربوش المعروف باسم «مابلا كيپ». فيكون غالبا مصنوعا من القماش الأبيض موشى بشىء الألوان ومزخرفا بالخيوط. وهم يلبسون دائمـا الازار، والقميص الأبيضين ويرتدون رداء طويل أبيض. ومن عادات «مابلا» أيضـا أنهم يحلقـون رؤوسهم فى معظم الأوقات ويقصون لحاهم. ولكن تغيرا شاملا بدأ يدب فى عاداتهم الشكلية، وطقوسهم القديمـة، ومراسيمهم المتبعة فى الأفراح والاعياد والاحتفالات بمقتضى تطورات الزمن وتقلبات العصر الحديث، وهكذا تسير قافلة البشرية قـدما حاملة فى طياتها عادات مختلفـة وطقوسا عديدة وتقاليد شتى!

أثر اللغة العربية فى اللغة المليبارية

مما يستعاد إلى الأذهان أن الروابط التاريخيـة والصلات الثقافية بين العرب و«المليباريين» ترجع إلى عهود قديمـة جدا. وكان التجار العرب يفدون إلى سواحل مليـبار، جماعات وفرادى ويستوطنون هنـاك شهورا وأعواما. وكانوا يساهمون مع الأهالى فى نشاطهم الثقافى، ويشتركون فى تقاليدهم الشعبية وطقوسهم. فمن طبيعة اللغة العربية — بل وكل لغة حية غنية — أن تبث نفوذها وتنشر سيطرتها على سائر اللغات الناشئة الناهضة

وأما اللغة المليبارية، فمن سجيتها أن تقبل الكلمات اللازمـة والاصطلاحات الخاصة من لغات حيـة أخرى ثم تمزجها مع تلك اللغـة مزجا حيث لايعرف منشأها الأصلى ومصدرها الأول إلا الباحث المحقق والغة المليبارية أى «مليالم» لغة مكونة من عدة لغات شقيقة بطريق الأخذ والاقتباس حتى أصبحت لغة حية غنية قائمة بنفسها. وهى الآن إحدى اللغات الهندية التى اعترف بها «الدستور» الهنـدى كلغات إقليمية. ومما هو جـدير بالذكر أن الدستور الهندى قد اعترف باربع عشرة لغة من اللغات الهندية كأنها لغات الهـند المحلية و«الهندية»، هى

اللغة الرسمية للدولة فتحل محل « الانجليزية » فى غضون عشرة أعوام.

وبعد مجيء الاسلام اهتم كثير من دعاة ذلك الدين الحنيف بالدعوة إليه والتبشير به. وتوجهت جماعة من العرب المسلمين الذين تشبعوا بالمبادئ الاسلامية وتبحروا فى التعليم القرآنية إلى السواحل الغربية للهند سيما بلاد « مليبار ». وبدؤا الدعوة إليه بالوعظ والارشاد وغيرهما من الطرق السلمية الأخوية فقط لا أقل ولا أكثر. وبنوا أولا المساجد فالمدارس فى شتى أنحاء البلاد، فأصبحت تلك المساجد والمدارس مراكز التعليم الدينى لطائفة المسلمين. وانتشرت عدة كلمات عربية وإصطلاحات شرعية على ألسنة الأهالى خاصتهم وعامتهم. وبدءوا يستعملون نفس الاصطلاحات الاسلامية فى اللغة المليبارية، إذ لا توجد فيها كلمات مماثلة تؤدى معانى تلك الاصطلاحات ومحتوياتها الخاصة

هذا من الناحية الدينية والثقافية وأما من النواحى السياسية والادارية والعسكرية. فقد كانت الهند يحكمها السلاطين المغول والأتراك. وكانت فيها جيوش أفغانية وإيرانيه لعدة قرون! وكان هؤلاء الحكام يبذلون أقصى الجهود للنهضات الأدبية والفنية إلى جانب النهضات السياسية والأدارية والعسكرية فى طول البلاد وعرضها. وكانت لغتهم الرسمية، الفارسية. وهى مليئة بألفاظ عربية وفى الوقت نفسه كانت اللغة العربية ذات مكانة كبرى لدى هؤلاء الحكام من النواحى الدينية والثقافية. وشاء القدر وساعد الحظ اللغة « المليبارية » أيضا لتعدى ذخائرها بكلمات عديدة واصطلاحات شتى من اللغات الثلاث السائدة العربية، والفارسية، والاردية

وكان ذلك العصر عصرا ذهبيا فى تاريخ اللغة « المليبارية » أيضا وانضم إلى الجيش المغولى والأفغانى والايرانى عدد كبير من الهنود. ومن طبيعة القوانين العسكرية أن تستعمل كلمات واصلاحات سهلة للجميع سواء فى أسماء الرتب

العسكرية والألقاب الحربية. فأصبحت تلك الاسماء العسكرية وألقابها منتشرة فى جيوش المسلمين، متمكنة فى اللغات الهندية. ولا يخفى على أحد له إلمام بالتطورات الحاضرة فى القارة الهندية أن كثيرا من تلك الاصطلاحات لا تزال شائعة وجارية فى الجيش الهندى حتى بعد أن استقلت من النفوذ الأجنبى، وتم تهنيد الجيش الهندى الوطنى، منها: «سپاهى» و «صوبه دار» و «جمعدار» وغيره.

وجاءت عدة تعديلات سياسية واصلاحات إدارية إلى حيز الوجود فى عهود «شيرشاه» و «أكبر» و «جهانگير». وقسموا البلاد إلى «مقاطعات»، والمقاطعات إلى «الأضلاع»، والأضلاع إلى «تعلقات»، لتسهيلات إداريـة. وكلمـة «جلا» فى المليبارية هو الضلع فى اللغة العربيـة. والمراد هنا جزء من «المقاطعـة». وكذلك كلمة «تعلقـة» هى التى مرجع لفظ «تالوك» فى المليبارية بمعنى تعلقه، أى جزء من الضلع. وهذه كلمات شائعة فى اللغة المليبارية كتابة وخطابة على لسان كل من ينطق بتلك اللغة. ومن الكلمات المصطلحـة عليها فى المحاكم المحليـة هناك كلمة «هرجى» فى المليبارية أصلها كلمـة «العرض» العربية. وكذلك «هجور كچيرى» وهى محكمة «الحضور» نفسها. وكلمة «جپتى» فى المليبارية هى «الضبط» العربى. كما أن كلمة «جاميم» هو «الضامن» بالعربية. و «كيفيت» تستعمل فيها وأصلها «كيفية». وكثير من قبيل هذه الكلمات العربية تستعمل فى اللغة المليبارية باعتبار أنها كلمات «مليالمية» أصلية حيث لا ينتبه إلى أصولها العربية إلا شرذمة من فطاحل أدباء تلك اللغـة وعلمائها. وهـذه هى ألفاظ مستعملة فى التصرفات اليومية فى شتى ميادين المعاملات العامة.

ومن الجلى أن بعض الحروف المليبارية لا توجد فى العربية مثل: گ. گہ. ڈ ٹ. ژ. چ، پ، وغيرها. وكذلك لا يوجد فى المليبارية بعض الحروف العربية، مثل: ث، ح، خ، ذ، ز، ص، ض، ط، ظ، ع، غ، ق. فمن هنا

اقتضت الضرورة أن تحدث تعبيرات وتبديلات كلية أو جزئية فى الكلمات الدخيلة حتى تندمج مع أسلوب اللغة ولهجاتها حيث لا يرى لأصلها الآن أثر يذكر.

ومن الكلمات الدخيلة المتأصلة فى اللغة المليبارية « منسپ » وهو رئيس محكمة مدنية، أصلها « المنصف » العربى. فلما تعذرت الصاد، و « الفاء » فى المليبارية تحولت إلى أقرب الحروف المشابهة فيها وانقلبت الصاد إلى « السين » والفاء إلى « پ » وقس على هذا، الكلمات الآتية: « وسيت » أصلها « الوصية ». و « كرار » هو « القرار » بالعربية. و « نكل » هو « النقل »، و « راجى » أصلها « الراضى » و « مهسر » هو « المحضر »، و « كت » هو « الخط » و « رسيد » بمعنى الوصلة هو « الرصيد »، وهلم جرا!

وفى كل قضية يعين كل من المدعى والمدعى عليه « محياما » خاصا له ويدعى بالمليبارية « وكيل » ومهمته « وكالة » (وهما كلمتان عربيتان قلبا وقالبا)، وبعد بدء السماع للقضية سيذهب أحيانا طرفا القضية إلى مكتب المحكمة ليقابلا « ناجر » أو « آمن » أو للحصول على « نكل » لبعض الوثائق. فكلمات ناجر (موظف خاص فى المحكمة) وآمن (كذلك موظف مدنى) و « نكل » هى الناظر، والأمين، والنقل، بالعربية!

وفى بعض القضايا تصدر المحكمة حكما بتعيين « مكتيار » للاشراف على عمارة معينة أو توجه « تاكيد » لطرف واحد فى القضية أو الطرفين فيها أو تصدر حكما « بجپتى » لممتلكات معينة فى بعض الأحوال. (فكلمات مكتيار، وتاكيد، وجپتى، هى المختار، والتأكيد، والضبط، بالعربية).

وإذا تأخر شخص فى أداء « باكى » ضرائبه للحكومة فترسل موظفا خاصا لأجل « وسول » ذلك المبلغ. و « باكى » و « وسول » صورتان للباقى، والحصول

عنـد العرب. ووفقا للقانون الجديد أصدرت حكومـة مالابار (كيرله) مرسوما يصرح بأنه يجب على الناس أن يدفعوا ضرائب «فسلهم» بطريقة «كستى». أما «فسل» فهو الفصل، العربى وكلمـــة «كستى» هى القسط. وفى ناحية شمال مليبار، تستعمل بكثرة كلمتا «تاريك» بمعنى التاريخ، و«فسلا» بمعنى الحكم.

ولفظ «هـاجر» لفظ مليـارى يستعمل «للحصور» سواء فى المكاتب أو المـدارس أو المحاكم. ولا يدرى كثير من الناطقين بهـده اللغة نفسها أن أصله الكلمة العربية «الحاضر» ويقولون حينما يتحـدثون عن رحلة الملوك والأمراء من مكان إلى آخر، كان «أمالمار» يحملونهم فى «پلك» من مكان كذا إلى كذا و«پلك» هو «الفلك»، و«أمالمار» هم «العمال» أو «الحاملون». ومن الكلمات المتداولة بين التجار «كالى» پانا، وكالى، چاك، ومعنى «كالى» الخالى، و«پانا» الصفيحة، و«چاك» الجوالق، والمراد هنا: «الصفيحة والجوالق الخالية» (هذه تجارة منتشرة فى ضواحى مليبار) وفى أيام الصيف يتحـدث الناس دائما عن «كوجا» لملأ الماء البارد وهى نفس «الكوز» باللغة العربية.

وفى معظم أنحاء مليـبار يقولون «چكات» أى «الزكاة» حتى كتبت فى القواميس «المليالميـــة» حول هذه الكلمـة أى «چكات» مامعناه: إن چكات عبارة عن صدقة واجبة لدى المسلمين بمقـــدار معين فى مناسبات خاصة الخ. وكذلك كلمة «كيشه» بمعنى المحفظة أو الحقيبة هى فى الأصل «الكيس» بالعربية. ويقال «چكتان» «للشيطان». ومن الكلمات المؤلوفة لدى العامة، كلمة «كخانة» وهى صورة «للخزانة» العربية، بعـــد اندماجها فى المليـبارية.

وهذه نبذة للآثار الذهبية التى تخلفت من الروابط الودية المستمرة منذ آلاف السنين بين العرب والهند. وهى من مآثر الحكام المسلمين الباقية فى القارة الهندية من عصورها الذهبية تحت حكمهم. الآن وقد مضت الدول وحكامها ولم يبق

منها ومنهم إلا ما قدموه من خدمات فى سبيل الاصلاحات السياسية أو العسكرية أو ما بذلوه من جهد فى سبيل العلم والأدب والفن واللغات.

نرى الآن الماضى البعيد والقريب من خلال لغاتنا وفنوننا التى لم تمتد إليها أيادى حوادث الزمان، وتقلبات الأمور. ولم يستطع طول الأمد أو قدم الزمان أن يحدث شيئا من الدمار أو الخراب فى تراثنا العريق وتاريخ مجدنا العميق

وقد آن الأوان لأن ننبش تلك الحفريات المطوية على خرائب تراثنا الماضى من لغة وفن وأدب وشعر وغيره من الأساطير القديمة والحكايات الشعبية والمنحوتات والمخطوطات التى لم تصل إليها بعد يد التحقيق والتفتيش كما ينبغى. ولا ريب أن ذلك النبش وهذا التحقيق ليكشف الغطاء عن كثير من مخفيات الأمور ومكنوناتها وخفايا الماضى وخباياه فيكون هذا الكشف بدون شك وسيلة لتوثيق الصلات الودية بين الشعوب الشقيقة بعضها بعضا حتى تعيش جنباً بجنب تعايشا سلميا كما كانت تعيش فى الماضى متكاتفة متضامنة متراصة فى سبيل نشر ألوية السلام والأمن على البشرية جمعاء!

قائمة بعض الكلمات « المليارية » من أصل « عربى »

المليارية ·	المراد ·	الأصل	المليارية	المراد :	الأصل :
حلا	District	الضلع	تالوك	Taluke	تعلقه
هرجى	Case	العرض	حيتى	To seize	الضبط
« محور » كچيرى	One court	محكمة الحضور	وكيل	Advocate	الوكيل
حاميم	Guarantee	الضامن	كيپيت	Statement	كيفية
مسپ	Justice	المنصف	وسيت	Testament	الوصية
كرار	To decide	القرار	نكل	Copy	النقل
تاكيد	Alarm	التأكيد	راحى	To settle	الراضى
باكى	Rest-remand	الباقى	باحر	An employee	الناظر
چكتان	Satan	الشيطان	آمن	,,	الأمين
كوحا	Jug	الكوز	مكتيار	,,	المختار
مامول	Custom	المعمول	وسول	Collect	الحصول
فسل	Season	الفصل	كجانه	Treasury	الخزانة
كستى	Instalments	القسط	أمالدار	Workers	العمال
مهسر	Report	المحضر	كالى	Empty	الخالى
كت	Letter	الخط	كيشه	Purse	الكيس
رسيد	Receipt	الرصيد	چكات	Alms	الزكاة
هاحر	Present	الحاضر			

مؤتمر يونيسكو المنعقد بدلهى الجديدة

انعقدت الدورة التاسعة للمؤتمر العام لمنظمة « يونيسكو » فى دلهى الجديدة فى ٥ من شهر نوفمبر سنة ١٩٥٦، وذلك فى القصر الفخم الذى شيد خاصة لمثل هذه المؤتمرات وقد رأس المؤتمر فخامة مولانا أبو الكلام آزاد وزير التعليم والبحوث العلمية فى حكومة الجمهورية الهندية، وافتتحه بخطبة نترجمها فيما يلى.

﴿ خطبة مولانا أبى الكلام آزاد ﴾

أيها الأصدقاء!

إنه لمن دواعى سرورى أن أقوم نيابة عن الهند حكومة وشعبا وأصالة عن نفسى بالترحيب بكم إلى هـذه الدورة التاسعة للمؤتمر العام لمنظمة يونيسكو، ولشد ما يسعدنا أن المنظمة قـد قبلت الدعوة لعقـد هذا المؤتمر فى دلهى، وها هى وفود الدول المختلفة تتوافد على هذه القاعة للاشتراك فى هذا المؤتمر وإنى لأغتنم هذه الفرصة لأوكد لحضراتكم أن عبارات الترحيب التى سقتها إليكم لم تكن على سبيل المجاملة بل أنها صادرة عن شعور صادق عميق.

وكما لا يخفى على حضراتكم إن هـذه الدورة، هى ثانى دورة تعقدها منظمة اليونيسكو فى آسيا. وإن الجلسة الثالثة للمؤتمر العام قـد عقدتها المنظمة فى لبنان عام ١٩٤٨ م. ورغما عن أن هذه الدورة قد صادف انعقادها فى دلهى، ولكنى وطيد الأمل بأن تأثيرها سيعم أرجاء العالم، وأملى أن أرى القارة الآسيوية بأسرها، وعلى الأخص البلدان الشمولة بمنطقة جنوب شرقى آسيا، أشد تجاوبا مع المبادى التى تنافح عنها هذه المنظمة والمشاريع التى تضطلع بها.

وإذا نعود قليلا إلى الماضى لنشاهد ما كان عليه العالم منذ أحقاب، فلا يسعنا إلا أن نسلم بأن تحقيق مؤتمر كهذا كان من الأمر المستحيل. وذلك لأن العالم كما لا يخفى عليكم كان منقسما إلى طبقتين، بل إلى عالمين: الأول العالم الأوروبى بسيادته وتفوقه المزعومين، والثانى عالم المكونين من الدول الآسيوية والأفريقية والواقع أن العالم لم يبدأ بالفكر فى وحدته وعدم تجزئته، أو يعتقد بأن بلدان العالم، شرقية كانت أم غربية فى وسعها ان تتصافر وتتضامن لتحقيق أهداف مشتركة، إلا فى الحقبة الحالية، أى بعد انتهاء الحرب الكونية الثانية. وفى اعتقادى أن دورة كهذه الدورة التى يشرفنى أن أترأسها ما كانت لتتحقق فى فترة قبل الحرب الأخيرة ذلك لأننا فى ذلك الحين كنا فى عداد الشعوب المحكومة المتأخرة، أما اليوم فأننا نساهم فى تلك الأخوة من مجموعة الأمم الحرة المتساوية، وهى التى فى وسعها وحدها أن تحل التفاهم والوئام بين الدول ولا يخطئ أحد منكم أن الآلام والمحن التى تعرضت البشرية قد ذهبت هباء منثورا، فمن ويلاتها قد انبعثت آسيا الناهضة إلى الوجود وفى هذا ما يفسر عقد هذه الاجتماع السامى فى عاصمة آسيوية وهو الاجتماع الذى ضم المندوبين الأوروبيين والأمريكيين وزملائهم الآسيويين والأفريقيين فى حين واحد على قدم المساواة التامة ليتداولوا ويتناقشوا فى المشاكل المشتركة التى تجابه العالم.

وإنى مدرك تمام الادراك الظروف التاريخية التى أدت فى ماضى إلى إقامة اسوار وحواجز بين العالم الغربى والعالم الشرقى، لم تنهار كليا بعد، فآثارها ما زالت قائمة، وهى فى الواقع مصدر حدة التوتر وسوء التفاهم الذى يعانيه العالم. والحقيقة ان القيم والاتجاهات القديمة التى بعثت هذا الانقسام وعززته أخذت تفقد أثرها فى عقول الناس ونفوسهم، وقد اصبح من الجلى الواضح أن هذه القيم ستزول وتتلاشى، ويستعاض عنها بقيم دموقريطية عصرية حقة. كما أن الاستعمار

الذى كان فى وقت من الأوقات شعاراً للعالم القديم اصبح الآن موضع النقد والطعن، حتى أن الذين لا يزالون يمارسون الاستعمار فى شكل من الأشكال، يعتذرون عنه خجلا واستحياء

(١)

وإن الولايات المتحدة الأمريكية قد أسدت خدمتين جليلتين لقضية السلام. فالمعروف أن عصبة الأمم التى أسست على أعقاب الحرب الكونية الأولى جاءت فى الدرجة الأولى استجوابا للمبادئ التى نادى بها الرئيس الراحل ويلسون. ثم أشرف الرئيس روزفلت بعد الحرب العالمية الثانية وبالتعاون مع المستر تشرشل والمارشال ستالين على تأسيس هيئة الأمم المتحدة. وحقيقة الحال أن الرئيس ويلسون كان قد سبق بلاده بأجيال لأن أمريكا فى ذلك الحين كانت تدين بمبادىء العزلة متأثرة بنظرية «مونرو» المعروفة.

وعلى هذا فان الولايات المتحدة الأمريكية لم تبادر إلى الانضمام إلى جمعية الأمم التى آلت زعامتها إلى دولتين مستعمرتينْ هما فرنسا وإيطاليا، وسرعان ما سيطرت عليها سياسة التنافس. وأخالنى لست بحاجة إلى ان أسرد على مسامع هذا الحفل السامى كيف أخذت جمعية الأمم تنكمش تدريجيا، ثم بالتالى آلت إلى الزوال!

ولقد نهجت جمعية الأمم كذلك على سياسة تأليف اللجان والهيآت لمعالجة مختلف الشؤون الاجتماعية والاقتصادية، ولكن اهتمامها تركز فى الدرجة الأولى فى القضايا السياسة، ولقد ادركت هيئة الأمم منذ البداية أنها لن توفق إلى تحقيق أهدافها السياسية إلا إذا أبدت عناية خاصة بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية.

وهذا ما حدا بها إلى تشكيل المنظمات والمؤسسات الخاصة للقيام بما يناط إليها من مهام، ومن أهم هذه المؤسسات منظمة اليونيسكو. وقد أثبت قيام هذه

المنظمة صحة النظرية القائلة بأنه لما كانت الخلافات والمشاحنات تبدأ عادة فى أفكار البشر وعقولهم، فان قوى السلام يجب أن تشيد فى هذه العقول وهذه أيها السادة تلكم المسؤوليات والصلاحيات التى وضعت على كواهل منظمة اليونيسكو.

ولقد خرجت منظمة اليونيسكو إلى حيز الوجود فى الرابع من شهر نوفمبر (تشرين الثانى) عام ١٩٤٦، أى منذ عشرة أعوام على وجه التدقيق، وقد يكون من المناسب أن نستعرض النشاط الذى قامت به خلال هذه الفترة من حياتها على أن نتوخى فى ذلك الاختصار ونكتفى بمعالجة النواحى الهامة من مشاريعها. ولا يخفى عليكم إن بين الأهداف الرئيسية التى تعمل منظمة اليونيسكو تحقيقها، هى إزالة عوامل عدم المساواة بين الأمم بحيث يتسنى للرجال والنساء على السواء أن يعيشوا فى كنف جو من الديمقراطية الحقة. وفى نفس الوقت دأبت هذه المنظمة على النهوض بالشئون التربيوية والعلمية والثقافية سعياً منها لترسيخ مبادى السلام فى عقول البشر.

وتعتبر التربية التعليمية الأساسية من المشاريع الأولية الهامة التى تضطلع بها هذه المؤسسة، وقد تؤشر فى وضعها موضع العمل فى مختلف البلدان تحت إشراف المنظمة وهديها. وهناك إدراك متزايد فى العالم بأن التربية التعليمية لا تقتصر على مجرد تثقيف العقول والأفكار. بل تقوم أيضا على تنمية الشخصية بصورة عامة على أضواء التقدم الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع. والواقع أن توسيع نطاق البرامج القديمة الخاصة بتربية البالغين إنما جاء نتيجة طبيعية للابحاث العلمية والدراسات التى قامت بها هذه المنظمة. ونحن هنا فى الهند قد أخذنا كثيرا من هذه الدراسات واستنبطنا برنامج ذى خمس نقاط للتربية الاجتماعية التى تهدف إلى تعاون الفرد والمجموعة لخدمة الجميع. ولم تقتصر مهمة المنظمة على إدخال هذه الدراسات والشروع بها، بل تعدتها إلى مساعدة بعض الدول المنتمية إليها عن طريق القيام

بالتدريب وتزويدها بالأخصائيين على نطاق دولى.

ولا ينبغى أن ننسى المحاولات التى تقوم بها منظمة اليونيسكو لتأمين إجبارية التعليم الابتدائى المجانى لجميع الأطفال فى جميع بلدان العالم. ولطالما حاولت المنظمة إبراز الحقيقة القائلة بأن التقدم الاقتصادى هو نفسه مهمة من مهام التربية التعليمية الواسعة الانتشار، ولذلك فإنها لم تدخر وسعا لحمل الدول المنتسبة إليها على الأخذ بهذا البرنامج واقتباسه بأسرع وقت ممكن. ومن أهم بنود البرنامج الذى أعد للعامين القادمين هو ما نص عليه من ضرورة تطبيق هذا النوع من التربية فى دول أمريكا اللاتينية بمساعدة مباشرة من جانب المنظمة.

ومن المساعدات الأخرى القيمة التى تقدمها المنظمة، المساعدات الفنية التى قدمتها للبلدان المتخلفة عمرانيا أو البلدان المتأخرة وقد اتضح للمنظمة فى تمهيدها لهذا البرنامج ان لفظى «متخلفة عمرانيا» و «متأخرة» لها معنى مطاط، كما أدركت أن المساعدة ليتسنى لها أن تكون فعالة يجب فى كثير من الحالات أن تأتى من الناحيتين أو الجانبين. ومن دواعى سرورنا نحن الهنود أننا تلقينا مساعدات فنية فى بعض الميادين العلمية والدراسات الفنية كما قمنا بدورنا بتقديم المساعدات لبعض البلدان المحتاجة عن طريق تزويدها بالأخصائيين فى الميادين التربوية والثقافية.

وإلى جانب برامج المساعدات الفنية تقوم المنظمة بمشروع آخر ينحصر فى تزويد البلدان المختلفة بالكتب والمؤلفات الفنية والمدورات، وذلك وفقا لنظام من البطاقات. وقد ساعد هذا على تخطى العقبات التى تفرضها أنظمة النقد على عمليات التبادل فى هذا العصر. ولا يسعنى هنا إلا أن أشير إلى المشاكل الخاصة بالمناطق القاحلة التى نؤشر بدراستها منذ سنوات والتى تعتزم المنظمة أن تحولها إلى مشاريع رئيسية.

ومن الميادين الأخرى التى تساهم بها المنظمـــة، والتى أخذت مساعدتها لها

تزداد بالأهمية، هى العمل على إيجاد تفاهم ثقافى أعم بين مختلف الشعوب والمناطق.
وعندنا من أهم الأسباب التى أدت إلى ما نلمسه فى العالم من توتر وسوء تفاهم
ينحصر فى الجهل والتعصب: فكان الاعتقاد السائد عند الأوربيين منذ قرن
أن الحضارة لا تتعدى أن تكون حضارة غربية، وأن تفوق الغرب فى القوى
العسكرية ينطوى أيضا على تفوقه فى النواحى المعنوية والثقافية، على أن الصدمة
التى أحدثتها الحربان العالميتان، وما أنتاب الاستعمار على أعقابهما من انهيار
تدريجى، قد ساعدت أكثر من ذى قبل على بعث الشعور بالمساواة بين شعوب
العالم، غير أن هذا الشعور بالانتساب إلى إنسانية مشتركة لن يتسنى له ان يتعزز
ويتدعم إلا إذا عملت بلدان العالم على تفهم ثقافة بعضها بعضا واحترام هذه
الثقافة على وجه أعم وأوسع وعندنا أن ما تقوم به منظمة اليونيسكو من شرح
وتفسير الثقافات المختلفة عن طريق ترجمة روائع الأدب، ونشر الألبومات الفنية،
وتسجيل المقطوعات الموسيقية، وتبادل رجال الثقافة بين شعوب العالم، لمن أهم
الوسائل لاحلال تفاهم واسع بين الأمم. ومن دواعى سرورى أن أنقل إلى
مسامعكم بأن المنظمة تعتزم فى المستقبل القريب المضى فى هذا الموضوع على
أعتبار أنه من مشاريعها الرئيسية.

وتحقيقا للغايات التى تنشدها، فان المنظمة شرعت تعنى وتهتم بالطرق والأساليب
المتبعة فى تدريس مادة التاريخ، ويلاحظ أن بعض البلدان تميل إلى تفسير التاريخ
وتعريفه على اعتبار أنه تسمية أخرى تمجيد الأمة لنفسها، ومما يزيد الطين بلة أن
هذا التمجيد الشخصى يتأتى عادة عن طريق انكار خدمات الشعوب والأمم الأخرى
والتقليل من شأنها. ويلاحظ فى بعض الحالات أن يعمد البعض إلى بزر بزور
الحقد والبغضاء للثقافات والبلدان الأخرى. ومن الواضح الجلى أنه ليس من
المستطاع خلق تفكير دولى إذا استمرت عملية تلقين الأطفال فى حداثتهم على تمجيد

قوميتهم وتوطيها على حساب الآخرين. ويلاحظ أن القسم الأعظم من تواريخ الأمم قد انصرف إلى إبراز عوامل الانشقاق والنزاع، كما أن هناك أنحاها لابراز عوامل المنافسة بين الأفراد والشعوب مع تعاضى المبدأ القائل أن التعاون وحده، وليس المنافسة هو الذى مكن البشرية من الاستمرار والحياة. والواقع أن منظمة اليونيسكو منذ قيامها قد نادت بضرورة تعديل تدريس مادة التاريخ، كما بادرت بالفعل للعمل والترويج إلى هذا المبدأ وعندما تفرغ هذه المنظمة من مشروعها الرامى إلى وضع تاريخ علمى ثقافى للبشرية، فتكون قد أدت خدمة جليلة فى سبيل إقامة تفاهم وأخوة أعم وأوسع بين الرجال والنساء فى العالم أجمع.

وعلاوة على ما قامت به المنظمة من دراسات واسعة للتعاون البشرى خلال القرون الماضية فقد أقدمت على تنظيم دراسات لبعض النظريات التى من طبيعتها أن تخلق جوا من التوتر بين الأمم والأفراد ولعمرى إن التحجج أو العنجهية والعنصرية ما زالت حتى اليوم صفحة سوداء تندى جبين الانسان. وقد دأبت منظمة اليونيسكو على مكافحة الكبرياء والعنجهية العنصرية، وتمكنت بفضل الدراسات التى نظمتها فى هذا السبيل من دحض كثير من الخرعبلات العنصرية المنتشرة والقضاء عليها ومما يدعو إلى الأسف أنه رغما عن الادراك المتزايد فى مختلف أنحاء العالم من أن نظرية التفوق أو التأخر العنصرى لا تستند إلى أساس من الحقيقة والصحة، إلا أن التمييز العنصرى ما زال يتوفر ويمارس على نطاق واسع فى بعض البلدان. ومن واجب المنظمة أن تكافح هذه الآفة أينما وجدت، وبكل ما أوتيت من حول وقوة.

وسعياً من منظمة اليونيسكو لاحلال تفاهم أعم وأوسع بين الأمم فقد نظمت دراسات علمية لبعض النظريات الأساسية فى ميدان السياسية والاجتماع. فى عام ١٩٤٧ بادرت المنظمة إلى تنظيم دراسات فى نظرية حقوق الانسان، فساعدت

بذلك على وضع ميثاق عالمى يعترف بحقوق الانسان. ثم ما لبثت أن نظمت دراسات للنظريات الدمقراطية، ولعلها تمكنت لأول مرة أن تجمع فى صعيد واحد رجال الفكر فى العالمين الراسمالى والشيوعى، وتعبئة قرائحهم للبحث عن العوامل الأساسية التى تؤلف الدمقراطية الحقة، ولقد ساعدت هذه وغيرها من الدراسات التى قامت بها المنظمة على تبديد وإزالة كثير من سوء التفاهم القائم، وتحديد الطرق والوسائل التى يمكن معها التعبير عن النظريات والمبادئ المختلفة فى عبارات مشتركة.

وفى وسعى أن أسرد أمثلة كثيرة أخرى على ما قامت وتقوم المنظمة من خدمات ولكنى سأوفر عليكم مشقة الاطناب والاسهاب. وبالرغم عن هذا العرض لنشاط المنظمة قد جاء سريعا ولم يستوف حدوده كاملا. إلا أن فيه ما يثبت أن المنظمة وإن لم تحقق جميع الآمال المعقودة عليها، إلا أن الخدمات التى قدمتها واسدتها لم تكن بالقليلة. ومع أن أهدافها كانت ما زالت سامية عالية، فمن الطبيعى ألا تتمكن من تحقيق جميع المبادى التى تعمل أجلها، ومع أننا لا نستطيع أن نتهادى فخرا واعتدادا، إلا انه إذا أخذنا بعين الاعتبار الصعوبات التى اعترضت سبيل المنظمة من تعصب وريبة وشك. بل وأهم من ذلك كله من قلة ونقص فى الاموال الضرورية، فليس هناك ما يحملنا على أن نبدى عدم ارتياح للنتائج التى حققتها المنظمة حتى الآن.

(٢)

ومن أهم المتناقضات فى عصرنا هذا أنه بينما نرى جميع الأمم تنشد السلام وتسعى له، فان جميع حكومات العالم تقريبا تنفق على الاستعدادات الحربية ما يفوق بكثير ما تنفقه على أغراض السلام، وكما لا يخفى على ان ميزانية منظمة اليونيسكو لا تتعدى عشرة ملايين الدولارات، وإذا قارنا هذا الرقم بآلاف الملايين التى تنفقها دولة واحدة من الدول على أعرا

التسلح، فلا يسع المرئ إلا أن يتساءل، إذا ما كانت موجة من الهوس والجنون الجماعي قد حلت بالعالم أجمع؟ أضف إلى هذا كله أن قسما كبيرا من هذه الميزانية الضئيلة للنظمة ينفق على جهازها الادارى. وإنى أعلم أن إدارة ما لن يتسنى لها أن تنتظم إلا إذا توفر لها من يدير شؤونها، فليس هناك فائدة ترجى من وراء ترداد الحقيقة القائلة بأن ما يبقى بعد حسم النفقات الادارية يكاد أن لا يفى بنفقات المشاريع التى تضطلع بها المنظمة. وطبيعى أنه إذا قدر لنا أن نراقب البحوث فعلينا نجهز أنفسنا بالمطار الضرورى لذلك، على أننا يجب ألا نسمح لأنفسنا بالانهماك بهذا المطار إلى درجة تنسينا مهمة مراقبة البحوث. وقد سبق لى فى عدة مناسبات أن خضت هذا الموضوع وعالجته بإسهاب، ولا أرانى فى حاجة لتكرير ما لاحظته فى هذا الصدد ومهما كان الحال فانى واثق أن أعضاء هذه المنظمة بأسرهم يدركون أهميته، وأنهم بدورهم تواقون لاتخاذ جميع التدابير الضرورية لتخفيض النفقات الادارية التى تتكبدها هذه المنظمة.

والأمر الذى يهمنى الآن لا ينحصر بتلك النسبة من الميزانية التى تنفق على الشؤون الادارية، بل يتركز بالميزانية العالمية التى رصدها العالم لتمكين المنظمة من تحقيق هدفها. وما هو هذا الهدف؟ إنه يتلخص فى استخدام التربية والبحوثات العلمية والنشاط الثقافى لرفع مستوى الفرد فى العالم أجمع. وكذلك تهدف المنظمة إلى تخفيض الفوارق بين الأمم والافراد، الفوارق التى تتجلى للعيان فى هذا العصر الحديث، ولما كان هذا الهدف مشتركا بين جميع الأمم، وتعمل لتحقيقه، فمن واجب هذه الأمم جمعاء أن تساهم فى سد النفقات الضرورية لتحقيق هذا الهدف المشترك. ولكن الذى نلاحظه هو أنه رغم إدراك الأمم شعورها بهذا الواجب المحتم، فهناك القليل من الاجراآت العملية لتحقيق هذا الغرض.

والسبب الرئيسي لهـذا القصور مردة إلى استنفاذ الموارد لاغراض التسلح الناشىء عن التخوف من الحرب، وقدما كانت الأسباب لهذه الحروب ترد إلى عوامل جغرافيـــة واقتصادية. والمعروف أن الحروب فى الماضى كانت تنشب لاعتبارات جغرافية أو أقليمية أو دينية أو عنصرية، وفى بعض الحالات قامت الحروب من أجل تنازع البقاء، وذلك لأن وقوع أى نقص فى موارد التموين والغذاء مع زيادة فى عدد السكان كان يؤدى عادة إلى قيام الأزمات، وقد حمل التاريخ بحوادث تنقلات شعب من بلد إلى آخر سعياً وراء الرزق. أما الحروب التى شبت فى أوروبا فى القرنين الثامن والتاسع عشر فقد شبت لاعتبارات قومية أو لغوية، كما أن بعض الحروب التى قامت خارج القارة الأوروبية ترد إلى الاطماع الاستعمارية للدول الغربية، وسرعان ما انقسم العالم إلى معسكرين: واحد ينعم بالرخاء والثراء والآخر يتردى فى هوة العوز والفقر والصراع الاستعمارى هو الذى أدى إلى قيام الحرب الكونية الأولى.

ويلاحظ أن الأسباب التى أدت إلى نشوب الحروب فى الماضى، قد أصبحت فى عصرنا هـذا بالية عتيقة أما الآن وقـد أحرز العالم هذه المدى من التقدم فى الميادين العلمية والفنية، فليس هناك ما يحول بين أى فرد وتمتعه بالقدر الكافى الذى يضمن له أن يحيى ويعيش عيشة راضية وإذا قدر للعالم أن يحل مشكلة تزايد عدد السكان، وهو الموضوع الذى تلعب فيه التربية دورا هاما، فان أسباب الصراع الاقتصادى بين الأمم والافراد ستؤول إلى الزوال. وعلى النحو لم تعد النظم الاستعمارية بذات بال، ولا تعتبر فى مصاف العوامل الحيوية الهامة. والواقع أنها فى كثير من الأمصار قد ولت إلى غير رجعة، وحتى فى البقاع التى لا تزال هى فى الوجود، فان أيامها قليلة معدودة. وكذلك نظراً للادراك المتزايد فى مختلف أرجاء العالم والاعتراف بمبداء حق تقرير المصير، فان العادة فى الالتجاء

إلى الحرب لاعتبارات أقليمية أو القومية أصبحت من العادات البالية.

ولو ان الانسان كان أكثر تعقلا لكانت الفرصة لأقامة السلام فى الأوان الحاضر أحسن منها من أى وقت مضى، ولكن رغما عن هذا فان العالم اليوم فريسة للتوتر والشكوك والوجل والحقد. هنا لا يسعنى إلا أن أتسائل، ما هى الأسباب الرئيسية لهذه الأوضاع. وأخالكم توافقونى على أن مردها إلى الصراع ما بين المبادىء والمثل. فالصراع القائم اليوم هو صراع فكرى، وليس بمادى. ويقوم الآن فى العالم معسكران: معسكر، للرأسمالية ومعسكر للاشتراكية. وإن هذا الانقسام بين المعسكرين، لا يقوم على أسس قومية فحسب بل يرد إلى حد ما إلى الصراع ما بين المبادى التى تدين بها شعوبها. ويلاحظ أننا نجد فى كل بلد مؤيدين للمعسكر المضاد الأمر الذى يطبع الصراع الحالى بطابع الحرب الدولية والحرب الأهلية على سواء. فلا عجب والحالة هذه أن يؤدى الصراع الحالى إلى كل هذه المرارة فى سائر الجهات. ولما كان هذا الصراع يستمد جذوره من الصراع بين المبادى والمثل، فلا مندوحة لنا من مكافحته بنفس السلاح، أى بالمبادىء. وعلى هذا لا يسع لمنظمة يونيسكو أن تتجاهل هذا الصراع، وعندى أنه من واجب المنظمة أن تضع تسوية لهذا الصراع الفكرى وأن تتقدم باقتراحات الدول العالم تتضمن حلا له. ولا مشاحة أنه الصراع الفكرى من المشاكل القائمة حقيقة، وفى اهماله ما يعرض الانسانية إلى الخطر.

والذى يجب علينا أن نضعه نصب أعيننا فيما يتعلق بهيئة الأمم والهيئات المختلفة المنشئة عنها هو عدم إختيارها لمبادىء أى من المعسكرين. وأن الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتى كليهما قد اشتركتا فى تأسيس منظمة الأمم المتحدة، كما أن منظمة اليونيسكو تضم ممثلين عن الدولتين.

فاذا كانت الحالة كما بينا، فما الذى يدعو إلى استثناء الصين من منظمة الأمم

المتحدة أو اليونيسكو؟ إن هذا الاستثناء لا يقوم على اعتبارات المبادىء والمثل، ذلك لأن الاتحاد السوفياتى، ويوغسلافيا، وكثيرا غيرها من الدول الشيوعية تتمتع بعضوية هيئة الأمم وعضوية اليونيسكو، وعلى هذا فإن استثناء الصين لا يستند إلى منطق وأبعد ما يكون من الفهم والادراك ومع أنى أدرك بأنه ربما كان يجدر لمنظمة اليونيسكو أن تتريث إلى أن تبادر هيئة الأمم إلى اتخاذ قرار فى هذا الشأن، إلا أن هذه القضية واضحة المعالم لدرجة لا تتمكن هيئة الأمم المتحدة معها أن تتلكأ فى منح الصين مقامها اللائق بين مجموعـــة الأمم. وعلى كل حال ان عدم الاعتراف بالصين ليفقد هيئة الأمم طابعها العالمى، لأن استثناء الصين يعنى استثناء ربع البشرية تقريبا من هذه المنظمة

ومهما كانت الاعتراضــات الفنية على ضم الصين إلى منظمة اليونيسكو، فليس هنالك مبرر لاعتراضات فنية كانت أو غيرها على الاقتراح القائل بأن تتولى منظمة اليونيسكو زمام المبادرة لتسوية الصراع الفكرى الذى أدى إلى انقسام العالم إن منظمة اليونيسكو مهتمة معنية فى الدرجة الأولى بالقضايا الناشئة عن صراع المبادى والمثل، وإن دستورها الأساسى يضع على كواهلها مسؤولية تشييد حصون السلام الدفاعية فى عقول البشر. فإنى لأتساءل كيف يتسنى لمنظمة اليونيسكو أن تؤدى المهمة الملقاة على عاتقها إذا لم تعمل لتسوية الصراع الفكرى الذى يهدد سلام العالم وبقاء الجنس البشرى؟ ولعمرى أن هذه هى المهمة الأولى التى يترتب على منظمة اليونيسكو أن تضطلع بها. وكيف لا وهى الوحيدة بين المؤسسات المنبعثة عن هيئة الأمم التى تعنى بمشاكل الفكر والمبادىء.

(٣)

والخطوة الأولى فى سبيل التوصل إلى حل لهـــذه المشكلة تتأتى عن طريق الاعتراف بالحقائق والوقائع. وعلينا أن نعترف بصراحة تامة وعدم تهيب أن

ليس من الممكن محو إزالة معالم أى المثل التى ينافح عنهما كل من المعسكرين. ولا أعتقد أن أحداً فى تمام حواسه وعقله يقول بامكانية حمل أمريكا أو الاتحاد السوفياتى على اعتناق المبادىء التى يدين بها الفريق الآخر. والواقع أن العالم الآن كما عهده فى السالف، لم يشاهد قيام وحدة فى المبادىء والمثل القائمة فيه. فبلدان العالم خلال الاجيال العابرة اعتنقت مبادى ومعتقدات تختلف بعضها عن بعض. فما الذى يمنعنا والحالة هذه أن نقر التباين القائم بين هذه المبادى والمثل بنفس الروح التى اعترفنا فيها باختلاف الأديان والمعتقدات.

إن المجتمع الرأسمالى الحديث قد تطور منذ عصر الثورة الصناعية. وقد تسنى له أن يزيد من قوة الفرد الانتاجيه، إلا أنه اخفق فى ايجاد تسوية لمشاكل التوزيع (Distribution). وقد أدى هذا الاخفاق إلى المناداة بايجاد حلول أخرى وكان قيام المذاهب الاشتراكية الذى جاء نتيجـة طبيعية للمطالب الجديدة. وفى وسع المرء أن يقرر أنه بقدر ما يتصل بأوروبا فان النظم الرأسمالية القديمة قد أصبحت بالية لا تمشى مع العصر. والمعروف أن أوربا الغربية بأسرها تتجه الآن نحو تشديد المراقبه الاجتماعية وسن مشاريع تهدف إلى تأمين المنافع لأكبر عـدد من المجموعة. وأجل، إن المشاريع الفردية ما زالت قائمة إلا انها تعمل وتسير ضمن النطاق والحدود التى تفرضها الدولة:

والولايات المتحدة الأمريكيـة هى البلد الوحيـد الذى شذ عن هذه القاعدة. فالمعروف عن القارة الأمريكية أن الرأسمالية فيها ما زالت تتمتع بامكانيات كبيرة لا ريب أن أمريكا نفسها قد تغيرت وتحولت كثيرا عما كانت عليه خلال المراحل الأولى للراسماليـة التى كانت يقوم على استغلال العمال، إلا أن الذى لا يمكن انكاره هو أن الراسمالية والمشاريع الفردية ما زالت قوية فعالة، ومن القوى الحية هناك، كما أن أغلبـية الأمريكيين يبدون ارتياحاً اقتناعا للنظام الاجتماعى الذى

يعيشون فى كنفه. وقد تسى لأمريكا أن ترفع مستوى المعيشة بين سواد الشعب إلى حد كبير، كما أمنت وسائل الرفاهية والراحة لكافة طبقات السكان.

فاذا كانت الرأسمالية الامريكية قوية، نشطة، ناجحة، وليست هناك رغبة أو أمل فى تبديلها، فلواحد أن يقول نفس الشيء فى شأن النظام السوفيتى. فالشعب الروسى قد واجه مشاكل وأزمات لم يجد لها حلا إلا عن طريق الأخذ بالمبادىء الاشتراكية. والذى يجب إلا يغرب عن البال أن الشعب الروسى خلال العهد القيصرى لم تتح له الفرصة لاختبار النظم الدمقراطية والتدرب عليها، وكان الاقتراع والتصويت غريبا عنهم، كما أن المطالبة بالحقوق السياسية والحريات العامة كانت تعرض أصحابها لاضطهاد البوليس السرى. ولذلك لم يصعب على الشعب الروسى خلو النظام السوفيتى من الدمقراطية السياسة بأمر ذى بال بالنسبة إليه، لأن الدمقراطية الاجتماعية والسياسية التى طبقها الاتحاد السوفياتى شحذت آمالا لهم وثقتهم، ومن ناحية أخرى فان وطنيتهم أو شعورهم القومى قد عزز ولائهم للنظام السوفياتى، ذلك لأن الحروب الداخلية التى اندلعت نيرانها بعد قيام الثورة الروسية سرعان ما أدت إلى التدخل الأجنبى، وأصبح أفراد الشعب ينظرون إلى المناوئين للثورة على أنهم يعملون لصالح الدول الأجنبية. وعلى ما يبدو فان التقدم الذى أحرزه الاتحاد السوفياتى خلال أربعين عاما الاخيرة قد عزز فى الشعب الروسى الاعتقاد بامكانية تحقيق أكبر مدى من التقدم عن طريق النهج على النظم الاشتراكية، وقد يكون هناك، ولا شك، تباين وانحراف فى آراء الافراد والمجموعات، ولكن الظاهر أن الشعب الروسى وشعوب دول أوربا الشرقية قد أقرت مع مرور الأيام النظام الاشتراكى وتبنته بنفس القوة والثقة التى تبنت بها أمريكا، وأقرت النظام الرأسمالى والمشاريع الفردية الحرة.

وقد سبق لى أن بينت أنه نظراً لأن الصراع بين النظامين يقوم على اعتبارات

المبادىء فان من واجب منظمة اليونيسكو ومن مسؤوليتها أن تحاول ايجاد حل لهذا الصراع وأن هذا الحل يجب أن يقوم بادى ذى بدء على مستوى فكرى ثقافى، وعلى أساس الاعتراف بالحقيقة الواقعة بأن هنالك هذين النظامين، ولا مندوحة لها من البقاء، وعلينا أن فى نفس الوقت نسلم أن من حق كل من النظامين أن يعمل للترويج إلى مبادئه على شرط أن يأتى هذا الترويج على وجه سلمى منظم. إن منظمة اليونيسكو تدين وتعترف بحرية الرأى على أكمل وجه، كما أن مطالبة الفريقين لهذه الحرية وتطبيقها تتمشى مع روح هذه المنظمة. وفى حين أن من حق كل من هذين النظامين أن يعبر عن وجهة نظره وآرائه بحرية كاملة، ليس لأى منهما من حق أن يعمد إلى الوسائل الهدامة العنيفة أننا جميعا نعترف من حيث المبدأ بحق أى شعب من شعوب العالم تقرير مصيره، والنتيجة الطبيعة لهذا الاعتراف هى أن من حق كل أمة أن تتخذ النظام الاجتماعى أو السياسى الذى يروق لها، وأن أمة ما لا تملك أى حق لفرض إرادتها على الآخرين. وإذا ما قدر لدول العالم أن تعترف بهذا المبدأ دون تحفظ باطنى يتسنى لها أن تبدى تسامحا تجاه الآخرين، بل أنها ستعاون أيضا معهم فى مختلف النواحى والميادين.

ولقد تحدثت مع الأصدقاء من المعسكرين، ومع أنهم لا يتشككون بصحة ما أبديته من الملاحظات، إلا أن لمست فى نفوسهم تخوفا من أن الفريق الآخر عمد أو قد يعمد إلى النشاط الهدام، وإذا ما اعترفت الأمم بحق حرية البحث والمناقشة على مستوى المبادىء والأفكار ففى هذا ما يساعد على إزالة كثير من أسباب الخوف وسوء التفاهم. وإذا ما عرضت المشاكل للبحث والمناقشة العلمية الصريحة فسيقضى هذا على السبب من الأسباب الرئيسية التى تستوجب القيام بالنشاط الهدام والعمل فى الخفاء. وإذا ما انحرف أى من الفريقين عن هذا

المبدأ، وحاول استخدام الوسائل الهدامة الخفية، فمن الواجب أن تحال القضية إلى هيئة الأمم المتحدة. وعندى أن هيئة الأمم فى مثل هذه الحالات تملك السلطة والصلاحية لاتخاذ التدابير القمعية ضد أى الفريقين من نقض الاتفاق المشترك الذى ينص على بحث الخلافات ومناقشتها بحرية وصراحة تامة.

وفى الماضى استندت الدول على تشككها فى نوايا الاتحاد السوفياتى على قيام الحركة الدولية الشيوعية تحت «الكومنترن» (Comintern). كما أنه كان يعلن خلال المراحل الأولى من قيام النظام السوفياتى بأن الحزب الشيوعى سيعمل من أجل أشعال ثورة عالمية. وكان تروتسكى يعتقد قيام مثل هذه الثورة فى ألمانيا وغيرها من البلدان. وعلى أن الساسة الروس وعلى الأخص ستالين أخذوا تدريجيا يتحدثون عن اقامة نظام اشتراكى فى قطر واحد. وعندما تم التحالف بين المملكة المتحدة وأمريكا والروسيا خلال الحرب الكونية الأخيرة، بادر الاتحاد السوفياتى إلى حل الكومنترن وتصفيته. ويستعاد إلى الاذهان بهذه المناسبة أن ستالين فى نهاية الحرب قد حث الحزب الشيوعى الصينى على التعاون مع «المارشال شان كاى شك». وقد أخذ الشعور يتزايد فيما بعد بأن أفضل خدمة تسديها روسيا إلى قضية الشيوعية تتأتى عن طريق إثبات فائدة النظام الاشتراكى فى تأمين اعلى مستوى من المعيشة لسكانها، وبعد وفاة ستالين ذهب زعماء الاتحاد السوفياتى إلى أبعد من ذلك عندما أعربوا عن اعتقادهم بضرورة عدم التدخل فى الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى.

ولننتقل الآن إلى بحث التطورات الجديدة التى طرأت على الاتحاد السوفياتى خلال العامين أو الثلاثة الاخيرة. والواقع أن تطورات عظيمة، قد وقعت فى هذه الاثناء، من شأنها أن يحيى الآمال بأمكانية إيجاد حل سلمى للصراع الفكرى القائم بين المعسكرين، وكان مؤيدو النظام الديموقراطى الغربى فى الماضى يشكون

من انعدام حرية البحث والمناقشة فى الاتحاد السوفياتى. ومن أن الزعامة هى التى تفرض آرائها وإرادتها من فوق. كما بين هؤلاء أيضا أن هذه الأوضاع لا تنطبق على أنباء الاتحاد السوفياتى فحسب، بل على النظم السياسة القائمة فى البلدان الأخرى، ولاريب أن هذه الادعات تنطوى على شىء من الصحة، فالمعروف أن خلافا قد شب بين الاتحاد السوفياتى ويوغسلافيا خلال عهد ستالين حول حق يوغسلافيا فى اختيار النهج الاشتراكى الذى يلائمها. فقد أعلن المارشال تيتو حينئذ أنه ليس من الضرورى لبلاده أن تسير على نفس النظم التى اتبعتها روسيا، وأن من حق يوغسلافيا أن تستنبط ذلك النظام الاشتراكى الذى يناسب حاجياتها. على أن ستالين لم يسلم بهذه النظرية، فكان ما نعرف من تعرض يوغسلافيا عدة من السنين لنقد البلاد السوفياتية وعدائها. أما الآن فقد وقع تحول ظاهر وقرأنا أن الزعماء الروس قد اعترفوا بصراحة خلال مؤتمر الحزب الشيوعى الأخير بأن النظم الاشتراكية قد تأخذ ألوانا ونماذج مختلفة، كما أننا نلاحظ أن الخلاف الذى كان قائما بين يوغسلافيا والاتحاد السوفياتى قد تمت تسويته.

ولقد لاحظت العقول النيرة التقدمية فى العالم مع الأسف أن النظم الاشتراكية التى استنبطها الاتحاد السوفياتى قامت فى الماضى على أساس تقييد أسس الحياة وكبت حرية الأفراد. ولا شك إن هذا يعود فى الدرجة الأولى إلى عدم توفر الخبرة والمران سابقاً للشعب الروسى فى الديموقراطية السياسة والحقوق المدنية. وجدير بنا أن نهنئ الساسة الروس على ما يحاولونه الآن من تحرير النظام الحكومى. والواقع إن الاتحاد السوفياتى قد خطى خطوات بعيدة فى سبيل اقامة دعائم الديموقراطية الصناعية والاقتصادية فى البلاد. وإنه اليوم عظيم فى تأريخ الاتحاد السوفياتى والعالم أجمع عندما توفق روسيا، علاوة

على كل ما حققته، إلى تحقيق الدموقراطيـة السياسية وحرية الأفراد فى بلادها . وإنى أشعر أن الاتحاد السوفياتى قد خطى خطوة واقعية لتحقيق هدا الهدف. ومن واحب الرأى العام العالمى أن يرحب بهذ االتحول، ويعمل على تشجيعه نشتى الوسائل والطرق. ومن واحب البشرية أن تحجم عن التعبير عن أى شيء من شأنه أن يعرقل سير هده العملية إلى اقامة الحرية والأساليب الدموقراطية .

وإدا ما قدر للنطامين أن يعـترفا ويسلما نصرورة التعايش إلى جانب نعضهما بعضا، والبهج على سياسة التسامح فان هدا يؤدى إلى زيادة التفاهم بيهما واحترام نعصهما نعصا وإدا ما زالت أسباب الريبة والحقد، فى وسع كل من النطامين أن يستفيد من إختبارات الآخر وتجاربه، وأن فى تعارفهما لما يريد إلى تقارب أوثق بين النطامين. وكما سبق لى أن أوضحت فان أحدا من النطامين لم يكتب له أن يزول. ومع أن الخلافات بينهما سيبقى قائمة إلا أن هده الخلافات ستنحصر فى الوسائل والأساليب، ولا فى القيم الثقـافية أو الانسانية التى ستصبح واحدة تدريجيا للبشرية أجمع

ومن المهام الخاصة الملقاة على عواتق المنطمة أن تعمل لاحلال التفاهم، والتقدير المشترك لكل من النطامين اللدين يتنازعان ولاء العالم. وإن المنظمة فى عملها من أجل تحقيق هدا التفاهم والتسامح لتجد طريقهـا نحو الأهداف العاجلة التى تصبو إليها. وإدا قدر للمخاوف من الحرب أن تقل وتتضائل، وإدا ما أزيلت أسباب التشكك والحقد فان المبالغ الجسيمة التى ترصد حاليا على أغراض التسلح ستستخدم للأغراض الانشائية التى تنافح عنهـا هده المنطمة والواقع أن المنطمة لن تنجح برامجها العالمية التى ترمى إلى تحسين مستوى المعيشة والصحة والتعلم إلا إدا تحرر العالم من المخاوف الدائمة من الحروب، وما تنجم عنها آفات وويلات .

وقد وافتنا البرقيات بعد الانتهاء من إعداد هذا الخطاب بأنباء الاصطرابات المفاجئة التي وقعت في منطقة الشرق الأوسط. ولا يسعني لما تنطوي عليه هذه المسأساة من معان خلقية خطيرة إلا أن أتناولها بالاشارة. وقد سبق لي أن بينت منذ لحظة في شيء من الأمل أن الأسباب التي كانت في الماضي تدعو إلى شن الحروب، والتي تنحصر في الاعتبارات الاقليمية والدينية والقومية قد أصبحت في عصرنا الحديث هذا بالية غير مألوفة. وأنه لمن دواعي أسفي وحزني العميقين أن أضطر إلى الاعتراف بأن الأمل الذي عللت به نفسي قد أخفق. والآن دلت الأحداث التي وقعت في مصر منذ أيام على أننا ما زلنا فرائس للاساليب العتيقة والدبلوماسية البالية، وأننا ما زلنا بعيدين عن تحقيق أحلامنا أجل، إننا في منظمة اليونيسكو ليس من مهمتنا أن نعنى بمثل هذه القضايا السياسية، ولكننا في نفس الوقت لا نستطيع أن نتغاضى عما لهذه القضايا من تأثير في ميدان التفاهم الدولي الذي نعمل من أجله. وإني لأرجو من حضراتكم بكل تواضع أن تبادروا معي للنظر في هذه الأحداث ودرسها بعين من الجد والتجرد، لقد اجتاحت القوات الاسرائيلية الحدود المصرية لمهاجمة مصر بينما قامت بريطانيا وفرنسا بتوجيه انذار إلى مصر ثم ما لبثت قاذفاتها أن أخذت تهاجم القاهرة. واسمحوا لي أيها السادة هنا أن أسألكم، ترى أين تقف هيئة الأمم المتحدة من هذه الصورة القاتمة؟ وإنني لا أستطيع أن أتصور كيف أن دولتين عظيمتين كبريطانيا وفرنسا، وهما من الدول المؤسسة لمنظمة الأمم المتحدة، تقدمان على مثل هذا العمل ضد مصر، كأن منظمة الأمم المتحدة أو مجلس الأمن، ليسا في عالم الوجود! وتصوروا أيها السادة أن المقترحات المعقولة السليمة التي قدمتها أمريكا، والتي من شأنها أن تساعد على إيجاد مخرج من هذا المأزق، قد هزمت بفضل استعمال حق الفيتو صدها، الأمر الذي يحمل المرء على الاعتقاد المؤسف من أن حياة السلام العالمي والمحافظة على مستقبل البشرية في هذا

العصر، هي أقل في الأهمية من خدمة المصالح القومية الضيقة والمصالح التجارية.

وإذا أفكر مليا في هـــذا الموضوع فلا يسعني أن أتساءل ترى ما معنى كل هذا بالنسبة إلى الأعمال التي تنهض بها هذه المنظمة؟ ومن دواعي الأسف أن النتيجة التي يمكنـا أن نخرج بها بعد كل هذا التفكير، هي أن المنظمة لم توفق بعد إلى تهيئة العقلية السلمية أو توفير الاحترام الضروري للسلام، وهي العوامل التي لا مندوحة لمنظمة عن تهيئتها وإعدادها، إذا قدر لنا أن نتفادى ما يهددنا من جراء تقدم العالم في الميادين الفنية والعلمية من أخطار هذا التقدم الفني والعلمي الذي يعتبر بمثابة السيف المسلط عـلى رقابنا فلا مندوحة لنا، والحالة هذه، إلا أن نضـاعف من جهودنا في سبيل بناء تحصينات السلام، وغرس مبادئه في عقول البشر وتفكيرهم. ولعمري فهذه هي عين الأهداف الأساسية التي قامت هذه المؤسسة الجليـلة من أجلها. وإني أرى لزاما على هذه المنظمـة حتى في أوقات الشدة أن تتحول إلى ما يشبه ضمير العالم الحي أو تحقق وتتلاشى كقوة ديناميته حية تعمل الخير البشرية

﴿ الخطاب الختامي لمولانا أبي الكلام آزاد ﴾

وهذه هي ترجمة الخطـاب الذي ألقاه رئيس المؤتمر مولانا أبو الكلام آزاد عند نهاية جلسات المؤتمر

أرى من واجبي اليوم أن أتقدم بالشكر لجميع الأعضـاء الذين اشتركوا في مداولات هـــذا المؤتمر، على ما انطوت عليه ملاحظاتهم عن الهند من آيات الاخلاص، ولما أبدوه من تقدير للخدمات التي أسدتها الهند إلى منظمة اليـونيسكو.

ولشد ما تأثرت بالعبارات الكريمة التي خصوا بها رئيس الوزراء وشخصي.

ولقد أشاروا بالجهود التي قمنا بها لتنظيم هذا المؤتمر ولتشييد هذه القاعة وتوقد

عـدد من التسهيلات ووسائل الراحة الأخرى، وفى وسعى أن أوكد لحضراتكم أننا إذ قنا بهـذا فعلى اعتقاد منا أنه أقل ما يمكن أن نقدمه ونقوم به. ورغما عن توفر قاعات أخرى صالحـة فى دلهى وغيرها فى المـدن، إلا أن رأينا كان قــد استقر على تشييد قاعة جديدة لتضم أعضاء هذا المؤتمر. والواقع أننا فى حاجة لمثل هذا المبنى ولشد ما يسرنى أن ألمس استحسانكم له، فإذ اشعرتم بأى قصور من ناحيتنا فثقوا أن هذا القصور لم يقع بإرادتنا بل أنه نتيجـة لظروف وعوامل هى فوق طاقتنا

وكما لا يخفى على حضراتكم، إننا عندما أفتتحنا هذا المؤتمر فى الخـامس من شهر نوفمبر، فإن الجو الذى خيم على العالم حينذاك لم يكن نحو سلام بل جو حرب واصطرام. وقـد التأم عقدنا عـلى أزيز الطائرات وانفجار القنابل وقصف المدافع، وكنا نعلل النفس حينذاك بأن توفق هيئة الأمم فى وسط هذه الكارثة إلى السيطرة على الموقف، وإعادة الأمور إلى سابق حالتها فى وقت مبكر. كلكم تدركون الجهود التى بذلتها هيئـة الأمم لاعادة السلام ومع تقديرنا لهيئة الأمم لما قامت به من خدمات فليس هناك ما يشير إلى أن السحب المتلبـدة فى الجو قد تبددت كليا وواقع الحال أننا ما زلنا نعيش فى ظل أخطار لا يدرك عواقبها أحد. إلا انى رغم كل هـــذا أرى بصيصا من أمل فى البيان الذى ألقى فى مجلس العموم البريطانى بأنه سيبادر فى الحال إلى سحب القوات البريطانية والفرنسية من الأراضى المصرية.

لقـد حملتنا التطورات الأخيرة على أن نفكر بصفاء ووضوح، لقد كنا نعلل النفس بعد الحرب الكونية بأن النظم الاستعمارية ووسائل الاستغلال قضى عليها وآلت إلى الزوال، لقــد كنا نأمل أن المحـاولات التى قـد تقوم بها دولة ما لاستغلال دولة أخرى لن تتكرر، على أن الأحــداث الأخيرة قد أثبتت أننا

أسرفنا فى التفائل، وأن العالم الجرىء الذى ننشده ونتوخاه لم يولد بعد، فاذا كانت مثل هـــذه الأوضاع تقوى على الظهور على مسرح العالمى رغم الدمار والويلات التى أنزلتها الحربان العالميتان بهذه العالم، ورغما عن الجهود التى بذلتها هيئة الأمم وسابقتها جمعية الأمم، فليس بغريب على المرء أن يفقد أمله وثقته بمستقبل البشرية والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن الآن هو هل نسمح لليأس والقنوط أن ينالا منا بسبب هذه التطورات المفجعة؟ وجوابى على ذلك هو النفى القاطع، والنتيجة المعقولة التى يجب أن نخرج بها هى أن الأهداف السامية التى نتوخاها، تتطلب منا جهودا أعظم وأشد مما بذلناه حتى الآن، فان كنا ما زلنا أبعد ما نكون عن أهدافنا المنشودة فلزام علينا، والحالة هذه ألا نتوقف عن السير بل يجب أن نمضى فى الشوط ونسارع فى خطانا. وإذا قدر واعترضت سبلنا بعض العقبات، فعلينا أن نضاعف الجهود للتغلب عليها، وإذا وجدنا أنه ليس بمجيب لنداآتنا، فعلينا أن نشدد ونلح فيها. والواقع أن مثل هذه الصعوبات يجب أن تشحذ عزائمنا وتولد فى نفوسنا الثقة والأمل، وعلينا أيضا أن نسير قدماً ولكل مأدينا من عزم وقوة تصميم حتى نبلغ الاهداف والغايات التى نتوخاها وننشدها

وإن الطريق التى تكفل لنا النجاح وتمكننا من بلوغ مآربنا تتأتى عن طريق بعث شعور جديد بين الأمم وإقناعها بأن المعتدى مقضى عليه بالعزلة ولن يجد من يؤيده ويعطف عليه. وإذا ما تيسر لنا آثارة الرأى العام العالمى لدرجة تبادر دول العالم معها إلى استنكار العدوان وأعمال العنف، فان أمة من الأمم لن تقوى ولن تتجرأ على الأقدام على أعمال عدوانية. ورغما عن الأمم المتحدة التى تسعى وتعمل لخلق مثل هـــذه الشعور أو الروح وبعث وتكوين رأى عام عالمى كهذا، إلا أننا لا نستطيع أن نجزم بأن الجهود التى بذلتها فى هذا السبيل قد تكللت بالنجاح. ولذلك يحتم الواجب علينا أن نضاعف من الجهود المبذولة

لتقوية المنظمة العالمية وتعزيزها بحيث تصبح معقلا للرأى العام الذى يحمل المعتدين على أن يكفوا أو يقلعوا عن أعمالهم العدوانية.

ومن بين الأعمال الهامة التى قام بها المؤتمر فى دورته الحالية ما توصل إليه من إحداث زيادة فى الميزانية، وذلك بمشروع القرار الذى تقدمت به البرازيل، وفرنسا، وأسبانيا، والهند، والواقع أن مبلغ مليون ليس الشىء الذى يذكر بالنسبة إلى الأعمال التى تقوم بها هذه المنظمة وما زلت ألح منذ عام ١٩٥١ عندما كان لى شرف ترأس المؤتمر الذى عقدته المنظمة فى باريس للطالبة بزيادة هذه الميزانية، وإنه ليسرنى أن حضرات المندوبين قد عملوا بدورهم لتحقيق هذا الزيادة، وقد أقترعوا فى الواقع إلى جانب زيادتها مع الموافقة على توسيع نطاق اعمال لمنظمة. ولى وطيد الأمل أن توسيع نطاق أعمال هذه المنظمة الذى تحقق بفضل إقرار الزيادة فى الميزانية سيستمر أيضا فى السنوات القادمه

ومن دواعى اغتباطى ما لاحظته من أن المشروع الذى وضعته المنظمة لعام ١٩٥٧ - ٥٨ قد تابع المساعى الرامية لتأمين تركيز أعم فى الجهود التى تبذلها هذه المنظمة. وإن منظمة، كمنظمة اليونيسكو لن يتسنى لها أن تصبح أداة فعالة إلا إذا أسقطت وحذفت من برامجها المشاريع الثانوية، وحصرت جهودها فى تحقيق البرامج الرئيسية الجوهرية وعندى أن ما قام به المؤتمر من الموافقة على المشاريع الرئيسية الثلاث سيساعد على تحقيق هذا الهدف، وإنى لآمل أن يؤدى تنفيذ هـــذه المشاريع المذكورة إلى تقرير الجهود التى تبذلهـا المنظمـة فى مختلف النواحى والميادين.

كلنا نعلم أن منظمة اليونيسكو، ليست بالمنبر الذى يصلح ويليق لمناقشة القضايا السياسية، ومع ذلك إنى اعتقد أن من واجب منظمة اليونيسكو أن تعمل على عكس رد العمل المعنوى الذى يخلف فى النفوس كلما تعرض سلام العالم للخطر.

إن شيكوسلوفاكيا وبلغاريا قد تقدمتا بمشروع قرار لبحث الأزمة المصرية، إلا أن أكثرية المؤتمر رأت عـــدم إدراج هذه القضية فى جدول الأعمال، وذلك لاعتبارات ذات مساس بقضية سياسية تقوم هيئة الأمم حاليا بمعالجتها. وعلى هـذا فان القرار الذى أتخذ لاستثناء مشروع القرار المشار إليـــه من جدول الأعمال، إنما اتخذ لاعتبارات فنية محضة، ولا يمكن إعتباره بمثابة حكم أو قرار على حيثيات القضية المصرية. وواقع الحال أن أغلبية المندوبين الذين اقترعوا ضد هذا المشروع قـد سبق لهم أن حـددوا موقفهم من هـذه القضية بصورة قاطعة فى هيئة الأمم المتحدة أما وإن المؤتمر قد اعتمد مبالغ جسيمة للمساعدات التدريسية فى مصر والبلاد المجرية وفى هذا ما يبرهن على اهتمام المنظمة وعنايتها وعطفها على المنكوبين والضحايا فى هذين القطرين.

لقـــد حاولت فى الخطاب الذى ألقيته فى الخامس من شهر نوفمبر أن أبرز الحقيقة القائلة بأن مهمة تسوية قضية الصراع الفكرى الذى أدى فى عصرنا هذا إلى أنقسام العالم، يجب أن تؤول إلى منظمة اليونيسكو، وتقع ضمن صلاحياتها ومسؤولياتها الخاصـــة، ويسرنى أن ألاحظ أن بين المشاريع الرئيسية التى أقرها المؤتمر، هو ذلك المشروع الذى ينادى بضرورة تحقيق تقـدير أهم وأوسع للثقافتين العربية والشرقيـــة على السوا إن هذه الخطوة لهى موضع الترحيب. وأنى لعلى ثقـه من قيام تعارف بين الشرق والغرب سيؤدى إلى إزالة كثير من التوتر الناشىء عن الجهل وأنعدام الثقة، كما أنى آمل أن المنظمة لن تقف عـند هذا الحـد بل ستعمد بدورها إلى دراسة الصراع القائم بين النظـامين الرسمالى والشيوعى. وأملى أن يتسنى للمـــدير العام لهذه المنظمـة أن يرفع للمؤتمر خلال دورته المقبلة مشروعا يهـــدف إلى تحقيق هذا الغرض، وذلك ليتسنى لشعوب *العـالم أن تكون أكثر تسامحا إزاء وجهات نظر بعضها بعضا، وتتمكن من*

الاعتراف بمبادىء التعايش السلمى وتعمل بهديها.

واسمحوا لى قبل أن أختتم كلمتى هذه أن أكرر لكم نيابة عن الهند حكومة وشعبا وبالاصالة عن نفسى شكرنا على الروح الطيبة التى أبديتموها بتلبيتكم دعوتنا للاشتراك فى هذا المؤتمر، وإنه لمن دواعى سرورنا أن نراكم بين ظهرانينا وأملى أن تتكرر زياراتكم لهذه البلاد التاريخية. وثقوا أن زيارتكم لنا قد أحكمت أواصر المودة والصداقة بيننا، وأثارت اهتمامنا ببلادكم وشعوبكم وختاما اسمحوا لى أن أؤكد لكم أن الهند من ناحيتها تقر دون تحفظ، الأهداف والمثل التى تنافح عنها منظمة اليونيسكو، وأنها ماضية فى خدمة هذه الأهداف بكل ما أوتيت من حماس وعقيدة.
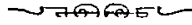
خطاب فخامة رئيس الجمهورية

فى مؤتمر اليونيسكو

إن فخامة رئيس الجمهورية، شرى راجندر برشاد
افتتح المؤتمر بكلمـــة ترجمها فيما يلى:

يطيب لى أيها السادة! أن أرحب بكم لهذا المؤتمر الذى يعقد لأول مرة فى آسيا، وذلك بوصفكم ممثلين لمختلف البلدان المنتسبة لعضوية منظمـــة اليونيسكو كما يسرنى أن أتمنى لكم طيب الاقامـــة، وأن تكون إقامتكم بين ظهرانينا مجدية مثمرة، وآملى أن يكون لديكم متسعا من الوقت لمشاهـــدة معالم هذا البلد قبل عودتكم إلى بلادكم

وإنه لمن دواعى الأسف أن مؤتمرا كهـذا تعقده منظمـة اليونيسكو، يستهل أعماله اليوم فى ظل الصراع المسلح الذى شب فى منطقة الشرق الأوسط، وهو الصراع الذى أثار استياء الافراد والأمم المحبة للسلام، وإنه لمن دواعى الأسى أن تلجأ الأمم وتعمد من جديد إلى أساليب العنف كوسيلة لتسوية وحل قضية، تقوم هيئـــة الأمم المتحدة حاليا بمناقشتها ومعالجتهـا والتى تبذل فى سبيل حلها وتسويتها جهود صادقة من جانب عدد من الدول التى تنتسب إلى عضوية هيئـة الأمم المتحدة ورغما عما انتابنا من حزن وأسى للاقدام على هذه الخطوة المدمرة، وما حدث من تجاهل لمنظمة دولية كهيئة الأمم، وهى التى أنشأت لتسوية مثل هذه القضايا، إلا أننا لنغتبط عندما نشاهد الرأى العام العالمى يقف إلى جانب هذه الهيئة معلنا عن تأييده المطلق لها ومعربا عن سخطه واستيائه للالتجاء إلى وسائل القوة واستخدامها، وفى القرار الذى اتخذته الجمعية العمومية لهيئة الأمم

بأغلبية ساحقة والذى حث بموجبه على وقف إطلاق النار، وسحب القوات الأجنبية من مصر، ما يشير إلى قيام رأى عام عالمى يعارض ويقاوم استخدام القوة.

وأملى أن توفق عناصر الخير العاملة من أجل السلام وإحلال حسن النية فى العالم. وأن توفق لاثبات موجوديتها، وذلك بجعل العدوان أمرا مستحيلا، وبأقناع المعتدين بأنهم لن يجدوا أى مغنم من وراء عدوانهم. ومن ناحية أخرى أيها السادة، فان الأوضاع الشاذة القائمة فى البلاد العربية لعلى جانب من الخطورة كما أنها أثارت مخاوف وقلقا لجميع الدول المحبة للسلام والحرية.

ومما لا شك فيه أن منظمــة اليونيسكو تحتل مكانة الصدارة بين مؤسسات والمنظمات الأخرى التى أقامتها هيئة الأمم لتحقيق أهدافها. وإذا بادرنا إلى تحليل العقل أو الفكر البشرى، واستعرضنا الأحداث الماضية، كما دونها التاريخ لشاهدنا أن جهل الانسان، وعدم معرفته بوسائل الآخرين من أقرانه، وعدم إلمامه بنمط معيشتهم تعود إلى تعصبه، وشكه وعدم ثقته بهم. والواقع أن هذه العوامل بأسرها قد كانت السبب والدافع للخلافات التى أدت إلى اشتعال نار الحروب بين شعوب العالم، وقد يكون مرد الأسباب المباشرة للحروب إلى عوامل سياسية ولكن الذى لا مراء فيه هو أن هناك أعتبارات أخرى ما فوق السياسية لهذه الحروب كالاعتبارات الأقتصادية والعنصرية والثقافية مثلا ولا مندوحــة فى أية محاولة تهدف إلى تحقيق سلام دائم أن تأخذ بعين الاعتبار بادى ذى بدء ضرورة الاحاطة بالعوامل التى تؤدى إلى التوتر، وأن يعمل بالتالى على حلها وتسويتها. وبما أن منظمة اليونيسكو تقوم بمعالجة النواحى الثقافية، وهى أكثر هذه العوامل أهمية، فان الجهود التى تبذلها، وما تحققه من توفيق ونجاح، سيكون لها تأثير مباشر عــلى المحاولات المبذولة للتقريب بين دول العالم على وجه أعم وأوثق كما أنها ستساعد بالتالى على إقامة تناسق عاطفى بين شعوب العالم.

وقد لا نبيح لأنفسنا أن نبالغ فى تأكيد وإبراز أهمية الأهداف والبرامج التى تضطلع بها منظمة اليونيسكو، وهى التى تقوم بمعالجة العوامل الرئيسية القمينة بإقامة تعاون ثقافى بين الأمم، وبذا تضع حجر الزاوية لاقامة سلم دائم فى هذا العالم، وقد يكون من المتفق عليه أن جميع نواحى القضية الانسانية سواء أكانت تربوية أو علمية أو ثقافية، وهى النواحى التى تعتنى بها منظمة اليونيسكو، نعم، إن جميع هذه النواحى ذات طابع عالمى بحيث تتساوى قيمتها عند جميع الأمم المتقدمة أو المتخلفة شرقية كانت أو غربية ومن بين النواحى الأخرى المميزة لهذه العوامل أنها ليست موقع أخذ ورد أو جدل ونقاش، وعلى ذلك فمن غير المتوقع أن تختلف الآراء وتتباين حول المشاريع البعيدة المدى التى تنهض بها منظمة اليونيسكو.

وإنى على اعتقاد أنه قد كتب لهذه المنظمة أن تلعب دورا رئيسيا فى تهيئة البشرية بصورة سيكولوجية لمراعاة كرامة الانسان، واحترامها والنظر إلى القيم الاجتماعية والمعنوية على حقيقتها. ولا مشاحة عندنا أن الجهود التى تبذلها هذه المنظمة لاقامة البرهان على وحدة العالم ثقافيا عن طريق التعليم والنهوض بالعلوم، سيكون لها أثر بعيد فى تحرير العقول والأفكار البشرية مما علق بها من أفكار ونظريات بالية، وبالتالى ستعمل إلى إزالة التوتر الذى يؤدى عادة إلى الحروب.

إن مهمة تحرير العقل البشرى من الأفكار القائلة إن الحرب شر لا بد منه أو أنها وسيلة من الوسائل التى يلجأ إليها لتسوية المنازعات الدولية، رغما عما تلحقه الحروب من دمار وويلات بالفريق المنتصر والمنهزم على السواء. أجل، *إن مهمة إصلاح العقل البشرى وتحريره من مثل هذه الأفكار هى انجح الوسائل لضمان السلام العالمى، وفى الحين الذى يقوم مجلس الأمن، أو أية منظمة أخرى*

من المنظمات التابعة لهيئة الأمم بمعالجة القضايا الدولية كلما برزت على المسرح العالمي، فان منظمة اليونيسكو تقوم من ناحيتها بمعالجة هذه القضايا من أسسها وجذورها، ومما لا شك فيه أن إقامة مراقبة فعالة عند المنبع أو الأساس من شأنها أن تحدث تحولا فى مجريات الحوادث، وتسلسلها، وأن هذا التحول يكون فى صالح البشرية وخيرها أن عمليـة المراقبة هذه بقدر ما هى طبيعية وتقوم على أساس على لأشد ما تشابه عمليـة مراقبة مياه الأنهار عن طريق تجريها عند منبع النهر، وليس فى المناطق التى تفيض فيها مياه النهر لتحدث دماراً على طول امتداده.

ومن دواعى سرورى العظيم أن ألمس ذلك المـدى الواسع من التقدير لأهميـة المشاريع التى تنهض بها هذه المنظمـة. كما يسرنى أن أرى جهودها فى ميادين التربية. والثقافة. والتعاون الدولى قد أخذت تؤتى ثمارها، ومن دواعى الاستبشار أن هذه المشاريع الخلوة من بريق السياسة قد أخذت تستدر إعجاب العالم واعترافه، وقد يكون من سداد الرأى والمفيد أيضا أن نركز اهتماما فى النهاية فى النواحى العالميـة للطبيعة البشرية، وما جادت به القرائح البشرية فى ميادين الفنون. وفى رأينا أن ما أبرزته قرائح الأدباء، والفنانين فى مختلف ميادين الفن والأدب لهو بمثابة الشعلة التى تنير السبيل أمام هذه البشرية التى تتخبط فى وسط الظلام الدامس الذى يخيم عليها. وليس بخاف عليكم أن من خصائص الانتاج الفنى أنه يتخطى ويجتاز جميع الحواجز سواء كانت سياسية أو عنصرية أو قومية. وفى هذا ما يجعله مصدر إعجاب عالمى ولعمرى إن الوحدة البشرية، ووحـدة الأمانى والأهداف المشتركة لتتجلى فى هذا النبع الفياض. وفى رأيى أن مهمة إبراز هذه الوحدة وتأكيدها بجرأة وبسالة، وعلى وجه يتسنى معه للمرء أن يتعرف إلى أقرانه بصورة أعم وأوسع، وبالتالى يتسنى له أن يتعرف إلى

نفســه، ويدرك كنهها وحقيقتها تمـام الادراك، هذه المهمة فى رأيى يجب أن تحظى بالأولوية من اهتمام هذا العالم الذى مضت عليه أحقاب من الزمن، وهو يتردى فى هاوية الخلافات والمنازعات والعمل على إبرازها.

إن المشاريع البعيدة المدى التى وضعتها منظمة اليونيسكو وأعدتها، توصى بأنها ستسد حاجيات الجنس البشرى على أكمل وجه، وإن ما تعمل المنظمــة على تحقيقـه من إبراز أهمية تبادل المعلومات والعرفان، ليمكن البشرية من أن تنهل من معين القرائح البشرية، لتتعارف على الوجه اللائق. هذه المشاريع هى موضع الترحيب والتقدير، كما أن الوسائل التى تلجأ إليها المنظمة لتحقيق هـــذا الغرض، كتنظيم الدراسات، والمؤتمرات، وإنشاء المكتبـات، وإقامة المتاحف وشن الحملات لمكافحة الأمية وغيرهـا، ستكون ذات فائدة للمنظمة فى مساعدتها على تحقيق برامجها

وإنى لآمل أن تؤدى المداولات التى قام بها المؤتمر إلى دعم، وتقرير، وإبراز الحقيقة الجوهرية على شكل أوسع. وأملى أيضا أن تساعد هذه المداولات فى تعبئة جهود الأمم جمعاء فى سبيل التعاون الثقافى والعاطفى فى ما بينها وإقامة سلام دائم عن طريق النهوض بالعلوم وأشعاع الثقافة والعرفان.

وختاما، فانى أتمنى لهذا المؤتمر التوفيق، كما أرجو له أن يتمكن بفضل مداولاته وأبحاثه والنتائج التى يتوصل إليها أن يسير بالعـالم ويقربه من أهدافه الراميـــة لاحلال التفاهم بين الأمم وإقامة دعائم السلام.

العلم والديموقراطيـة والاسلام

﴿ للأستاد همايون كبير ﴾

تعريب الأستاد السيد عبد الحالق النقوى

إن تقدم العلم ونماءه يتوقف على ثلاثة تصورات أولها أن الكون بأسره كل متجانس الأجزاء لا يقبل التفرقة والانفصام. وليس له أجزاء تخضع للنواميس المتباعدة وثانيها أن يعتقد الانسان أن نواميس الطبيعة متناسقة لا يتطرق إليها التغير والتحول. وثالثها هو الاعتقاد اللازم بتقدير الأحوال الفردية فإذا فات شرط من هذه الشروط الثلاثة فلا يمكن أن يزدهر العلم ازدهاراً عمومياً، وإن وجد هناك بعض الأمثلة الشاذة كوجود كبار العلماء النابغين

والتصور الأول والثانى من هذه التصورات الثلاثة يشتبك بعضه ببعض، كما هو ظاهر، وبتعبير أوضح يمكن أن يقال. إن التصورين الأولين إنما هما وجهان لحقيقـــة واحدة. ويستحيل أن نتصور قانوناً كونيا شاملا بدون أن نعتقد أن الكون له وجود واحد فقط ولو كان هناك وجودان أو أكثر لكان هذا التعدد مبنياً على امتياز ينبىء أن هذه الأكوان تسيطر عليها نواميس مختلفة، وكونية النواميس إنما تتوقف على وحـدة الكون : فنواميس الطبيعة لا يمكن أن تكون على نسق واحد ما لم تكن الطبيعة المعبرة عنها متجانسة فى نفسها.

وعقيدة وحدة الكون تنتقض بوجهين كما سنرى. فإذا اعتبرنا الكون معترك آلهة متعددة تنافس وتزاحم بعضها مع بعض وتتحـدى سلطاتها، فمن الظاهر أن وجود النواميس المتجانسة المستحوذة على هذا الكون اللانهائى سينتفى من تلقاء نفسه. وكذلك تنتقض هـذه الوحدة الكونية إذا اعترفنا بأن هناك فارقا بين

الطبيعي وبين ما هو خارق للطبيعة. فإذا كانت الطبيعة عبارة عن مناطق متباينة فلا بد من وجود نواميس متباعدة مختلفة لهذه المناطق المتباينة، مع أن الأمر ليس كذلك. فينتهي هذا البحث إلى أن اعتقاد وجود عالم واحد لمن الشروط الأساسية اللازمة لتقدم الفكر العلمي.

وهذه الفكرة المبنية على وحدة الكون تعبر عن ذاتها في العقائد الدينية. فإن معظم الأديان القديمة قد اعترفت بوجود آلهة متخاصمين. ولكل منهم إقليم خاص من هذا الكون ينفذ فيه سلطته المطلقة. فكان هناك إله للجبال، وإله للبحر، وإله للغابات وهلم جراً.

وكتاب العهد العتيق يبين لنا بعض المعالم للأوضاع السائدة آنئذ. فنرى رسله يدعون إله آبائهم ويستنجدونه للتغلب على آلهة القوم الآخرين وبتقدم الزمن ومضيه استبدل هؤلاء الناس الآلهة الكثيرة بعقيدة إله واحد، وهو الله الواحد الأعلى القادر على كل شيء. فكل الأديان تظهر نزعتها إلى قبول وحدانية الله بعد ما كانت تعتقد بتعدد الآلهة، فأصبحت تؤمن بالله الواحد ولكن هذه الظاهرة لم تكن في دين من الأديان أوضح مما كانت في الأديان السامية التي نشأت في الأراضي الرملية، وترعرعت في الصحراء القاحلة وليس ذلك مما يثير التعجب فإن الصحراء الواسعة المنبسطة مع سمائها الممتدة المخيمة على الميادين الممتدة الأرجاء تحيل إلى الذهن، بأن الكون وحدة لا يتطرق إليها التجزي والانقسام. فكل الفوارق تتلاشى في الصحراء، ويتملك على حواسنا شعور بوجود شامل تنعدم فيه كل التشخصات.

فوجود الله الواحد يرشدنا إلى أن الكون واحد ولابد أن يكون لهذا الكون قانون واحد فقط، وكذلك عقيدة وحدة الله تعالى من الشروط الأولية الأساسية لانبثاق نور العلم وانفجار ينابيع المعرفة. بيد أن هذه العقيدة وحدها

لا تضمن للعلم والمعرفة ولاتساع آفاق الفكر الانسانى غايته المنشودة. فنرى أن الأديان السامية القديمة لم تتغلب فيها عقيدة وحدانية الله تعالى على التفريق القائم بين الظواهر الطبيعية وبينما هى خارقة لها، ويدل على ذلك تقديرهم البالغ للمعجزات. وخلاصة القول إن المعجزات كلها متناقضة لما تجرى عليه قوانين الطبيعة المألوفة. فالاعتقاد بالمعجزات إنما هو إنكار لما فى الطبيعة من تناسق ووئام، بل على العكس هو دليل على أن المعول هو النقل لا العقل

فالديانة المسيحية واليهودية كلتاهما قبلتا المعجزات والظواهر الخارقة للعادة كالعناصر اللازمة لعقيدتهما الدينية. فرسلهم كانوا أشخاصا فوق العادة، تستند عاداتهم ومناسكهم إلى أعمال خارقة للطبيعة. ولم يكونوا ذوى القداسة فقط، بل كان لهم عين خفية تستكشف لهم كل ما غاب عن أعين الناس فكانوا يدعون أنهم يستطيعون بنور بصيرتهم الثاقبة وبقوتهم الروحية أن يغيروا مجرى الحوادث فى هذا العالم المحسوس

فالحقيقة أن مثل هذه الأعمال الباهرة المثيرة كانت فوق المألوف والعادة وتقتضى الانحراف عن السنن الطبيعية التى هى من سنن الله، ولن تجد لسنة الله تحويلا أو تبديلا. وكذلك كانت هذه المعجزات تدل على مواهبهم السامية ومنزلتهم الرفيعة.

ويمكن لمثل هذه الحالة العقلية أن تكون باعثة على نمو الحماس الدينى بيد أنها لا تستطيع أن تسبب التفتح للذهن الانسانى. ومما لا ريب فيه أننا نسلم أن لكل قاعدة شواذها، ولكن العالِم لا يقر له قرار بدون أن يميط اللثام عن وجه هذا الشذوذ الظاهر. ولعمر الحق أن تقدم العلم يرجع فضله إلى إمعان النظر فى الحوادث التى تلوح كأنها شواذ، وأما إذا جعلناها عرضة للتفحص البالغ وجدنا أنها ليست إلا ظواهر لناموس أشمل وأعم من الأول.

وعليه فإن الاعتقاد بأن هناك تناسقاً ثابتاً فى طبيعة الكون هو من الشروط الأوليـــة اللازمة لتقدم العلم وازدهاره فلا يدع العلم حادثة شاذة تطغى عـلى حقائق ثابتة منطوية فى سلسلة العلل والأسباب، وكذلك لايبيح العلم للعوامل التى هى فوق العادة أن تتطفل عـلى مائدته. فإن مثل تلك العوامل من شأنها أن لا تسلس قيادها للعقل والمنطق فلا بد أن يكون ناموس الوحدة الطبيعية مطلقاً لأعلى معالم هـــذا الكون فقط، بل على مجاهله أيضاً فالعمومية فى النواميس الطبيعيـة معناها أنها تطلق على الأمور المعلومـة كما تطلق على غيرها مما لم يتيسر للعقل البشرى اكتناهها، وهى لا تزال فى طى الخفاء.

ولا يغيبن عن أذهاننا أن مجرد التصور لوحـدة الكون بدون أى امتيـاز بين ما هو طبيعى مألوف وبين ما هو غير طبيعى غريب، لا يجدى بالنفع، فيجب أن نجعـل كل ظاهرة منفردة موضوع فكرنا ونقيم لهـا من الوزن ما تستحقها. ونوليها عنايتنا واهتمامنا.

ولو كان تصور وحدة الكون فقط كافيا لنا، لكان العلم قطع أشواطاً بعيدة فى مضمار التقدم بنفس السرعة التى سادت بها أذهاننا عقيدة وحدة الله تعـالى ولكان العلم فى هذه الصورة نظاماً فكريا فقط تستخرج فيـه النتائج من القضايا العامة بطريق الاستدلال. والحال أن العلم استقراء بالضرورة

ولم يتقدم العلم هذا التقدم بمحض وضع المبادىء العامة له بل إنما كان ذلك عندما قرنت هذه المبادىء العامة بالحقائق الثابتة أو أرشدت المراقبة لبعض الظواهر الطبيعية إلى وضع نظرية عامة، وصار ذلك سبباً للتقدم العلمى.

فثبت أن الاختبارات والتجارب لا بد لها أن تلعب دوراً مهما قبل أن يتخطى العلم إلى ساحة الوجود، وكذلك من اللازم أن تحول عناية الانسان من التفكير فى مناهج الحياة الأخروية إلى التأمل فى هذا العالم المألوف، ومن الامعـان فى

الفلسفة السامية والمباحث المنطقية إلى مشاهدة ما فى هذا العالم المحسوس من جلال وروعة فى اختلاف الليل والنهار

وإن الفرد من الأهمية بمكان عظيم لانماء الفكرة العلمية لما يلمس من الحاجة الماسة إلى مراجعة كل قانون عمومى من قوانين الطبيعة. وذلك مما يهيئ لنا المواد للطريقة الاستقرائية أو التجريبية فان الفكرة الاستدلالية تقتنع بانماء ما يتضمنه التصور غير عابئة بجميع الاعتبارات، اللهم إلا ما كان من النوع الداخلى

أما الفكرة الاستقرائية فهى تواجه التصور مزودة بالتجارب لأن التصورات كلها تكون ذات طبيعة عمومية، عندما تكون التجارب دائماً ذات صبغة خصوصية فخلاصة الفحص هى مرجع يستند إليه فى المبادئ العامة لاثبات حقيقة خاصة فان الاهتمام بحادثة مفردة إنما هو بمثابة الأساس لتقدم العلم.

ومادامت الحادثة المفردة تناهض وتتحدى فللتجارب أقدارها كأساس لكل أنواع المعرفة، وإلا فبدونها لا تبقى لها أقدار ولا يقام لها وزن وعلى أن توجد هوة واسعة عميقة يعسر ردمها بين الحقائق العقلية والحقائق التجريبية. وإذا كان من الممكن بناء المعرفة بجميع أشكالها على أسس من الحقائق فاننا سنعود بطريق منعرج إلى حيثما تكون الحقائق العقلية ممتازة عن الحقائق الواقعة وقبل أن يخوض عمار العلم يجب أن نقهر الفرق القائم بين الطبيعى وغير الطبيعى، وكذلك يتحتم علينا أن نردم الهوة التى توجد بين الحقائق العقلية والحقائق التجريبية حتى يفسح المجال لنمو العلم وتقدمه.

فهذه الشروط الثلاثة: أعنى وحدة الطبيعة وإنكار الفرق بين الطبيعى وغير الطبيعى، ثم الاعتراف بالفرد، إنما هى لمن العناصر الأولية اللازمة لنمو العلم. فاذا فات عامل من هذه العوامل الثلاثة فات عنصر هام لازم للنجاح العلمى. ويمكن لنوابغ الرجال وعباقرتهم أن يستشفوا مصير العلم، وما يؤول إليه من خلال هذه

القراش. ولم يخط العلم خطوات مطردة فى سبيل الرقى وبقيت الأمور جارية على هذا المنوال حتى مستهل الألف الثانى من عصرنا هذا.

ولا مراء فى أن العالم قد شهد العلماء النابغين والمفكرين البارعين فى هذه الحقبة من الزمن الذين نهضوا فى الهند والصين وفى مصر واليونان وبزغوا كأنهم نجوم مبعثرة فى هذه القبة الزرقاء تأتلق كل واحدة منعزلة عن أخواتها بكل روعة وجلال.

إن الألف الثانى من هذا العصر هو عصر علمى متفوق بدون جدال، وقد رأى هذا العصر أعظم تقدم فى المثل الديموقراطية وهذا التوازى بين تقدم العلم وبين الديموقراطية، لم يكن على سبيل المصادفة بل لأن القوانين السياسة والأقدار الأدبية صار إطلاقها كونيا كنتيجة لعقيدة التجانس والوحدة فى هذا الكون اللانهائى كما أدى الاهتمام بالرسل وأفراد الناس إلى الاعتراف بشرف الفرد البشرى فى المجتمع.

وإذا حاولنا أن نأخذ الأفكار الديموقراطية بالتجزئة والتحليل، وجدنا أن أول مبدأ يسترعى انتباهنا هو مبدأ وحدة القانون ولا يمكن أن توجد الديموقراطية، إذا لم يطلق نفس القانون على الجميع. وعلاقة هذا المبدأ بالوحدة الألوهية فى الفكر الدينى واضحة تمام الوضوح لا تحتاج إلى تفسير. وتصور وحدة الله لم تدركه الانسانية إلا بشق الأنفس، وبعد مضى الأحقاب. وكذلك استغرقت الانسانية عصوراً طويلة قبل أن تصل إلى مبدأ وحدة القانون لكل فرد من أفراد المجتمع، وبعبارة أوضح إن تصور وحدة القانون لم يحصل إلا بعد ما تأسست عقيدة وحدة الكون. فلو كان هناك آلهة كثيرة يسلط كل منهم بنفوذه على إقليم خاص من أقاليم العالم لما أمكن إطلاق قانون واحد على جميع الناس.

وعقيدة تعدد الآلهة توضح لنا معنى التناقض الظاهرى بأن النظم التى تلوح لنا ديموقراطية المبنى والأصل لا تلبث أن تكشف النقاب عن وجهها إذا فحصناها وأخذناها بالبحث والتنقيب، فاذا هى تنافى تمام المنافاة تصور وحدة القانون كما نرى فى نظام الحكم عند الاغريق الذى طالما يوصف بأنه كان ديموقراطياً، ولكنه، والحق يقال، ينهار من أساسه، إذا وضعناه على محك الاختبار حيث هو يعترف بالقوانين المختلفة لمختلف طبقات الشعب، فوجود الفرق بين العبد والحر إنكار لعمومية القانون فى هذا الكون.

وأما القانون عند الرومان فكان مبنيا على المـدارج فى الحقوق، وعلى الالتزامات التى كان أساسها الاختلاف فى الرتب لمختلف أعضاء الدولة، فالمواطن الرومى كان يتمتع بحقوق لا سبيل إليها لمن هم أقل منه حظا.

إن الديموقراطية لا تضمن للقانون وحدته فقط، بل تستلزم التساوى لكل أحد أمام القانون. وليس ذلك فى الحقيقة إلا نتيجة للمبدأ الأول، وعلى كل فانه يؤدى إلى إنكار مقاييس الشرف وموازين الكرامة من جهة الأحساب، ومن ثمه كان هذا الانكار أول ثغرة فى سور الشرف المزعوم.

والمجتمع البدائى كان الحكم فيه للتقاليد والمراسم، وهذه التقاليد تنمو وتنشأ بطريق التكرار فى الأحوال المتشابهة وبالتالى تصطبغ لوناً من القدسية على درجات الناس ومنازلهم لأن كل ما تكرر تقرر، فالتقليـد يلبس حلة قشيبة من الحكم الجاهلى الذى ينكر ما فى نفس الحكم من المعقول ويبقى كثير من الشرائع والسنن بدون أن يتصدى أحد لاستكشاف تلك المبادئ التى تتضمنها تلك الأحكام والشرائع. ثم التقاليد عرضة لدبيب الاختلاف إليها على مر الدهر وكر الأيام فكلما اختلف التقليد اختلف القانون لمختلف الناس فى مناسبات متباينة وأحوال مختلفة.

وما دام التقليد مبدأ للحكم، لا بد أن ينقسم المجتمع إلى درجات وطبقات، لكل طبقة حقوق وإمتيازات خاصة بها دون غيرها. ولا يمكن تسوية المجتمع وتوحيده بدون تطبيق القوانين العقلية على أحوال الناس. فإن الاعتراف بالمبدأ القائل بأن للملوك حقوقا سماوية، هو طعنة قاصية فى صميم مبدأ التساوى أمام القانون. ولم تتمكن أوربا من رفضه نهائيا إلا فى القرن السابع عشر. والمبدأ القائل بأن نفس القانون يطلق على الكل بنفس الطريق، يمهد السبيل إلى انقلاب فى وجهة النظر الانسانية، وهو يقيم الاقتناع مقام السلطة، والعقل مقام الوحى والالهام وهذا الانقلاب أتى مع اعتراف بشرف البشر وكرامته.

وقد سبق أن لفتنا الأنظار إلى الاصرار على أهمية الفرد الشاذ الفذ فى الفكرة العلمية، والأهمية الآخذة فى الازدياد فى النظرية السياسية والتطبيقية هى نتيجة مباشرة لما سبق. وما دامت الفكرة ذات صبغة استدلالية، ويطيب للعقل أن يلم بالمجردات والكونيات فيصعب على الفرد أن يعيش من أجلها. والقدرة على إبداء الخاص فى خضم العالم، تجر إلى احتمال عدم المساواة وعدم التساوى فى الاجتماع. ولكن العلم يثور على مثل هذه الفكرة الاستدلالية ويمنح للفرد حقه لأنه لايملك يدعو إلى إقامة نظام العدل والقسط وهذا النظام العادل كما رأينا هو إثبات الخاص فى وجه طغيان القانون العام، فلا يمكن أن نتصور الديموقراطية البحتة فى مجتمع يكون فيه الفرد الخاص إمعة لما هو كونى.

ولا بد أن نفسر هنا تناقضا من تناقضات الديموقراطيـــة التى تبدو للعيان. فمن التصورات الأساسية فى الديموقراطية إثبات كرامة الفرد، وهناك تصور ثان كذلك، لا يقل عن الأول فى كونه أساسيا، وهو تغلب إرادة الأكثرية على الأقلية، ومن هنا ينجلى هذا التناقض ويتضح لأن التصور الثانى إنما هو نتيجة منطقية تترتب على الأول.

وإذا كان الأفراد كلهم متساوون أمام القانون ويتمتعون بالوجاهة المتساويه، فمن الظاهر أن أية إرادة مهما كان شأنها، ليس لها أن تسيطر علــى أية إرادة أخرى. وإن اختلفت الآراء وادعى أحـد منهم بحصافة فى رأيه، فلا بد أن يكون مصيره الاستــكار والاستحفاف لأنهم يقررون الحكم بتعـــداد الرؤوس وكمية المصوتين لا بكيفية الرأى وأصالته.

وظهرت أهميـــة الفرد بادى ذى بدء عند تشريع الحقوق السياسية، وكان التصور القديم عند الهندوس يشدد على الطائفية ويبرها مبرلا مرموقا، ولو كان فيه إهمال للفرد أما الاسلام فجاهد حق جهاده لاعطاء الفرد أكبر نصيب من الحرية بدون أن يفسح المجال أمام مطالب المجتمع، كما أن التصور الصينى يتطلع إلى نيل غاية التوازن، عندما كان هذا التصور فى أدوار المسيحية الأولى قـــد أصر على حرية الفرد إلى درجة أدت فى بعض الأحيان إلى العدمية والفوضى وعلى كل فان الفرد كان يرسف فى أغلال العبودية ويرزح تحت أنقاض المجتمع حتى مستهل القرن السابع عشر، وكان فى هـذا العصر نفسه أن وضعت أوربا الفرد موضع التحدى من المجتمع.

وكان لحركة الاصلاح التى قام بها المصلحون فى أوربا وللرسملة البدائية أثرهما الملحوظ فى تشجيع الفرد ومنحه الحرية، عندما كانت العقلية المسيحية القائمة على تصور ما قبـــل الاصلاح تطالب الفرد بالامتثال بأوامر الكنيسة، أما المجتمع الاقطاعى، ففرض على الفرد أن يخضع للالـتزامات التى تترتب عليه من جهة ميلاده فى أحط بيئة منزلة ومستوى، إلى أن ثارت ثائرة الناس على مثل هذه الحواجز والفوارق، ومهـــدت السبيل إلى حريتهم لخرجوا منتصرين على أكوام تلك الحدود والحواجز.

ومن الخطأ أن نعتبر هـذا التصور انتزاعيا محضاً، فان الحقيقة الموحية لهذا

التصور تقع فى اتخاذه كصورة تطبيقية، وفى حوضه عمار الاقدام. وكان المجتمع يتمتع بأهميــته فى التصورات البدائية إلى أن بلغ غايته القصوى لدى الدول المستبدة الطاغية التى لا تقبل المعارضة بتاتاً.

وهناك طريق آخر ينتهى به ظهور العلم مباشرة إلى إنماء الديموقراطية، فنرى فى الأزمان الغـابرة أن تصورين لحـقوق الانسان يسيران جنباً إلى جنب ولا يطلع الواحد على الآخر، حيث لم تكن مرافق المواصلات توجد عندئذ. وكانت توجـــد كذلك أنظمة للحقوق، مختلفة لأشخاص مختلفين فى حدود نفس البلاد وتخومها. كما لو كان نظام التمدين صورة مستقلة لهذا الكون، والطبقات المغصوبة المسلوبة فيه لم تكن تعرف هذا الاختلاف فى نظامها البتة، فلا بد لها من الاستسلام للأقـدار الحتمية والمصائر المجهولة. حتى جاء عصر العلم والنور، فلم يرض أن تستمر الأحوال جارية على مثل هذا المنوال. حتى رأينا أن كل ما يحدث اليوم من حوادث فى ناحية من نواحى العالم لا بد أن يسمع له تجاوب فى أنحاء العالم الأخرى، لأنه لا يمكن أن تظل أقطار العالم اليوم بمعزل عن غيرها بفضل إرتقاء مرافق الحياة، ونحن فى عصرنا هذا على مرأى ومسمع من كل ما يجرى على وجه الكرة الأرضية ومقارنة الأحوال بين الأقاليم المختلفة تقتضى بماثلتها لا بين الأقطار المختلفة فقط بل بين حدود كل قطر، فلم يبق للتصورات الانسانية المختلفة أى محل فى دنيا العلوم العصرية.

وغنى عن البيان أن المجتمع مهمته أن يضمن للفرد حاجته إلى الصيانة، ويقوم بالسهر على جريانه، حيث أصبحت الحرية تصوراً اجتماعيا بالضرورة، وليس لمثله أية أهمية خارج نطاق المجتمع. ونرى عند نزول الشدائد والملمات أن مطالب الصيانة تحوز الأسبقية على مطالب الحرية. وكلما تم للفرد أقل مطالب الصيانة فانه لا يلبث أن يعلق أهمية عظيمة على مطالب الحرية، وهذا هو مصدر الأهمية

العظيمة للديموقراطيـــة السياسية . وعـلى المجتمع أن يعين كلا الهدوين : الحوائح الانسانية على أقلهـا ، وحدود السلطة ، والحكم التى يخولها للدولة حتى تتمكن من تقرير مصيرها على ما يرام .

ومما لا مراء فيه أن الديموقراطية السياسية تفقد كثيراً من أهميتها ما لم تتح لها الحرية الاقتصادية والاجتماعيـــة . وعلى الرغم من دلك لا تتلاشى الحرية مأسرها ، بل تبـقى وتعيش ، ويرجى لنطاقها أن يتسع . وإدا لم يكتب البقاء للديموقراطية السياسية ، فامكانية الديموقراطية الاجتماعية والاقتصادية مصيرهما إلى الروال لامحالة . ويظهر من دلك أن الديموقراطيـــة السياسية هى أساس لكل دعاوى الفرد .

ومن طواهر العلم المعروفة أنه لا يقتنع ولا ينتهى إلى حد ، بل يسبر الأغوار ويخوض غمار هدا الـكون اللانهائى لاستكناه حقائق الأشياء العير المألوفة ومعنى دلك أن العلم لا يدع الأفراد والشواد تتيه فى وديان النكارة والجهل . وهدا يدل على أن للفرد مكانة ممتازة تجاه النواميس العامة . فان مطالبة الفرد بحريته فى ديموقراطية ، إنما هى صورة إثنانية صامدة أمام ما يفرض المجتمع على الفرد من إرادته . لأن التجانس فى طبيعة الـكون يقتضى بأنه لا يمكن أن طائفة أو فرداً يعامل معاملة استثنائية خاصة ، فتفضيل البعض على البعض هو مما لا تؤيده طبيعة الـكون . ولو أطلقنا نفس هـذا القانون على السيرة البشرية ، حصل لنا الديموقراطية البحتة الخالصة التى تجعل الناس كأسنان المشط ، ولا تفضل بعضهم على بعض ، فهم سواسية أمام القانون . وكل ما يلوح لنا كمراح علمى فى عالم الفكر هو عين الروح الديموقراطية فى عالم السياسة . فالحقيقة واحدة فى كلتا الناحيتين ، إنما الفرق فى الاعراض لا فى الجوهر .

ومن أكبر الانتصارات التى نالها الانسان منذ القرن السابع عشر إلى يومنا هدا

هي عبارة عن إزدهار العلم إزدهاراً لم يسبق له مثيل، وعن بروز الفكرة الديموقراطية إلى حيز الوجود. وليست هذه الانتصارات ضربا من ضروب المصادفات، بل كانت بوادرها تلوح وتبدو من مستهل هذا الألف من العصر الحاضر. ومما يلفت الانظار فى هذا الصدد هو أن هذا التقدم فى ميدان العلم والسياسة، لم يزل ولا يزال يخطو بخطوات ثابتة وئيدة على سبيل الاطراد، فيجاوز كل العقبات والعراقيل التى يلقاها فى طريق الرقى، فمن المظاهر اللازمة للتقدم العلمى تواصله واطراده. فكل جيل من الأخلاف يتوارث كل ما قام به أسلافه من الأعمال العظيمة، ثم يقوم هذا الجيل بدوره ويبحر من الاعمال ما لم تستطعه الأوائل. ولا يقف الجيل المتوارث عند هذا الحد بل يضيف بمجهوداته شيئاً كثيراً إلى ما وصل إليه السلف. وإن الانقطاع المفاجئ لسلسلة التقدم — إذا فرضناه — معناه الفراغ التام لفترة من الزمن من الجو العلمى، ولو كان مثل هذه الأحوال حافزاً قوياً لعبقرى نابغة على أن يأتى ببعض الاستنتاجات العظيمة فتقدم العلم واستمراره على مدى ألف سنة مضت هو حقيقة ثابتة لا تنكر، وهى تدل على أن هناك عاملا قوياً ما غير مجرى الفكر الانسانى إلى الطبيعة ومسائلها.

وقد أسلفنا الاشارة إلى تلك المبادئ السائدة التى تؤثر فى نمو العلم والديموقراطية كليهما. والتجربة الصحيحة للتصورات الأساسية فى الاسلام تتيح لنا المشابهة الواضحة لهذه المبادئ، وقد قرنت هذه المشابهة بحقيقة ثابتة أخرى، وهى أن التقدم الشامل للعلم يصحب ظهور الاسلام عندما يؤكد هذا الدين على أن هناك علاقة قوية بين تلك المبادئ وما يحملنا على قبول هذه النظرية هو ذلك العدد الضخم من أولئك العلماء الافذاذ فى الامة العربية الذين طار صيتهم من أقصى العالم إلى أقصاه وصاروا ناراً على علم، ولم ينقطع تيارهم الجارف وما بذلوه من المجهودات فى سبيل إعلاء شأن العلم ورفع مناره منذ ظهور الاسلام.

ومن أول مقومات العلم والديموقراطية، هو وجود العالم ذي الكيان الموحد ولأجل ذلك أكد الاسلام على توحيد الله تعالى، وعلى أن ذاته تعالى هو المحور الوحيد الذي يدور عليه أمر الحكم، ودعى إلى ذلك بصورة لم يسبق لها مثيل في دين من الأديان. فالاسلام يدعو إلى أن لا إله إلا هو، وتتضمن هذه الكلمة العليا جميع مقتضيات التوحيد، كما أنها تشير إشارة واضحة إلى أنه لا يوجد هناك دين إلا الدين الواحد الذي هو دين الحق، بل هو دين هذا الكون بأسره، وما من أمة وما من عصر إلا وقد خلا فيهما نذير. وكل نبي دعا قومه بلسانه. واختلاف الزمان والمكان واختلاف اللغة والأمة لا يستلزم اختلاف الدين، فكل نبي في زمانه دعا نبي خلدته إلى نفس هذا الدين الفطري الذي دعا إليه الاسلام، ولذلك ينكر الاسلام إنكاراً باتاً للفكرة القائلة بأن فرداً من الافراد هو مؤسس لدين من الأديان، وصرح الاسلام تصريحا تاما أن محمداً صلى الله عليه وسلم عبد الله ورسوله، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وجرت عادة كتّاب الغرب أنهم يسمون الاسلام «بالمحمدية» أو «بدين محمد» كما يسمون دينهم «بالمسيحية». أما المسلمون فينكرون هذه النسبة ولا يسلمونها بل يؤمنون بأن هذا الدين ليس دينهم فقط، بل هو دين إبراهيم ودين موسى وعيسى، كما هو دين مئات من الأنبياء السابقين سواء نطق باسمائهم القرآن أم لم ينطق.

ودعوة الاسلام إلى العالمية إنما جاءت كنتيجة إلى توحيد الله تعالى وتمريده ويعتقد الاسلام أنه كمنهج للحياة يصلح للانسانية دينا في كل عصر ومصر، وهو الذي يوحي إلى النوع البشري ما تتضمنه الفطرة من المعاني الحقيقة، فلا بد لعقيدة تعدد الأديان أن تزول من الأذهان، حتى يتم لها الوصول إلى ذلك الحلال الأزلي، وإزالة أمثال هذه الأوهام من الفكر الانساني لهي من أهم ما

كلمت به الرسل

وعليه فان جميع الأديان مبنية على أساس واحد. والاختلاف الظاهر فيما بينها، يعود سببه إلى أن التشويه والتحريف تطرق إليها على مر الأيام وكر العصور فى بلاد مختلفة. وليس لأحد أن ينكر أن الأفكار عرضة للتغير والتحول على مضى الأعصار والأزمان. وكلما حاولت الفلسفة أن تثبت الافكار على أسس راسخة وفى صور ثابتة، ذهبت مساعيها أدراج الرياح، ولم تقم لها قائمة. وسبب ذلك هو نفس التغير الذى يسرى مفعوله إلى كل كائن ما كان فتتغير التصورات كلما تقدم الزمن. وعندما عرفنا طرق المواصلات شاهدنا أن هذه الناحية من رقى الحضارة قد جعلت أفكارنا تتغير بأسرع من ذى قبل، وصار عدم التحقيق من ميزة الأفكار. فدعوى الاسلام القائلة بأن طبيعة الأديان قد تغيرت مرة بعد أخرى على مر الدهر، ليست مما يدعو إلى الاستغراب. أما ما يدعو إلى الاستغراب إنما هو تلك الدعوى التى طالما عرضها الاسلام بأنه صورة نهائية خاتمة لسلسلة الأديان، وبه ينتهى ظهور الأنبياء والرسل، ولم تعد هناك أى حاجة ماسة إلى استكشاف الحقيقة الأزلية، بل الاسلام هو الدين الوحيد منذ ظهوره إلى أن تقوم الساعة.

إن التأكيد على توحيد الله تعالى، ومن ثمة على وحدة نواميس الكون قد أزال جميع الفوارق القائمة بين الطبيعى وبين ما هو فوق الطبيعة. وقد رأينا تأثير هـــذه الفكرة فى تقدم العلم والديموقراطية. فانها قطعت دابر الامتياز بين العلمانى والدينى فى حقل التجارب الدينية. والاسلام حائز على القدح المعلى والكعب الأعلى فى تأكيده على توحيد كل ظواهر الحياة، فانه محق هذه الفوارق محقاً لم يسبق له نظير فى عالم الأديان، وهـذا الذى جعله لا يفرق بين الدولة والدين، وبين الاقتصاديات والعبادات، فان الكون بأسره مسجـــد فى

تعبير الاسلام.

فتصور قانون عمومى لكل هذا الكون لم يترك المجال واسعاً أمام المعجزات فكل ما يبدو كأنه خارق للطبيعة إنما هو من صميم الطبيعة، ولو لم ندرك العوامل الكونية المسببة له. وكذلك لم يدع الاسلام مجالا ليكون الرسول فوق مستوى الانسانية، فهو يزيل هذا الوهم حيث يقول: قل إنما أنا بشر مثلكم. فأكد القرآن مرة بعد أخرى أن محمدا صلى الله عليه وسلم، إنما كان بشراً كسائر بنى آدم، تنطبق عليه جميع قوانين الطبيعية التى هى منطبقة على إنسان عادى. ويشهد على ذلك ما حدث عند كسوف الشمس الذى وافق يوم وفاة ابنه إبراهيم، فتطيرت به القريش وتشاءمت وأرادت الاستلام خوفاً على أنفسهم؟ فكانت إجابة محمد صلى الله عليه وسلم ذات طابع عقلى جديد لم يعهدوه، فقال صلى الله عليه وسلم، إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فانهما يطيعان أمر الله ولايحفلان بأحزان أحد وأفراحه، سواء كان نبياً مرسلا أم أحدا من عامة الناس.

وقد سمع العالم بابن رشد، وهو أحد فلاسفة العرب الأفذاذ، والغرب يعرفه باسم «اويروس» (Averroes) وقد اشتهر بنظريته القائمة على أساس الوحدة فى طبيعة الكون، وأسدى هذا النابغة الجليل إلى الاسلام من خدمات ما حاول «اسپنوزا» (Spinoza) إسداءها إلى الديانة العبرية. ويظهر من كتابه الشهير «فصل المقال» أنه سبق اسپنوزا فى تصور نواميس الطبيعة من بعض الوجوه. والقدر المشترك عند كليهما هو الاصرار على وحدة ثابتة فى نظام الكون. وقد كتب اسپنوزا مقالة بصورة هندسية ليثبت الوحدة فى جميع التصورات. وكان ابن رشد عالما فلسفيا ممتازا بميله إلى الرياضيات فى أفكاره فلم يأت هذا التشابه بين هذين العالمين على الصدفة بل سبب ذلك أن موسى بن ميمون، كان من

أنجب تلامذة ابن رشد، فكتب موسى بعض مؤلفاته فى اللغة العبرية التى طار صيتهـا فى طول بلاد الاندلس وعرضها، ومنها وصلت هذه المؤلفات إلى علماء أوربا فى هـذا العصر. فلا بد أن تكون مؤلفات موسى بن ميمون قد تضلع منها اسپورا وتأثر بها.

إن تصور وحـدة الله وإنكار الفرق القائم بين الطبيعى وغير الطبيعى يؤكد لنا كونية العقل والمنطق وحيث أن الله واحد، والمنطق يحتاج أن يعرب هذه الحقيقة، فلا بد أن تكون قوانين العقل واحدة لكل كائن ما كان. وقد رأينا فيما قبل أن مجرد هـذا التصور لا يكفى أن يضمن التقـدم المطرد للعلم بدون الاعتراف بالفرد والجزئى. ونرى فى تعاليم الاسلام أنه يهتم بالفرد ويحترمه حريا على طبيعة الـكون إن الاسلام محا كل الفوارق، فلم يعد هناك شىء ما نسميه طبيعيا أو خارقا لقوانين الطبيعـة، فتصور الدين عند المسلمين يقدر الطبيعة ويقيم لها وزنا لذاتها ولنفسها ولا لأنها رمز لحقيقة خفية.

وعـندما يعترف بحقيقة المعلومات التجريـبية فان الوجود المختار يستحـق آشـد لأن التجريبى يظهر دائماً فى الحقائق المختارة. ويتمثل أكمل ارتقاء للوجود المختار فى الشخصية البشرية، وقـــد اعترف القرآن الـكريم بحقيقتـه القصوى عندما يقول إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض فأبين أن يحملنها، وحملها الانسان وكان الانسان ظلوما جهولا.

ويبدو فى هذه المرحلة أن تفردية الفرد تتحدى الله تعالى فى وحدانيته الساحقة الغالية، فتصدت الفكرة العربية لحل هذه المشكلة على طريقها الخاصة. والفلاسفة الوجوديون حاولوا الاستمرار على التقاليد الافلاطونية، فصوروا الـكون عـــلى نظرية ألوهية الـكون. وكانت وجهة نظرهم هذه تنـافى روح الاسلام السائدة، فان الانسان على حسب تعليمها لا يمكن أن يعتبر مجرد عنصر فى نظام كونى بل

له منزلة مستقلة بنفسها. أما الفلاسفة الشهوديون فاعتقدوا أن الفرد له وجود ثابت، وهو يحافظ على تشخصه حتى ولو عارضه وجود الذات المطلقة ولهم فى تمثيل هذه الحقيقة طريقة طريفة فيقولون إن النجوم يمكن أن تحتجب عن عيوننا بوجود نور الشمس بيد أن وجود الشمس. ليس له أن يبطل وجود الكواكب.

فهـذا التطبيق والتصحيح لحقيقة الفرد لمن الملامح التى امتازت بها الفلسفة الاسلامية منذ نشأة أول المدارس الفكرية. وقد اشتد تأثر الفكرة الاسلامية بالفلسفة اليونانية، ولا سيما ارسطاطاليس لكن فلاسفة الاسلام ومفكروه — مع كل ما عندهم من التقدير لمنطقه — لم يقبلوا اهتمامه بطريقته الاستدلالية المحضة فحاول ابن تيمية تفنيد المنطق الارسطاطاليسى لأنه لا يعترف بما للتجربة من فضل نمو العلم والمعرفة. وأشار ابن تيمية أن العلم التجريبى هو مباشر ذاتى لا يتحول ولا يتغير. ولا تحتاج ابداً فى الوصول إلى الاعتراف بالوجود المختار إلى الاستدلال المنطقى، بل إنما هو معرفة الوجود المختار التى تضع الاستدلال المنطقى فى حيز الامكان، وهـذا الذى دعاه إلى رفض المنهاج الارسطاطاليسى للصغرى والكبرى فى المقدمات المنطقيـة، فأكد ابن تيميـة أنها غير ضرورية لعملية الاستنتاج.

فعلمنا بذلك أنه لم يبق مجال للشك فى المطابقة بين التصورات الاساسية عند الاسلام وبين المبادئ التى تحكم فى العلم. وهذا ما يساعدنا على تفسير العوامل التى سببت للعلم اطراداً مستمراً فى سبيل الرقى والتقدم منذ أن ظهر الاسلام أما السبب فى اختفاء العلاقة القائمـة بينهما فى بعض الاحيان هو هجوم بعض العناصر الدخيلة على الفكرة الاسلامية عند المسلمين. وقد سبق أن أشرنا إلى أن الاسـلام مع اعترافه بالتغير الذى يتسرب إلى كل الأفكار البشرية يستثنى نفسه من هـذه القاعدة الجارية. وقد بحث الفلاسفة المسلمون ليجدوا تعليلا

لهذا التناقض الظاهر، فكان دليلهم على ذلك أن الاسلام قد غير أساس الدين من النقل إلى العقل. فمادام الدين ساوه على الاعتقاد الاعمى لا بد له أن يكون عرضة للتغيرات والتحولات التى تنشأ عن الاختلافات الداخلة فى سيرة الفرد ومزاجه. فالأزمان المتحولة جعلت التغير فيها ضرورياً. ولما استقر بناء الدين على التعقل تحددت زوايا التعبير وضاق مجالها. والتعقل حقيقة كونية بطبيعته، فاذا قبلنا شيئاً مرة واحدة لحقيقته فى ضوء التعقل، لا بد أن يبقى على حقيقته دائماً، وبما أن الاسلام أصر على التعقل ورفع بذلك الحاجة إلى تكرار الكشف عن الحق بالرسالات المتعاقبة المتوالية.

إن خط الدفاع طريف يدعو إلى الاعجاب به كما هو يجتذب الانظار. فلا مشاحة فى القول بأن الحقيقة المنطقية التى تشتمل عليها نظرية هى صحيحة دائماً. وذلك مما يلغى التفريق بين الفكرة والتعبير الذى يحمل هـــذه الفكرة، فمهما كان التعبير أتم وأكمل، إلا أنه لا يشف عن الفكرة على علاتها، وسبب ذلك أنه يحتمل أن يكون مع التعبير بعض الالماعات والخواطر وكذلك بعض الارتباطات والاتصالات التى لا علاقه لها بحقيقة الفكرة. هذا من جهة، أما من جهة أخرى فان الفكرة نفسها يأبى بعض عناصرها أن تتقيـد بقيود التعبير وتسلس قيادهـا للبيان. وكلما تقدمنا فى هذا المضمار تشتد الازمة وتحسم المشكلة من جراء الفرق القائم بين التعبير والايصال، فهل لـنا أن نقتنع بالتعبير عن افكارنا ولو بذلنـا كل ما أوتينا من جهود واستخدمنا كل ما عندنا من عبارات للافصاح عن أفكارنا بأمانة؟ كلا! لأن الايصال التام معناه ارتفاع الفوارق كلها من بين المـوصِل والموصَل. وارتفاع هـــذا الفرق يراد به الشخصية والذاتية التى تقضى عـلى حاجـة الايصال وإمكانيتها. ومن ثمـه فقد وجب لأصدق التصورات العقلية أن يواجه التواء وتعرجاً لا من جهة بل من جهتين: مرة عند التعبير، وأخرى عند

إيصاله إلى الادهان .

وحيث أن الاسلام يدعو إلى التعقل، لا يمكن أن يبرر الرفص لحاحة ماسة إلى التكرار المتواصل لاىرار الحقيقة الأرليـــة ىنفس المطق الدى اقتضى توالى الرسالات لاعلان الحقيقة الـكىرى قىل طهور ىى الاسلام عليه الصلاة والسلام فهو يقتضى ىعده أيضاً أن تكون هاىك بالضرورة عوامل حديدة تقوم ىاصلاح ما فسد فى المجتمع وتقريب ما ىعد عىه . وتأكيده الشديد على التمسك ىالعقل ىدل العقيدة الفارعة قد أحدث تعيراً ىعيد المدى والأثر . فكان الأىبياء السابقون يعتمـدون فى دعوتهم على مطاهر القوه العير المألوفة وىىوا حكمهم عـلى أساس الوحى فقط الدى لم تكن كيفيته فى متناول عقولنا وإدراكنا، أما ىى الاسلام عليه الصلاة والسلام، فقد دعا إلى التفكر والتعقل فى الأمور كلها، وىىى أساس ديىه على المطق والعقل لا على العقيدة العمياء . فقوله ىانقطاع سلسلة الأىبيـاء مع إمكان طهور المصلحين ىعده يؤكد ما تم للعقل البشرى من ىصوح ما ينتهى إليه عصر المعحزات والعقيدة الفارغة العمياء . ومىه يبدأ عصر الانتصارات العلمية

فتأكيد الاسلام على وحدانية الله تعالى كان أساساً لوجهته العلمية كما كان ىنيانا لسجيته الديموقراطية، فكونية العقل تطالب كافة الناس بىفس التصرف فى الطروف نفسها والنوع البشرى كوحود عاقل سواء فى عين الله، فلا فصل لاىسان على اىسان من حيث البشرية . وفتح هده الأخوة والتساوى لكافة الأمة الاسلامية ولا للبشرية كلها إنما يعود سىىه الوحيد إلى أن الارتباطات الـكونية لم تكن قد تمت بعد .

وعلى كل فان الاسلام يعترف ىتصور التساوى بين المسلمين لا فى الـطرية فقط ىل فى الحيـاة التطبيقية أيضاً، فالعمل بتساوى الأقدار البشرية هو عمل فى نفسه جليل ونبيل، حيث أن إخراج هـــذا المبدأ إلى حيز العمل إنما هو ميزة

يفرد بها الاسلام قبل غيره من الأديان، لأن كل دين يعترف بمدأ أبوة الله وأخوة البشرية. وذلك إلى حد التصور فقط، أما ما يتعلق بتطبيقه على معاملة الحياة اليومية. فهذا مما لم يتم إحاره وبقيت الأبوة الآلهية موصوعاً نظريا لا يتعدى حدود العقيدة فقط، وليس له أى تاثير فى السلوك الانسانى. ففوارق اللون والنسل، وحواجز الفقر والثراء كانت قد أوهنت جميع عرى الأخوة الانسانية إلى حد لا يوصف

حتى جاء الاسلام، ولم يكن لأعدى أعدائه إلا أن يعترف بأنه قد ألغى جميع الفوارق القائمة على أساس اللون والنسل وعلى قاعدة الفقر والغنى بين المسلمين ونجح كل النجاح فى تطبيق مبادئه الانسانية على أتباعه على الأقل. ولم يكن هذا التساوى فى نطاق العادات بل عم جميع مظاهر الحياة الانسانية فصار النوبيون السود من بلاد أفريقية الحالكة السوداء يتمتعون بالتساوى فى حياتهم مع المتغطرسين من قريش، أو مع الآريين ذوى العيون الزرق، وذوى الآباء والأئمة المؤمنين بعدم التساوى فى الحقوق البشرية، فذهب الاسلام بكل كبريائهم ومسح جميع مظاهر الجاهلية

ويقول « برناردشا » وهو صادق فى قوله مع الوجود الانتقاض فيه، إن الاختبار الحقيقى للديموقراطيــة يقع فى تبادل روابط المصاهرة بين الأجنــاس البشرية المختلفة فإن ظهور التساوى فى العادات والمناسك لا يعتد به لأن مجرد ارتداء الملابس الطقسية فى المناسبات الدينية لا يدل على وجود المساواة الحقيقية. وكذلك تلك المماثلة السياسية والاقتصادية التى تبدو مساواة للعيان لا تغنى عن الحق شيئا فإن أمثال هــذه المظاهر ليس وراءها شىء من الواقعيــة. وما ظنك بأناس يجلسون على مائدة الغداء ويظهرون كأنهم إخوان متساوون فى الأقــدار فهل يدل ذلك عــلى وجود مبدأ شامل يعمهم؟ كلا، بل ربما يكون مثل هــذه

المظاهر خداعة ماكرة، إنما المحك الحقيقي هو اتصال الصلات الرحمية وتبادل الزواج على نطاق أوسع، وهذا اختبار لا تتسرب إليه الحيل ولا تتطرق إليه المكائد، وقد اتخذ الاسلام ذلك وسيلة إلى محق الكبرياء وقطع دابرها حيث قال لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بدين وتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، فحطم بذلك جميع الفوارق والحواجز بين إنسان وإنسان

وحيث أن الاسلام ينزل الحقيقة التجريدية منزل الشرف والاحترام، صار ذلك سبباً آخر لاهتمامه بمبدأ المساواة الانسانية امام الله والمجتمع. إن تصور الحياة الأخروية الخالدة يجعلنا نتحمل كل ازدراء وحطة فى حياتنا الدنيا، وإذا كانت الحياة الدنيا ذات أهمية فائقة فيجب على الفرد أن يحقق كرامته فى هذه الحياة الدنيا. وهذا مما يوضح أن الطبقة الكهنوتية ليس لها وجود فى الاسلام.

وقد شهد العالم فى الزمن الغابر أن الأنظمة الدينية والاجتماعية السائدة آنئذ كانت أزمتها فى أيدى الكهنة الذين يديرون دفتها حسب أهوائهم ويجعلون أنفسهم وسطاء بين الله وعباده. فكانوا بصفتهم هذه يكسبون القوة والاقتدار فى هذا العالم المادى، فكانت سلطتهم على الناس أكثر مما يسدونه من الخدمات نحو الانسانية. وكان هؤلاء هم المصدر الوحيد لكل علم ومعرفة. وهم الذين يستأثرون على ما سواهم بمعرفة الشعائر والطقوس الغامضة الخفية التى يمكن بواسطتها استرضاء تلك القوى المستورة التى تحكم على مصائرنا. فبهذا الطريق كان أولئك الكهان يتمتعون بسلطة على مصائر الناس مطلقة لا يسألون عنها وإذا كانت السلطة المحضة مما يؤول إلى انتشار الفساد، فما طلك بالسلطة المطلقة التى لا تقع تحت مسؤولية ما، ولا بد أن تفضى مثل هذه الزعامة الكهنوتية إلى «اوليجرشية» (Oligarchy) محافظة قائمة على البغى والاستبداد. فالاسلام رفع شأن الفرد وأعلى منزلته، وحرر رقبته، وخلصه من نير الاستعباد الفكرى الصال بالغاء هذه

الطبقة الكهنوتية وإزالتها من بين المجتمع البشرى.

وحيث أن الاسلام يحث على الديموقراطية، فقد وجد تعبيراً شرعياً لكل ما جاء به من الابداعات الفكرية التى فرضها على المجتمع في مقدمة ما اتحفنا به الاسلام هو الاعتراف بحقوق المرأة الشرعية التى كانت مغصوبة منذ أزمان سحيقة فى القدم، فقد حان الوقت أن تملك المتاع بصورة قانونية والأنظمة الدينية والاجتماعية السائدة قبل الاسلام كانت تخول المرأة مكانة أدبية ومنزلة روحية ممتازة بيد أنها لا تقر لها بالاستقلال الاقتصادى الذى أقامه الاسلام. فكانت قبل الاسلام لا تصلح أن تكون لها ملكية، وهذا ما جعل وجودها فى الدرك الاسفل من المجتمع، ولم تعد لها مكانة فى القانون المدنى. ومع أن الاسلام لا يمنح المرأة نفس الحقوق التى منحها للرجل، إلا أن هذا الاعتراف بحقوقها هو أول ثغرة فى صرح الامتياز الذى كان الرجل يتمتع به حتى الآن فاعتراف الاسلام بمكانتها الاقتصادية المستقلة يسجل انتصاراً للديموقراطية باهراً على اختلاف الجنسين.

وقد اعترف الاسلام كذلك بأنه ليس هناك شىء أشد خطراً للتضامن الاجتماعى من الجور الاقتصادى المستمر. وعدم مراعاة العدل فى توزيع الثروة انما هو السبب الوحيد، لما يوجد فى المجتمع من اضطراب وتبرم، وإذا استمر هذا الجور الاقتصادى سينتج على انقسام المجتمع على طبقات تنتهى إلى طوائف مختلفة وقبائل متنابذة إذا لم تعالج بالعائها وإبطالها فى أوانها. وهناك طريقتان ممكنتان لمنع مثل هذه التطورات المشؤومة: أحداهما الغاء الملكية الشخصية ونزعها من الأيدى التى تقبض عليها، وقد اختارت الشيوعية نفس هذه الطريقة فكراً وعملا والطريقة الثانية المتبادلة هى وضع حد لتراكم الثروة وتكدسها وتضييق المجال لها حتى لا تطمئن فى مستنقعات شخصية بل تستمر فى دورانها بين المجتمع. وهذا هو

المذهب الأخير الذى سلكه الاسلام لضمان العدل الاقتصادى

وكثيرا ما ينتقد الفقهاء على قانون الارث الاسلامى لميله إلى الاسراف فى تقسيم الأملاك، ولجحه إلى التعبير المتواصل فى أوضاع النطاق الاجتماعى ويضرب بالعربية مثل معناه، أن المسلم إذا مات ترثه حتى قطته. هـذا الميل إلى التقسيم المطرد للأملاك يؤدى بالتدريج إلى تقليل ثروة الغنى الكسول، هو نتيجة لسياسة حكيمة مدبرة، وتهدف هذه السياسة إلى منع الأملاك من بقائها فى أسرة واحد. فالقانون الاسلامى يقوم مقام عامل عدل يمنع دخلا غير مكسوب من النمو. كما هو فى الوقت نفسه أداة للاحتفاظ على سيولة الكيان الاجتماعى، وذلك بالتوزيع المتواصل للثروات العائلية

وكانت الاداة الثانية لدوران الثروات الشعبية، نظام الزكاة. ونظام الزكاة أو الدفع الالزامى إلى بيت مال الأمة، هو أداة ثانية تضمن للثروة الشعبة أو دورانها والنظرية التى تفرض على الاغنياء مساهمتهم فى المصالح الاجتماعية ليست بجديدة. وما اضافت الزكاة إليها من جديد لا يتعدى عن فرض هذا الدفع. ولا تقل منه أهمية نظرية ربط هذا الدفع إلى عين مال المعطى وإن نسبة الاثنين والنصف فى المائة لما يدفع على سبيل الزكاة تتراأى لنا ضئيلة جداً فى سنة ١٩٤٨، لأنها فرضت منذ ثلاثة عشر قرناً. وليست هذه كلمات فحسب وإنما هى حقيقة ثابتة. إن نظام الزكاة مع قانون الارث يجاهد ضد ركود الأموال فى مستنقعات الأسرة، وتخلصها من أغلال العائلات والأرباح المستثمرة.

وقــد سبقت الاشارة إلى التوسيع فى أمر الزواج والمصاهرة بين العشائر والشعوب المختلفة الذى أباحه الاسلام لأتباعه. وهذا كما رأيناه من قبل اختبار للديموقراطيـة وضمان لها ونظـام الزكاة والارث الاسلامى يرمى إلى نفس الهدف. ولا يمكننا غض النظر عن أهمية ما قام به الاسلام من إلغاء الألقاب

العائلية والاعتزاز بالاحساب، من حيث كونه وسيلة لفرض المساواة بين الشعب وإنعدام التساوى بين الثروة يؤدى إلى انقسام الأمة على طبقات ويمكن تقليل هذا الميل بإزالة الموجبات التى تسبب الامتياز على الدوام. وذلك بالقضاء عليها قضاء كلياً والألقاب العائلة هى من الحوافز القوية على المباهات بالأحساب، فهى تنزل الفرد فى المجتمع مكانة لا تتفق ومؤهلاته الشخصية، وإنما أحرزها بمجرد أنه ولد فى عائلة تتمتع بالسلطة على البنية الاجتماعية، فالغاء هذه الألقاب العائلية يمحو هذه المعالم كلها، وهو يجنح إلى تركيز اهتمامه على ذات الفرد نفسه وقد سبق البيان للمماثلة القريبة التى توجد فى تصورات العلم والديموقراطية والاسلام، وما من شك فى أنها تختلف فى الاهتمام بالنواحى المختلفة لهذا التصور وهذا الاختلاف بالاضافة إلى أن المبادى الأساسية طالما لا تنتج إلى نتائج منطقية، يكون سبباً للتأخر الذى يقع فى مظاهرها.

ومهما كان الأمر فلا بد من اعتبارها حركة مشتركة للفكر البشرى، يتعاون فيها دوافع تعميم الوحدة مع تقدم إثبات أهمية الفرد. وأما علاقة الكائنات بالفرد فهى مسألة تهم الفلسفة والعلم والديموقراطية على السواء، وكلها تحاول معالجة هذه المسألة بطرقها المتقاربة.

المجلس الهندى للروابط الثقافية

للأستاذ إنعام الرحمان خان، سكرتير المجلس

اتخذت الحكومة الهندية فى عام ١٩٤٩ قراراً باقامة مجلس هندى للروابط الثقافية، فكان ذلك اعترافا منها من جانبها فى حينه بالأهمية المتزايدة التى بدت فى عهد الاستقلال والسيادة لاقامة روابط ثقافية، وإحلال تفاهم أعم وأوثق بين الهند والبلدان الأخرى. وفى اليوم التاسع من شهر نيسان عام ١٩٥٠ تولى المستر جواهر لال نهرو رئيس الوزراء مهمة تدشين هذا المجلس فى حفلة أقيمت تحت رعاية مولانا أبى الكلام آزاد وزير المعارف الهندية الذى أصبح فيما بعد أول رئيس للمجلس المذكور.

ومع أن هذا المجلس يعتمد فى تمويله كليا على الاعانات التى تقدمها الحكومة الهندية إلا أنه يعمل كهيئة مستقلة. أما أعضاؤه الثلاثون فلا يتقاضون راتبا عن الخدمات التى يؤدونها. والعادة أن يتولى الرئيس ترشيح هؤلاء الاعضاء واختيارهم من بين الشخصيات التى برزت فى مختلف الميادين الثقافية. ويختار إثنان منهم لتمثيل الجامعات الهندية، وآخران لتمثيل اللذين الذين يؤلفان الفروع الاقليمية التى أقامها المجلس، وهناك مندوب لكل معهد من المعاهد الثقافية والتعليمية المختلفة فى البلاد ممن تعترف بها الهيئة الادارية للمجلس لهذا الغرض.

أما الهيئة الادارية فقوامها خمسة عشر عضوا، وهى تضم الرئيس وثلاثة من يشغلون مناصب الرئاسة سنويا، وهؤلاء هم المستر آشاريا كاكا كاليكار، والأستاذ همايون كبير من أعضاء البرلمان، والمستر ك. علام السيدين مستشار الحكومة الهندية للشئون التعليمية. أما الرئيس ونائبه الثلاثة فهم يتولون مناصبهم بصورة

لفترة لمدة ثلاثة أعوام قابلة للتجديد. ويمارس المجلس أعماله عن طريق الهيئة الادارية وعدد من اللجان كاللجنة المالية، ولجنة النشر، واللجنة العاملة، واللجنة المؤقتة وغيرها من اللجان التى يستتب المجلس إقامتها من وقت إلى آخر.

أما الغرض الذى أنشأ من أجله هذا المجلس كما نصت عليه أحكام دستوره فهو إقامة روابط ثقافية بين الهند والبلدان الأخرى والعمل على إنعاش هذه الروابط وتعزيزها، وسعيا منه لتحقيق الاهداف التى يتوخاها. فان المجلس قد عمد إلى نشر المعارف والثقافة الهندية فى البلدان الأخرى ومساعدة هذه البلدان على تفهم هذه الثقافة والعرفان وهضمها على وجه أعم وأوسع هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فان المجلس يعمل على تشجيع إقامة مناقشات تدور فى الهند حول ثقافات البلدان الأخرى ونواحى عرفانها. وقد وزع المجلس النشاط والأعمال التى يقوم بها فى الوقت الحاضر على ما يزيد عشرة شعب — أربعة منها خرجت إلى حيز الوجود عندما تم تأسيس المجلس. وهذه الشعب هى الشعبة المختصة بشئون منطقة غربى آسيا، والأخرى المحيطة بشئون جنوب شرقى آسيا، فثالثة للشئون الايرانية. أما الرابعة فتتألف من مكتبة وغرفة المطالعة الملحقة بها وقد تسنى للمجلس منذ ذلك الحين أن يضم إلى دوائره ست شعب أخرى من بينها شعبة الطلبة، والشعبة الأفريقية، وشعبة منطقة الكريبان.

وهى التى تم تأسيسها فى أعوام ١٩٥٣ و ١٩٥٤ و ١٩٥٥ على التتابع. أما الشعب الثلاثة الأخرى، فهى شعبة النشر، وشعبة الشئون الأوروبية، والثالثة للشئون الأمريكية. فقد خرجت إلى حيز الوجود فى السنة الحالية. وفى نفس هذا العام أيضا أعيد تسمية الشعبة الايرانية بحيث أصبحت تعرف بشعبة اللغة والثقافة الايرانية، وقد أقدم المجلس على هذا الاجراء فى محاولة منه لتوسيع نطاق الشعبة بحيث تضم البلدان الأخرى المشمولة بهذه المنطقة، والتى تأثر سكانها بالثقافة الايرانية.

وقد يتعذر علينا وأهداف المجلس على ما هى عليه من التعدد والشمول أن نحدد نطاق النشاط الذى يقوم به المجلس ولما كانت العلاقات الثقافية تقوم فى الدرجة الأولى على إحكام الاتصال بين الأفراد أكثر منه بين الحكومات، فان المجلس يسلم أن من أولى واجباته الاعتراف بأى نشاط من شأنه أن يدعم الاتصالات الشخصية ويعززها، مع العمل فى نفس الوقت على أن يؤدى هذا النشاط بكليته إلى عكس صورة عادلة شاملة عن الهند فى البلدان الأخرى وبالعكس.

ومن بين النشاط المتعدد الذى يقوم به المجلس تنظيم عمليات تبادل العلماء وكبار رجال الفكر والطلبة مع البلدان الأخرى، والاحتفاظ بمقاعد لتدريس الشئون الهندية فى مختلف الجامعات، وتعيين الأساتذة والمحاضرين لتدريس اللغة الهندية فى الخارج، وأهداء المؤلفات، والافلام الهندية للبلدان الأجنبية، وإقامة الحفلات لاستقبال كبار الضيوف والزوار الذين يفدون على البلاد والاحتفاء بهم. ومن ناحيـة أخرى يعمل المجلس إما منفردا أو بالتعاون مع المنظمات الأخرى، لعرض الأفلام الهندية وإقامة المعارض وتنظيم حلقات دراسة، كما يشرف على مهمة استقدام البعثات الودية من البلدان الخارجية وايفاد البعثات الودية الهندية إليها، ومن ذلك ما حققـه المجلس من استقدام بعثـة ودية من يوغسلافيا قامت بزيارة الهنـد فى شهر آذار من عام ١٩٥٦. وتستعين الحكومـة أحيانا بالمجلس كأداة لتنفيذ أحكام الاتفاقيات الثقافية القائمة بين الهند والبلدان الأخرى

وقد تسنى للمجلس بفضل برامج النشر أن يحقق الأغراض التى يتوخاها. ومن برامج النشر هذه اصدار مجلتين كل ثلاثة أشهر: إحداهما باللغة العربية وتعرف ثقافة الهند والأخرى بالانكليزية وتعرف بمجلة الثقافة الهندية الآسيوية. ويشرف المجلس فى نفس الوقت على اصدار مجلة ثالثة باللغتين الايرانية والانكليزية تعرف بالمجلة الهندية الايرانيـــة. ويقوم بتوزيع أعداد كثيرة من هـذه المجلات على

المكاتب والمعاهد التربوية والثقافية ورجالات الفكر والأدب فى جميع أنحاء العالم.

وعلاوة على ذلك كله يشرف المجلس من آن إلى آخر على نشر بعض الوثائق والمخطوطات، وغير ذلك من مؤلفات قيمة عن الهند، كما يشرف أيضا على وضع ترجمات باللغات الأجنبية لمقتطفات من روائع الأدب الهندى، ونشر المؤلفات والكتب الصغيرة التى تعالج مواضيع تتصل بميادين الثقافة الهندية المختلفة. وهناك مشروع قيد الدرس لتوحيد وربط برامج النشر ودعمها، ومن المحتمل أن يقوم المجلس بتنفيذ هذه المهمة فى المستقبل القريب

أما مهمة رعاية مصالح الطلبة الأجانب الذين يتلقون العلم فى المعاهد الهندية والسهر على راحتهم فتشكل جزءاً هاما من أعمال المجلس، وقد عهد المجلس بهذه المهمة إلى الشعبة المختصة بشئون الطلبة الأجانب. وهذه الشعبة تضطلع بواجباتها وفقا لتوجيهات الحكومة الهندية وإرشاداتها، وبالتعاون مع معاهد الدراسات العالية المختلفة فى البلاد وتعتبر عملية تنظيم المخيمات الصيفية للطلبة والحلقات الدراسية والندوات الاجتماعية من بين الأعمال التى تقوم بها هذه الشعبة بصورة منتظمة.

وقد أخذ المجلس على عاتقه مؤخرا مسؤلية تنظيم دراسات أو فصول توجيهية ترمى إلى مساعــدة الطلبة الأجانب على التعرف والالمام بمختلف نواحى الحياة الهندية، وذلك فى مختلف المراكز. وسعيا من المجلس لتسهيل مهمة هـذه الشعبة فانه علاوة على ما قام به من تعيين موظف مركزى لشئون الطلبة، فقـد بادر أيضا إلى تعيين موظفين أقليميين للمناطق الغربية والشرقية والجنوبية. واتخذ من كلكتا وبومباى ومـدراس مقرا لهم. وتنحصر مهمة هؤلاء الموظفين سواء فى المراكز والأقاليم فى رعاية شئون الطلبة الأجانب طيلة إقامتهم فى البلاد للدراسة. وبعبارة أخرى فانهم يعملون على نشر وترويج الأهداف التى يتوخاها المجلس فى المناطق المختلفة التى تقع ضمن نطاق اختصاصهم.

وتضم مكتبة المجلس ما يقارب ٨٠٠٠ مؤلف، تبرع بالقسم الأعظم منها مولانا أبو الكلام آزاد من مجموعة الكتب والمؤلفات النفيسة التي يقتنيها ويراعى المجلس عند تخيره كتبا جديدة تضم إلى المكتبة من حين إلى آخر، أن تكون للمكتبة مجموعة شاملة من هذه الكتب والمؤلفات بحيث لا تمثل النواحى الثقافية والاجتماعية فى الهند فحسب، بل وفى البلدان الأخرى. وتتلقى مكتبة المجلس بدورها عددا من الصحف والمجلات من مختلف البلدان، وتتبادل مع هذه البلدان بعض المجلات والصحف التى تصدر فى الهند.

وإنه لمن دواعى اغتباطنا أن نزف إلى القراء نبأ تغلب المجلس عما قريب على عقبة افتقاره لمبنى خاص به، وهى العقبة التى اعترضت سبيله طيلة هذه الأعوام. وسيباشر عما قريب فى إقامة هذا المبنى الذى سيراعى فى تصميمه توفير جميع وسائل الراحة الضرورية للاعمال والواجبات التى يضطلع بها وسيقام المبنى الجديد على قطعة من الأراضى التابعة لأملاك اندربرستا Indraprasta الواقعة فى دلهى. ومن المقرر أن يكون جاهزا فى بحر عام واحد.

وإنا إذ نقدم لقرائنا هذه الخلاصة عن أعمالنا، فانما يحدونا الأمل بأن نوفق فى هذه العجالة إلى اعطائهم فكرة عن الجهود التى يبذلها المجلس لاحلال التفاهم وأشعاع حسن النية بين أمم العالم أجمع.

من أخبار الهنـد الثقافيـة

عقدت الهيئة التعليمية الثقافية العلمية للأمم المتحدة (اليونيسكو) فى ٥ أكتوبر سنة ١٩٥٦ دورتها التاسعة، فى نيو دلهى واستمرت الاجتماعات لشهر كامل. وكان لها أثر بالغ فى حياة العاصمــة الهندية. وما أصدق ما سمى هـذا الشهر « شهر اليونيسكو » فقد حضر من الدول الأجنبية مندوبون ذوو الشهرة العالمية، وألقى بعضهم محاضرات علمية قيمـــة فى عدة معاهد الهند الثقافية والتعليمية. وأقيمت احتفالات اجتماعية، ومعارض فنية وأدبية بهذه المناسبات تكريما للضيوف وترحيبا بهم

وبلغ الجو العمومى من الروعة غايتها بانعقاد حفلة للمذاكـرة فى موضوع البوذية (Buddhist Symposium) تحت رعاية اليونيسكو فبعث فى العامة روحا جديدة حماسية

وانتهزت الطائفة الجينية بدورها الفرصة الذهبية، فبادرت إلى إقامة اجتماع حول الجينية والسلام العالمى (Symposium on Jainism and world peace)

وتكرم رئيس وزراء الهند، البانديت جواهر لال نهرو، فتولى افتتاح الدورة. ولم يكن قط فى التاريخ اليونيسكو أن عقد اجتماعها العمومى فى حين تتراكم أشباح من حوادث ربما تفضى إلى حرب عالميـــة أخرى، ومن أجل هذا لم تتجنب دورتها الصبغة السياسية التى امتزجتها حينا لحين، ولو أنها منظمة ليست سياسية، وذلك أن عالم الأدب والعلم والثقافة لا يمكن أن يخطو خطوة فى سبيل التقدم عندما تحـــدق الأخطار بالحريات والسيادات القومية الجائرة وتهـددها بالفناء. وأعتنى رئيس وزراء الهند لذلك بمعالجة المشاكل السياسية الحامية اليوم.

وانتخب فخامة مولانا أبو الكلام آزاد وزير المعارف الهندية ورئيس مجلس الهند للروابط الثقافية، رئيسا عاما لهذه الدورة، وألقى فيها خطابا هاما له أهمية وقيمة تاريخية، نشرنا ترجمته فى مكان آخر من المجلة

ومن أهم الأعمال المتكاثرة التى أقرتها اليونيسكو فى هذه الدورة هى.

(١) مشروع نشر مختارات من مؤلفات المهاتما غاندى
(٢) « بذل الجهود فى تحسين العلاقات بين الثقافة الشرقية والغربية وتقديرها
(٣) « نشر التعليم الابتدائى فى أمريكا اللاتينية
(٤) « إجراء البحوث العلمية فى المناطق القاحلة المجدبة.

* * *

أقيمت فى دلهى حفلة تذكارية بمناسبة مرور ٢،٥٠٠ عام على بودا وامتازت هذه الحفلة باحتفالات شعبية رائعة، حضرها الشخصيات الكبار، ورجال العلم والأدب، وألقوا فيها المحاضرات، منهم الدكتور راجندر پرشاد رئيس الجمهورية الهندية، والپانديت جواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند، ودلاى لاما، وپانشن لاما مدونا تنت، والمستر يو نو مدوب برما. وأقيمت بهذه المناسبة عدة معارض للفن البودى فى الهند وغيرها. كما أقيمت حفلات الرقص والموسيقى، وعرضت أفلام ومثلت تمثيليات ألقت الضوء على رسالة بودا فى حياته.

* * *

ألقى الدكتور رادها كرشنن خطابا فى معهد بيربل سهانى لدراسة النبات المتحجرة بلكناؤ. فقال إن ما زعمه كارل ماركس، وجورج برنارد شا من توقف التقدم على مبادىء التطور، نظرية لا تخلو من النظر فيها، فهما خطأ أساسى وهو أننا نؤمن بالتجانس بين التاريخ البشرى والتاريخ النباتى وهما شيئان متباينان، فإن التاريخ البشرى ليس باستمرار تسويفى (Protractive Continuity) وذلك من

أحل تغيرات دورية وخفائية (Cataclysm and Revolutionary Changes) وإنما يتوقف التقدم البشرى على سلوك البشر نحن، فاذا انحط المجتمع البشرى فهو من عندنا لا من خطأ صدر من الله.

* * *

وضع الدكتور راجندر برشاد رئيس الجمهورية الهندية فى دلهى حجراً أساسيا لمبنى جديد لمجمع الثقافة الهندية الدولى، وكان مستقر هذا المجمع من قبل فى ناجبور، وافتتح الدكتور كذلك «ساتا بيتاكا» وهو مجموعة السجلات التاريخية التى يعتنى بها المجمع لتقديم صورة كاملة عن التيارات المتعددة التى عبرت بالأفكار الهندية الآسيوية. ويقتنى المجمع المواد من المخطوطات والأعمال الفنية، وصور الأمكنة التاريخية التى تمكنه من إنجاز مهمته، ويساعده فى هذا العرض الاخصائيون من الدول المختلفة.

* * *

عينت الحكومة الهندية لجنة من جهابذة اللغة السنسكريتية تحت رئاسة الدكتور سونيت كمار شترجى، للنظر فى الوسائل التى تساعد على تعميم هذه اللغة على أحسن وجه، وفى التعبيرات اللازمة فى سبيل رفع مستوى التعليم لهذه اللغة بمزيج من الطرق التقليدية والعصرية وغيرها.

* * *

قدمت الجمهورية الصينية إلى الحكومة الهندية أربعين قطعة من الخزف الملون الصينى. وذلك كنماذج من الثقافة الراقية التى ازدهرت فى الصين منذ خمسة آلاف سنة.

* * *

عينت وزارة المعارف الهندية عالمين روسيين — المستر فى أين شوميلوف من

رجال مصلحة المحفوظات الحكومية المركزية الروسية والمستر فى. ماكساكوف من معهد موسكو الحكومى للمحفوظات التاريخية عضوين مراسلين للجنة السجلات التاريخية الهندية. ومن وظائف اللجنة اقتناء المواد الحقيقية للتاريخ الهندى. والاحتفاظ بها بطرق علمية عصرية ونشرها بالتالى.

* * *

زار روسيا وفد هندى متكون من رجال التعليم برئاسة الأستاذ همايون كبير أحد أعضاء البرلمان، ليدرس النظم الروسية للتعليم فى مراحله المختلفة.

* * *

وقعت الحكومتان الهندية والايرانية معاهدة لتنمية العلاقات الثقافية بين البلدين، وتنص المعاهدة على إنشاء وتوسيع الروابط الثقافية والتعاون المتبادل بين البلدين، بكل ما يمكن ولا سيما فى حقلى العلم والتعليم وتقوم الحكومتان طبقا للمعاهدة بتبادل أساتذة الجامعات وأعضاء المعاهد العلمية والثقافية، وتساعد كل منهما الطلبة وتوفر عليهم وسائل ما تسهل لهم دراساتهم فى دولة أخرى، كما تحتوى المعاهدة على تدريب موظفى إحدى الحكومتين ورجالها فى المعاهد العلمية والفنية والصناعية التابعة لدولة أخرى.

* * *

جاء فى التقرير السنوى لمصلحة الآثار الهندية لعامى ٥٦ - ١٩٥٥:

١ أن التنقيبات فى باتالى بترا (مدينة بتنا الحالية فى مقاطعة بهار)، لم تجر الآن إلا فى منطقة محددة. لكنها كشفت عن عاديات وشواهد ثمينة، منها حطامة لا يستبعد أن تكون من عاصمة أشوكا ذات العمد، وهذه الحطامة معطاة بالرماد والفحم والجير، وتمثل الاحتلال الموري الذى قضى عليه حريق، كما تدل على أن مدينة باتالى بترا أصابها الحريق قبل القرن الأول ق م.

٢ أجريت التنقيبات فى موقع دير «عوشى ناراما» فى كوسامبى (بالقرب من إله‌آباد)، ودلت على أن المكان ما زال مأهولا منذ القرن السادس ق. م. حتى القرن السادس، م. عنــدما دمره هوناس و تورامانا، وتشكل الدير خلال هـذه القرون بأشكال بنائية مختلفة يبلغ عددها إلى ١٦ شكلا، وكان فى شكلـه الأخير يحتوى على فناء مربع الزوايا تحططـه حجرات صغيرة، وفى الجهة الداخلية شرفة تحيط بالقبة الرئيسية (استوبا) المبنية ٥٠٠ ق. م. وعدة قباب (استوباهات) أخرى صغيرة. وكان البناء كله محاطا بسور.

٣ والتنقيبات التالية فى باجرجوباجوبدا (مقاطعـة اندهرا)، كشفت عدة أديرة أخرى وقباب (استوباهات)، ونماذج بنائية أخرى فى حدود القصر، وسرادق، ومما يذكر أن ما اكتشفت فى هذه التنقيبات من الوثائق تحمل — بجانب الملك سرى ورما — اسم «رودرا بروساداتا» لملك آخر من عائلة أكساكا.

٤ وتقول الأنباء أن معبدا من معابد القرن التاسع الميلادى اكتشف فى مرزا پور، (مقاطعة اترابرديش) وكان المعبد على جمال وبدهيا، يقوم بمهابة وفخامة، ووجدت تماثيل كثيرة لآلهة الهندوسيين.

* * *

مجلس الهند للروابط الثقافية

اجتمعت اللجنــة المنتظمة لمجلس الهند للروابط الثقافية تحت رئاسة صاحب المعالى مولانا أبى الكلام آزاد وزير المعارف الهندية ورئيس المجلس، وقدم المستر إنعام الرحمان خان سكرتير المجلس تقريرا عن أعمـال المجلس من شهر مايو لغاية شهر نوفمبر.

THAQĀFATU'L-HIND

(INDIAN CULTURE)

PUBLISHED QUARTERLY

in

MARCH, JUNE, SEPTEMBER and DECEMBER

CONTENTS

	Subjects	Contributors	Page
1	The Cultural Traces of Islam in India		2
2	Folklores of "Mapla" ..	Mohiaddin Alwaye .	23
3	UNESCO Session in New Delhi .		37
4	Science, Democracy & Islam ..	Translated by Sayyid Abdul Khaliq Naqvi	67
5	Indian Council for Cultural Relations .	I R Khan	91
6	Cultural News of India		96

ANNUAL SUBSCRIPTION Inland Rs 8 Abroad Sh 8 **SINGLE COPY** Rs 2

INDIAN COUNCIL FOR CULTURAL RELATIONS
PATAUDI HOUSE, NEW DELHI 1

PRINTED AT PRESS BY

KHALEEL SHARAFUDDIN, 29 MUHAMMADALI ROAD BOMBAY 3 AND PUBLISHED BY
MR I R. KHAN
SECRETARY INDIAN COUNCIL FOR CULTURAL RELATIONS PATAUDI HOUSE, NEW DELHI 1

THAQĀFAT'UL-HIND

(INDIAN CULTURE)

A QUARTERLY ORGAN OF
INDIAN COUNCIL FOR CULTURAL RELATIONS

DECEMBER 1956